مسائل الرازي وأجوبتها

من

غرائب آي التنزيل

يحتوى على أكثر من مائتى وألف سؤال

تأليف

محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى

من علماء القرن السابع الهجرى

تحقيق وتصحيح

ابراهيم عطوه عوض

المدرس بالأزهر الشريف

ملتزم الطبع والنشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

محمود نصار الحلبى وشركاه - خلفاء

مسائل الرازي وأجوبتها

من

غرائب آي التنزيل

يحتوي على أكثر من مائتي [illegible]

تأليف

محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي

من علماء القرن السابع الهجري

تحقيق وتصحيح

ابراهيم عطوه عوض

المدرس بالأزهر الشريف

ملتزم الطبع والنشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

محمود نصار الحلبي وشركاه - خلفاء

الطبعة الأولى

١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م

التعريف بصاحب الكتاب

هو الإمام الكبير الحافظ العلامة الحجة الثبت صاحب التصانيف المفيدة الشيخ زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر بن عبد المحسن الرازي الحنفي أصله من الري . بلد معروف والنسبة إليه رازيّ . كان عظيم الشأن صاحب تحقيق وإتقان واطلاع كثير حسن السيرة جميل الأثر وحيد عصره بارعا في علوم كثيرة أعجوبة في الحفظ والفهم والذكاء غاية في الورع بصيرا بالعربية إماما في اللغة رأسا في الأدب مع الزهد والولاية والعبادة والانقطاع والكشف .

صنف في التفسير والفقه واللغة والوعظ ، وكان ثقة مأمونا .

زار مصر والشام ، وكان في قونية سنة ٦٦٦ هـ وهذا آخر العهد به .

وتوفي رحمه الله في ذلك العام ، فيكون من أعلام القرن السابع الهجري على ما حققناه .

مؤلفاته

١ ــ الذهب الإبريز في تفسير الكتاب العزيز .

٢ ــ روضة الفصاحة في علم البيان والبديع .

٣ ــ مختار الصحاح في اللغة . فرغ من تأليفه ليلة أول رمضان سنة ٦٦٦ هـ .

٤ ــ شرح المقامات الحريرية . غير مطبوع ، منه نسختان بدار الكتب المصرية .

٥ ــ تحفة الملوك . وهو مختصر في العبادات مشتمل على عشرة أبواب ، بدأها بالطهارة ثم الصلاة ثم الزكاة ثم الصوم ثم الحج ثم الجهاد ثم الصيد والذبائح ثم بالكراهية ثم بالفرائض ثم بالكسب مع الأدب .

وقد شرح هذا المختصر العلامة بدر الدين محمود بن أحمد العيني سنة ٨٥٥هـ في مجلد واحد سماه « منحة السلوك في شرح تحفة الملوك » .

٦ ــ حدائق الحقائق في الموعظة . وهو مختصر جمعه من الأحاديث والآثار والمواعظ وجعله ستين بابا .

٧ ــ نموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل (وهو هذا الكتاب) .

أهم المراجع

١ ــ تفسير الكشاف ــ للزمخشري .

٢ ــ تفسير أبي السعود .

٣ ــ تفسير الفخر الرازي .

٤ ــ تفسير الطبرسي .

٥ ــ فقه اللغة للثعالبي .

٦ ــ القاموس المحيط .

٧ ــ مختار الصحاح في اللغة للمؤلف .

٨ ــ فهرست البلاغة حـ ٤ ص٣٩٦ .

٩ ــ رسالة مطبوعة : عنوانها : صاحب مختار الصحاح ، حقق فيها وفاة المؤلف . لعبد الله بن مخلص .

١٠ ــ طبقات الحنفية .

١١ ــ معجم سركيس .

فهرس

صحيفة

صحيفة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الفقير إلى رحمة الله ربه ومغفرته : محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى، عفا الله عنه ، وغفر له ولجميع المسلمين:

الحمد لله رب العالمين ، هذا مختصر جمعت فيه أنموذجا يسيرا من أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها ؛ فمنه مانقلته من كتب العلماء إلا أنى نقحته ولخصته ، ومنه مافتح الله تعالى على به بسبب مذاكرة أخ لى من إخوان الصفاء فى دين الله ومحبة كتابه ، وكان صالحا تقيا سليم الفطرة وقاد الذهن ، جامعا لجملة من مكارم الأخلاق وصفات الكمال الإنسانى ، أنعم الله تعالى علىّ بصحبته ومذاكرته فى معانى كتابه ، وكان شديد العناية بها كثير البحث والسؤال عنها ، قد هداه الله إليها وفتح عليه فيها بغرائب لم نسمعها من العلماء ولا رأيناها فى كتبهم ، فحملتنى فكرته القادحة ونيته الصالحة على جمع هذه الصبابة ، وهى تزيد على ألف ومائتى سؤال ، وإن كانت بالنسبة إلى مافى القرآن من العجائب والغرائب كالقطرة من الدماء، والسها من نجوم السماء، ولكن قصدت اختصار هذا الأنموذج منها وتقريبه إلى الأفهام ، ليكثر الانتفاع به ، ولا يهجر لدقته وغموضه .

وأما الأسئلة التى تتعلق بوجوه الإعراب ، وبالمعانى التى هى أدق على الأفهام وأخفى ، فإنى وضعت لها مختصرا آخر ، وأودعته أنموذجا منها أيضا فليطلب ثمة . وبالله أستعين ، وعليه أتوكل ، وإليه أتضرع فى أن يجعل علمى وعملى خالصا لوجهه الكريم ، ويتغمدنى وأخى الصالح بمغفرته ورحمته إنه غفور رحيم .

سورة فاتحة الكتاب

فإن قيل: الرحمن أبلغ فى الوصف بالرحمة من الرحيم بالنقل عن الزجاج وغيره ، فكيف قدمه؟ وعادة العرب فى صفات المدح الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، كقولهم : فلان عالم نحرير ، لأن ذكر الأعلى أولا ثم الأدنى لايتجدد فيه بذكر الأدنى فائدة بخلاف عكسه ؟

قلنا : قال الجوهرى وغيره : إنهما بمعنى واحد كنديم وندمان ، فعلى هذا لايرد السؤال . وعلى القول الأول إنما قدمه، لأن لفظ الله اسم خاص بالبارى تعالى لايسمى به غيره لامفردا ولا مضافا فقدمه ، والرحيم يوصف به غيره مفردا ومضافا فأخره ، والرحمن يوصف به غيره مضافا ولا يوصف به مفردا إلا الله تعالى فوسطه .

فإن قيل: كيف قدم العبادة على الاستعانة ، والاستعانة مقدمة، لأن العبد يستعين بالله على العبادة فيعينه الله تعالى عليها ؟

قلنا : الواو لاتدل على الترتيب ، أوالمراد بهذه العبادة التوحيد ، وهو مقدم على الاستعانة على أداء سائر العبادات ، فإن من لم يكن موحدا لايطلب الإعانة على أداء العبادات .

فإن قيل : المراد بالصراط المستقيم الإسلام أو القرآن أو طريق الجنة كما قيل بالنقل ، والمؤمنون مهتدون إلى ذلك ، فما معنى طلب الهداية لهم بقولهم (اهدنا الصراط المستقيم) إذا فيه تحصيل الحاصل ؟

قلنا : معناه ثبتنا عليه وأدمنا على سلوكه خوفا من سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك ، كما تقول العرب للواقف : قف حتى آتيك ، معناه : دم على وقوفك واثبت عليه ، أو معناه : طلب زيادة الهدى كما قال الله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وقال عز وجل (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) .

فإن قيل : مافائدة دخول «لا» فى قوله تعالى (ولا الضالين) وقوله (غير المغضوب عليهم) والضالين كاف فى المقصود ؟

قلنا : فائدته تأكيد النفى الذى دل عليه غير .

سورة البقرة

فإن قيل : كيف قال (لاريب فيه) على سبيل الاستغراق ، وكم ضال قد ارتاب فيه ، ويؤيد ذلك قوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) ؟

قلنا : المراد أنه ليس محلا للريب ، أو معناه : لاريب فيه عند الله ورسوله والمؤمنين ، أو هو نفى معناه النهى : أى لاترتابوا فيه أنه من عند الله تعالى ، ونظيره قوله تعالى (وأن الساعة آتية لاريب فيها) .

فإن قيل : كيف قال (هدى للمتقين) والمتقون مهتدون فكأن فيه تحصيل الحاصل ؟

قلنا : إنما صاروا متقين بما استفادوا منه من الهدى ، أو أراد أنه ثبات لهم على الهدى وزيادة فيه ، أو خصهم بالذكر لأنهم هم الفائزون بمنافعه حيث قبلوه واتبعوه كقوله تعالى (إنما أنت منذر من يخشاها) أو أراد الفريقين من يتقى ومن لم يتق ، واقتصر على أحدهما كقوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) .

فإن قيل : المخادعة إنما تتصور فى حق من يخفى عليه الأمور ليتم الخداع فى حقه يقال : خدعه إذا أراد به المكروه من حيث لايعلم ، والله تعالى لايخفى عليه شىء فكيف قال يخادعون الله ؟

قلنا : معناه يخادعون رسول الله، كقوله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) وقوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) أو سمى نفاقهم خداعا لشبهه بفعل المخادع .

فإن قيل : كيف حصر الفساد فى المنافقين بقوله (ألا إنهم هم المفسدون) ومعلوم أن غيرهم مفسد ؟ .

قلنا : المراد بالفسادِ الفسادُ بالنفاق وهم كانوا مختصين به .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (الله يستهزئ بهم) والاستهزاء من باب العبث والسخرية وهو قبيح ، والله تعالى منزه عن القبيح ؟

قلنا : سمي جزاء الاستهزاء استهزاء مشاكلة كقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) فالمعنى الله يجازيهم جزاء استهزائهم .

فإن قيل : ما الفائدة فى قوله تعالى (أو كصيب من السماء) ومعلوم أن الصيب لايكون إلا من السماء ؟

قلنا : فائدته أنه ذكر السماء معرفة وأضافه إليها ليدل على أنه من جميع آفاقها لامن أفق واحد ، إذ كل أفق يسمى سماء ، قال الشاعر :

* وَمِنْ بُعْدِ أرضٍ بَيْنَنَا وَسَمَاءُ *

فإن قيل : كيف قال (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) مع أن المشركين لم يكونوا عالمين أنه لاند له ولا شريك له ، بل كانوا يعتقدون أن له أندادا وشركاء ؟ .

قلنا : معناه وأنتم تعلمون أن الأنداد لايقدرون على شيء مما سبق ذكره فى الآية ، أو وأنتم تعلمون أنه ليس فى التوراة والإنجيل جواز اتخاذ الأنداد .

فإن قيل : كيف قال (فاتقوا النار) فعرف النار هنا ونكرها فى سورة التحريم ؟

قلنا : لأن الخطاب فى هذه مع المنافقين ، وهم فى أسفل النار المحيطة بهم ، فعرفت بلام الاستغراق أو العهد الذهنى ، وفى تلك مع المؤمنين ، والذى يعذب من عصاتهم بالنار يكون فى جزء من أعلاها ، فناسب تنكيرها لتقللها ؛ وقيل لأن تلك الآية نزلت بمكة قبل هذه الآية فلم تكن النار التى وقودها

الناس والحجارة معروفة فنكرها، ثم نزلت هذه الآية بالمدينة فعرفت إشارة بها إلى ماعرفوه أولا .

فإن قيل : قوله تعالى (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق) ليسا فعلين متغايرين فينهوا عن الجمع بينهما ، بل أحدهما داخل فى الآخر ؟

قلنا : هما فعلان متغايران ، لأن المراد بتلبيسهم الحق بالباطل كتابتهم فى التوراة ماليس منها ، وبكتمانهم الحق قولهم لانجد فى التوراة صفة محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : قوله (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ، وأنهم إليه راجعون) مافائدة الثانى والأول يدل عليه ويقتضيه ؟

قلنا : قوله (ملاقوا ربهم) أى ملاقوا ثواب ربهم وما وعدهم على الصبر والصلاة، وقوله (وأنهم إليه راجعون) أى موقنون بالبعث ، فصار المعنى أنهم موقنون بالبعث وبحصول الثواب الموعود ، فلا تكرار فيه .

فإن قيل: كيف قال (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) وهم لم يبدلوا غير الذى قيل لهم ، لأنهم قيل لهم قولو حطة فقالوا حنطة ؟

قلنا : معناه فبدل الذين ظلموا قولا قيل لهم وقالوا قولا غير الذى قيل لهم .

فإن قيل : قوله (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) العثو : الفساد ، فيصير المعنى ولا تفسدوا فى الأرض مفسدين ؟

قلنا : معناه ولا تعثوا فى الأرض بالكفر وأنتم مفسدون بسائر المعاصى .

فإن قيل : كيف قال (لن نصبر على طعام واحد) وطعامهم كان المن والسلوى وهما طعامان ؟

قلنا : المراد أنه دائم غير متبدل وإن كان نوعين .

فإن قيل : كيف قال (ويقتلون النبيين بغير الحق) وقتل النبيين لا يكون إلا بغير الحق ؟

قلنا : معناه بغير الحق فى اعتقادهم ، ولأن التصريح بصفة فعلهم القبيح أبلغ فى ذمهم وإن كانت تلك الصفة لازمة للفعل كما فى عكسه كقوله (قال رب احكم بالحق) لزيادة معنى فى التصريح بالصفة ، ولأن قتل النبي قد يكون بحق كقتل إبراهيم ، صلوات الله على نبينا وعليه ولده لو وجد لكان بحق .

فإن قيل: كيف قال (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) وانتقالهم من صورة البشر إلى صوة القردة ليس فى وسعهم؟

قلنا : هذا أمرا إيجاد لا أمر إيجاب ، فهو من قبيل قوله عزّ وجلّ (كن فيكون) .

فإن قيل : كيف قال (عوان بين ذلك) ولفظة بين تقتضى شيئين فصاعدا فكيف جاز دخولها على ذلك وهو مفرد ؟

قلنا : ذلك يشار به إلى المفرد والمثنى والمجموع ، ومنه قوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) وقوله تعالى (وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) وقوله تعالى (زين للناس حب الشهوات) إلى قوله تعالى (ذلك متاع الحياة الدنيا) فمعناه عوان بين الفارض والبكر ، وسيأتى تمامه فى قوله عزّ وجلّ (لانفرق بين أحد من رسله) إن شاء الله تعالى .

فإن قيل: قوله تعالى (وإنّ من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء) كلاهما بمعنى واحد ، فما فائدة الثانى ؟

قلنا : التفجر يدل على الخروج بوصف الكثرة ، والثانى يدل على نفس الخروج : وهما متغايران فلا تكرار .

فإن قيل : ما الفائدة فى قوله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) والكتابة لاتكون إلا باليد ؟

قلنا : فائدته تحقيق مباشرتهم ذلك التحريف بأنفسهم ، وذلك زيادة فى تقبيح فعلهم ، فإنه يقال : كتب فلان كذا وإن لم يباشره بنفسه ، بل أمر غيره به من كاتب له ونحو ذلك .

فإن قيل : التولى والإعراض واحد ، فكيف قال تعالى (ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون) ؟

قلنا : معناه : ثم توليتم عن الوفاء بالميثاق والعهد وأنتم معرضون عن الفكر والنظر فى عاقبة ذلك .

فإن قيل : قوله تعالى (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا) ما فائدة قوله تعالى (ومن الذين أشركوا) وهم من جملة الناس ؟

قلنا : إنما خصوا بالذكر بعد العموم ، لأن حرصهم على الحياة أشد لأنهم كانوا لايؤمنون بالبعث .

فإن قيل : قوله عزّ وجل: (وما أنزل على الملكين) يدل على أن الله تعالى أنزل علم السحر على الملكين فلم يكن حراما .

قلنا : العمل به حرام لأنهما كانا يعلمان الناس السحر ليجتنبوه كما قال الله تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) .نظيره لو سأل إنسان ما الزنا ؟ لوجب بيانه له ليعرفه فيجتنبه .

فإن قيل: قوله تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) كيف أثبت لهم العلم أوّلا مؤكدا بلام القسم ثم نفاه عنهم .

قلنا : المثبت لهم أنهم علموا علما إجماليا أن من اختار السحر ماله

فى الآخرة ، من نصيب ، والمنفى عنهم أنهم لا يعلمون حقيقة مايصيرون إليه من تحسر الآخرة ولا يكون لهم نصيب منها ، فالمنفى غير المثبت فلا تنافى .

فإن قيل : كيف قال (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) وإنما يستقيم أن يقال : هذا خير من ذلك إذا كان فى كل واحد منهما خير ، ولا خير فى السحر ؟

قلنا : خاطبهم على اعتقادهم أن فى تعلم السحر خيرا نظرا منهم إلى حصول مقصودهم الدنيوى به .

فإن قيل : كيف قال هنا (رب اجعل هذا بلدا آمنا) وقال فى سورة إبراهيم صلوات الله عليه (رب اجعل هذا البلد آمنا) ؟

قلنا : فى الدعوة الأولى كان مكانا قفرا فطلب منه أن يجعله بلدا وآمنا ، وفى الدعوة الثانية كان بلدا غير آمن فعرفه وطلب له الأمن ، أو كان بلدا آمنا فطلب له ثبات الأمن ودوامه ؛ وكون هذه السورة مدنية وسورة إبراهيم مكية لاينافى هذا ، لأن الواقع من إبراهيم صلوات الله عليه بلغته على الترتيب الذى قلنا ، والأخبار عنه فى القرآن على غير ذلك الترتيب ، أوأن المكى منه ما نزل قبل الهجرة فيكون المدنى متأخرا عنه ، ومنه ما نزل بعد فتح مكة فيكون متأخرا عن المدنى ، فلم قلتم إن سورة إبراهيم عليه السلام من المكى الذى نزل قبل الهجرة .

فإن قيل : أى مدح وشرف لإبراهيم صلوات الله عليه فى قوله تعالى (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) مع ماله من شرف الرسالة والخلة ؟

قلنا : قال الزجاج : المراد بقوله (من الصالحين) أى من الفائزين .

فإن قيل : الموت ليس فى وسع الإنسان وقدرته حتى يصح أن ينهى عنه على صفة أو يؤمر به على صفة ، فكيف قال (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ؟

قلنا : معناه : اثبتوا على الإسلام حتى إذا جاءكم الموت متم على دين الإسلام ، فهو فى المعنى أمر بالثبات على الإسلام والدوام عليه، أو نهى عن تركه .

فإن قيل : قوله عز وجل (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) إن أريد به الله تعالى فلا مثل له ، وإن أريد به دين الإسلام فلا مثل له أيضا ، لأن دين الحق واحد ؟

قلنا : كلمة مثل زائدة. معناه: فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به، يعنى بمن آمنتم به وهو الله تعالى ، أو بما آمنتم به وهو دين الإسلام ، ومثل قد تزاد فى الكلام كما فى قوله تعالى(ليس كمثله شئ) وقوله تعالى (كمن مثله فى الظلمات) ومثل بمعنى واحد ؛ وقيل الباء زائدة كما فى قوله تعالى (بجذع النخلة) أى مثل إيمانكم بالله أو بدين الإسلام .

فإن قيل : كيف قال (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) وهو لم يزل عالما بذلك ؟

قلنا : قوله لنعلم : أى لنعلم كائنا موجودا ماقد علمناه أنه يكون ويوجد ، أو أراد بالعلم التمييز للعباد كقوله تعالى (ليميز الله الخبيث من الطيب) .

فإن قيل : كيف قال (فلنولينك قبلة ترضاها) وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن راضيا بالتوجه إلى بيت المقدس ، مع أن التوجه إليه كان بأمر الله تعالى وحكمه ؟

قلنا : المراد بهذا الرضا المحبة بالطبع ، لارضا التسليم والانقياد لأمر الله تعالى .

فإن قيل : كيف قال (وما أنت بتابع قبلتهم) ولهم قبلتان لليهود قبلة وللنصارى قبلة ؟

قلنا : لما كانت القبلتان باطلتين مخالفتين لقبلة الحق ، فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبلة واحدة .

فإن قيل : كيف يكون للظالمين من اليهود أو غيرهم حجة على المؤمنين حتى قال (لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم) ؟

قلنا : معناه إلا أن يقولوا ظلما وباطلا ، كقول الرجل لصاحبه : مالك عندى حق إلا أن تظلم أو تقول الباطل ؛ وقيل معناه : والذين ظلموا منهم فإلا هنا بمعنى واو العطف كما فى قوله تعالى (إنى لا يخاف لدىّ المرسلون إلا من ظلم) وقيل إلا فيهما بمعنى لكن . وحجتهم أنهم كانوا يقولون لما توجه النبي عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس : ما درى محمد أين قبلته حتى هديناه ، وكانوا يقولون أيضا : يخالفنا محمد فى ديننا ويتبع قبلتنا ، فلما حوّله الله تعالى إلى الكعبة انقطعت هذه الحجة ، فعادوا يقولون : لم تركت قبلة بيت المقدس ؟ إن كانت باطلة فقد صليت إليها زمانا ، وإن كانت حقا فقد انتقلت عنها ، فهذا هو المراد به بقوله تعالى (إلا الذين ظلموا منهم) وقيل المراد به قولهم : ماترك محمد قبلتنا إلا ميلا لدين قومه وحبا لوطنه ، وقيل المراد به قول المشركين : قد عاد محمد إلى قبلتنا لعلمه أن ديننا حق ، وسوف يعود إلى ديننا ، وإنما سمى الله باطلهم حجة لمشابهته الحجة فى الصورة كما قال الله تعالى (حجتهم داحضة) أى باطلة ، وقال (فرحوا بما عندهم من العلم) .

فإن قيل : ما الفائدة فى قوله (ولا تكفرون) بعد قوله (واشكروا لى) والشكر نقيض الكفر ، فمتى وجد الشكر انتفى الكفر ؟

قلنا : قوله (واشكروا لى) معناه استعينوا بنعمتى على طاعتى ، وقوله (ولا تكفرون) معناه لاتستعينوا بنعمتى على معصيتى . وقيل الأول أمر بالشكر . والثانى أمر بالثبات عليه .

فإن قيل : كيف قال (والناس أجمعين) وأهل دينه لايلعنونه إذا مات على دينهم ؟

قلنا : المراد بالناس المؤمنون فقط ، أو هو على عمومه وأهل دينه يلعنونه فى الآخرة ، قال الله تعالى (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) وقال (كلما دخلت أمة لعنت أختها) .

فإن قيل : ما الفائدة فى قوله إله فى (وإلهكم إله واحد) فهلا قال : وإلهكم واحد ، فكان أخصر وأوجز ؟

قلنا : لو قال : وإلهكم واحد لكان ظاهره إخبارا عن كونه واحدا فى الإلهية ، يعنى لا إله غيره ، ولم يكن إخبارا عن توحده فى ذاته : بخلاف ما إذا كرر ذكر الإله ، والآية إنما سيقت لإثبات أحديته فى ذاته ، ونفى مايقوله النصارى أنه واحد ، والأقانيم ثلاثة : أى الأصول ؛ كما أن زيدا واحدا وأعضاؤه متعددة فلما قال إله واحد دل على أحدية الذات والصفة ولقائل أن يقول : قوله واحد يحتمل الأحدية فى الذات ، ويحتمل الأحدية فى الصفات سواء كرر ذكر الإله أو لم يكرر فلا يتم الجواب .

فإن قيل : ما وجه صحة التشبيه فى قوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق) وظاهره تشبيه الكفار بالراعى ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : ومثلك يا محمد مع الكفار كمثل الراعى مع الأنعام ، أو تقديره : ومثل الذين كفروا كمثل بهائم الراعى ، أو ومثل واعظ الذين كفروا كمثل الناعق بالبهائم ، أو ومثل الذين كفروا فى دعائهم الأصنام كمثل الراعى .

فإن قيل : كيف خص المنعوق بأنه لايسمع إلا دعاء ونداء ، مع أن كل عاقل كذلك أيضا لايسمع إلا دعاء ونداء ؟

قلنا : المراد بقوله لايسمع أنه لايفهم كقولهم : أساء سمعا فأساء إجابة أى أساء فيهما .

فإن قيل : كيف قال (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) وقال فى موضع آخر (فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) ؟

قلنا : المنفى كلام التلطف والإكرام ، والمثبت سؤال التوبيخ والإهانة فلا تنافى .

فإن قيل : كيف قال (كتب عليكم القصاص فى القتلى) أى فرض والقصاص ليس بفرض بل الولى مخير فيه ، بل مندوب إلى تركه ؟

قلنا : المراد به فرض على القاتل التمكين ، لأنه فرض على الولى الاستيفاء .

فإن قيل : كيف قال (الوصية للوالدين والأقربين) عطف الأقربين على الوالدين وهما أقرب الأقربين ، والعطف يقتضى المغايرة ؟

قلنا : الوالدان ليسا من الأقربين ، لأن القريب من يدلى إلى غيره بواسطة كالأخ والعم ونحوهما ، والوالدان ليسا كذلك ، ولو كانا منهم لكان تخصيصهما بالذكر لشرفهما كقوله تعالى(وملائكته ورسله وجبريل وميكال)

فإن قيل : كيف قال (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) وصوم هذه الأمة ليس كصوم أمة موسى وعيسى عليهما السلام ؟

قلنا : التشبيه فى أصل الصوم لافى كيفيته أو فى كيفية الإفطار ، فإنه كان فى أول الأمر الإفطار مباحا من غروب الشمس إلى وقت النوم فقط ، كما كان فى صوم من قبلنا ، ثم نسخ بقوله تعالى (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم) الآية ، أو فى العدد أيضا على ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : فرض على النصارى صوم رمضان بعينه ، فقدموا عشرة أوأخروا عشرة لئلا يقع فى الصيف وجبروا التقديم والتأخير بزيادة عشرين فصار صومهم خمسين يوما بين الصيف والشتاء .

فإن قيل : ما فائدة قوله (وبينات من الهدى والفرقان) بعد قوله (هدى للناس) ؟

قلنا : ذكر أولا أنه هدى ، ثم ذكر أنه بينات من الهدى : أى من جملة ماهدى الله به عبيده ، وفرق به بين الحق والباطل من الكتب السماوية الهادية الفارقة بين الحق والباطل فلا تكرار .

فإن قيل : ما فائدة إعادة ذكر المريض والمسافر ؟

قلنا : فائدته أن الآية المتقدمة نسخ مما فيها تخيير الصحيح ، وكان فيها تخيير المريض والمسافر أيضا ، فأعيد ذكرهما لئلا يتوهم أن تخييرهما نسخ كما نسخ تخيير الصحيح .

فإن قيل : قوله تعالى (فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) يدل على أنه يجيب دعاء الداعين، ونحن نرى كثيرا من الداعين لايستجاب لهم ؟

قلنا : روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مامن مسلم دعا الله بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها » ولأن قبول الدعاء شرطه الطاعة لله تعالى وأكل الحلال وحضور القلب وقت الدعاء ، فمتى اجتمعت هذه الشروط حصلت الإجابة ولأن الداعى قد يعتقد مصلحته فى الإجابة ، والله تعالى يعلم أن مصلحته فى تأخير ماسأل ، أو فى منعه ، فيجيبه إلى مقصوده الأصلى وهو طلب المصلحة فيكون قد أجيب وهو يعتقد أنه منع عنه .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (تلك عشرة كاملة) ومعلوم أن ثلاثة وسبعة عشرة، ثم ما فائدة قوله (كاملة) والعشرة لاتكون إلا كاملة ، وكذا جميع أسماء الأعداد لاتصدق على أقل من المذكور ولا على أكثر منه ؟

قلنا : فائدة قوله (تلك عشرة) أن لايتوهم أن الواو بمعنى أو كما فى قوله تعالى (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) وألا تحل التسع جملة ، فنفى بقوله (تلك عشرة) ظن وجوب أحد العددين فقط إما الثلاثة فى الحج أو السبعة بعد الرجوع ، وأن يعلم العددين من جهتين جملة وتفصيلا

فيتأكد العلم به ونظيره فذلكة الحساب وتنصيف الكتاب . وأما قوله تعالى (كاملة) فتأكيد كما فى قوله تعالى (حولين كاملين) أو معناه كاملة فى الثواب مع وقوعها بدلا عن الهدى ، أو فى وقوعها موقع المتتابع مع تفرقها ، أو فى وقوعها موقع الصوم بمكة مع وقوع بعضها فى غير مكة ، فالحاصل أنه كمال وصفا لا ذاتا .

فإن قيل : مافائدة تكرار الأمر بالذكر فى قوله تعالى (فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم) ؟

قلنا : إنما كرره تنبيها على أنه أراد ذكرا مكررا لا ذكرا واحدا ، بل مرة بعد أخرى ، ولأنه زاد فى الثانى فائدة أخرى وهى قوله تعالى (كما هداكم) يعنى اذكروه بأحديته كما ذكركم بهدايته ، أو إشارة إلى أنه أراد بالذكر الأول الجمع بين الصلاتين بمزدلفة ، وبالثانى الدعاء بعد الفجر بها فلا تكرار .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (فإذا أفضتم من عرفات) إلى أن قال (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) وأراد به الإفاضة من عرفات بلا خلاف ، وبعد المجىء إلى مزدلفة والذكر فيها مرتين كما فسرنا كيف يفيضون من عرفات .

قلنا : فيه تقديم وتأخير تقديره : من ربكم ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، فإذا أفضتم من عرفات .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه) ومعلوم أن المتعجل التارك بعض الرمى إذا لم يكن عليه إثم لايكون على المتأخر الآتى بالرمى كاملا ؟

قلنا : كان أهل الجاهلية فريقين منهم من جعل المتعجل آثما ، ومنهم من جعل المتأخر آثما ، فأخبر الله تعالى بنفى الإثم عنهما جميعا ، أو معناه لا إثم على المتأخر فى تركه الأخذ بالرخصة مع أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه

كما يجب أن تؤتى عزائمه ، أو أن معناه أن انتفاء الإثم عنهما موقوف على التقوى لا على مجرد الرخصة أو العزيمة فى الرمى ، ثم قيل المراد به تقوى المعاصى فى الحج ، وقيل تقوى المعاصى بعد الحج فى بقية العمر بالوفاء بما عاهد الله تعالى عليه بعرفة وغيرها من مواقف الحج من التوبة والإنابة . والمشكل فى هذه الآية قوله تعالى (فى يومين) والتعجيل المرخص فيه إنما هو التعجيل فى اليوم الثانى من أيام التشريق ، فكيف ذكر لفظ اليومين وأراد بهما اليوم الثانى فقط .

فإن قيل : كيف قال (وإلى الله ترجع الأمور) وهو يدل على أنها كانت إلى غيره كقولهم : رجع إلى فلان عبده ومنصبه ؟

قلنا : هو خطاب لمن كان يعبد غير الله وينسب أفعاله إلى سواه ، فأخبرهم أنه إذا كشف لهم الغطاء يوم القيامة ردوا ما أضافوه لغيره بسبب كفرهم وظلمهم ، ولأن رجع يستعمل بمعنى صار ووصل كقولهم : رجع علىّ من فلان مكروه ، قال الشاعر :

وَمَا المَرْءُ إلاّ كالشِّهابِ وضَوئِهِ   يحَورُ رَمادا بَعدَ إذ هُوَ ساطِعُ

ولأنها كانت إليه قبل خلق عبيده ، فلما خلقهم ملكهم بعضها خلافة ونيابة ثم رجعت إليه بعد هلاكهم ، ومنه قوله تعالى (لمن الملك اليوم) وقوله تعالى (الملك يومئذ الحق للرحمن) وإنما قال (وإلى الله ترجع الأمور) ولم يقل إليه وإن كان قد سبق ذكره مرة ، لقصد التعميم والتعظيم ، وذلك ينافى الإيجاز والاختصار .

فإن قيل : كيف طابق الجواب السؤال فى قوله (ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين) فإنهم سألوا عن بيان ما ينفقون وأجيبوا عن بيان المصرف ؟

قلنا : قد تضمن قوله تعالى (قل ما أنفقتم من خير) بيان ما ينفقونه وهو كل خير ، ثم زيد على الجواب بيان المصرف ونظيره قوله تعالى (وما تلك بيمينك ياموسى قال هى عصاى) الآية ، وقوله عليه الصلاة والسلام وقد سئل عن الوضوء بماء البحر « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » .

فإن قيل : كيف جاء يسألونك ثلاث مرات بغير واو (يسألونك ماذا ينفقون ـ يسألونك عن الشهر الحرام ـ يسألونك عن الخمر والميسر) ثم جاء ثلاث مرات بالواو (ويسألونك ماذا ينفقون ـ ويسألونك عن اليتامى ـ ويسألونك عن المحيض) ؟

قلنا : لأن سؤالهم عن الحوادث الأول وقع متفرقا ، وعن الحوادث الأخر وقع فى وقت واحد ، فجىء بحرف الجمع دلالة على ذلك .

فإن قيل : كيف قال (وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم) وعزمهم الطلاق مما يعلم لا مما يسمع ؟

قلنا : الغالب أن العزم على الطلاق وترك الفىء لا يخلو عن مقاولة ودمدمة وإن خلا عنها فلا بدله أن يحدث نفسه ويناجيها بما عزم عليه، وذلك حديث لا يسمعه إلا الله تعالى كما يسمع وسوسة الشيطان .

فإن قيل: كيف قال (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك) ولا حق للنساء فى الرجعة ، وأفعل يقتضى الاشتراك ؟

قلنا : المراد أن الزوج إذا أراد الرجعة وأبت وجب إيثار قوله على قولها لأن لها حقا فى الرجعة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا) والزوج أحق بالرجعة سواء أراد الإصلاح أو الإضرار بها بتطويل العدة ؟

قلنا : المراد أن الرجعة أصوب وأعدل إن أراد الزوج الإصلاح ، وتركها أصوب وأعدل إن أراد الإضرار ..

فإن قيل : كيف الجمع بين قوله تعالى (فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) وقوله تعالى (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) ؟

قلنا : المراد بالآية الأولى إماتة العقوبة مع بقاء الأجل ، وبالآية الثانية الإماتة بانتهاء الأجل ، نظيره قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام (ثم بعثناكم من بعد موتكم) لأنها كانت إماتة عقوبة ، أو كان إحياؤهم آية لنبيهم على ماعرف فى قصتهم ، فصار كإحياء العزير حين مر على قرية وآيات الأنبياء نوادر مستثناة ، فكان المراد بالآية الثانية الموتة التى ليست بسبب آية نبي من الأنبياء أو إحياء قوم موسى آية له أيضا فكان هذا جوابا عاما ، مع أن فى أصل السؤال نظرا لأن الضمير فى قوله (لايذوقون) للمتقين وقوله فيها للجنات ، على ما يأتى بيانه فى سورة الدخان إن شاء الله تعالى على وجه يندفع به السؤال من أصله .

فإن قيل : كيف قال (والله يؤتى ملكه) والله تعالى لا يؤتى ملكه أحدا ؟

قلنا : المراد بهذا الملك السلطنة و الرياسة التى أنكروا إعطاءها لطالوت ، وليس المراد بأنه يعطى ملكه لأحد ، لأن سياق الآية يمنعه .

فإن قيل : كيف قال فى الماء (ومن لم يطعمه) ولم يقل ومن لم يشربه ، والماء مشروب لا مأكول ؟

قلنا : طعم بمعنى أكل وبمعنى ذاق ، والذوق هو المراد هنا وهو يعم .

فإن قيل : كيف خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر فى قوله تعالى (تلك الرسل) الآية ؟

قلنا : لما أوتيا من الآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة مع الكتابين العظيمين المشهورين .



فإن قيل : كيف قال (من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وفى يوم القيامة شفاعة الأنبياء وغيرهم بدليل قوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وقوله تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وقوله تعالى (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) ؟

قلنا : هذه الآيات لا تدل على وجود الشفاعة يوم القيامة ، بل تدل على أنها لا توجد ولا تنفع من غير إذنه ، ولا توجد لغير مرضىٍّ عنده ، وهذا لاينافى نفى وجودها ، بل المنافى له الإخبار عن وجودها لا الإخبار عن إمكان وجودها ، ولو سلم فالمراد به نفى شفاعة الأصنام والكواكب التى كانوا يعتقدونها ، ولهذا عرّض بذكر الكفار بقوله تعالى (والكافرون هم الظالمون) وقيل المراد أنه لاشفاعة فى إثم ترك الواجبات ، لأن الشفاعة فى الآخرة فى زيادة الفضل لاغير ، والخطاب مع المؤمنين فى النفقة الواجبة وهى الزكاة .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (والكافرون هم الظالمون) على وجه الحصر وغيرهم ظالم أيضا ؟

قلنا : لأن ظلمهم أشد ، فكأنه لاظالم إلا هم ، نظيره : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) بلفظ المضارع ، ولم يقل أخرجهم بلفظ الماضى ، والإخراج قد وجد لأن الإيمان قد وجد ؟

قلنا : لفظ المضارع فيه دلالة على استمرار ذلك الإخراج من الله تعالى فى الزمان المستقبل فى حق من آمن بزيادة كشف الشبه ومضاعفة الهداية ، وفى حق من لم يؤمن ممن قضى الله أنه سيؤمن بابتداء الهداية وزيادتها أيضا ، ولفظ الماضى لايدل على هذا المعنى .

فإن قيل : متى كان المؤمنون فى ظلمات الكفر ، والكافرون فى نور الإيمان ليخرجوا من ذلك ؟

قلنا : الإخراج يستعمل بمعنى المنع عن الدخول ، يقال لمن امتنع عن الدخول فى أمر خرج منه وأخرج نفسه منه ، وإن لم يكن دخل فاه ، فعصمة الله تعالى المؤمنين عن الدخول فى ظلمات الضلال إخراج لهم منها ، وتزيين قرناء الكفار لهم الباطل الذى يصدونهم به عن الحق إخراج لهم من نور الهدى ولأن إيمان رؤساء أهل الكتاب بالنبى عليه الصلاة والسلام قبل أن يظهر كان نورا لهم ، وكفرهم به بعد ظهوره خروج منه إلى ظلمات الكفر ولأنه لما ظهرت معجزاته عليه الصلاة والسلام كان موافقه ومتبعه خارجا من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومخالفه خارجا من نور العلم إلى ظلمات الجهل .

فإن قيل : كيف انتقل إبراهيم صلى الله عليه وسلم إلى حجة أخرى وعدل عن نصرة الأولى ، مع أنه لم ينقطع بما عارضه به نمروذ من قتل أحد المجوسيين وإطلاق الآخر ، فإن إبراهيم صلى الله عليه وسلم ما أراد هذا الإحياء والإماتة ؟

قلنا : إما لأنه رأى خصمه قاصر الفهم عن إدراك معنى الإحياء والاماتة التى أضافهما إبراهيم صلى الله عليه وسلم إلى الله حيث عارض معارضة لطيفة وعمى عن اختلاف المعنيين ، أو لأنه علم أنه فهم الحجة لكنه قصد التمويه والتلبيس على أتباعه وأشياعه ، فعدل إبراهيم إلى أمر ظاهر يفهمه كل أحد ، ولا يقع فيه تمويه ولا تلبيس .

فإن قيل : كيف طبع الله على قلبه فلم يعارض بالعكس فى طلوع الشمس ؟

قلنا : لأنه لو عارض به لم يأت الله بها من المغرب ، لأن ذلك أمارة

قيام الساعة فلا يوجد إلا قريبا من قيامها ، ولأنه وأتباعه كانوا عالمين أن طلوعها من المشرق سابق على وجوده ، فلو ادعاه لكذبوه .

فإن قيل : كيف قال عزير عليه السلام منكرا مستبعدا (أنى يحيي هذه الله بعد موتها) وهو نبي ، والنبي لاتخفى عليه قدرة الله تعالى على إحياء قرية خربة وإعادة أهلها إليها ؟

قلنا : ما قاله منكرا مستبعدا لعظم قدرة الله تعالى ، بل متعجبا من عظم قدرته تعالى أو طلبا لرؤية كيفية الإعادة ، لأن أنى بمعنى كيف أيضا . وقد نقل عن مجاهد أن المـارّ على القرية القائل ذلك كان رجلا كافرا شاكا فى البعث وإن كان الأول هو المشهور .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام (أولم تؤمن) وقد علم أنه أثبت الناس إيمانا ؟

قلنا : ليجيب بمـا أجاب به فتحصل به الفائدة الجليلة للسامعين من طلبه لإحياء الموتى .

فإن قيل : كيف يجوز أن يكون النبي غير مطمئن القلب بقدرة الله على إحياء الموتى حتى قال إبراهيم (ولكن ليطمئن قلبي) مع أن قلبه مطمئن بقدرة الله على الإحياء ؟

قلنا : معناه ليطمئن قلبي بعلم ذلك عيانا كما اطمأن به برهانا ، أو ليطمئن بأنك اتخذتني خليلا ، أو بأني مستجاب الدعوة . ولقائل أن يقول على الوجه الأول كيف يزداد يقينا بالمشاهدة ، وقد روى عن على كرم الله وجهه أنه قال : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ، وإبراهيم صلوات الله عليه وسلامه أعظم رتبة وأجل ؟ وجوابه أن عليا أراد بذلك قوة يقينه قبل العيان ، حتى كأن الزيادة الحاصلة له بالعيان يسيرة لايعتد بها .

فإن قيل : فما فائدة قوله (فصرهن إليك) أى فضمهن ، ولفظ الأخذ مغن عنه ؟

قلنا : الفائدة فيه تأملها ومعرفة أشكالها وصفاتها ، لئلا يلتبس عليه بعد الإحياء فيتوهم أنه غيرها .

فإن قيل : كيف مدح الله المتقين بترك المنّ ونهى عن المن أيضا مع أنه وصف نفسه بالمنان فى نحو قوله تعالى (لقد منّ الله على المؤمنين) ؟

قلنا : منّ بمعنى أعطى ، ومنه المنان فى صفات الله تعالى . وقوله (فامْنن أو أمسك) وقوله (لقد منّ الله على المؤمنين) أى أنعم عليهم ، وقوله (فإما منا بعد) أى إنعاما بالإطلاق من غير عوض ، ومنّ بمعنى اعتد بالنعمة وذكرها واستعظمها وهو المذموم .

فإن قيل : قوله تعالى (بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان)من القسم الثانى.

قلنا : ذلك اعتداد بنعمة الإيمان ، فلا يكون قبيحا ، بخلاف نعمة المال ولأنه يجوز أن يكون من صفات الله تعالى ماهو مدح فى حقه ذم فى حق العبد كالجبار والمتكبر والمنتقم ونحو ذلك .

فإن قيل : كيف قال تعالى (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) ثم قال له (فيها من كل الثمرات) ؟

قلنا : لما كان النخيل والأعناب أكرم الشجر وأكثرها منافع خصهما بالذكر وجعل الجنة منهما ، وإن كان فيها غيرهما تغليبا لهما وتفضيلا .

فإن قيل : قوله تعالى (لايسألون الناس إلحافا) يدل بمفهومه على أنهم كانوا يسألون الناس برفق، فكيف قال (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) ؟

قلنا : المراد به نفى السؤال والإلحاف جميعا كقوله تعالى (لاذلول تثير الأرض) وكقول الأعشى :

* لايغْمِزُ السَّاقَ مِنْ أيْنٍ ولاَ وَصَبٍ *

معناه ليس بساقه أين ولا وصب فغمزها .

فإن قيل : كيف قال (الذين يأكلون الربا) الآية ، ألحق الوعيد بآكله مع أن لابسه ومدخره وواهبه أيضا فى الإثم سواء ؟

قلنا : لمـا كان أكثر الانتفاع والهمم بالمـال إنمـا هو الأكل لأنه مقصود لاغناء عنه ولابد منه ، عبر عن أنواع الانتفاع بالأكل كما يقال : أكل فلان ماله كله إذا أخرجه فى مصالح الأكل وغيره ؟

فإن قيل : كيف خص الآكل بذكر الوعيد دون المطعم وكلاهما آثم ؟

قلنا : لأن انتفاعه الدنيوى بالربا أكثر من انتفاع المطعم .

فإن قيل : كيف قال : إنمـا البيع مثل الربا ، والكلام إذ ذاك فى الربا ومقصودهم تشبيهه بالبيع ؛ فقياسه إنمـا الربا مثل البيع فى حله ؟

قلنا : جاءوا بالتمثيل على طريق المبالغة ، وذلك أنه بلغ من اعتقادهم استحلال الربا أنهم جعلوه أصلا فى الحل والبيع فرعا كقولهم : القمر كوجه زيد ، والبحر ككفه ، إذا أرادوا المبالغة .

فإن قيل : كيف قلتم إن أهل الكبائر لايخلدون فى النار ، وقد قال الله تعالى فى حق آكل الربا (ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ؟

قلنا : الخلود يستعمل بمعنى طول البقاء وإن لم يكن بصفة التأبيد ، يقال خلد الأمير فلانا فى الحبس إذا أطال حبسه ، أو أن قوله (فأولئك) إشارة إلى من عاد إلى استحلال الربا بقوله (إنمـا البيع مثل الربا) بعد نزول آية التحريم ، وذلك يكون كافرا ، والكافر مخلد فى النار .

فإن قيل : إنظار المعسر فرض بالنص والتصدق عليه تطوع ، فكيف قال (وأن تصدقوا خير لكم) ؟

قلنا : كل تطوع كان محصلا للمقصود من الفرض بوصف الزيادة كان أفضل من الفرض ؛ كما أن الزهد فى الحرام فرض وفى الحلال تطوع ، والزهد فى الحلال أفضل كما بينا كذلك هنا .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (بدين) وقوله تعالى (تداينتم) مغن عنه ؟

قلنا : فائدته رجوع الضمير إليه فى قوله تعالى (فاكتبوه) إذ لو لم يذكره لقال : فاكتبوا الدين ، فالأول أحسن نظما ، أو لأن التداين مشترك بين الإقراض والمبايعة وبين المجازاة ، وإنما يميز بينهما بفتح الدال وكسرها ومنه قوله تعالى (مالك يوم الدين) أى الجزاء يسألون أيان يوم الدين ، فذكر الدين ليتعين أى المعنيين هو المراد .

فإن قيل : كيف شرط السفر فى الارتهان بقوله (وإن كنتم على سفر) الآية ، وجواز الرهن لايختص بالسفر ؟

قلنا : لم يذكره لتخصيص الحكم به ، بل لما كان السفر مظنة عوز الكاتب ، والشاهد الموثوق بهما أمر على سبيل الإرشاد لحفظ مال المسافرين بأخذ الرهان .

فإن قيل : ما فائدة ذكر القلب فى قوله تعالى (فإنه آثم قلبه) مع أن الجملة هى الموصوفة بالإثم لا القلب وحده ؟

قلنا : كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها ، فلما كان ذلك إنما مقترنا بالقلب ومكتسبا له أسند إليه ، لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ ، كما يقال : هذا ماأبصرته عينى وسمعته أذنى ووعاه قلبى .

فإن قيل كيف قال الله تعالى (وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) ومايحدث به الانسان نفسه لايأثم به مالم يفعله ، إما لأنه لايمكن الاحتراز عنه فى الوسع والطاقة ، أو بالحديث المشهور فيه ؟

قلنا : قيل أريد بالآية العموم ثم نسخ بقوله تعالى (لايكلف الله نفسا إلا وسعها) وقيل لانسخ فيه لأنه خبرلا أمر أو نهى ، بل العموم غير مراد ، وإنما المراد مايمكن الاحتراز عنه وهو العزم القاطع والاعتقاد الجازم ، لامجرد حديث النفس والوسوسة . ولأنه أخبر عن المحاسبة لاعن المعاقبة ،

فهو يوم القيامة يخبر العباد بما أبدوا وما أخفوا ليعلموا إحاطة علمه بجميع ذلك؛ ثم يغفر لمن يشاء فضلا ، ويعذب من يشاء عدلا ، كما أخبر فى الآية .

فإن قيل : أىّ شرف للرسول صلى الله عليه وسلم فى مدحه بالإيمان مع أنه فى رتبة الرسالة ودرجتها ، وهى أعلى من درجة الإيمان فما فائدة قوله تعالى (آمن الرسول) ؟

قلنا : فائدته أن يبين للمؤمنين زيادة شرف الإيمان حيث مدح به خواصه ورسله ؛ ونظيره فى سورة الصافات قوله تعالى فى خاتمة ذكر كل نبى (إنه من عبادنا المؤمنين) .

فإن قيل روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ (ملائكته وكتابه) فسئل عن ذلك فقال كتاب أكثر من كتب فما وجهه ؟

قلنا : قيل فيه أنه أراد أن الكتاب جنس والكتب جمع ، والجنس أكثر من الجمع لأن حقيقته فى الكل على ماذهب إليه بعضهم . ويرد على هذا أن يقال : الكلام فى الجمع المضاف والمفرد المضاف للاستغراق عرفا وشرعا كقوله لعبده : أكرم أصدقائى ، وأهن أعدائى ، وقوله : زوجاتى طوالق وعبيدى أحرار ، بخلاف قوله : صديقى وعدوى وعبدى وامرأتى، فظهر أن الجمع المضاف أكثر .

فإن قيل : قوله (لا نفرق بين أحدمن رسله) كيف قال ذلك مع أن بين لاتضاف إلا إلى اثنين فصاعدا ، فكيف قال (لا نفرق بين أحد من رسله) ؟

قلنا : أحد هنا بمعنى الجمع الذى هو آحاد كقوله تعالى (فما منكم من أحد) فإنه ثم بمعنى الجمع بدليل قوله تعالى (حاجزين) فكأنه قال : لانفرق بين آحاد من رسله كقولك المال بين آحاد الناس ، ولأن أحدا يصلح للمفرد المذكر والمؤنث ، وتثنيتهما وجمعهما نفيا وإثباتا، تقول : ما رأيت أحدا إلا بنى فلان ، أو إلا بنات فلان سواء ، وتقول إن جاءك أحد بكتابى فأعطه

ود يعني ، يستوي فيه الكل ؛ فالمعنى لانفرق بين اثنين منهم أو بين جماعة منهم ، ومنه قوله تعالى (يانساء النبي لستن كأحد) .

فإن قيل : من أين دل قوله (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) على أن الأول فى الخير والثانى فى الشر ؟

قلنا : قيل هو من كسبت واكتسبت ، فإن الأول للخير والثانى للشر ، وليس بدليل لقوله تعالى (ومن يكسب خطيئة أو إثما) وقوله (كل نفس بما كسبت رهينة) وقوله (أو يوبقهن بما كسبوا) وقوله (ومن يقترف حسنة) والاقتراف والاكتساب بمعنى واحد . وقيل : هو من اللام وعلى ، وليس بدليل أيضا لقوله تعالى (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) وقوله تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) وقوله تعالى (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) اللهم إلا أن يدعى أن اللام وعلى عند الإطلاق يقتضيان ذلك ، أو لأنهما يستعملان لذلك عند تقاربهما كما فى هذه الآية لانفرق بين ذكر الحسنة والسيئة ، أو الحسن والقبيح ، ويدل عليه قوله تعالى (ولا تكسب كل نفس إلا عليها) أطلقه وأراد به الشر بدليل ما بعده ، وقولهم : الدهر يومان ، يوم لك ويوم عليك . وقولهم : فلان يشهد لك وفلان يشهد عليك . ويقول الرجل لصاحبه : هذا الكلام حجة عليك لا لك ، قال الشاعر :

عَلى أنَّنِى رَاضٍ بِأنْ أحْمِلَ الهَوَى   وَأخْلُصَ مِنْهُ لا عَلَىَّ وَلا لِيَا

وأما قوله تعالى (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) وإن كان مقيدا إلا أن فيه دلالة أيضا من جهة اللام وعلى ، لأن القيد شامل للظرفية

سورة آل عمران

فإن قيل : كيف قال تعالى (نزّل عليك الكتاب بالحق) ثم قال تعالى (وأنزل التوراة والإنجيل) ؟

قلنا : لأن القرآن أنزلَ منجما ، والتوراة والإنجيل نزلا جملة واحدة ، كذا أجاب الزمخشرى وغيره ، ويرد عليه قوله تعالى بعد ذلك (وأنزل الفرقان) فإن الزمخشرى قال : أراد به جنس الكتب السماوية لاالثلاثة المذكورة خصوصا ، أو أراد به الزبور ، أو أراد به القرآن ، وكرر ذكره تعظيما ، ويرد عليه أيضا قوله تعالى بعد ذلك (هو الذى نزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) وقوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) وقوله تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة)والذى وقع لى فيه ـ والله أعلم ـ أن التضعيف فى نزل والهمزة فى أنزل كلاهما للتعدية ، لأن نزل فعل لازم فى نفسه ، وإذا كانا للتعدية لايكونان لمعنى آخر وهو التكثير أو نحوه، لأنه لانظير له ، وإنما جمع بينهما والمعنى واحد وهو التعدية جريا على عادة العرب فى افتنانهم فى الكلام وتصرفهم فيه على وجوه شتى ، ويؤيد هذا قوله تعالى (لولا نزل عليه آية من ربه) وقال فى موضع آخر (لولا أنزل عليه آية من ربه) .

فإن قيل : كيف قال (منه آيات محكمات) ومن للتبعيض ، وقال فى موضع آخر (كتاب أحكمت آياته) وهذا يقتضى كون جميع آياته محكمة ؟

قلنا المراد بقوله (منه آيات محكمات) أى ناسخات (وأخر متشابهات) أى منسوخات ، وقيل المحكمات العقليات ، والمتشابهات الشرعيات ، وقيل المحكمات ما ظهر معناها ، والمتشابهات ماكان فى معناها غموض ودقة ، والمراد بقوله (كتاب أحكمت آياته) أن جميع القرآن صحيح ثابت ، مصون عن الخلل والزلل فلاتنافى .

فإن قيل : كيف قال هنا (وأخر متشابهات) جعل بعضه متشابها وقال في موضع آخر (كتابا متشابها) وصفه كله بكونه متشابها .

قلنا : المراد بقوله (وأخر متشابهات) ماسبق ذكره ، والمراد بقوله (كتابا متشابها) أنه يشبه بعضه بعضا فى الصحة وعدم التناقض وتأييد بعضه بعضا فلا تنافى ؟

فإن قيل : مافائدة إنزال المتشابهات بالمعنى الأخير والمقصود من إنزال القرآن إنما هو البيان والهدى ، والغموض والدقة فى المعانى ينافى هذا المقصود أو يبعده ؟

قلنا : لما كان كلام العرب ينقسم إلى مايفهم معناه سريعا ولايحتمل غير ظاهره ، وإلى ماهو مجاز وكناية وإشارة وتلويح ، والمعانى فيه متعارضة متزاحمة ، وهذا القسم هو المستحسن عندهم والمستبدع فى كلامهم نزل القرآن بالنوعين تحقيقا لمعنى الإعجاز ، كأنه قال : عارضوه بأى النوعين شئتم فإنه جامع لهما ، وأنزله الله عز وجل محكما ومتشابها ليختبر من يؤمن بكله ويرد علم ماتشابه منه إلى الله فيثيبه ومن يرتاب فيه ويشك وهو المنافق فيعاقبه ، كما ابتلى عباده بنهر طالوت وغيره ، أو أراد أن يشتغل العلماء برد المتشابه إلى المحكم بالنظر والاستدلال والبحث والاجتهاد فيثابون على هذه العبادة ، ولو كان كله ظاهرا جليا لاستوى فيه العلماء والجهال ، ولماتت الخواطر بعدم البحث والاستنباط ، فإن نار الفكر إنما تقدح بزناد المشكلات ، ولهذا قال بعض الحكماء : عيب الغنى أنه يورث البلادة ويميت الخاطر ، وفضيلة الفقر أنه يبعث على إعمال الفكر واستنباط الحيل فى الكسب .

فإن قيل : قوله تعالى (يرونهم مثليهم رأى العين) أى ترى الفئة الكافرة الفئة المسلمة مثلى عدد نفسها ، أو بالعكس على اختلاف القولين ، وكيفما كان فهو مناف لقوله تعالى فى سورة الأنفال (وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم) لأنه يدل على أن الفئتين

تساوتا فى استقلال كل واحدة منهما للأخرى ، فكل منهما ترى الأخرى قليلة ؟

قلنا : التقليل والتكثير فى حالين مختلفين ، قلل الله المشركين فى نظر المؤمنين أولا ، والمؤمنين فى نظر المشركين حتى اجترأت كل فئة على قتال صاحبتها ، فلما التقتا كثر الله المؤمنين فى نظر المشركين حتى جبنوا وفشلوا فغلبوا ، وكثر الله المشركين فى نظر المؤمنين أو رآهم إياهم على ماهم عليه ، وكانوا فى الحقيقة أكثر من المؤمنين ليعلموا صدق ما وعدهم الله تعالى بقوله (فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) الآية ، فإن المؤمنين غلبوهم فى هذه الغزاة وهى غزاة بدر ؛ مع أنهم كانوا أضعاف عدد المؤمنين وقيل : أرى الله المسلمين المشركين مثل عدد المسلمين وكانوا ثلاثة أمثالهم لكنه قللهم فى أعين المسلمين ، وأراهم إياهم بقدر ما أعلمهم أنهم يغلبونهم لتقوى قلوبهم بما سبق من الوعد أن المائة من المؤمنين يغلبون المائتين منهم .

فإن قيل · ما فائدة تكرار قوله (لا إله إلا هو) فى قوله (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو) ؟

قلنا : الأول قول الله عزّ وجلّ ، والثانى حكاية قول الملائكة وأولى العلم . وقال جعفر الصادق رحمه الله تعالى : الأول وصف ، والثانى تعليم أى قولوا واشهدوا كما شهدت .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (وهم معرضون) فى قوله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) والتولى والإعراض واحد كما سبق فى البقرة ، فلم جمع بينهما ؟

قلنا : معناه : يتولون عن الداعى ويعرضون عما دعاهم إليه وهو

كتاب الله ، أو يتولون بأبدانهم ويعرضون عن الحق بقلوبهم ، أو كلتا الذين تولوا علماءهم والذين أعرضوا أتباعهم .

فإن قيل : كيف قال (بيدك الخير) خص الخير بالذكر ، وبيده تعالى الخير والشر والنفع والضر أيضا ؟

قلنا . لأن الكلام إنما ورد ردا على المشركين فيما أنكروه مما وعد الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل عليه السلام من فتح بلاد الروم وفارس ، ووعد النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة بذلك ، فلما كان الكلام فى الخير خصه بالذكر باعتبار الحال أو أراد الخير والشر فاكتفى بأحدهما لدلالته على الآخر كقوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) وإنما خص الخير بالذكر لأنه المرغوب فيه المطلوب للعباد من الله تعالى .

فإن قيل : كيف قال (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) وإيلاج الشيء فى الشيء يقتضى اجتماع حقيقتهما بعد الإيلاج ، كإيلاج الخيط فى الإبرة والإصبع فى الخاتم ونحوهما ، وحقيقة الليل والنهار لايجتمعان ؟

قلنا : الإيلاج قد يكون كما ذكرتم ، وقد يكون مع تبدل صفة أحدهما بغلبة صفة الآخر عليه مع بقاء ذاته فيه ، كإيلاج يسير من خبز فى لبن كثير أو بالعكس ، فإن الحقيقتين مجتمعتان ذاتا ، وصفة إحداهما غالبة على الأخرى ، كذلك الليل والنهار إذا كان الليل أربع عشرة ساعة بالنسبة إلى زمن الاعتدال ففيه من النهار ساعتان قطعا وكذا على العكس ، أو معناه يولج زمن الليل فى زمن النهار وبالعكس ، أو يولج الليل فى النهار وبالعكس باعتبار أن ليل قوم هو نهار آخرين وبالعكس ، أو معناه أنه خلق ليلا صرفا خالصا ، وخلق ماهو ممتزج منهما وهو ماقبيل طلوع الشمس وقبيل غروبها والجواب الثالث والرابع يعمان جميع السنة .

فإن قيل : ما فائدة قوله (وليس الذكر كالأنثى) وهو معلوم من غير ذكر ؟

قلنا : فائدته اعتذارها عما قالته ظنا ، فإنها ظنت أن مافى بطنها ذكر ، ولهذا نذرت أن تجعله خادما لبيت المقدس ، وكان من شريعتهم صحة هذا النذر فى الذكور خاصة ؛ فلما وضعت أنثى استحيت حيث خاب ظنها ولم يتقبل نذرها ، فقالت ذلك معتذرة ، تعنى ليست الأنثى بصالحة لما يصلح له الذكر فى خدمة المسجد ؛ لأنها أرادت أن الأنثى ليست كالذكر صورة أو قوة أو نحو ذلك ، فلما قالت ذلك منكرة خجلة من الله عليها بتخصيص مريم بقبولها فى النذر دون غيرها من الإناث فقال تعالى (فتقبلها ربها بقبول حسن) .

فإن قيل : المستعمل فى مثله إدخال حرف النفى على القاصر ، وحرف التشبيه على الكامل كقولهم : ليس كالذهب الفضة ، وليس العبد كالحر . فوزانه : وليس الأنثى كالذكر .

قلنا : لما كان جعل الأصل فرعا والفرع أصلا فى التشبيه فى حالة الإثبات يقتضى المبالغة فى المشابهة كقولهم : القمر كوجه زيد ، والبحر ككفه كان جعل الأصل فرعا والفرع أصلا فى حالة النفى يقتضى نفى المبالغة فى المشابهة لانفى المشابهة ، وذلك هو المقصود هنا ، لأن المشابهة واقعة بين الذكر والأنثى فى أعم الأوصاف وأغلبها ، ولهذا يقاد أحدهما بالآخر ، وإنما أرادت أم مريم نفى المشابهة بينهما فى صحة النذرية خادما للبيت المقدس لاغير فلذلك عكس الثانى[1] أن ذلك قوله تعالى ، والمعنى ليس الذكر الذى طلبت أن يكون خادما للكنيسة كالأنثى التى وهبت لما علم الله من جعلها وابنها آية للعالمين ، وهو تفسير للتعظيم والتفخيم المجمل فى قوله تعالى (والله أعلم بما وضعت) وهى لا تعرف مقدار شرفه ، واللام فى الذكر والأنثى للعهد هذا كله قول الزمخشرى وتمامه فى الكشاف .

---

(١) قوله بالهامش الثانى الخ كذا بالأصل ولم يتقدم له أول فلعل ثانويته باعتبار أول فى عبارة الكشاف فلتراجع اه .

وقال الفقيه أبو الليث رحمه الله تعالى : قال بعضهم : هذا قول الله تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام : أى وليس الذكر كالأنثى يامحمد . وقال بعضهم : هو من كلام أم مريم .

فإن قيل : كيف نادت الملائكة زكريا وهو قائم يصلى فى المحراب وأجابها وهو فى الصلاة ، كما قال الله تعالى (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى) الآية ؟

قلنا : المراد بقوله يصلى : أى يدعو كقوله تعالى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) أى بدعائك .

فإن قيل : مافائدة تخصيص يحى عليه السلام بقوله (إن الله يبشرك بيحيي مصدقا بكلمة من الله) وكل واحد من المؤمنين مصدق بجميع كلمات الله تعالى ؟

قلنا : معناه مصدقا بعيسى الذى كان وجوده بكلمة من الله تعالى ، وهو قوله « كن » من غير واسطة أب فى الوجود ، وكان تصديق يحيي بعيسى أسبق من تصديق كل أحد فى الوجود أو فى الرتبة .

فإن قيل : زكريا سأل الولد بقوله (هب لى من لدنك ذرية طيبة) والله تعالى بشره بيحيي عليه السلام على لسان الملائكة ، فكيف أنكر بعد هذا كله قدرة الله تعالى على إعطائه الولد حتى قال (رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر) ؟

قلنا : إنما قاله على سبيل الاستفهام والتعجب من عظيم قدرة الله تعالى لاعلى طريق الإنكار والاستبعاد ، أواشتبه عليه كيف يعطى الولد وهو شيخ وامرأته عاقر ، أو تزول عنهما هاتان الصفتان لكشف الحال تقديره : أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر . ولقائل أن يقول : آخر الآية لايناسب هذا الجواب .

فإن قيل : ما فائدة تكرار ذكر الاصطفاء فى قوله تعالى (إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك) .

قلنا : الاصطفاء الأول : العبادة التى هى خدمة البيت المقدس وتخصيصها بقبولها فى النذر مع كونها أنثى ، والاصطفاء الثانى : لولادة عيسى عليه السلام ، أو أعيد ذكر الاصطفاء ليفيد بقوله (على نساء العالمين) فيندفع بأنها مصطفاة على الرجال .

فإن قيل : كيف نفى حضور النبى عليه الصلاة والسلام فى زمن مريم بقوله (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم) الآية ، وذلك معلوم عندهم لاشك فيه وترك نفى استماعه ذلك الخبر من حفاظه وهو الذى كانوا يتوهمونه

قلنا : كان معلوما أيضا عندهم علما يقينا أنه ليس من أهل القراءة والرواية ، وكانوا منكرين للوحى فلم يبق إلا المشاهدة والحضور وهى فى غاية الاستحالة ، فنفيت على طريق التهكم بالمنكرين للوحى مع علمهم أنه لاقراءة له ولا رواية ، ونظيره قوله تعالى (وما كنت بجانب الغربى ـ وما كنت بجانب الطور) .

فإن قيل : كيف قال اسمه المسيح عيسى ابن مريم والخطاب مع مريم ، وهى تعلم أن الولد الذى بشرت به يكون ابنها ؟

قلنا : لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات فأعلمت بنسبه إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه .

فإن قيل : أى معجزة لعيسى عليه الصلاة والسلام فى تكليم الناس كهلا وأى خصوصية له فى هذا حتى قال (ويكلم الناس فِى المهد وكهلا) ؟

قلنا : معناه ويكلم الناس فى هاتين الحالتين بكلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولية وحال الكهولية التى يستحكم فيها العقل وينبأ فيها الأنبياء فكأنه قال : ويكلم الناس فى المهد كما يكلمهم كهلا . وقال الزجاج : هذا خرج مخرج البشارة لمريم أنه عليه الصلاة والسلام سيبقى إلى زمن الكهولة

فهو بشارة لها بطول عمره ، وقيل المقصود منه أن الزمان يؤثر فيه كما يؤثر فى غيره وينقله من حال إلى حال ، ولو كان إلها لم يجز عليه التغيير .

فإن قيل : كيف قال (إنى متوفيك ورافعك إلى) والله تعالى رفعه ولم يتوفه ؟

قلنا : لما هدده اليهود بالقتل بشره الله بأنه إنما يقبض روحه بالوفاة لا بالقتل ، والواو لاتفيد الترتيب ، فلا يلزم من الآية موته قبل رفعه . الثانى أن فيه تقديما وتأخيرا : أى أنى رافعك ومتوفيك . والثالث أن معناه : قابضك من الأرض تاما وافيا فى أعضائك وجسدك لم ينالوا منك شيئا ، من قولهم : توفيت حقى على فلان إذا استوفيته تاما وافيا . الرابع أن معناه : إنى متوفيك فى نفسك بالنوم من قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) ورافعك إلىّ وأنت نائم حتى لاتخاف بل تستيقظ وأنت فى السماء .

فإن قيل : كيف قال (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) وآدم خلق من التراب وعيسى خلق من الهواء ، وآدم خلق من غير أب وأم وعيسى خلق من أم .

قلنا : المراد به التشبيه فى وجوده بغير واسطة أب ، والتشبيه لايقتضى المماثلة من جميع الوجوه بلى من بعضها .

فإن قيل : كيف خص أهل الكتاب بأن منهم أمينا وخائنا بقوله (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك) الآية ، والمسلمون وغيرهم من أهل الملل كذلك منهم الأمين والخائن .

قلنا . إنما خصهم باعتبار واقعة الحال ، فإن سبب نزول الآية أن عبد الله بن سلام أودع ألفا ومائتى أوقية من الذهب فأدى الأمانة فيها ، وفنحاص بن عازوراء أودع دينارا فخانه ، ولأن خيانة أهل الكتاب

المسلمين تكون عن استحلال بدليل آخر الآية ، بخلاف خيانة المسلم المسلم فلذلك خصهم بالذكر .

فإن قيل : كيف قال (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها) وأكثر الجن والإنس كفرة ؟

قلنا : المراد بهذا الاستسلام والانقياد لما قضاه الله عليهم وقدره من الحياة والموت والمرض والصحة والشقاء والسعادة ونحو ذلك .

فإن قيل : كيف قال (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم) ومعلوم أن المرتد وإن ازداد ارتداده كفرا فانه مقبول التوبة ؟

قلنا : الآية نزلت فى قوم ارتدوا ثم أظهروا التوبة بالقول لستر أحوالهم والكفر فى ضمائرهم ، قاله ابن عباس وقيل نزلت فى قوم تابوا من ذنوبهم غير الشرك وقيل معناه : لن تقبل توبتهم وقت حضور الموت .

فإن قيل : كيف قال (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة) وكم من بيت بنى قبل الكعبة من زمن آدم إلى زمن إبراهيم عليه السلام ؟

قلنا : معناه أن أول بيت وضع قبلة للناس ومكان عبادة لهم ، أو وضع مباركا للناس ، أولأن ابن عباس قال : أول من بناه آدم عليه السلام لما هبط من السماء أوحى الله تعالى إليه ابن لى بيتا فى الأرض ، واصنع حوله نحو مارأيت الملائكة تصنع حول عرشى ، فبناه وجعل يطوف حوله .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (كنتم خير أمة) ولم يقل أنتم خير أمة ؟

قلنا : معناه كنتم فى سابق علم الله أوكنتم يوم أخذ الميثاق على الذرية ، فأراد الإعلام بكون ذلك صفة أصلية فيهم لا عارضة متجددة ، أومعناه خلقتم ووجدتم ، فهى كان التامة ، وخير أمة نصب على الحال ؛ وتمام الكلام فى كان يذكر فى قوله تعالى (إنه كان فاحشة ومقتا) .

فإن قيل : كيف قال (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم) ولا يصح

أن يقال : هذا خير من ذلك إلا إذا كان فى كل واحد منهما خير ، مع أن غير الإيمـان لاخير فيه حتى يقال : إن الإيمـان خير منه ؟

قلنا : معناه إيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم مع إيمانهم بموسى وعيسى عليهما السلام ، خير من إيمانهم بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فقط .

فإن قيل : كيف قال (مثل ماينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر) الآية ، والمقصود تشبيه نفقة الكفار وأموالهم فى تحصيل المفاخر وطلب الصيت والسمعة ، أو ما ينفقونه فى الطاعات مع وجود الكفر ، أو ماينفقونه فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزرع الذى أصابته ريح شديدة البرد فأهلكته فضاع ولم ينتفع به ، والتشبيه فى الحقيقة بالزرع وفى لفظ الآية بالريح ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره إهلاك ماينفقون كمثل إهلاك ريح فيها صر ، أو مثل ماينفقون كمثل مهلك ريح ، ونظيره قوله تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة) الآية ، وقوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق) الآية . وقال ثعلب : فيه تقديم وتأخير تقديره : كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم أصابته ريح فيها صرّ فأهلكته .

فإن قيل : كيف قال (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) فوصف الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة ؟

قلنا : المس مستعار بمعنى الإصابة توسعة فى العبارة : وإلا فكان المعنى واحدا ، ألا ترى إلى قوله تعالى فى الفريقين (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقوله (إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) .

فإن قيل : كيف قال (وسارعوا) والنبى عليه أفضل التحية يقول : « العجلة من الشيطان والتأنى من الرحمن » ؟

قلنا : قد استثنى النبي صلى الله عليه وسلم خمسة مواضع فقال « إلا فى التوبة من الذنب وقضاء الدين الحال ، وتزويج البكر البالغ ، ودفن الميت وإكرام الضيف إذا نزل » والمسارعة المأمور بها فى الآية هى المسارعة إلى التوبة وما فى معناها من أسباب المغفرة .

فإن قيل : كيف قال (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم) عطف عليه بكلمة أو ، وفعل الفاحشة داخل فى ظلم النفس ، بل هو أبلغ أنواع ظلم النفس ؟

قلنا : أريد بالفاحشة نوع من أنواع ظلم النفس وهو الزنا أو كل كبيرة فخص بهذا الاسم تنبيها على زيادة قبحه ، وأريد بظلم النفس ما وراء ذلك من الذنوب .

فإن قيل : كيف قال هنا (ومن يغفر الذنوب إلا الله) وقال فى موضع آخر (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) وقال (قل للذين آمنوا يغفروا) ؟

قلنا : معناه ومن يستر الذنوب من جميع الوجوه إلا الله ، ومثل هذا الغفران لايوجد إلا من الله .

فإن قيل : كيف قال (أفإن مات أو قتل) وهلا اقتصر على قوله (أفإن مات) وكان القتل يدخل فيه فإنه موت ؟

قلنا : القتل وإن كان موتا لكن إذا أطلق الميت فى العرف لا يفهم منه المقتول ، فلذلك عطف أحدهما على الآخر .

فإن قيل : كيف قال (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) وقال فى موضع آخر (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) .

قلنا : معناه يأتى به مكتوبا فى ديوانه ، أو يأتى به حاملا إثمه ، ومعنى فرادى منفردين عن الأموال والأهل ، أو عن الشركله فى الغى ، أو عن الآلهة المعبودة من دون الله ، وتمام الآية يشهد للكل .

فإن قيل : قد جاء فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الغال يأتى يوم القيامة حاملا عين ماغله على عنقه صامتا كان أو ناطقا هذا معنى الحديث ، فاندفع الجواب .

قلنا : على هذا يكون المراد بالآية الأخرى فرادى عن مال وأهل يعتزون بهما ويستنصرون ، ويشهد بصحته تمام الآية .

فإن قيل : كيف قال (هم درجات عند الله) والعبيد ليسوا نفس الدرجات ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : هم ذوو درجات أو أهل درجات ، فحذف المراد لعدم الإلباس . وقيل المراد بالدرجات الطبقات ، فلا يكون فيه إضمار معناه أنهم طبقات عند الله متفاوتون كتفاوت الدرجات .

فإن قيل : كيف يجعل لكل الفريقين درجات وأحد الفريقين لهم دركات لادرجات ؟

قلنا : الدرجات تستعمل فى الفريقين بدليل قوله تعالى فى سورة الأحقاف بعد ذكر الفريقين (ولكل درجات مما عملوا) وتحقيقه أن بعض أهل النار أخف عذابا فكانه فيها أعلى ، وبعضهم أشد عذابا ومكانه فيها أسفل ولو سلم اختصاص الدرجات بأهل الدرجات كان قوله (هم درجات) راجعا إليهم خاصة تقديره : أفمن اتبع رضوان الله وهم درجات عند الله كمن باء بسخط من الله وهم دركات ، إلا أنه حذف البعض لدلالة المذكور عليه .

فإن قيل : (الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم قالوا ذلك لما سمعوا قوله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) فكيف قال (سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء) أى ونكتب قتلهم الأنبياء ، وهم لم يقتلوا نبيا قط ؟

قلنا : لما رضوا بقتل أسلافهم الأنبياء كأنهم باشروا ذلك فأضيف إليهم ، وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن كثيرا .

فإن قيل : كيف قال (وأن الله ليس بظلام للعبيد) وظلام صيغة مبالغة من الظلم ، ولا يلزم من نفى الظلام نفى الظالم ، وعلى العكس يلزم ، فهلا قال ليس بظالم ليكون أبلغ فى نفى الظلم عن ذاته المقدسة ؟

قلنا : صيغة المبالغة جىء بها لكثرة العبيد لا لكثرة الظلم ، كما قال الله تعالى (ولا يظلم ربك أحدا) وقال: (عالم الغيب ـ و ـ علام الغيوب) لما أفرد المعمول لم يأت بصيغة المبالغة ، ونظيره قولهم : زيد ظالم لعبده ، وعمرو ظلام لعبيده ، فهما فى الظلم سيان . وكذلك قال الله تعالى (محلقين رءوسكم ومقصرين) فشدد لكثرة الفاعلين لا لتكرار الفعل ، أو الصيغة هنا للنسب أى لاينسب إليه ظلم ؛ فالمعنى ليس بذى ظلم . الثانى أن العذاب من العظيم القدر الكثير العدل لولا سبق الجناية يكون أفحش وأقبح من الظلم ممن ليس عظيم القدر كثير العدل ، فيطلق عليه اسم الظلام باعتبار زيادة قبح الفعل منه لا باعتبار تكروره ، فحاصله أن صيغة المبالغة تارة تكون باعتبار زيادة ذات الفعل ، وتارة باعتبار صفته ، ففعل الظلم لو وجد من الله تعالى وتقدس لكان أعظم من ألف ظلم يوجد من عبيده ، باعتبار زيادة وصف القبح ؛ ونظيره قوله تعالى (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) على ما يأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

فإن قيل : فى قوله تعالى (فإن كذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) من حق الجزاء أن يتعقب الشرط ، وهذا سابق له ؟

قلنا : جواب الشرط محذوف ، إذ لايصلح قوله (فقد كذب رسل من قبلك) جوابا لأنه سابق عليه ، ومعناه : وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل قبلك ، وضعا للسبب وهو تكذيبهم موضع المسبب وهو التأسى بهم .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (ولا يكتمونه) فى قوله (وإذ أخذ

الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) والأول مغن عن الثانى ؟

قلنا : معناه ليبيننه فى الحال ، ويدومون على ذلك البيان ولا يكتمونه فى المستقبل . الثانى أن الضمير الأول للكتاب ، والثانى لنعت النبى صلى الله عليه وسلم وذكره ، فإنه قد سبق ذكر النبى صلى الله عليه وسلم قبيل هذا .

فإن قيل : متى بينوا الكتاب لزم من بيانه بيان صفة النبى صلى الله عليه وسلم وذكره لأنه من جملة الكتاب الذى هو التوراة والإنجيل ، فقوله بعد ذلك ولا يكتمونه تكرارا ؟

قلنا : على هذا يكون تأكيدا .

فإن قيل : كيف قال (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) وقال فى موضع آخر (يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه) ويلزم من هذا أن لايدخل المؤمنين النار كما قالت المعتزلة والخارجية ؟

قلنا : أخزيته بمعنى أذللته وأهنته من الخزى وهو الذل والهوان ، وقوله (يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه) من الخزاية وهى النكال والفضيحة فكل من يدخل النار يذل وليس كل من يدخلها ينكل به ويفضح ، أو المراد بالآية الأولى إدخال الإقامة والخلود ، لا إدخال تحلة القسم المدلول عليها بقوله تعالى (وإن منكم إلا واردها) أو إدخال التطهير الذى يكون لبعض المؤمنين بقدر ذنوبهم ، وقيل إن قوله تعالى (يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه) كلام مبتدأ غير معطوف على ما قبله .

فإن قيل : كيف قال (سمعنا مناديا) والمسموع نداء المنادى لا نفس المنادى ؟

قلنا : لما قال مناديا ينادى صار تقديره : نداء مناد ، كما يقال سمعت زيدا يقول كذا : أى سمعت قول زيد فمناديا مفعول سمع ، وينادى حال دالة على محذوف مضاف للمفعول .

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا) وتكفير السيئات داخل فى غفران الذنوب ؟

قلنا : المعنى مختلف ، لأن الغفران مجرد فضل ، والتكفير محو السيئات بالحسنات .

فإن قيل : مافائدة قولهم (وتوفنا مع الأبرار) مع أنهم لاينفعهم توفيهم مع الأبرار ، بل النافع لهم كونهم من الأبرار ، سواء توفاهم معهم أو قبلهم أو بعدهم ؟

قلنا : معناه وتوفنا مخصوصين بصحبتهم معدودين فى جملتهم ، كما يقال أعطانى الأمير مع أصحاب الخلع والجوائز : أى جعلنى من جملتهم ، وإن تقدم إعطاؤه عنهم أو تأخر .

فإن قيل : كيف قال (وآتنا ما وعدتنا على رسلك) أى على لسان رسلك دعوه بإنجاز الوعد مع علمهم ، وقولهم أيضا (إنه لايخلف الميعاد) ؟

قلنا : الوعد من الله تعالى على ألسنة الرسل للمؤمنين عام يحتمل أن يراد به الخصوص كما فى أكثر عمومات القرآن ، فسألوا الله تعالى أن يجعلهم من الداخلين فى حكم الوعد . الثانى أنهم سألوا تعجيل النصر الذى وعدوا فإنه تعالى وعدهم النصر على أعدائهم غير موقت بوقت خاص .

فإن قيل : كيف يجوز أن يغتر الرسول بنعم الذين كفروا حتى نهى عن الاغترار بقوله تعالى (لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد) أى تصرفهم فيها بالتجارات متنعمين ؟

قلنا : معناه لايغرنكم أيها المؤمنون ، فإن رئيس القوم ومقدمهم يخاطب بشىء ، والمراد به أتباعه وجماعته . الثانى أنه عليه الصلاة والسلام كان غير مغتر بحالهم ، فقيل له ذلك تأكيدا وتثبيتا على الدوام عليه ، كما قيل له فلا تكونن ظهيرا للكافرين ـ ولاتكونن من المشركين ـ فلا تطع المكذبين) .

فإن قيل : كيف ينهى عن التقلب وهو مما ليس ينهى ؟

قلنا : معناه لاتغتر بتقلبهم ، فيكون تقلبهم قد غرك ، وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب ، لأن تقلبهم لو غره لاغترّ به فمنع السبب وهو غرور تقلبهم إياه ، ليمتنع المسبب وهو اغتراره بتقلبهم .

فإن قيل : كيف قال (لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد) ولم يقل لايغرنك نعمهم وأموالهم ، والذى يحتمل أن يغر الرسول والمؤمنين النعم والأموال لاالتقلب فى البلاد ؟

قلنا : المراد بتقلبهم تصرفهم فى التجارات والنعم والتلذذ بالأموال ، والفقير إنما يتألم وينكسر قلبه إذ رأى الغنىّ يتقلب فى النعمة ويتمتع بها فلذلك ذكر التقلب ، وقيل معناه : لايغرنك تقلبهم فى المعاصى غير مأخوذين بذنوبهم .

فإن قيل : كيف قال (أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) مع أن قوله «لهم أجرهم عند ربهم» موضع البشارة بالثواب ، وسرعة الحساب إنما تذكر فى موضع التهديد والعقاب ؟

قلنا : معناه لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا خوفا من حسابه فإنه سريع الحساب ، فهو راجع إلى ماقبله .

سورة قصة النساء

فإن قيل : قوله تعالى (وخلق منها زوجها) إذا كانت حواء مخلوقة من آدم ، ونحن مخلوقون منه أيضا ، تكون نسبة حواء إلى آدم نسبة الولد لأنها متفرعة منه ، فتكون أختا لنا لاأما .

قلنا : قال بعض المفسرين : « من » لبيان الجنس لاللتبعيض ، معناه : وخلق من جنسها زوجها كما فى قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) . الثانى وهو الذى عليه الجمهور أنها للتبعيض ، ولكن خلق حواء من آدم لم يكن بطريق التوليد كخلق الأولاد من الآباء ، فلا يلزم منه ثبوت البنتية والأختية فيها .

فإن قيل : كيف قال (وآتوا اليتامى أموالهم) واليتيم لايعطى ماله حتى يبلغ اتفاقا ؟

قلنا : المراد به إذا بلغوا ؛ وإنما سموا يتامى لقرب عهدهم بالبلوغ باعتبار ماكان ، كما تسمى الناقة عشراء بعد الوضع ، وقد يسمى البالغ يتيما باعتبار ماكان ، كما يسمى الحى ميتا والعنب خمرا باعتبار مايكون ، قال الله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) وقال (إنى أرانى أعصر خمرا) ومنه قولهم للنبي عليه الصلاة والسلام بعد ما نبأه الله : يتيم أبى طالب .

فإن قيل : أكل مال اليتيم حرام وحده ومع أموال الأوصياء ، فلم ورد النهى مخصوصا عن أكله معها لقوله تعالى (ولاتأكلوا أموالهم إلى أموالكم) أى معها ؟

قلنا : لأن أكل مال اليتيم مع الاستغناء عنه أقبح ، فلذلك خص بالنهى ولأنهم كانوا يأكلونه مع الاستغناء عنه ، فجاء النهى على ماوقع منهم .

فإن قيل : لما قال (مما ترك الوالدان والأقربون) دخل فيه القليل والكثير ، فما فائدة قوله « مما قلّ منه أو كثر » ؟

قلنا : إنما قال ذلك على جهة التأكيد والإعلام أن كل تركة تجب قسمتها لئلا يتهاون بالقليل من التركات ويحتقر ، فلا يقسم وينفرد به بعض الورثة

فإن قيل : كيف قال (ولأبويه لكل واحد منهما السدس مماترك إن كان له ولد) مع أنه لو كان الولد بنتا فللأب الثلث ؟

قلنا : الآية وردت لبيان الفرض دون التعصيب ، وليس للأب مع البنت بالفرض إلا السدس .

فإن قيل : كيف قطع على العاصى الخلود فى النار بقوله (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها) ؟

قلنا : أراد به من يعص الله بردّ أحكامه وجحودها وذلك كفر ، والكافر يستحق الخلود فى النار .

فإن قيل كيف قال (حتى يتوفاهن الموت) والتوفى والموت بمعنى واحد، فصار كأنه قال : حتى يميتهن الموت ؟

قلنا : معناه حتى يتوفاهن ملائكة الموت . الثانى معناه : حتى يأخذهن ملائكة الموت وتتوفى أرواحهن .

فإن قيل : كيف قال (إنما التوبة على الله) ولم يقل إنما التوبة على العبد ،مع أن التوبة واجبة على العبد ؟

قلنا : معناه إنما قبول التوبة على الله بحذف المضاف . الثانى أن معنى التوبة من الله رجوعه على العبد بالمغفرة والرحمة ، لأن التوبة فى اللغة الرجوع .

فإن قيل : كيف قال (بجهالة) ولو عمله بغير جهالة ثم تاب قبلت توبته؟

قلنا : معناه بجهالة بقدر قبح المعصية وسوء عاقبتها ، لابكونها معصية وذنبا ، وكل عاص جاهل بذلك حال مباشرة المعصية معناه أنه مسلوب كمال العلم به بسبب غلبة الهوى وتزيين الشيطان .

فإن قيل : كيف قال (ثم يتوبون من قريب) مع أنهم لو تابوا بعد الذنب من بعيد قبلت توبتهم ؟

قلنا : ليس المراد بالقريب مقابل البعيد إذ حكمهما واحد ، بل معناه قبل معاينة سلطان الموت ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما بقرينة قوله (حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن) .

فإن قيل : كيف قال (وآتيتم إحداهن قنطارا) الآية ، مع أن حرمة الأخذ ثابتة وإن لم يكن قد أعطاها المهر بل كان فى ذمته أو فى يده ؟

قلنا : المراد بالإيتاء الضمان والالتزام كما فى قوله تعالى (إذا سلمتم ما آتيتم) أى ما غنمتم والتزمتم .

فإن قيل: كيف قال (أتأخذونه بهتانا) وأخذ مهر المرأة ظلم وليس ببهتان لأن البهتان الكذب ؟

قلنا : ابن عباس وابن قتيبة قالا : المراد بالبهتان الظلم . وقال الزجاج المراد به الباطل ، والمشهور فى كتب اللغة أن البهتان أن يقول الإنسان على غيره مالم يفعله . قالوا : فالمراد به أن الرجل ربما رمى امرأته بتهمة ليتوصل بذلك إلى أن يأخذ منها مهرها ويفارقها . وقيل المراد به إنكاره أن لها مهرا فى ذمته .

فإن قيل : كيف قال (إلا ما قد سلف ،ولا تنكحوا) نهى عن الفعل المستقبل ، وإلا ما قد سلف ماض ، فكيف يصح استثناء الماضى من المستقبل ؟

قلنا : قيل إن إلا هنا بمعنى بعد كما فى قوله تعالى (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) وقيل هو استثناء من محذوف تقديره : فإنكم تعذبون به إلا ماقد سلف . وقيل فيه تقديم وتأخير تقديره : إنه كان فاحشة إلا ما قد سلف .

فإن قيل : كيف قال (إنه كان فاحشة) بلفظ الماضى ، مع أن نكاح منكوحة الأب فاحشة فى الحال وفى الاستقبال إلى يوم القيامة .

قلنا : كان تارة تستعمل للماضى المنقطع كقوله : كان زيد غنيا ، وكان الخزف طينا ، وتارة تستعمل للماضى المستمر المتصل للحال كقول أبى جندب الهذلى :

وكُنْتُ إذَا جارَى دعا لِمَضُوفَةٍ أُشَمِّرُ حتى يَنْصِفَ الساقَ مِئْزَرِى

أى وإلى الآن ، لأنه إنما يتمدح بصفة ثابتة له فى الحال ، لا بصفة زائلة ذاهبة ، والمضوفة بالفاء : الأمر الذى يشفق منه ، والقاف تصحيف، ومنه قوله تعالى (وكان الله بكل شىء عليما ـ وكان الله على كل شىء قديرا)

وما أشبه ذلك وما نحن فيه من هذا القبيل، وسيأتى الكلام فى كان بعد هذا إن شاء الله فى قوله تعالى (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) .

فإن قيل : كيف قال (وربائبكم اللاتى فى حجوركم) قيد التحريم بكون الربيبة فى حجر زوج أمها ، والحرمة ثابتة مطلقا ، وإن لم تكن فى حجره ؟

قلنا : أخرج ذلك مخرج العادة ، والغالب لامخرج الشرط والقيد ، ولهذا اكتفى فى موضع الإحلال بنفى الدخول فى قوله تعالى (فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) فتأمل .

فإن قيل : لما قال (من نسائكم اللاتى دخلتم بهن) ثم قال فى آخر الآية (وأحل لكم ماوراء ذلكم) علم من مجموع ذلك أن الربيبة لاتحرم إذا لم يدخل بأمها فمافائدة قوله (فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) ؟

قلنا : فائدته أن لا يتوهم أن قيد الدخول خرج مخرج العادة والغالب لامخرج الشرط كما فى الحجر .

فإن قيل : كيف قال فى نكاح الإماء (فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن) والمهر ملك المولى ، وإنما يجب تسليمه إلى المولى لا إلى الأمة ؟

قلنا : لما كانت الأمة وما فى يدها ملك المولى كان أداؤه إليها كأدائه إلى المولى . الثانى أن معناه : وآتوا مواليهن أجورهن بطريق حذف المضاف .

فإن قيل : كيف قال (ذلك لمن خشى العنت منكم) وجواز نكاح الأمة ثابت من غير خوف العنت عند بعض العلماء ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : ذلك أصوب وأصلح لمن خشى العنت منكم فيكون شرطا لما هو الأرشد والأصلح كما فى قوله تعالى (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا) .

فإن قيل : كيف قال (يريد الله ليبين لكم) والإرادة إنما تقرن بأن يقال : يريد أن يفعل ، وقال الله تعالى (يريد الله أن يخفف عنكم) ؟

قلنا : قد ورد فى الكتاب العزيز اللام بمعنى أن كثيرا قال الله تعالى (وأمرت لأعدل بينكم) وقال الله تعالى (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) وقال تعالى فى موضع آخر (يريدون ليطفئوا) فكذلك هذا .

فإن قيل : كيف خص التجارة بالذكر فى قوله تعالى (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) مع أن الهبة والصدقة والوصية والضيافة وغيرها تقتضى الحل أيضا كالتجارة ؟

قلنا : إنما خصها بالذكر لأن معظم تصرف الخلق فى الأموال إنما هو بالتجارة ، أو لأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها .

فإن قيل : قوله تعالى (لو تسوى بهم الأرض) قالوا معناه أنهم يتمنون أن يجعلوا يوم القيامة ترابا كما جاء فى آخر سورة النبأ ، وظاهر اللفظ يعطى أنهم يتمنون أن تجعل الأرض مثلهم ناسا كما تقول سويت زيدا بعمرو ، ومعناه جعلت زيدا وهو المسوى مثل عمرو هو المسوى به .

قلنا : قولهم سويت هذا بهذا له معنيان . أحدهما إجراء حكم الثانى على الأول كقولك سويت زيدا بعمرو ، وكما تقول ساويت . والثانى أن يكون المسوى مفعولا والمسوى به آلة كقولك : سويت القلم بسكين والثوب بالمقراض ، بمعنى أصلحته به . قلنا : فقوله (ثم تسوى بهم الأرض) يحتمل وجهين : أن يكون بمعنى ساويت ويكون من المقلوب : أى لو يسوون بالأرض بجعلهم ترابا كقوله تعالى (لتنوء) قوله (وامسحوا برءوسكم) فى قول من لم يجعل الباء زائدة كقولهم : أدخلت الخاتم فى أصبعى ونحوه ، وأن

يكون بمعنى الآلة . معناه: ودوا لو تمهد بهم الأرض وتوطد، بأن يجعلوا ترابا ويبثوا فى وهادها وحضيضها لتساوى بقاعها وآكامها ، وقوله تعالى (لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) انخفاضا ولا ارتفاعا وإن كان يدل على أن الأرض يوم القيامة متساوية بالسطوح ، فجعلها متساوية بالسطوح إن كان قبل البعث ، فإذا بعث الموتى من قبورهم خلت منهم قبورهم وحفرهم فحصل فى الأرض تفاوت ، وإن كان بعد البعث فيجوز أن يكون هذا التمنى سابقا على جعلها متساوية السطوح .

فإن قيل : قولنا هذا خير من ذلك يقتضى أن يكون فى كل واحد منهما خير حتى يصح تفضيل أحدهما على الآخر ، لأن خيرا فى الأصل أفعل تفضيل ، فكيف قال (لكان خيرا لهم وأقوم) بعد ماسبق من قولهم فى أول الآية ؟

قلنا : المراد بالخير هاهنا الخير الذى هو ضد الشر ، لا الذى هو أفعل التفضيل كما تقول : فى فلان خير .

فإن قيل : كيف قال (وكان أمر الله مفعولا) والمفعول مخلوق ، وأمر الله وقوله غير مخلوق ؟

قلنا : ليس المراد بهذا الأمر ماهو ضد للنهى ، بل المراد به ما يحدثه من الحوادث ، فإن الحادثة تسمى أيضا أمرا ، ومنه قوله تعالى (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) وقوله (أتاها أمرنا ليلا أو نهارا) .

فإن قيل : كيف قال (إن الله لايغفر أن يشرك به) مع أن شرك الساهى والمكره والتائب مغفور ؟

قلنا : المراد به شرك غير هؤلاء المخصوص من عموم الآية بأدلة من خارج ؛ أو نقول قيد المشيئة متعلق بالفعلين المنفى والمثبت ، كأنه قال : إن الله لايغفر الشرك لمن يشاء ويغفر مادونه لمن يشاء .

فإن قيل : هذه الآية تدل على أن غير الشرك من الذنوب لايقطع بانتفاء مغفرته بل ترجى مغفرته ، وقوله تعالى (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا) يدل على القطع بانتفاء المغفرة فى الكفر والظلم وهما غير الشرك ، فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : المراد بالظلم هنا الشرك ، قال مقاتل : والشرك يسمى ظلما ، قال الله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) فكأنه قال : إن الذين أشركوا . الثانى أن قوله تعالى (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) ليس قطعا بالمغفرة لغير المشرك وهو تعليق للمغفرة له بالمشيئة ؛ ثم بين بالآية الأخرى أن الكافر ليس داخلا فيمن يشاء المغفرة له ، فيتعين دخوله فيمن لايغفر له لأنه لا واسطة بينهما . الثالث أنه عام خص بالآية الثانية كما خص قوله تعالى (إن الله يغفر الذنوب جميعا) بالآية الأولى ، ويؤيد هذا إجماع الأمة على أن الكافر والمشرك سواء فى عدم المغفرة والتخليد فى النار ، وقوله تعالى (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها) .

فإن قيل : كيف قال (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء) ذمهم على ذلك ،وقال أيضا (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) وقد زكى النبى صلى الله عليه وسلم نفسه فقال : « والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض » . ويوسف عليه السلام قال : (اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) ؟

قلنا : إنما قال ذلك حين قال المنافقون : اعدل فى القسمة ، تكذيبا لهم حيث وصفوه بخلاف ماكان عليه من العدل والأمانة ، وأما يوسف عليه السلام فإنه إنما قال ذلك ليتوصل به إلى ماهو وظيفة الأنبياء ، وهو إقامة العدل وبسط الحق وإمضاء أحكام الله تعالى ، ولأنه علم أنه لا أحد فى ذلك الوقت أقوم منه بذلك العمل ، فكان متعينا عليه ، فلذلك طلبه وأثنى على

نفسه ، ومع ذلك كله فإنه روى عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال « رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة » .

فإن قيل : كيف قال (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) إلى أن قال (أولئك الذين لعنهم الله) حصر لعنته فيهم لأن هذا الكلام للحصر ، وليست لعنة الله منحصرة فيهم بل هى شاملة لجميع الكفار .

قلنا : قوله (أولئك) إشارة إلى القائلين (للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) وهذا القول موجود من جميع الكفار ، فكانت اللعنة شاملة للجميع .

فإن قيل : كيف قال (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) أخبر أنه يعذب جلودهم التى لم تعص مكان الجلود العاصية ، وتعذيب البرىء ظلم ؟

قلنا : الجلود المجددة وإن عذبت فالألم بتعذيبها إنما يحصل للقلوب ، وهى غير مجددة بل هى العاصية باعتقاد الشرك ونحوه . الثانى أن المراد بتبديلها إعادة النضيج غير نضيج ، والجلود هى الجلود بعينها ، وإنما قال غيرها باعتبار صفة النضيج وعدمه ، كما قال الله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) وأراد تبديل الصفات لا تبديل الذات ، وكما قال الشاعر :

مـا النـاسُ بالنـاسِ الذيـنَ عَهِـدْتُهم ... وَمـا الـدارُ بالـدارِ التـى كُنْـتُ أعْهَـدُ

فإن قيل : كيف قال (وندخلهم ظلا ظليلا) وليس فى الجنة شمس يكون فيها حر يحتاج بسببه إلى ظل ظليل أو غير ظليل ؟

قلنا : هو مجاز عن المستقر المستلذ المستطاب جريا على المتعارف بين الناس ، لأن بلاد الحجاز شديدة الحر ، فأطيب ما عندهم موضع الظل ،

فخاطبهم بما يعقلون ويفهمون ، كما قال عز وجل (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وليس فى الجنة طلوع شمس ولاغروبها فيكون فيها بكرة وعشيا ، لكن لما كان فى عرفهم تمام نعمة الغذاء وكمال وظيفته أن يكون حاضرا مهيأ فى طرفى النهار عبر عن حضوره وتهيئته بذلك .

فإن قيل : كيف قال (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) وهذا مدح لمن يطيع الله والرسول ، وعادة العرب فى صفات المدح الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، وهذا عكسه لأنه نزول من الأعلى إلى الأدنى ؟

قلنا : هذا ليس من الباب الذى ذكرتموه ، بل هو كلام المقصود منه الإخبار عن كون المطيعين لله ورسوله يكونون يوم القيامة مع الأشراف والخواص ، ثم كأن سائلا سأل من الأشراف والخواص ففصلوا له زيادة فى الفائدة بعد تمام المعنى المقصود بالذكر بقوله (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم) وأتى فى تفصيلهم بذكر الأشرف فالأشرف والأخص فالأخص ، إذ هو الغالب فى تعديد الأشراف والخواص كما فى قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وقوله (شهد الله أنه لا إله إلا هو) الآية ، والدليل على أن المراد من الآية الإخبار جملة لاتفصيلا ، أنه لما علم عباده أن يسألوه هذا المعنى أرشدهم إلى طلبه مجملا بقوله (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) .

فإن قيل: كيف قال (إن كيد الشيطان كان ضعيفا)و قال فى كيد النساء (إن كيدكن عظيم) ومعلوم أن كيد الشيطان أعظم من كيد النسوان ؟

قلنا : المراد أن كيد الشيطان ضعيف فى جنب نصرة الله وحفظه لأوليائه المخلصين من عباده ، كما قال الله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وقال حكاية عن إبليس (إلا عبادك منهم المخلصين) والمراد بالآية الأخرى أن كيد النسوان عظيم بالنسبة إلى الرجال . الثانى القائل أن كيدكن عظيم هو عزيز مصر لا الله تعالى ، فلا تناقض ولا معارضة .

فإن قيل: كيف عاب على المشركين والمنافقين قولهم (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) وردّ عليهم ذلك بقوله (قل كل من عند الله) ثم قال بعد ذلك (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وأخبره بعين قولهم المردود عليهم ؟

قلنا : قيل إن الثانى حكاية قولهم أيضا، وفيه إضمار تقديره: (فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا) فيقولون (ما أصابك من حسنة) الآية .

وقيل معناه : ما أصابك أيها الإنسان من حسنة أى رخاء ونعمة فمن فضل الله ، وما أصابك من سيئة: أى قحط وشدة فبشؤم فعلك ومعصيتك لابشؤم محمد عليه الصلاة والسلام كما زعم المشركون ، ويؤيده قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) .

فإن قيل : كيف قيل إن الشر والمعصية بإرادة الله ، والله تعالى يقول (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ؟

قلنا : ليس المراد بالحسنة والسيئة الطاعة والمعصية ، بل القحط والرخاء والنصر والهزيمة على ما اختلف فيه العلماء ، ألا ترى أنه قال (ماأصابك) ولم يقل ماعملت من سيئة .

فإن قيل : قوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) السؤال فيه من وجهين : أحدهما أنه يدل من حيث المفهوم على أن فى القرآن اختلافا قليلا ، وإلا لما كان للتقييد بوصف الكثرة فائدة مع أنه لااختلاف فيه أصلا . الثانى أنه إنما يدل عدم الاختلاف الكثير فى القرآن على أنه من عند الله ، أن لو كان كل كتاب من عند غير الله فيه اختلاف كثير ، وليس الواقع كذلك لأن المراد من الاختلاف إما الكذب والتباين فى نظمه ، وإما التناقض فى معانيه ، أو التفاوت بين بعضه وبعضه من الجزالة والبلاغة والحكمة وكثرة الفائدة .

قلنا : الجواب عن السؤال الأول أن التقييد بوصف الكثرة للمبالغة في إثبات الملازمة ، فكأنه قال : لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فضلا عن القليل ، لكنه من عند الله فليس فيه اختلاف كثير ولا قليل فكيف يكون من عند غير الله ؟ فهذا هو المقصود من التقييد بوصف الكثرة لا أن القرآن مشتمل على اختلاف قليل . وعن السؤال الثاني أن كل كتاب في فن من العلوم إذا كان من عند غير الله يوجد فيه اختلاف ما بأحد التفاسير المذكورة لامحالة يعرف ذلك بالاستقراء ، والقرآن جامع لفنون من علوم شتى ، فلو كان من عند غير الله لوجد فيه بالنسبة إلى كل فن اختلاف ما ، فيصير مجموع الاختلاف اختلافا كثيرا .

فإن قيل : كيف قال (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا) استثنى القليل على تقدير انتفاء الفضل والرحمة ، مع أنه لولا فضله بالهداية والعصمة ورحمته لاتبع الكل الشيطان من غير استثناء ؟

قلنا : الاستثناء راجع إلى ما تقدم ، تقديره أذاعوا به إلا قليلا . وقيل لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلا . وقيل معناه : ولولا فضل الله عليكم بإرسال الرسل لاتبعتم الشيطان في الكفر والضلال إلا قليلا منكم كانوا يهتدون بعقولهم إلى معرفة الله تعالى وتوحيده ، كقس بن ساعدة وورقة بن نوفل ونحوهما قبل بعث النبي عليه الصلاة والسلام .

فإن قيل : على الجواب الأخير إذا كان المراد أن من لوازم نفي الفضل والرحمة بالطريق الخاص ، وهو بإرسال الرسل ، اتباع الشيطان ، ونفي الفضل والرحمة بالطريق الخاص معلوم حق في الرسول لأنه لم يرسل إليه رسول ومع هذا لم يتبع الشيطان ؟

قلنا : لانسلم أنه لم يرسل إليه رسول ، بل أرسل إليه الملك وأنه رسول. الثاني التقييد في الفضل والرحمة بتعيين الطريق يكون في حق الأمة ، أما في حق الرسل ومن آمن بغير رسول يكون اللفظ باقيا على ظاهره .

فإن قيل : هذه الآية تقتضى وجود فضله ورحمته المانع من اتباع أكثر الناس للشيطان مع أن الواقع خلافه فإن أكثر الناس كفرة ، يؤيده قوله صلى الله عليه وسلم « الإسلام فى الكفر كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود » .

قلنا : الخطاب فى هذه الآية للمؤمنين لا لكل الناس .

فإن قيل : إذا كان الخطاب خاصا للمؤمنين فما معنى الاستثناء ، فإنه إن كان المراد به اتباعه فيما يدعو إليه ويوسوس من المعاصى فأكثر المؤمنين متبعون له فى ذلك ولو فى العمر مرة واحدة فى بعض الكبائر ، وإن كان المراد به اتباعه فى دعائه إلى الكفر فأحد من المؤمنين لم يتبعه فى الكفر .

قلنا : معناه ولولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون ورحمته بالهداية بالرسول لاتبعتم الشيطان فى الكفر وعبادة الأصنام وغير ذلك ، إلا قليلا منكم كقس ابن ساعدة وورقة بن نوفل ونحوهما ، فإنهم لولا الفضل[1] والرحمة بالرسول لما اتبعوا الشيطان لفضل ورحمة ، خصهم الله تعالى بها غير إرسال الرسول وهو زيادة الهداية ونور البصيرة .

فإن قيل : كيف قال (ومن أصدق من الله حديثا) مع أنه لا تفاوت بين صدق وصدق فى كونه صدقا كما فى القول والعلم لا يقال هذا القول أقول ولا هذا العلم أعلم ولا هذا الصدق أصدق لأن الصدق عبارة عن الإخبار المطابق للواقع ، ومتى ثبت أنه مطابق للواقع لا يحتمل الزيادة والنقصان ؟

قلنا : أصدق هنا صفة للقائل لا صفة للقول ، والقائلان يتفاوتان فى الصدق فى نفس الأمر وإن تساويا فى قصة واحدة أخبرا بها وكان كل واحد منهما صادقا فيها . وحاصله أن هذا استفهام معناه النفى كما فى قوله تعالى (ومن يغفر الذنوب إلا الله) معناه لا أحد يغفرها إلا الله ، فمعناه هنا ، لا أحد أصدق فى حديثه من الله ، فيكون ترجيحا للمحدِّث على المحدث فى الصدق ، لا ترجيحا لأحد الصدقين على الآخر ، ولا شك أنه لا أحد

(١) (قوله فإنهم لولا الفضل الخ) فيه نظر ظاهر ، فليتأمل اه .

أصدق فى حديث من الله لأن غيره يجوز عليه غير الصدق عقلا ، ويقع منه أيضا ولو نادرا ، والله تعالى منزه عن الأمرين جميعا .

فإن قيل : قوله تعالى (كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) يقال : ركسه وأركسه : أى رده ، فيصير معناه كلما ردوا إلى الفتنة ردوا فيها وهو تكرار .

قلنا : جوابه أن الفاعل مختلف فانتفى التكرار وصار المعنى : كلما دعاهم قومهم إلى الشرك ردهم الله إليه وقلبهم بشؤم نفاقهم ، فالرد الأول بمعنى الدعاء ، والركس بمعنى الرد والنكس .

فإن قيل : كيف قال (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ) مع أنه ليس له أن يقتله خطأ .

قلنا : إلا بمعنى ولا كما فى قوله تعالى (إنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم) وقوله تعالى (لكيلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم) . الثانى معناه أنه ليس له أن يقتله مع تيقن إيمانه، بل له أن يقتله إذا غلب على ظنه أنه ليس بمؤمن وهو فى صف المشركين وإن كان فى نفس الأمر مؤمنا .

فإن قيل : كيف يقال إن أهل الكبائر من المؤمنين لا يخلدون فى النار والله تعالى يقول (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) .

قلنا : معناه متعمدا قتله بسبب إيمانه، والذى يفعل ذلك يكون كافرا . الثانى أن المراد بالخلود طول المكث ، لأن الخلود إذا لم يكن بالأبدية يطلق على طول المكث ، كما يقال : خلد السلطان فلانا فى الحبس إذا أطال حبسه .

فإن قيل : كيف قال (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) ثم قال (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه) ؟

قلنا : المراد الأول التفضيل على القاعدين عن الغزاة بعذر ، فإن لهم فضلا لكونهم مع الغزاة بالهمة والعزيمة والقصد الصالح ، ولهذا قال (وكلا وعد الله الحسنى) يعنى الجنة : أى من المجاهدين والقاعدين بعذر ، والمراد بالثانى التفضيل على القاعدين عن الغزاة بغير عذر ، وأولئك لا فضل لهم بل هم مقصرون ومسيئون ، فظهر فضل الغزاة عليهم بدرجات لانتفاء الفضل لهم ؟

فإن قيل : كيف صح قولهم (كنا مستضعفين فى الأرض) جوابا لقول الملائكة (فيم كنتم) ، مع أنه ليس مطابقا للسؤال ، والجواب المطابق أن يقولوا كنا فى كذا أو لم نكن فى شىء ؟

قلنا : معنى فيم كنتم التوبيخ بأنهم لم يكونوا فى شىء من الدين حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا فصار قوله فيم كنتم مجازا عن قوله لم تركتم الهجرة ؟ فقالوا كنا مستضعفين ، اعتذارا عما وبخوا به تعللا ، فردت عليهم الملائكة ذلك بقولهم (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) يعنى أنكم إن كنتم عاجزين عن الهجرة إلى المدينة لبعدها عليكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد القريبة منكم التى تقدرون فيها على إظهار دين الإسلام .

فإن قيل : كيف قال (فقد وقع أجره على الله) أى وجب ، والعبد لايستحق على مولاه أجرا لأنه ليس بأجير له إنما هو عبد قنّ ؟

قلنا : معناه وجب من جهة أنه وعد عباده أنه لايضيع أجر من أحسن عملا ، والخلف فى وعده عز وجل محال ، فالوجوب من هذه الجهة ، مع أن ذلك الوعد ابتداء فضل منه .

فإن قيل : كيف شرط فى إباحة القصر للمسافر خوف العدو بقوله (وإذا ضربتم فى الأرض) الآية ، والقصر جائز مع أمن المسافر ؟

قلنا : خرج ذلك مخرج الغالب لامخرج الشرط ، وغالب أسفار رسول

الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه لم تخل من خوف العدو فصار نظير قوله تعالى (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا) الثانى أن الكلام قد تم عند قوله تعالى (أن تقصروا من الصلاة) وقوله (إن خفتم) كلام مستأنف ، وجوابه محذوف تقديره : فاحتاطوا أو تأهبوا . الثالث أن المراد به القصر من شروطها وأركانها حالة اشتداد الخوف بترك الركوع والسجود والنزول عن الدابة واستقبال القبلة ونحو ذلك ، لامن عدد الركعات ، وذلك القصر مشروط بالخوف .

فإن قيل : كيف قال (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) ، وكان لفظ دال على المعنى ، والصلاة فى الحال وإلى يوم القيامة أيضا على المؤمنين فرض موقت ؟

قلنا « كان » فى القرآن العزيز على خمسة أوجه : كان بمعنى الأزل والأبد كما فى قوله تعالى (وكان الله عليما حكيما) . وكان بمعنى المضى المنقطع كما فى قوله تعالى (وكان فى المدينة تسعة رهط) وهو الأصل فى معانى كان كما تقول : كان زيد صالحا أو فقيرا أو مريضا ونحو ذلك . وكان بمعنى الحال كما فى قوله تعالى (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) . وكان بمعنى الاستقبال كما فى قوله تعالى (وكان من الكافرين) أى صار .

فإن قيل : كيف قال (وترجون من الله مالا يرجون) والكافرون أيضا يرجون الثواب فى محاربة المؤمنين ، لأنهم يعتقدون أن دينهم حق ، وأنهم ينصرون دين الله ويذبون عنه ويقاتلون أعداءه ، كما يعتقد المؤمنون ، فالرجاء مشترك ؟

قلنا : قيل إن الرجاء هنا بمعنى الخوف كما فى قوله تعالى (مالكم لا ترجون لله وقارا) وقوله تعالى (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) وقول الشاعر : * إذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا *

وعلى قول من قال إنه بمعنى الأمل تقول : قد بشر الله المؤمنين فى القرآن

ووعدهم بإظهار دينهم على الدين كله ، ومثل هذه البشارة والوعد لم يوجد فى سائر الكتب فافترقا . وقيل الرجاء مايكون مستندا إلى سبب صحيح ومقدمات حقة ، والطمع ما يكون مستندا إلى خلاف ذلك ؛ فالرجاء للمؤمنين ، وأما الكافرون فلهم طمع لا رجاء .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (أو يظلمْ نفسه) بعد قوله (ومن يعمل سوءا) وظلم النفس من عمل السوء ، فلم لم يقتصر على الأول مع أن الثانى داخل فيه ؟

قلنا : « أو » بمعنى الواو ، فمعناه ويظلم نفسه بذلك السوء حيث دساها بالمعصية . وقيل المراد بعمل السوء التلبس بما دون الشرك ، وبظلم النفس الشرك . وقيل المراد بعمل السوء الذنب المتعدى ضرره إلى الغير ، ويظلم النفس الذنب المقتصر ضرره على فاعله .

فإن قيل : قوله تعالى (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك) ظاهره نفى وجود الهم منهم بإضلاله ، والمنقول فى التفاسير أنهم هموا بإضلاله ، وزادوا على الهم الذى هو القصد القول المضل أيضا ، يعرف ذلك من تفسير أول القصة وهو قوله تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما واستغفر الله) ؟

قلنا: قوله (لهمت) ليس جواب « لولا » بل هو كلام مقدم على لولا ، وجوابها فى التقدير مقول على طريق القسم ، وجواب لولا محذوف تقديره لقد همت طائفة منهم أن يضلوك ولولا فضل الله عليك ورحمته لأضلوك .

فإن قيل : النجوى فعل ومن اسم ، فكيف صح استثناء الاسم من الفعل فى قوله تعالى (لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة) ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : إلا نجوى من أمر بصدقة ، فيكون استثناء

الفعل من الفعل ، ونظيره قوله تعالى (ولكن البر من) تقديره : برّ من آمن بالله .

فإن قيل : كيف قال (إلا من أمر) ثم قال (ومن يفعل ذلك) ؟

قلنا : ذكر الآمر بالخير ليدل به على خيرية الفاعل بالطريق الأولى ، ثم ذكر الفاعل ووعده الأجر العظيم إظهارا لفضل الفاعل المؤتمر على الآمر الثانى . أنه أراد : ومن يأمر بذلك ، فعبر عن الأمر بالفعل كما يعبر به عن سائر أنواع الفعل ، وإذا كان الآمر موعودا بالأجر العظيم كان الفاعل موعودا به بطريق الأولى .

فإن قيل : كيف قال (إن يدعون من دونه إلا إناثا) أى ما يعبدون من دون الله إلا اللات والعزى ومناة ونحوها وهى مؤنثة ، ثم قال (وإن يدعون إلا شيطانا مريدا) أى مايعبدون إلا الشيطان ؟

قلنا : معناه أن عبادتهم للأصنام هى فى الحقيقة عبادة للشيطان ، إما لأنهم أطاعوا الشيطان فيما سول لهم وزين من عبادة الأصنام بالإغواء والإضلال ، أو لأن الشيطان موكل بالأصنام يدعو الكفار إلى عبادتها شفاها ويتزيا للسدنة فيكلمهم ليضلهم .

فإن قيل : كيف يقال إن العبد يحكم بكونه من أهل الجنة بمجرد الإيمان ، والله تعالى شرط لذلك العمل الصالح بظاهر قوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) وقوله (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) وإلا لما كان للتقييد فائدة ؟

قلنا : قيل إن المراد بالعمل الصالح الإخلاص فى الإيمان ، وقيل الثبات عليه إلى الموت ، وكلاهما شرط فى كون الإيمان سببا لدخول الجنة .

فإن قيل : كيف قال (من يعمل سوءا يجزيه) والتائب المقبول التوبة

غير مجزى بعمله، وكذلك من عمل سيئة ثم أتبعها حسنة ، لأنها مذهبة لها وماحية بنص القرآن ؟

قلنا : المراد من يعمل سوءا ويمت مصرا عليه، فإن تاب منه لم يجز به . الثانى أن المؤمن يجازى فى الدنيا بما يصيبه فيها من المرض وأنواع المصائب والحسن كما جاء فى الحديث ، والكافر يجازى فى الآخرة .

فإن قيل : كيف خص المؤمنين الصالحين بأنهم لايظلمون بقوله (ومن يعمل من الصالحات) الآية مع أن غيرهم لايظلم أيضا ؟

قلنا : قوله (ولايظلمون نقيرا) راجع إلى الفريقين عمال السوء وعمال الصالحات لسبق ذكر الفريقين . الثانى أن يكون من باب الإيجاز والاختصار فاكتفى بذكره عقب الجملة الأخيرة عند ذكر أحد الفريقين لدلالته على إضماره عقب ذكر الفريق الآخر ، ولا يظلم المؤمنون بنقصان أعمالهم ، ولا الكافرون بزيادة عقاب ذنوبهم . الثالث أن المراد بالظلم نفى نقصان ثواب الطاعات ، وهذا مخصوص بالمؤمنين ، لأن الكافرين ليس لهم على أعمالهم ثواب ينقص منه .

فإن قيل : طلب الإيمان من المؤمنين تحصيل حاصل ، فكيف قال (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) الآية ؟

قلنا : معناه : يا أيها الذين آمنوا بعيسى آمنوا بالله ورسوله محمد . وقيل معناه : يا أيها الذين آمنوا يوم الميثاق آمنوا الآن . وقيل معناه : يا أيها الذين آمنوا علانية آمنوا سرا .

فإن قيل : قوله تعالى (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم (وإن كان للكافرين نصيب) لم سمى ظفر المؤمنين فتحا وظفر الكافرين نصيبا ؟

قلنا : تعظيما لشأن المؤمنين وتحقيرا لحظ الكافرين ، لأن ظفر المسلمين أمر عظيم ، لأنه متضمن نصرة دين الله وعزة أهله ، تفتح له أبواب السماء

حتى ينزل على أولياء الله ، وظفر الكافرين ليس إلا حظا دنيئا وعرضا من متاع الدنيا يصيبونه ، وليس بمتضمن شيئا مما ذكرنا .

فإن قيل : كيف قال (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) وقد نصر الكافرين على المؤمنين يوم أحد وفى غيره أيضا إلى يومنا هذا ؟

قلنا : المراد به السبيل بالحجة والبرهان ، والمؤمنون غالبون بالحجة دائما .

فإن قيل : كيف كان المنافق أشد عذابا من الكافر حتى قال الله تعالى فى حقهم (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) مع أن المنافق أحسن حالا من الكافر ، بدليل أنه معصوم الدم وغيره محكوم عليه بالكفر ، ولهذا قال الله تعالى فى حقهم (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) فلم يجعلهم مؤمنين ولا كافرين ؟

قلنا : المنافق وإن كان فى الظاهر أحسن حالا من الكافر إلا أنه عند الله فى الآخرة أسوأ حالا منه لأنه شاركه فى الكفر وزاد عليه الاستهزاء بالإسلام وأهله والمخادعة لله وللمؤمنين .

فإن قيل : الجهر بالسوء غير محبوب لله تعالى أصلا ، بل المحبوب عنده العفو والصفح والتجاوز فكيف قال : لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم : أى إلا جهر من ظلم .

قلنا : معناه ولا جهر من ظلم قالا بمعنى ولا وقد سبق نظيره وشاهده فى قوله تعالى (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ) .

فإن قيل : كيف يجوز دخول « بين » على أحد فى قوله تعالى (ولم يفرقوا بين أحد منهم) وبين تقتضى اثنين فصاعدا ، يقال فرقت بين زيد وعمرو ، وبين القوم ، ولا يقال فرقت بين زيد ؟

قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه فى قوله تعالى (عوان بين ذلك) فى آخر سورة البقرة أيضا .

فإن قيل : ما فائدة إعادة الكفر فى الآية الثانية بقوله تعالى (وبكفرهم) بعد قوله (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله) الآية .

قلنا : لأنه قد تكرر الكفر منهم فإنهم كفروا بموسى وعيسى عليهما السلام ، ثم بمحمد عليه الصلاة والسلام، فعطف بعض كفرهم على بعض .

فإن قيل : اليهود كانوا كافرين بعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة، فكيف أقروا أنه رسول الله بقولهم (إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) ؟

قلنا : قالوه على طريق الاستهزاء كما قال فرعون : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون .

فإن قيل : كيف وصفهم بالشك بقوله (وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه) ثم وصفهم الظن بقوله(مالهم به من علم إلا اتباع الظن) والشك تساوى الطرفين، والظن رجحان أحدهما ؛ فكيف يكونون شاكين ظانين، وكيف استثنى الظن من العلم وليس الظن فردا من أفراد العلم بل هو قسيمه ؟

قلنا : استعمل الظن بمعنى الشك مجاز لما بينهما من المشابهة فى انتفاء الجزم ، وأما استثناء الظن من العلم فهو استثناء من غير الجنس كما فى قوله تعالى (لايسمعون فيها لغوا إلا سلاما) وقيل لأن المراد بالشك هنا مايشمل الظن ، واستثناء الظن من العلم فى الآية منقطع ، فإلا فيها بمعنى لكن كما فى قوله تعالى (لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما) وما أشبهه) ؟

فإن قيل : كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه لهم من الأدلة العقلية الموصلة إلى معرفته حتى قال لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ؟

قلنا : الرسل والكتب منبهة من الغفلة ، وباعثة على النظر فى أدلة العقل

ومفصلة لمجمل الدنيا وأحوال التكاليف التى لايستقل العقل بمعرفتها ، فكان إرسالهم إزاحة للعلة وتتميما لإلزام الحجة ، لئلا يقولوا (لولا أرسلت إلينا رسولا) فيوقظنا من سنة الغفلة وينبهنا لما وجب الانتباه له.

فإن قيل : كيف قال (أنزله بعلمه) ولم يقل أنزله بقدرته أو بعلمه وقدرته ، مع أن الله تعالى لايفعل لا عن علم وقدرة ؟

قلنا : معناه أنزله متلبسا بعلمه : أى عالما به ، أو وفيه علمه : أى معلومه أو معلمه من الشرائع والأحكام . وقيل معناه : أنزله عليك بعلم منه إنك أولى بإنزاله عليك من سائر خلقه .

فإن قيل : كلام الله صفة قديمة قائمة بذاته ، وعيسى عليه الصلاة والسلام مخلوق وحادث فكيف صح إطلاق الكلمة عليه فى قوله تعالى (رسول الله وكلمته) ؟

قلنا : معناه أن وجوده فى بطن أمه كان بكلمة الله تعالى ، وهو قوله «كن» من غير واسطة أب ، بخلاف غيره من البشر سوى آدم . وقيل المراد بالكلمة الحجة .

فإن قيل على الوجه الأول : لو كان صحة إطلاق الكلمة على عيسى صلوات الله على نبينا وعليه لهذا المعنى لصح إطلاقها على آدم عليه الصلاة والسلام لأن هذا المعنى فيه أتم وأكمل لأنه وجد بهذه الكلمة من غير واسطة أب ولا أم أيضا .

قلنا : لانسلم أنه لايصح إطلاقها عليه لهذا المعنى ، بل يصح .

فإن قيل : لو صح إطلاقها عليه لجاء به القرآن كما جاء فى حق عيسى عليه الصلاة والسلام ؟

قلنا : خص ذلك بعيسى لأن المجيء فى حق عيسى عليه الصلاة والسلام إنما كان للرد على من افترى عليه وعلى أمه ونسبه إلى أب ، ولم يوجد هذا

المعنى فى حق آدم عليه الصلاة والسلام لاتفاق الناس كلهم على أنه غير مضاف إلى أب ولا إلى أم .

سورة المائدة

فإن قيل : كيف الارتباط والمناسبة بين قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) وقوله (أحلت لكم بهيمة الأنعام) ؟

قلنا : المراد بالعقود عهود الله عليهم فى تحليل حلاله وتحريم حرامه ، فبدأ بالمجمل ثم أتبعه بالمفصل من قوله (أحلت لكم بهيمة الأنعام) وقوله بعده (حرمت عليكم الميتة) الآية .

فإن قيل : ما أكله السبع وعدم وتعذر أكله ، فكيف يحسن فيه التحريم حتى قال (وما أكل السبع) ؟

قلنا : معناه وما أكل منه السبع ، يعنى الباقى بعد أكله .

فإن قيل : قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) يدل من حيث المفهوم عرفا على أنه لم يرض لهم الإسلام دينا قبل ذلك اليوم ، وليس كذلك فإن الإسلام لم يزل دينا مرضيا للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عند الله منذ أرسله عليه الصلاة والسلام .

قلنا : قوله اليوم ظرف للجملتين الأوليين لا للجملة الثالثة ، لأن الواو الأولى للعطف والثانية للابتداء ، فالجملة الثالثة مطلقة غير موقتة .

فإن قيل : قوله تعالى (يسئلونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات) كيف صلح جوابا لسؤالهم والطيبات غير معلومة ولامتفق عليها لأنها تختلف باختلاف الطباع والبقاع ؟

قلنا : المراد بالطيبات هنا الذبائح ، والعرب تسمى الذبيحة طيبا وتسمى الميتة خبيثا ، فصار المراد معلوما لكنه عام مخصوص كغيره من العمومات .

فإن قيل : ما فائدة قوله (مكلبين) بعد قوله (وماعلمتم من الجوارح) والمكلب هو المعلم من كلاب الصيد ؟

قلنا : قد جاء فى تفسير المكلب أيضا أنه المضرى للجارح والمغرى له فعلى هذا لايكون تكرارا[1] وعلى القول الأول يقول إنما عمم ثم خصص فقال مكلبين بعد قوله (وماعلمتم) لأن غالب صيدهم كان بالكلاب ، فأخرجه مخرج الغالب الواقع منهم .

فإن قيل : ظاهر قوله تعالى (وما علمتم من الجوارح مكلبين) يقتضى إباحة الجوارح المعلمة وهى حرام .

قلنا : فيه إضمار وتقديره : مصيد ماعلمتم من الجوارح ، يؤيده مافى تمام الكلام من قوله (فكلوا مما أمسكن عليكم) .

فإن قيل : المؤمن به هو الله لقوله تعالى (قولوا آمنا بالله) فالمكفور به يكون هو الله أيضا ، ويؤيده قوله تعالى (كيف تكفرون بالله) وإذا ثبت هذا فكيف قال (ومن يكفر بالإيمان) مع أنه لايصح أن يقال آمن بالإيمان فكذلك ضده ؟

قلنا : المراد به : ومن يرتد عن الإيمان يقال كفر فلان بالإسلام إذا ارتد عنه ، فكفر بمعنى ارتد لأن الردة نوع من الكفر ، والباء بمعنى عن كما فى قوله تعالى (سأل سائل بعذاب واقع) وقوله تعالى (فاسأل به خبيرا) وقيل المراد هنا بالإيمان المؤمن به تسمية للمفعول بالمصدر كما فى قوله تعالى (أحل لكم صيدالبحر) أى مصيده ، وقولهم : ضرب الأمير ونسج اليمن .

فإن قيل : كيف قال (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم

---

(١) (قوله فعلى هذا لا يكون تكرارا) لايخفى أن دفع التكرار لايترتب على مجرد تفسير المكلبين بما ذكر ، بل بجعله حالا من فاعل علمتم المفيد لهذا التفسير كما فى البيضاوى ، لا من الجوارح المبنى عليه هذا الإشكال ، فكان الأولى التعبير بذلك تأمل اه مصححه .

مغفرة وأجر عظيم) ولم يقل : وعملوا السيئات ، مع أن الغفران يكون لفاعل السيئات لا لفاعل الحسنات ؟

قلنا : كل أحد لايخلو من سيئة صغيرة أو كبيرة ، وإن كان ممن يعمل الصالحات وهى الطاعات ، والمعنى : أن من آمن وعمل الحسنات غفرت له سيئاته قال تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات) .

فإن قيل : كيف قال فى آخر قوله تعالى (ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل) الآية ، (فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) مع أن الذى كفر قبل ذلك فقد ضل سواء السبيل ؟

قلنا : نعم ولكن الضلال بعد ماذكر من النعم أقبح ، لأن قبح الكفر بقدر عظم النعم المكفورة ، فلذلك خصه بالذكر .

فإن قيل : كيف قال (ومن الذين قالوا إنا نصارى) ولم يقل ومن النصارى ؟

قلنا : لأن هؤلاء كانوا كاذبين فى دعواهم أنهم نصارى ، وذلك أنهم إنما سموا أنفسهم نصارى ادعاء لنصرة الله تعالى ، وهم الذين قالوا لعيسى نحن أنصار الله ، ثم اختلفوا بعده نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصارا للشيطان ، فقال ذلك توبيخا لهم .

فإن قيل : كيف قال (ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير) مما كتمتموه من الكتاب فلا يظهره ولا يبين كتمانكم إياه ، فكيف يجوز للنبى صلى الله عليه وسلم أن يمسك عن إظهار حق كتموه مما فى كتبهم ؟

قلنا : إنما لم يبين البعض لأنه كان يتبع الأمر ولايفعل شيئا من الأمور الدينية من تلقاء نفسه بل اتباعا للوحى ، فما أمر ببيانه بينه ، ومالم يؤمر ببيانه أمسك عنه إلى وقت أمره ببيانه ، وعلى هذا الجواب يكون لفظ العفو مجازا عن الترك ، فيكون قد أعلمه الله به وأطلعه عليه ولم يأمره

بيانه لهم فترك تبيانه لهم . الثانى أن ماكان فى بيانه إظهار حكم شرعى كصفته ونعته والبشارة به وآية الرجم ونحوها بينه ، ومالم يكن فى بيانه حكم شرعى ولكن فيه افتضاحهم وهتك أستارهم فإنه عفا عنه . الثالث أن عقد الذمة اقتضى تقريرهم على مابدلوا وغيروا من دينهم ، إلا ماكان فى إظهاره معجزة له وتصديق لنبوته من نعته وصفته ، أوما اختلفوا فيه فيما بينهم وتحاكموا إليه فيه كحكم الزنا ونحوه .

فإن قيل : كيف قال (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه) مع أن العبد مالم يهده الله أولا لايتبع رضوانه فيلزم الدور ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : يهدى به الله من علم أنه يريد أن يتبع رضوانه ، كما قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) أى والذين أرادوا سبيل المجاهدة فينا لنهدينهم سبل مجاهدتنا .

فإن قيل : لم نر ولم نسمع[1] أن قوما من اليهود والنصارى قالوا نحن أبناء الله فكيف أخبر الله تعالى عنهم بذلك ؟

قلنا : المراد بقولهم أبناء الله خاصة الله ، كما يقال أبناء الدنيا وأبناء الآخرة . وقيل فيه إضمار تقديره : أبناء أنبياء الله .

فإن قيل : كيف يصح الاحتجاج عليهم بقوله تعالى (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) مع أنهم ينكرون تعذيبهم بذنوبهم ، ويدعون أن ما يذنبون بالنهار يغفر بالليل وما يذنبون بالليل يغفر بالنهار .

قلنا : هم كانوا مقرين أنه يعذبهم أربعين يوما وهى مدة عبادتهم العجل فى غيبة موسى عليه السلام لميقات ربه ، ولذلك قالوا (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) وقيل أراد به العذاب الذى أوقعه ببعضهم فى الدنيا من مسخهم

---

(١) قوله (لم نر ولم نسمع الخ) لايخفى ما فى إيراد السؤال على هذا الوجه مما ينبو عن مقام الأدب فى عظمة التنزيل اه .

قردة كما فعل بأصحاب السبت ، وخسف الأرض كما فعل بقارون ، وهذا لا ينكرونه ، وعلى هذا الوجه يكون المضارع بمعنى الماضى فى قوله (فلم يعذبكم) والإضافة إليهم بمعنى الإضافة إلى آبائهم ، كأنه قال : فلم عذب آباءكم .

فإن قيل : قوله تعالى (بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) إن أريد به يغفر لمن يشاء منكم أيها اليهود والنصارى ، ويعذب من يشاء يلزم جواز المغفرة لهم وأنه غير جائز لقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به) وإن أريد به يغفر لمن يشاء من المؤمنين ويعذب من يشاء لا يصلح جوابا لقولهم .

قلنا : المراد به يغفر لمن يشاء منهم إذا تاب من الكفر . وقيل يغفر لمن يشاء ممن خلق وهم المؤمنون ، ويعذب من يشاء وهم المشركون .

فإن قيل : كيف قيل (يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا) ولم يكن قوم موسى عليه السلام ملوكا ؟

قلنا : المراد جعل فيكم ملوكا ، وهم ملوك بنى إسرائيل ، وهم اثناعشر ملكا لاثنى عشر سبطا لكل سبط ملك . وقيل المراد به أنه رزقهم الصحة والكفاية والزوجة الموافقة والخادم والبيت فسماهم ملوكا لذلك . وقيل المراد به أنه رزقهم المنازل الواسعة التى فيها المياه الجارية .

فإن قيل : من أين علم الرجلان أنهم الغالبون حتى قالا (فإذا دخلتموه فإنكم غالبون) ؟

قلنا : من جهة وثوقهم باخبار موسى صلى الله عليه وسلم بذلك بقوله (ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم) وقيل علما ذلك بغلبة الظن ، وما عهداه مع صنع الله تعالى بموسى عليه الصلاة والسلام فى قهر أعدائه ٥

فإن قيل : قوله تعالى (على الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) يدل على أن من لم يتوكل على الله لايكون مؤمنا وإلا لضاع التعليق وليس كذلك .

قلنا : «إن» هنا بمعنى إذ ، فتكون بمعنى التعليل كما فى قوله تعالى (وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين) .

فإن قيل : كيف التوفيق بين قوله تعالى (ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم) وبين قوله (فإنها محرمة عليهم) ؟

قلنا : معناه كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها ، فلما أبوا الجهاد قيل فإنها محرمة عليهم . الثانى أن كل واحد منهما عام أريد به الخاص ، فالكتابة للبعض وهم المطيعون ، والتحريم على البعض وهم العاصون . الثالث أن التحريم موقت بأربعين سنة والكتابة غير موقتة ، فيكون المعنى أن بعد مضى الأربعين يكون لهم . وهذا الجواب تام على قول من نصب الأربعين بمحرمة وجعلها ظرفا ، فأما من جعل الأربعين ظرفا لقوله (يتيهون) مقدما عليه فإنه جعل التحريم مؤبدا فلا يتأتى على قوله هذا الجواب ، لأن التقدير عنده : فإنها محرمة عليهم أبدا يتيهون فى الأرض أربعين سنة ، وهو موضع قد اختلف فيه المفسرون والقراء من جملة من جوز نصب الأربعين بمحرمة ويتيهون ، والزجاج من جملة من منع جواز نصبه بمحرمة ، ونقل أن التحريم كان مؤبدا ، وأنهم لم يدخلوها بعد الأربعين ، ونقل غيره أنه دخلها بعد الأربعين من بقى منهم وذرية من مات منهم ، ويعضد الوجه الأول كون الغالب فى الاستعمال تقدم الفعل على الظرف الذى هو عدد لا تأخره عنه ، يقال : سافر زيد أربعين يوما وما أشبه ذلك ، وقلما يقال على العكس .

فإن قيل : كيف قال (إذ قربا قربانا) ولم يقل قربانين لأن كل واحد منهما قرب قربانا ؟

قلنا : أراد به الجنس فعبر عنه بلفظ الفرد كقوله تعالى (والملك على

أرجائها) . الثانى : أن العرب تطلق الواحد وتريد الاثنين ، وعليه جاء قوله تعالى (عن اليمين وعن الشمال قعيد) وقال الشاعر :

* فَإِنِّى وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ * تقديره : فإنى بها لغريب وقيار كذلك كما فى قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين) الآية . وقيل إنمـا أفرده لأن فعيلا يستوى فيه الواحد والمثنى والمجموع ،

فإن قيل: صلح قوله (إنما يتقبل الله من المتقين) جوابا لقوله(لأقتلنك) ؟

قلنا : لمـا كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذى حمله على توعده بالقتل قال له ذلك كناية عن حقيقة الجواب وتعريضا ، معناه إنمـا أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لامنى فلم تقتلنى ؟

فإن قيل : كيف قال هابيل لقابيل (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك) أى تنصرف بهما مع أن إرادة السوء والوقوع فى المعصية للأجنبى حرام فكيف للأخ ؟

قلنا : فيه إضمار حرف النفى تقديره : إنى أريد أن لاتبوء بإثمى وإثمك كما فى قوله تعالى (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) أى أن لاتميد بكم وقوله تعالى (تالله تفتئوا تذكر يوسف) وقول امرئ القيس :

* فَقُلْتُ يَمِينَ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا * الثانى أن فيه حذف مضاف تقديره : إنى أريد انتفاء أن تبوء بإثمى وإثمك كما فى قوله تعالى (وأشربوا فى قلوبهم العجل) أى حب العجل . الثالث أن معناه : إنى أريد ذلك إن قتلتنى لامطلقا . الرابع أنه كان ظالمـا ،وجزاء الظالم تحسن إرادة من الله تعالى فتحسن من العبد أيضا .

فإن قيل : قوله تعالى (فأصبح من النادمين) يدل على أن قابيل كان تائبا لقوله عليه الصلاة والسلام « الندم توبة » فلايستحق النار .

قلنا : لم يكن ندمه على قتل أخيه ، بل على حمله على عنقه سنة ، أوعلى

عدم اهتدائه إلى الدفن الذى تعلمه من الغراب ، أو على فقد أخيه لا على المعصية ، ولو سلمنا أن ندمه كان على قتل أخيه ، ولكن يجوز أن الندم لم يكن توبة فى شريعتهم بل فى شريعتنا ، أو نقول : التوبة تؤثر فى حقوق الله تعالى لا فى حقوق العباد ، والدم من حقوق العباد فلا تؤثر فيه التوبة .

فإن قيل : كيف يكون قتل الواحد كقتل الكل ، وإحياء الواحد كإحياء الكل والدليل يأباه من وجهين : أحدهما أن الجناية كلما تعددت وكثرت كانت أقبح فتناسب زيادة الإثم والعقوبة ، هذا هو مقتضى العقل والحكمة . الثانى أن المراد بهذا التشبيه إما أن يكون تساوى قتل الواحد والكل فى الإثم والعقوبة ، أو تقاربهما ، وإنما كان يلزم منه أنه إذا قتل الثانى أو الثالث وهلم جرا أن لا يكون عليه إثم آخر ، ولا يستحق عقوبة أخرى لأنه أثم إثم قتل الكل واستحق عقوبة قتل الكل بمجرد قتل الأول أو الأول والثانى ، لأن قتل الواحد إذا كان يساوى قتل الكل أو يقاربه ، فقتل الاثنين يجعل عليه إثم قتل الكل وعقوبة قتل الكل ، فكيف يزداد بعد ذلك بقتل الثالث والرابع وهلم جرا ، ولو قتل الكل عن إثم قتل الكل وعقوبة قتل الكل ، ولا يجوز أن يستحق بقتل الواحد أو الاثنين إثم قتل الكل ، وبقتل الكل إثم قتل الكل ؟

قلنا : أقرب ما قيل فيه أن المراد من قتل نفسا واحدة بغير حق كان جميع الناس خصومه فى الدنيا إن لم يكن له ولى ، وفى الآخرة مطلقا لأنهم من أب وأم واحدة . وقيل : معناه من قتل نفسا نبيا وإماما عادلا فهو كمن قتل الناس جميعا من حيث إبطال المنفعة على الكل ، لأن منفعتهما عامة للكل ؛ وقيل المراد بمن قتل هو قابيل ، فإن عليه من الإثم بمنزلة إثم قتل الكل لأنه أول من سن القتل ، فكل قتل يوجد بعده يلحقه شىء من وزره بغلبة التسبب لقوله عليه الصلاة والسلام « من سن سنة حسنة » الحديث ، وهذا أحسن فى المعنى ، ولكن اللفظ لا يساعد عليه وهو قوله تعالى (من أجل

ذلك كتبنا على بنى إسرائيل) لأن هذا المعنى إذ أريد به قابيل لاتختص كتابته ببنى إسرائيل .

فإن قيل : كيف وجه قوله تعالى (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) الآية ، وحقيقة المحاربة بين العبد والرب ممتنعة ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : يحاربون أولياء الله . وقيل أراد بالمحاربة المخالفة .

فإن قيل : كيف قال (إن الذين كفروا لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به) ولم يقل بهما ، والمذكور شيئان ؟

قلنا : قد سبق جواب مثله قبيل هذا فى قوله (إذ قربا قربانا) ، وهنا جواب آخر وهو أن يكون وضع الضمير موضع اسم الإشارة كأنه قال ليفتدوا بذلك ، وذلك يشار به إلى الواحد والاثنين والجمع .

فإن قيل ، ما فائدة قوله تعالى (فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) وحال النبى عليه الصلاة والسلام مع أهل الكتاب لايخلو عن هذين القسمين ، لأنه إما أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم ؟

قلنا : فائدته تخيير النبى عليه الصلاة والسلام بين الحكم بينهم وعدمه ، ليعلم أنه لايجب عليه أن يحكم بينهم كما يجب عليه ذلك بين المسلمين إذا تحاكموا إليه ؛ وقيل إن هذا التخيير منسوخ بقوله تعالى (فاحكم بينهم بما أنزل الله) وهو القرآن يدل عليه أول الآية (ولا تتبع أهواءهم) فى الحكم بالتوراة .

فإن قيل : لما أنزل الله القرآن صار الإنجيل منسوخا به ، فكيف قال (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) ؟

قلنا : هو عام مخصوص : أى ما أنزل الله فيه من صدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام بعلاماته المذكورة فى الإنجيل ، وذلك غير منسوخ .

فإن قيل : كيف قال (فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) مع أن الكفار معاقبون بكل ذنوبهم ؟

قلنا : أراد به عقوبتهم فى الدنيا ، وهو ما عجله من إجلاء بنى النضير وقيل بنى قريظة وذلك جزاء بعض ذنوبهم لأنه جزاء منقطع ، وأما جزاؤهم على شركهم فهو جزاء دائم لايتصور وجوده فى الدنيا وقيل أراد بذلك البعض ذنب التولى عن الرضا بحكم القرآن ، وإنما أبهمه تفخيما له وتعظيما

فإن قيل : حسن حكم الله وصحته أمر ثابت على العموم بالنسبة إلى الموقنين وغير الموقنين ، فكيف قال (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) ؟

قلنا : لما كان الموقنون أكثر انتفاعا به من غيرهم ، بل هم المنتفعون به فى الحقيقة لاغير كانوا أخص به ، فأضيف إليهم لذلك ، ونظيره قوله تعالى (إنما أنت منذر من يخشاها) .

فإن قيل : قوله تعالى (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) يقتضى أن يكون من وادّ أهل الكتاب وصادقهم كافرا وليس كذلك لقوله تعالى (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين) الآية .

قلنا : المراد بقوله (ومن يتولهم منكم) المنافقون ، لأنها نزلت فى شأنهم وهم كانوا من الكفار فى الدنيا ضميرا واعتقادا ، ومعناه أنه منهم فى الآخرة جزاءً وعقابه أشد .

فإن قيل : كيف قال (إن الله لايهدى القوم الظالمين) وكم من ظالم هداه الله تعالى فتاب وأقلع عن ظلمه ؟

قلنا : معناه لايهديهم ماداموا مقيمين على ظلمهم الثانى أن معناه : لايهدى من قضى فى سابق علمه أنه يموت ضالا الثالث أن معناه : لايهدى القوم الظالمين يوم القيامة إلى طريق الجنة : أى المشركين .

فإن قيل : كيف قال (أذلة على المؤمنين) ولم يقل أذلة للمؤمنين ، وإنما يقال ذل له لاذل عليه ؟

قلنا : لأنه ضمن الذل معنى الحنو والعطف فعداه تعديته ، كأنه قال حانين على المؤمنين عاطفين عليهم .

فإن قيل : كيف قال (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) وكم مرة غلب حزب الله تعالى فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يومنا هذا ؟

قلنا : المراد به الغلبة بالحجة والبرهان لا بالدولة والصولة ، وحزب الله هم المؤمنون غالبون بالحجة أبدا .

فإن قيل : المثوبة مختصة بالإحسان ، فكيف قال (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله) الآية .

قلنا : لانسلم أن الثواب والمثوبة مختص بالإحسان ، بل هو الجزاء مطلقا بدليل قوله تعالى (هل ثوب الكفار ماكانوا يفعلون)أى هل جوزوا، وقوله تعالى (فأثابكم غما بغم)وهو كلفظ البشارة لا اختصاص له لغة بالخبر السار بل هو عام شامل للشر ، قال الله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) .

فإن قيل : ما فائدة إرسال الكتاب والرسول إلى أولئك الكثيرين الذين قال فى حقهم (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) ؟

قلنا : فائدته إلزام الحجة عليهم . الثانى تبجيل الكتاب والرسول إذا كان مرسلا إلى الخلق كلهم ، كان ذلك أفخم وأعظم للرسول والمرسل .

فإن قيل ، قوله تعالى (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل) الآية يقتضى تعلق الرخاء وسعة الرزق بالإيمان بالكتاب والعمل بما فيه ، وليس كذلك فإن كثيرا من المؤمنين بالكتب الأربعة العاملين بما فيها مالم ينسخ ، عيشهم فى الدنيا منكد ورزقهم مضيق .

قلنا : هذا التعليق خاص فى حق أهل الكتب ، لأنهم اشتكوا من ضيق الرزق حتى قالوا (يد الله مغلولة) فأخبرهم الله تعالى أن ذلك التضييق عقوبة لهم بشؤم معاصيهم وكفرهم ، والله تعالى يجعل ضيق الرزق وتقديره نعمة فى حق بعض عباده، ونقمة فى حق بعضهم وكذلك الرخاء والسعة فيعاقب بهما على المعصية ، ويثيب بهما على الطاعة ، ويختلف ذلك باختلاف أحوال الأشخاص ، فلا يلزم من توسيع الرزق الإكرام ، ولا من تضييقه الإهانة ولا يلزم عكسه أيضا، ولهذا رد الله تعالى ذلك بقوله(فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه) إلى قوله تعالى(كلا)أى ليس الأمر كما ظن الإنسان وزعم من أن توسيع الرزق دليل الكرامة وتضييقه دليل الإهانة، بل دليل الكرامة هو الهداية والتوفيق للطاعات، ودليل الإهانة هو الإضلال وحرمة التوفيق .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) ومعلوم أنه إذا لم يبلغ المنزل إليه لم يكن قد بلغ الرسالة ؟

قلنا : المراد حثه على تبليغ ما أنزل عليه من معايب اليهود ومثالبهم . فالمعنى بلغ الجميع، فإن كتمت منه حرفا كنت فى الإثم والمخالفة كمن لم يبلغ شيئا ألبتة ، فجعل كتمان البعض ككتمان الكل . وقيل أمر بتعجيل التبليغ كأنه صلى الله عليه وسلم كان عازما على تبليغ جميع ما نزل إليه ، إلا أنه أخر تبليغ البعض خوفا على نفسه وحذرا مع عزمه على تبليغه فى ثانى الحال ، فأمر بتعجيل التبليغ ، يؤيد هذا القول قوله تعالى (والله يعصمك من الناس)

فإن قيل : كيف ضمن الله تعالى لرسوله العصمة بقوله (والله يعصمك من الناس) ثم إنه شج وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته ؟

قلنا : المراد به العصمة من القتل لا من جميع الأذى ، فإن جميع العصمة من جميع المكاره لا تناسب أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنهم جامعون

مكارم الأخلاق ومن أشرف مكارم الأخلاق تحمل الأذى . الثانى أن هذه الآية نزلت بعد أحد ، لأن سورة المائدة من آخر مانزلت من القرآن .

فإن قيل : كيف قال (وماللظالمين من أنصار) مع أن بعض الظالمين وهم العصاة من المؤمنين يشفع فيهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة فيكون ناصرا لهم ؟

قلنا : المراد بالظالمين هنا المشركون ، يعلم ذلك من أول الآية ووسطها

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (وضلوا عن سواء السبيل) بعد قوله (قد ضلوا من قبل) ؟

قلنا : المراد بالضلال الأول ضلالهم عن الإنجيل ، وبالضلال الثانى ضلالهم عن القرآن .

فإن قيل : قوله تعالى (كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه) والنهى عن المنكر بعد فعله ووقوعه لامعنى له ؟

قلنا : فيه إضمار حذف مضاف تقديره : كانوا لايتناهون عن معاودة منكر فعلوه ، أو عن منكر أرادوا فعله كمايرى الإنسان أمارات الخوض فى الفسق وآلاته تسوى وتهيأ فينكر ، ويجوز أن يريد بقوله (لايتناهون) لاينتهون ولايمتنعون عن منكر فعلوه ، بل يصرون عليه ويداومون ، يقال : تناهى عن الأمر وانتهى عنه بمعنى واحد : أى امتنع عنه وتركه .

فإن قيل : كيف قال (ولكن كثيرا منهم فاسقون) والمراد بقوله منهم المنافقون أو اليهود على اختلاف القولين وكلهم فاسقون ؟

قلنا : المراد به فسقهم بموالاة المشركين ودس الأخبار إليهم لا مطلق الفسق ، وذلك الفسق الخاص مخصوص بكثير منهم ، وهم المذكورون فى أول الآية فى قوله (ترى كثيرا منهم) الآية لاشامل لجميعهم .

فإن قيل : كيف قال (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس

من ـس الشيطان) وهذه الأعيان كلها مخلوقات لله تعالى فأين عمل الشيطان في وجودها ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : إنما تعاطى الخمر والميسر إلى آخره أو مباشرته الخ .

فإن قيل : مع هذا الإضمار كيف قال من عمل الشيطان ، وتعاطى الخمر والقمار ونحوهما من عمل الإنسان حقيقة ؟

قلنا : إنما أضيف إلى الشيطان مجازا لأنه هو السبب في وجود الفعل بواسطته ووسوسته وتزيينه ذلك للفساق فصار كما لو أغرى رجل رجلا بضرب آخر فضربه ، فإنه يجوز أن يقال للمغرى هذا من عملك .

فإن قيل : كيف جمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام فى الآية الأولى ثم خص الخمر والميسر فى الآية الثانية ؟

قلنا : لأن العداوة والبغضاء بين الناس تقع كثيرا بسبب الخمر والميسر وكذلك يشتغلون بهما عن الطاعة ، بخلاف الأنصاب والأزلام فإن هذه المفاسد لاتوجد فيها ، وإن كانت فيها مفاسد أخر . وقيل إنما كرر ذكر الخمر والميسر فقط لأن الخطاب للمؤمنين بدليل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) وهم إنما يتعاطون الخمر والميسر فقط ، وإنما جمع الأربعة فى الآية الأولى إعلاما للمؤمنين أن هذه الأربعة من أعمال الجاهلية ، وإنه لافرق بين من عبد صنما أو أشرك بالله تعالى بدعوى علم الغيب ، وبين من شرب الخمر أو قامر مستحلا لهما .

فإن قيل : كيف يحسن أن يفعل الله تعالى فعلا يتوسل به إلى تحصيل علم حتى قال (ياأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب) ؟

قلنا : معناه ليميز الله الخائف من غير الخائف عند الناس . وقيل معناه

ليعلم عباد الله من يخافه بالغيب وهو قريب من الأول . وقيل معناه ليعلم الخوف واقعا كما علمه منتظرا .

فإن قيل : كيف قال (ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم) ووصف العمدية ليس بشرط لوجوب الجزاء ، فإنه لو قتله ناسيا أو مخطئا وجب الجزاء أيضا ؟

قلنا : عند ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم وصف العمدية شرط لوجوب الجزاء ، فلا يرد عليهم السؤال ، وأما على قول الجمهور فإنما قيده بوصف العمدية ، لأن الواقعة التى كانت سبب نزول الآية كانت عمدا على مايروى عن الصحابة أنه اعترض حمار وحش بالحديبية وهم محرمون ، فطعنه أبو اليسر برمحه فقطعه فنزلت الآية ، فخرج وصف العمدية مخرج الواقع لامخرج الشرط : وقال الزهرى : نزل الكتاب بالعمد ، ووردت السنة بالوجوب فى الخطأ .

فإن قيل : كيف قال (هديا بالغ الكعبة) مع أن الشرط بلوغه إلى الحرم لاغير ؟

قلنا : لما كان المقصود من بلوغ الهدى إلى الحرم تعظيم الكعبة ذكر الكعبة تنبيها على ذلك . وقيل معناه بالغ حرم الكعبة .

فإن قيل : قوله تعالى (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم) أى دلالة لهذه الأمور المذكورة على علم الله تعالى بما فى السموات ومافى الأرض وأنه بكل شىء عليم ؟

قلنا : ذلك إشارة إلى كل ماسبق ذكره من الغيوب فى هذه السورة من أحوال الأنبياء والمنافقين واليهود لا إلى المذكور فى هذه الآية . الثانى أن العرب كانت تسفك الدماء وتنهب الأموال ، فإذا دخل الشهر الحرام أو دخلوا إلى

البلد الحرام كفوا عن ذلك ، فعلم الله تعالى أنه لو لم يجعل لهم زمانا أو مكانا يقتضى كفهم عن القتل ونهب الأموال لهلكوا ، فظهرت المناسبة .

فإن قيل : كيف قال (ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) والجعل هو الخلق بدليل قوله تعالى (وجعل منها زوجها) وقوله تعالى (وجعل الظلمات والنور) وخالق هذه الأشياء هو الله تعالى ؟

قلنا : المراد بالجعل هنا الإيجاب والأمر : أى ما أوجبها ولا أمر بها . وقيل المراد بالجعل التحريم .

فإن قيل : قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) يدل على عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهما واجبان ؟

قلنا : معنى قوله أنفسكم : أى أهل دينكم كما قال تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) أى أهل دينكم . وقيل المراد به آخر الزمان عند فساد الزمان وتعذر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو زماننا هذا .

فإن قيل : كيف يقول الرسل (لاعلم لنا) إذا قال الله تعالى لهم (ماذا أجبتم) وهم عالمون بماذا أجيبوا ؟

قلنا : هذا جواب الدهشة والحيرة حين تطيش عقولهم من زفرة جهنم نعوذ بالله تعالى منها ، ومثله لايفيد نفى العلم ولا إثباته . الثانى : أنهم قالوا ذلك تعريضا بالتشكى من قومهم وإظهارا للالتجاء إلى الله تعالى فى الانتقام منهم ، كأنهم قالوا : أنت أعلم بما أجابونا به من التصديق والتكذيب . الثالث معناه : لاعلم لنا بحقيقة ماأجابونا به لأنا نعلم ظاهره وأنت تعلم ظاهره ومضمره ، ويؤيد ما بعده .

فإن قيل : أىّ معجزة لعيسى صلى الله عليه وسلم فى تكليم الناس كهلا حتى قال (يكلم الناس فى المهد وكهلا) ؟

قلنا : قد سبق جوابه فى سورة آل عمران مستقصى .

فإن قيل : كيف قال الحواريون (هل يستطيع ربك أن ينزل علينا من السماء) شكوا فى قدرة الله تعالى على بعض الممكنات وذلك كفر ، ووصفوه بالاستطاعة وذلك تشبيه ، لأن الاستطاعة إنما تكون بالجوارح ، والحواريون خلص أتباع عيسى عليه السلام والمؤمنون به بدليل قوله تعالى حكاية (عنهم قالو آمنا واشهد بأننا مسلمون) .

قلنا : هذا استفهام عن الفعل لا عن القدرة ، كما يقول الفقير للغنى القادر : هل تقدر أن تعطينى شيئا ، ، وهذا يسمى استطاعة المطاوعة لاستطاعة القدرة ، أو المعنى : هل يسهل عليك أن تسأل ربك ؟ كقولك لآخر : هل تستطيع أن تقوم معى ؟ وأنت تعلم استطاعته لذلك .

فإن قيل : لو كان المراد هذا المعنى فلم أنكر عليهم عيسى عليه السلام بقوله (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) ؟

قلنا : إنكاره عليهم إنما كان لأنهم أتوا بلفظ يحتمل المعنى الذى لا يليق بالمؤمن المخلص إرادته وإن كانوا لم يريدوه .

فإن قيل : كيف قال عيسى عليه السلام (ولا أعلم ما فى نفسك) وكل ذى نفس فهو ذو جسم ، لأن النفس عبارة عن الجوهر القائم بذاته المتعلق بالجسم تعلق التدبير ، والله تعالى منزه عن الجسم ؟

قلنا : النفس تطلق على معنيين : أحدهما هذا ، والثانى حقيقة الشيء وذاته كما يقال : نفس الذهب والفضة محبوبة : أى ذاتهما ، والمراد به فى الآية ثانيا هذا المعنى .

فإن قيل : كيف قال عيسى عليه السلام (ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به) الآية ، مع أنه قال لهم كثيرا من الكلام المباح غير الأمر بالتوحيد ؟

قلنا : معناه ماقلت لهم فيما يتعلق بالإله .

فإن قيل : إذا كان عيسى لم يمت وإنما هو حى فى السماء فكيف قال (فلما توفيتنى) ؟

قلنا : أراد بالتوفى إتمام مدة إقامته فى الأرض ، وإتمامه قد سبق فى قوله تعالى (إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ) والسؤال إنما يتوجه على قول من قال : إن السؤال والجواب وجدا يوم رفعه إلى السماء ، وأما من قال : إن السؤال إنما يكون يوم القيامة وعليه الجمهور فالجواب مطابق ولا إشكال فيه .

فإن قيل : لو قال عيسى عليه السلام : إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، وإن تغفر لهم فإنهم عبادك ، كان أظهر مناسبة ؟

قلنا : معناه إن تعذبهم فإنهم عبادك، وتصرف المالك المطلق الحقيقى فى عبيده مباح : أى تصرف كان ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم الذى لاينقص من عزه شىء بترك العقوبة والانتقام ممن عصاه ، الحكيم فى كل مايفعله من العذاب أو المغفرة .

فإن قيل : كيف قال (يوم ينفع الصادقين صدقهم) يعنى يوم القيامة ، والصدق نافع فى الدنيا والآخرة ، ولفظ الآية فى قوة الحصر ؟

قلنا : لما كان نفع الصدق فى الآخرة هو الفوز بالجنة والنجاة من النار ونفعه فى الدنيا دون ذلك ، كان كالعدم بالنسبة إلى نفعه فى الآخرة فلم يقيد به فى مقابلته .

فإن قيل : قوله (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) إن أراد به صدقهم فى الآخرة فالآخرة ليست بدار عمل ، وإن أراد به صدقهم فى الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه ، وهو الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة ؟

قلنا : أراد به الصدق المستمر بالصادقين فى دنياهم وآخرتهم وعن قتادة

رحمه الله متكلمان صدقا يوم القيامة فنفع أحدهما صدقه دون الآخر: أحدهما إبليس قال (إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم) الآية ، وصدق يومئذ فلم ينفعه صدقه لأنه كان كاذبا قبل ذلك ، والآخر عيسى عليه الصلاة والسلام كان صادقا فى الدنيا والآخرة فنفعه صدقه .

فإن قيل : مافى السموات والأرض العقلاء وغيرهم ، فهلا غلب العقلاء فقال : لله ملك السموات والأرض ومن فيهن ؟

قلنا : لأن كلمة « ما » تتناول الأجناس كلها تناولا عاما بأصل الوضع و « من » لاتتناول غير العقلاء بأصل الوضع ، فكان استعمالا « ما » فى هذا الموضع أوفى .

سورة الأنعام

فإن قيل : كيف جمع الظلمة دون النور فى قوله تعالى (وجعل الظلمات والنور) ؟

قلنا : ترك جمعه استغناء عنه بجمع الظلمة قبله فإنه يدل عليه، كما ترك جمع الأرض أيضا استغناء عنه بجمع السماء قبله فى قوله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) . الثانى أن الظلمة اسم والنور مصدر نقله المفضل والمصادر لاتجمع .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (وجهركم) بعد قوله (يعلم سركم) ومعلوم أن من يعلم السر يعلم الجهر بالطريق الأولى ؟

قلنا : إنما ذكره للمقابلة كما فى قوله تعالى (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه) فى بعض الوجوه .

فإن قيل : كيف خص السكون بالذكر دون الحركة فى قوله (وله ما سكن فى الليل والنهار) على قول من فسره بما يقابل الحركة ؟

قلنا : لأن السكون أغلب الحالتين على كل مخلوق من الحيوان والجماد، ولأن الساكن من المخلوقات أكثر عددا من المتحرك ، أو لأن كل متحرك يصير إلى السكون من غير عكس ، أو لأن السكون هو الأصل والحركة حادثة عليه وطارئة . وقيل فيه إضمار تقديره : ما سكن وتحرك فاكتفى بأحدهما اختصارا لدلالته على مقابله كما فى قوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) أى والبرد .

فإن قيل : كيف قال (وهو يطعم ولا يطعم) ولم يقل وهو ينعم ولا ينعم عليه ، وهذا أعم لتناوله الإطعام وغيره ؟

قلنا : لأن الحاجة إلى الرزق أمس فخص بالذكر . والثانى أن كون المطعم آكلا متغوطا أقبح من كونه منعما عليه ، فلذلك ذكره .

فإن قيل : قوله تعالى (قل أى شىء أكبر شهادة قل الله) يقتضى أن يسمى الله تعالى شيئا ،ولو صح ذلك لصح نداؤه به كالحى القيوم ونحوهما؟

قلنا : صحة ندائه تعالى مخصوصة بما يدل على المدح وصفة الكمال كالحى والقيوم ونحوهما ،لابكل مايصح إطلاقه عليه ؛ ألاترى أن الموجود والثابت يصح إطلاقه عليه سبحانه وتعالى ولايصح نداؤه به؟كذا ذكروا؛

فإن قيل : استشهاد المدعى بالله لايكفى فى صحة دعواه وثبوتها شرعا حتى لو قال المدعى الله شاهدى لايكفى هذا ، فكيف صح ذلك من النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال (قل الله شهيد بينى وبينكم) ؟

قلنا: إنما لم يصح ذلك من غير النبى صلى الله عليه وسلم لأنه لايقدر على إقامة الدليل على أن الله تعالى يشهد له ، والنبى صلى عليه وسلم أقام الدليل على ذلك بقوله (وأوحى إلى هذا القرآن) لأنه معجز .

فإن قيل : فى قوله تعالى (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) كيف يكذبون يوم القيامة بعد معاينة حقائق الأمور ، وقد (بعثر مافى القبور وحصل مافى الصدور) ؟

قلنا : المبتلى يوم القيامة ينطق بما ينفعه وبما يضره لعدم التمييز بسبب الحيرة والدهشة ، كحال المبتلى المعذب فى الدنيا يكذب على نفسه وعلى غيره ، ويتكلم بما يضره ، ألا تراهم يقولون ربنا أخرجنا منها وقد أيقنوا بالخلود فيها ، وقالوا (يامالك ليقض علينا ربك) وقد علموا أنه (لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها) .

فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى (ولا يكتمون الله حديثا) ؟

قلنا : القيامة مواقف مختلفة ؛ ففى بعضها لايكتمون ، وفى بعضها يحلفون كاذبين ، كما قال عز وجل (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقال تعالى (فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جان) وقيل إن حلفهم كاذبين يكون قبل شهادة جوارحهم عليهم (ولا يكتمون الله حديثا) يكون بعد شهادتها عليهم .

فإن قيل : كيف قال (وللدار الآخرة خير للذين يتقون)وهو خير لغير المتقين أيضا كالأطفال والمجانين ؟

قلنا : إنما خصهم بالذكر لأنهم الأصل فيها من حيث أن درجتهم أعلى وغيرهم تبع لهم .

فإن قيل :كيف قال لمحمد صلى الله عليه وسلم (فلا تكونن من الجاهلين) فخاطبه[1] بأفحش الخطابين ، وقال لنوح صلى الله عليه وسلم : (إنى أعظك

---

(١) (قوله كيف قال لمحمد إلى قوله : فخاطبه الخ) لايخفى ما فى إيراد هذا السؤال على هذا الوجه مما ينبو عن ساحة الأدب ،فكان المناسب أن يسوقه على سبيل التماس الحكمة بنحو قوله ما الحكمة فى التعبير بقوله « فلا تكونن الخ » ؟ .

أن تكون من الجاهلين) فخاطبه بألين الخطابين مع أن محمدا صلى الله عليه وسلم أعظم رتبة وأعلى منزلة منه ؟

قلنا : لأن نوحا عليه الصلاة والسلام كان معذورا فى جهله بمطلوبه ، لأنه تمسك بوعد الله تعالى فى إنجاء أهله ، وظن أن ابنه من أهله ومحمد صلى الله عليه وسلم ماكان معذورا لأنه كبر عليه كفرهم مع علمه أن كفرهم وإيمانهم بمشيئة الله تعالى ، وأنهم لايهتدون إلا أن يهديهم الله .

فإن قيل : إذا بعث الله تعالى الموتى من قبورهم فقد رجعوا إلى الله بالحياة بعد الموت ، فما فائدة قوله تعالى (والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) ؟

قلنا : المراد به وقوفهم بين يديه للحساب والجزاء ، وذلك غير البعث وهو إحياؤهم بعد الموت فلا تكرار فيه .

فإن قيل : قوله تعالى (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية) لو صح من النبى صلى الله عليه وسلم هذا الجواب لصح لكل من ادعى النبوة وطولب بآية أن يقول إن الله قادر على أن ينزل آية ؟

قلنا : إذا ثبتت نبوته بما شاء الله من المعجزة يصح له أن يقول ذلك ، بخلاف ما إذا لم تثبت نبوته ، والنبى صلى الله عليه وسلم كان قد ثبتت نبوته بالقرآن وانشقاق القمر وغيرهما .

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى (وما من دابة فى الأرض) والدابة لاتكون إلا فى الأرض ، لأن الدابة فى اللغة اسم لما يدبّ على وجه الأرض وما فائدة (ولا طائر يطير بجناحيه) والطيران لايكون إلا بالجناح ؟

قلنا : فيه فوائد : الأولى للتأكيد كقولهم : هذه نعجة أنثى ، وقولهم كلمته بلسانى ، ومشيت إليه برجلى ، وكما قال الله تعالى (لاتتخذوا إلهين

اثنين) وقال تعالى (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم) . الثانية نفى توهم المجاز فإنه يقال : طار فلان فى أمر كذا إذا أسرع فيه ، وطار الفرس إذا أسرع الجرى . الثالثة زيادة التعميم والإحاطة كأنه قال جميع الدواب الدابة وجميع الطيور الطائرة .

فإن قيل : قوله تعالى (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة) إلى أن قال (فيكشف ما تدعون إليه) ومن جملة ماذكر الدعاء فيه عذاب الساعة وهو لا يكشف عن المشركين ؟

قلنا : لم يخبر عن الكشف مطلقا بل مقيدا بشرط المشيئة وعذاب الساعة لو شاء كشفه عن المشركين لكشفه .

فإن قيل : قوله تعالى (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك) كيف ذكر القول فى الجملة الأولى والثالثة وترك ذكره فى الجملة الثانية ؟

قلنا : لما كان الإخبار بالغيب كثيرا مما يدعيه البشر كالكهنة والمنجمين وواضعى الملاحم ، ثم إن كثيرا من الجهال يعتقدون صحة أقاويلهم ويعملون بمقتضى أخبارهم بالغ فى سلبه عن نفسه بسلب حقيقته عنه بخلاف الإلهية والملكية ، فإن انتفاءهما عنه وعن غيره من البشر ظاهر فاكتفى فى نفيهما بنفى ، القول إذ غير الدعوى فيهما لا تتصور فى نفس الأمر ولا فى زعم الناس ، بخلاف علم الغيب فافترقا ، والمراد بقوله (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله) أى لا أدعى الإلهية ، كذا قاله بعض المفسرين .

فإن قيل : قوله تعالى (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) كيف ذكر سبيل المجرمين ولم يذكر سبيل المؤمنين وكلاهما محتاج إلى بيانه ؟

قلنا : لأنه إذا ظهر سبيل المجرمين ظهر سبيل المؤمنين أيضا بالضرورة إذ السبيل سبيلان لاغير .

فإن قيل : كيف قال (ويعلم ماجرحتم بالنهار) أى ماكسبتم ، وهو يعلم ماجرحوا ليلا ونهارا ؟

قلنا : لأن الكسب أكثر مايكون بالنهار لأنه زمان حركة الإنسان ، والليل زمان سكونه لقوله تعالى (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) بعد قوله (من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه) .

فإن قيل : كيف قال (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) يعنى مولى جميع الخلائق . وقال فى موضع آخر (وأن الكافرين لامولى لهم) ؟

قلنا : المولى الأول بمعنى المالك أو الخالق أو المعبود ، والمولى الثانى بمعنى الناصر فلا تنافى بينهما .

فإن قيل : كيف خص كون (قوله الحق وله الملك) بيوم القيامة ، فقال (قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور) مع أن قوله الحق فى كل وقت وله الملك فى كل زمان ؟

قلنا : لأن ذلك اليوم ليس لغيره فيه ملك بوجه من الوجوه ، وفى الدنيا لغيره ملك خلافة عنه أو هبة منه وإنعاما بدليل قوله تعالى فى حق داود عليه السلام (وآتاه الله الملك والحكمة) وقوله (والله يؤتى ملكه من يشاء) وقوله فى ذلك اليوم هو الحق الذى لايدفعه أحد من العباد ، ولايشك فيه شاك من أهل العناد ، لانكشاف الغطاء فيه للكل ، وانقطاع الدعاوى والخصومات ، ونظيره قوله تعالى (والأمر يومئذ لله) وإن كان الأمر له فى كل زمان ، وكذا قوله تعالى (لمن الملك اليوم) ؟

فإن قيل : كيف قال تعالى فى معرض الامتنان (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) ولم يذكر إسماعيل مع أنه كان هو الابن الأكبر ؟

قلنا : لإن إسحاق وهب له من حرة وإسماعيل من أمة ، وإسحاق وهب له من عجوز غقيم فكانت المنة فيه أظهر .

فإن قيل : كيف قال فى وصف القرآن (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) وكثير ممن يؤمن بالآخرة من اليهود والنصارى وغيرهم لايؤمن به ؟

قلنا : معناه والذين يؤمنون بالآخرة إيمانا نافعا مقبولا هم الذين يؤمنون به إما تصديقا به قبل إنزاله لما بشر به موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، أواتباعا له بعد إنزاله والأمر كذلك ، فإن من لم يصدق موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فى بشارتهما بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن أوكان بعد بعثه ولم يؤمن به فإيمانه بالآخرة غير معتدّ به ولا معتبر.

فإن قيل : كيف أفرد قوله تعالى (أو قال أوحى إلى بالذكر) بعد قوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) وذلك أيضا افتراء ؟

قلنا : لأن الأول عام والثانى خاص ، والمقصود الإنكار فيهما ، ولا يلزم من وجود العام وجود الخاص ، ولكن يلزم من الذم على العام وإنكاره الذم على الخاص وإنكاره لامحالة ، وما نحن فيه من هذا القبيل والجواب المحقق أن يقال إن هذا الخاص لما كان مخصوصا بمزيد قبح من بين أنواع الافتراء خصه بالذكر تنبيها على مزيد العقاب فيه والإثم .

فإن قيل : قوله تعالى (بديع السموات والأرض) الآية ، ما فائدة قوله (خالق كل شىء بعد) قوله (وخلق كل شىء) ؟

قلنا : ذكره أولا استدلالا به على نفى الولد ، ثم ذكره ثانيا توطئة وتمهيدا لقوله تعالى (فاعبدوه) فإن كونه خالق كل شىء يقتضى تخصيصه بالعبادة والطاعة ، فكانت الإعادة لفائدة جديدة .

فإن قيل : فى قوله تعالى (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) كيف خص الأبصار بإدراكه لها ولم يقل وهو يدرك كل شىء مع أنه أبلغ فى التمدح ؟

قلنا : لوجهين : أحدهما مراعاة المقابلة اللفظية فإنه نوع من البلاغة . الثانى أن هذه الصفة خاصة بينه وبين الأبصار أنه يدركها ، بمعنى الإحاطة بها وهى لاتدركه ، فأما غيره مما يدرك الأبصار فهى تدركه أيضا ، فلهذا خصها بالذكر .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا) ولم يقل وهو الذى أنزل إلىّ مع أن الله تعالى قال (وأنزلنا إليك الكتاب) ؟

قلنا : لما كان إنزاله إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليبلغه إلى الخلق ويهديهم به كان فى الحقيقة منزلا إليهم لكن بواسطة النبى صلى الله عليه وسلم فصلح إضافة الإنزال إليه وإليهم .

فإن قيل : فى قوله تعالى (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين) كيف علق الكون من المؤمنين بأكل الذبيحة المسمى عليها ، والكون من المؤمنين حاصل ، وإن لم تؤكل الذبيحة أصلا ؟

قلنا : المراد اعتقاد الحل لانفس الأكل ، فإن بعض من كان يعتقد حل الميتة من العرب كان يعتقد حرمة الذبيحة .

فإن قيل : كيف أبهم فاعل التزيين هنا فقال (كذلك زين للكافرين ماكانوا يعملون) وقال فى آية أخرى (زينا لهم أعمالهم) وقال فى آية أخرى (وزين لهم الشيطان أعمالهم) فمن هو مزين الأعمال للكفار فى الحقيقة ؟

قلنا : التزيين من الشيطان بالإغواء والإضلال والوسوسة وإيراد الشبه ، ومن الله تعالى بخلق جميع ذلك فصحت الإضافتان .

فإن قيل : كيف قال تعالى (يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم) والرسل إنما كانت من الإنس خاصة ؟

قلنا : المراد برسل الجن هم الذين سمعوا القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم ثم ولوا إلى قومهم منذرين كما قال تعالى (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن

يستمعون القرآن) الآية . الثانى أنه كقوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) والمراد من أحدهما لأنه إنما يخرج من الملح . والثالث أنه بعث إليهم رسل منهم ، قاله الضحاك ومقاتل .

فإن قيل : كيف ذكر شهادتهم على أنفسهم فى قوله تعالى (يا معشر الجن والإنس) الآية ، والمعنى فيهما واحد ؟

قلنا : المعنى المشهود به متعدد وإن كان فى الشهادة واحدا ، إلا أنهم فى الأولى شهدوا على أنفسهم بتبليغ الرسل وإنذارهم ، وفى الثانية شهدوا على أنفسهم بالكفر وهما متغايران .

فإن قيل : كيف أقروا فى هذه الآية بالكفر وشهدوا على أنفسهم به وجحدوه فى قولهم (والله ربنا ما كنا مشركين) ؟

قلنا : مواقف القيامة ومواطنها مختلفة ، ففى بعضها يقرون وفى بعضها يجحدون ، أو يكون المراد هنا شهادة أعضائهم عليهم حين يختم على أفواههم كما قال تعالى (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (سفها بغير علم) والسفه لايكون إلا عن جهل ؟

قلنا : معنى قوله (بغير علم) بغير حجة ، وقيل بغير علم بمقدار قبحه ومقدار العقوبة فيه ، وعلى الوجهين لايكون مستفادا من الأول .

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى (وما كانوا مهتدين) بعد قوله (قد ضلوا) ؟

قلنا : فائدته الإعلام بأنهم بعد ماضلوا لم يهتدوا مرة أخرى ، فإن من الناس من يضل ثم يهتدى بعد ضلاله .

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى (إذا أثمر) بعد قوله (كلوا من ثمره) ومعلوم أنه إنما يؤكل من ثمره إذا أثمر ؟

قلنا : فائدته نفي توهم توقف الإباحة على الإدراك والنضج بدلالته على الإباحة من أول إخراج الثمر .

فإن قيل : قوله تعالى (قل لاأجد فيما أوحي إلى محرما) الآية ، وفي القرآن تحريم أكل الربا ومال اليتيم ومال الغير بالباطل وغير ذلك ؟

قلنا: محرما مما كانوا يحرمونه في الجاهلية، وقيل مما كانوا مما يستحلون فيها؛

فإن قيل : كيف قال تعالى (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة) والموضع موضع العقوبة ، فكان يحسن أن يقال فيه ذو عقوبة شديدة أو عظيمة ونحو ذلك ؟

قلنا : إنما قال ذلك نفيا للاغترار بسعة رحمته في الاجتراء على معصيته ، وذلك أبلغ في التهديد معناه: لاتغتروا بسعة رحمته ، فإنه مع ذلك لايرد عذابه عنكم . وقيل معناه : فقل ربكم ذو رحمة واسعة للمطيعين ، ولايرد عذابه عن العاصين .

فإن قيل : كيف قال (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم) ثم فسره بعشرة أحكام خمسة منها واجبة والتلاوة وصف للفظ لا للمعنى كيلا يقال أضدادها محرمة ؟

قلنا : قوله (أتل ماحرم ربكم عليكم) لاينفي تلاوة غيره فقد تلا ما حرم وتلا غيره أيضا . الثاني أن فيه إضمارا تقديره : أتل ماحرم ربكم عليكم وأوجب .

فإن قيل : كيف خص مال اليتيم بالنهي عن قربانه بغير الأحسن ومال البالغ أيضا كذلك ؟

قلنا : إنما خصه بالنهي لأن طمع الطامعين فيه أكثر لضعف مالكه وعجزه وقلة الحافظين له والناصرين ، بخلاف مال البالغ . الثاني أن التخصيص لمجموع الحكمين وهما النهي عن قربانه بغير الأحسن ، ووجوب

قربانه بالأحسن ، أو جواز قربانه بالأحسن بغير إذن مالكه ، ومجموع الحكمين مختص بمال اليتيم ، وهذا هو الجواب عن كونه مغيبا ببلوغ الأشد لأن المجموع ينتفى ببلوغ الأشد لانتفاء الحكم الثانى وقيل إن الغاية لمحذوف تقديره : حتى يبلغ فسلموه إليه .

فإن قيل : كيف خص العدل بالقول فقال (وإذا قلتم فاعدلوا) ولم يقل : وإذا فعلتم فاعدلوا ، والحاجة إلى العدل فى الفعل أمس ، لأن الضرر الناشئ من الجور الفعلى أقوى من الضرر الناشئ من الجور القولى ؟

قلنا : إنما خصه بالقول ليعلم وجوب العدل فى الفعل بالطريق الأولى كما قال تعالى (ولا تقل لهما أف) ولم يقل : ولا تشتمهما ولا تضربهما لما قلنا .

فإن قيل : كيف الجمع بين قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وبين قوله (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) وقوله (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) وقد جاء فى الحديث المشهور « من عمل سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

قلنا : المراد بالآية الأولى وزر لايكون مضافا إليها بمباشرة أو تسبب لتحقيق إضافته إلى غيرها على الكمال ، أما إذا لم يكن كذلك فهو وزرها من وجه فتزره . وقيل معناه : لاتزره طوعا كما زعم المشركون بقولهم للنبى صلى الله عليه وسلم : ارجع إلى ديننا ونحن كفلاء بما يلحقك من تبعة فى دينك . وقول الذين كفروا للذين آمنوا (اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) إلى قوله تعالى (عما كانوا يفترون) ومعنى باقى النصوص أنها تحمله كرها فلا تنافى بينهما .

سورة الأعراف

فإن قيل : النهى فى قوله تعالى(فلا يكن فى صدرك حرج منه) متوجه إلى الحرج فما وجهه ؟

قلنا : هو من باب قولهم لا أرينك هنا ، معناه : لاتقم هنا فإنك إن أقمت رأيتك ، فمعنى الآية ، فكن على يقين منه ولا تشك فيه ، لأن المراد بالحرج الشك .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (أهلكناها فجاءها بأسنا) والإ هلاك إنما هو بعد مجيء البأس وهو العذاب ؟

قلنا : معناه أردنا إهلاكها كقوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) وقوله تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) ؟

فإن قيل : ميزان القيامة واحد فكيف قال تعالى (فمن ثقلت موازينه ـ ومن خفت موازينه) ؟

قلنا : إنما جمعه لأنه أراد بالميزان الموزونات من الأعمال ؛ وقيل إنما جمعه لأنه ميزان يقوم مقام موازين ويفيد فائدتها ، لأنه يوزن به ذرات الأعمال وما كان منها فى عظم الجبال .

فإن قيل : كيف توزن الأعمال وهى أعراض لا ثقل لها ولا جسم ، والوزن من خواص الأجسام ؟

قلنا : الموزون صحائف الأعمال . الثانى أنه قد ورد أن الله تعالى يحيلها فى جواهر وأجسام ، فتتصور أعمال المطيعين فى صورة حسنة ، وأعمال العاصين فى صورة قبيحة ، ثم يزنها والله على كل شيء قدير .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) وكلمة ثم للترتيب ، وخطاب الملائكة عليهم السلام بالسجود سابق على خلقنا وتصويرنا ؟

قلنا : المراد ولقد خلقنا أباكم ثم صورناه بطريق حذف المضاف . وقيل المراد : ولقد خلقنا أباكم ثم صوّرناكم فى ظهره . والقول الأول أظهر .

فإن قيل : كيف قال تعالى لإبليس (فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) أى فى السماء ، وليس له ولا لغيره أن يتكبر فى الأرض أيضا ؟

قلنا : لما كانت السماء مقر الملائكة المطيعين الذين لاتوجد منهم معصية أصلا كان وجود المعصية منهم أقبح ، فلذلك خص مقرهم بالذكر .

فإن قيل : كيف أجيب إبليس إلى الإنظار ، وإنما طلب الإنظار ليفسد أحوال عباد الله تعالى ويغويهم ؟

قلنا : لما فى ذلك من ابتلاء العباد ، ولما فى مخالفته من عظم الثواب ، ونظير ذلك ماخلقه الله تعالى فى الدنيا من أصناف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهى ، وما ركبه فى الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوآتهما) ولم يكن غرضه من الوسوسة كشف عورتهما بل إخراجهما من الجنة ، ويؤيده قوله تعالى (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه) ؟

قلنا : اللام فى ليبدى لام العاقبة والصيرورة لالام كى فى قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا وحزنا) وقول الشاعر :

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمُ يَصِيرُ إلى التُّرَابِ

فإن قيل : أى آية لله تعالى فى اللباس والكسوة حتى قال تعالى فى آية اللباس والكسوة (ذلك من آيات الله) ؟

قلنا : معناه أن اللباس والكسوة للإنسان خاصة علامة من العلامات

الدالة على أن الله تعالى فضله على سائر الحيوانات، وقيل معناه : ذلك من نعم الله .

فإن قيل . كيف قال تعالى فى حق إبليس (ينزع عنهما لباسهما) ونازع لباسهما هو الله تعالى ؟

قلنا : لما كان ذلك السبب بسبب وسوسته وإغوائه أضيف النزع إليه، كما يقال : أشبعنى الطعام وأروانى الشراب ، والمشبع والمروى فى الحقيقة إنما هو الله تعالى وهما سبب .

فإن قيل : كيف قال (كما بدأكم تعودون) وهو بدأنا أولا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما ثم لحما كما ذكر ، ونحن لانعود عند الموت ولا عند البعث بعد الموت على ذلك الترتيب ؟

قلنا : معناه كما بدأكم أولا من تراب كذلك تعودون ترابا . وقيل معناه: كما أوجدكم أولا بعد العدم كذلك يعيدكم بعد العدم ، فالتشبيه فى نفس الإحياء والخلق لافى الكيفية والترتيب . وقيل معناه : كما بدأكم سعداء وأشقياء ، كذلك تعودون ، ويؤيده تمام الآية ، وقيل معناه : كما بدأكم لاتملكون شيئا كذلك تعودون ، كما قال تعالى (ولقد جئتمونا فرادى) الآية .

فإن قيل : كيف قال تعالى مخبرا عن الزينة والطيبات (قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا) مع أن الواقع المشاهد أنها لغير الذين آمنوا أكثر وأدوم ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : قل هى للذين آمنوا غير خالصة فى الحياة الدنيا ، لأن المشركين شاركوهم فيها خالصة للمؤمنين فى الآخرة .

فإن قيل : كيف قال (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) والميراث عبارة عما ينتقل من ميت إلى مت وهو مفقود هنا ؟

قلنا : هو على تشبيه أهل الجنة وأهل النار بالوارث وبالموروث عنه ؛ وذلك أن الله تعالى خلق فى الجنة منازل للكفار على تقدير الإيمان ، فن لم يؤمن منهم جعل منزله لأهل الجنة . الثانى أن نفس دخول الجنة بفضل الله ورحمته من غير عوض ، فأشبه الميراث ، وإن كانت الدرجات فيها بحسب الأعمال .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ألا له الخلق والأمر) أما الخلق بمعنى الإيجاد والإحداث فظاهر أنه مختص به سبحانه وتعالى ، وأما الأمر فلغيره أيضا بدليل قوله تعالى (يأمرون بالمعروف) وقوله (وأمر بالعرف) وقوله (وأمر أهلك بالصلاة) ؟

قلنا : المراد بالأمر هنا قوله تعالى (كن) عند خلق الأشياء ، وهذا الأمر الذى به الخلق مخصوص به كالخلق . الثانى أن المراد بالخلق والأمر ماسبق ذكرهما فى هذه الآية ، وهو خلق السموات والأرض ، وأمر تسخير الشمس والقمر والنجوم كما ذكر ، وذلك مخصوص به عز وجل .

فإن قيل : لم قال نوح عليه الصلاة والسلام : ليس بى ضلالة بالتاء ، ولم يقل ليس بى ضلال كما وصفه قومه به ، وذلك أشد مناسبة ليكون نافيا عين ماأثبتوه ؟

قلنا : الضلالة أقل من الضلال ، فكان نفيها أبلغ فى نفى الضلالة عنه ، كأنه قال : ليس بى شىء من الضلال ، كما لو قيل ألك تمر فقلت مالى تمرة ؟ كان ذلك أبلغ فى النفى من قولك مالى تمر .

فإن قيل : كيف وصف الملأ بالذين كفروا فى قصة هود دون قصة نوح عليهما السلام ؟

قلنا : لأنه كان فى أشراف قوم هود من آمن به منهم عند هذا القول ، فلم يكن كل الملأ من قومه قائلين له (إنا لنراك فى سفاهة) بخلاف قوم

نوح فإنه لم يكن منهم من آمن به عند قولهم (إنا لنراك فى ضلال مبين) فكان كل الملأ قائلين ذلك ، هكذا أجاب بعض العلماء ، وهذا الجواب منقوض بقوله تعالى فى سورة هود فى قصة نوح عليه السلام (فقال الملأ الذين كفروا) وكذا فى سورة المؤمنين ، وجواب هذا النقض أنه يجوز أن القول كان وقع مرتين ، والمرة الثانية بعد إيمان بعضهم .

فإن قيل : كيف قال صالح عليه السلام لقومه بعد ما أخذتهم الرجفة وماتوا (ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) ولا يحسن من الحى مخاطبة الميت لعدم الفائدة ؟

قلنا : هذا مستعمل فى العرف ، فإن من نصح إنسانا فلم يقبل منه حتى قتل أو صلب ومر به ناصحه فإنه يقول له : كم نصحتك يا أخى فلم تقبل حتى أصابك هذا! . وفائدة هذا القول حث السامعين له على قبول النصيحة ممن ينصحهم لئلا يصيبهم ما أصاب المنصوح الذى لم يقبل النصيحة حتى هلك .

فإن قيل : لم قال شعيب عليه السلام لقومه (ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) وهم مازالوا كافرين مفسدين لامصلحين ؟

قلنا : بعد أن أصلحها الله تعالى بالأمر بالعدل وإرسال الرسل . وقيل معناه بعد أن أصلح الله تعالى أهلها بحذف المضاف . وقيل معناه بعد الإصلاح فيها : أى بعد ما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم ، فإضافته كاضافة قوله تعالى (بل مكر الليل والنهار) يعنى بل مكرهم فى الليل والنهار .

فإن قيل : كيف خاطبوا شعيبا عليه السلام بالعود فى الكفر بقولهم (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا) وهو أجابهم بقوله (إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) وهو لم يكن فى ملتهم ، قط لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لايجوز عليهم شىء من الكبائر خصوصا الكفر ؟ .

قلنا : العرب تستعمل عاد بمعنى صار ابتداء ، ومنه قوله تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) . الثانى أنهم قالوا ذلك على طريق تغليب الجماعة على الواحد ، لأنهم عطفوا على ضميره الذين آمنوا منهم بعد كفرهم ، فجعلوهم عائدين جميعا إجراء للكلام على حكم التغليب ، وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه ، ومراده عود قومه المعطوفين عليه .

فإن قيل: لم قال فرعون (فأت بها) بعد قوله (إن كنت جئت بآية) ؟

قلنا : معناه إن كنت جئت بآية من عند الله فأتنى بها : أى أحضرها عندى .

فإن قيل : كيف قال تعالى (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم) وفى سورة الشعراء (قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم) فنسب هذا القول إلى فرعون ؟

قلنا : قاله هو وقالوه هم ، فحكى قوله ثم وقولهم هنا .

فإن قيل : السحرة إنما سجدوا لله تعالى طوعا لما تحققوا معجزة موسى عليه السلام فكيف قال تعالى (وألقى السحرة ساجدين) ؟

قلنا : لما زالت كل شبهة لهم بما عاينوا من آيات الله تعالى على يد نبيه اضطرهم ذلك إلى مبادرة السجود ، فصاروا من غاية المبادرة كأنهم ألقوا إلى السجود تصديقا لله والرسول .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى هنا حكاية عن السحرة الذين آمنوا وعن فرعون (قالوا آمنا برب العالمين) إلى قوله (وتوفنا مسلمين) ثم حكى عنهم هذا المعنى فى سورة طه وسورة الشعراء بزيادة ونقصان فى الألفاظ المنسوبة إليهم ، وهذه الواقعة ماوقعت إلا مرة واحدة ، فكيف اختلفت عبارتهم فيها ؟

قلنا : الجواب عنه أنهم إنما تكلموا بذلك بلغتهم لابلغة العربية ،

وحكى الله ذلك عنهم باللغة العربية مرارا لحكمة اقتضت التكرار والإعادة نبينها فى سورة الشعراء إن شاء الله تعالى ، فمرة حكاه مطابقا للفظهم فى الترجمة رعاية اللفظ ، وبعد ذلك حكاه بالمعنى جريا على عادة العرب فى التفنن فى الكلام والمخالفة بين أساليبه لئلا يمل إذا تمحض تكراره .

فإن قيل : كيف قالوا (مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها) سموها آية ثم قالوا لتسحرنا بها ؟

قلنا : ماسموها آية لاعتقاد أنها آية ، بل حكاية لتسمية موسى عليه السلام على طريق الاستهزاء والسخرية .

فإن قيل : كيف الجمع بين قوله تعالى (ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون) أى أهلكنا ، وقوله تعالى (فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) ؟

قلنا : معناه ودمرنا : أى أبطلنا ماكان يصنع فرعون وقومه من المكر والمكيدة فى حق موسى عليه السلام (وما كانوا يعرشون) أى يبنون من الصرح الذى أمر فرعون هامان ببنائه ليصعد بواسطته إلى السماء . وقيل هو على ظاهره لأن الله تعالى أورث ذلك بنى إسرائيل مدة ثم دمره جميعه .

فإن قيل : قوله تعالى (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) قوله تعالى : وفى ذلكم إن كان إشارة إلى الإنجاء فليس فيه بلاء بل هو محض نعمة ، وإن كان إشارة إلى القتل والأسر فإضافته إلى آل فرعون بقوله تعالى (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أشد مناسبة لسياق الآية وهو الامتنان ، ولهذا قال يقتلون ويستحيون ، فأضاف إليهم الفعلين .

قلنا : البلاء مشترك بين النعمة والمحنة ، لأنه من الابتلاء وهو الإختبار ، يقال بلاه وابتلاه : أى اختبره ، والله تعالى يختبر شكر عباده

بالنعمة ويختبر صبرهم بالمحنة ، يؤيده قوله تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيآت) وقوله تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) فمعنى الآية وفى ذلك الإنجاء نعمة عظيمة من ربكم عليكم .

فإن قيل : (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) المواعدة كانت أمره بالصوم فى هذا العدد ، فكيف ذكر الليالى مع أنها ليست محلا للصوم ، بل يقع فى القلب أن ذكر الأيام أولى لأنها محل الصوم الذى وقعت به المواعدة ؟

قلنا : العرب فى أغلب تواريخها إنما تذكر الليالى وإن كان مرادها الأيام ، لأن الليل هو الأصل فى الزمان ، والنهار عارض لأن الظلمة سابقة فى الوجود على النور . وقيل إنه كان فى شريعة موسى عليه السلام جواز صوم الليل ؟

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى (فتم ميقات ربه أربعين ليلة) وقد علم مجموع الميقات من قوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) ؟

قلنا : فيه فوائد : إحداها التأكيد . الثانية أن يعلم أن العشر ليال لاساعات . الثالثة أن لايتوهم أن العشر التى وقع بها الإتمام كانت داخلة فى الثلاثين ، يعنى كانت عشرين وأتمت بعشر كما فى قوله تعالى (وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام) على مانذكره مشروحا فى حم السجدة .

فإن قيل : لم قال موسى عليه الصلاة والسلام (وأنا أول المؤمنين) وقد كان قبله كثير من المؤمنين ، وهم الأنبياء ومن آمن بهم ؟

قلنا : معناه وأنا أول المؤمنين بأنك ياألله لاترى بالحاسة الفانية من الجسد الفانى فى دار الفناء . وقيل معناه : وأنا أول المؤمنين من بنى إسرائيل فى زمانى . وقيل أراد بالأول الأقوى والأكمل فى الإيمان ، يعنى لم يكن

طلبي للرؤية لشك عندى فى وجودك أو لضعف فى إيمانى ، بل لطلب مزيد الكرامة .

فإن قيل : كيف قال (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أى التوراة ، وهم مأمورون بالعمل بكل مافى التوراة ؟

قلنا : معناه بحسنها وكلها حسن . الثانى أنهم أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر ، ففعل الخير أحسن من ترك الشر . الثالث أن فيها حسنا وأحسن كالاقتصاص والعفو ، والانتصار والصبر ، والواجب والمندوب والمباح ، فأمروا بالأخذ بالعزائم والفضائل وما هو أكثر ثوابا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار) واتخاذهم العجل كان فى زمن موسى عليه السلام بالنقل ، وفى سياق الآية مايدل على ذلك .

قلنا : معناه من ذهابه إلى الجبل . وقيل من بعد الأخذ عليهم أن لايعبدوا غير الله .

فإن قيل : كيف عبر عن الندم بالسقوط فى اليد فى قوله تعالى (ولما سقط فى أيديهم) وأى مناسبة بينهما ؟

قلنا : لأن من عادة من اشتد ندمه وحسرته على فائت أن يعض يده غما ، فتصير يده مسقوطا فيها لأن فاه قد رفع فيها وسقط مسند إلى قوله فى أيديهم ، وهو من كنايات العرب كقولهم للنائم : ضرب على أذنه .

فإن قيل : كيف قال تعالى (غضبان أسفا) وهما متقاربان فى المعنى ؟

قلنا : لأن الآسف الحزين ، وقيل الشديد الغضب ففيه فائدة جديدة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة) ولم يقل وفيها ، وإنما يقال نسختها الشيء كتب مرة ثم نقل ، فأما أول مكتوب فلا يسمى نسخة ، والألواح لم تكتب من مكتوب آخر ؟

قلنا : لما ألقى الألواح ، قيل إنه انكسر منها لوحان ، فنسخ مافيهما فى لوح ذهب و كان فيهما الهدى والرحمة ، وفى باقى الألواح تفصيل كل شىء . وقيل إنما قال (وفى نسختها) لأن الله تعالى لقن موسى عليه السلام التوراة ثم أمره بكتابتها ، فنقلها من صدره إلى الألواح فسماها نسخة .

فإن قيل كيف قال تعالى (واتبعوا النور الذى أنزل معه) أى مع النبى صلى الله عليه وسلم يعنى القرآن ، والقرآن إنماأنزل مع جبريل عليه السلام على النبى صلى الله عليه وسلم لا مع النبى صلى الله عليه وسلم .

قلنا : معه : أى مقارنا لزمانه . وقيل معه : أى عليه : وقيل معه : أى إليه ، ويجوز أن يتعلق معه باتبعوا لابأنزل ، معناه : واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبى صلى الله عليه وسلم والعمل بسنته ، أوواتبعوا القرآن كماا تبعه هو مصاحبين له فى اتباعه .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم) وهم إنما بدلوا القول الذى قيل لهم ، لأنهم قيل لهم (قولوا حطة) فقالوا حنطة ؟

قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه فى سورة البقرة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) وانتقالهم من صورة البشر إلى صورة القردة ليس فى وسعهم ؟

قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه فى سورة البقرة .

فإن قيل : الحلم من صفات الله تعالى فكيف قال (إن ربك لسريع العقاب) وسرعة العقاب تنافى صفة الحلم ، لأن الحليم هو الذى لا يعجل بالعقوبة على العصاة ؟

قلنا : معناه شديد العقاب . وقيل معناه سريع العقاب إذا جاء وقت عقابه لا يرده عنه أحد .

فإن قيل: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة ، ومنها إقامة الصلاة فكيف قال تعالى (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة) ؟

قلنا : إنما خصها بالذكر إظهارا لمزيتها لكونها عماد الدين بالحديث ، وناهية عن الفحشاء والمنكر بالآية .

فإن قيل: قوله تعالى (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث) تمثيل لحال بلعام ، فكيف قال بعده (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) والمثل لم يضرب إلا لواحد ؟

قلنا : المثل فى الصورة وإن ضرب لبلعام ولكن أريد به كفار مكة كلهم ، لأنهم صنعوا مع النبى صلى الله عليه وسلم بسبب ميلهم إلى الدنيا وشهواتها من الكيد والمكر مايشبه فعل بلعام مع موسى عليه السلام . الثانى أن (ساء مثلا القوم) راجع إلى قوله تعالى (مثل القوم) لا إلى أول الآية .

فإن قيل : كيف قال (إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وهو صلى الله عليه وسلم كان بشيرا ونذيرا للناس كافة ، كما قال تعالى (وما أرسلناك إلا كافه للناس بشيرا ونذيرا) ؟

قلنا : المراد بقوله (لقوم يؤمنون) لقوم كتب عليهم فى الأزل أنهم يؤمنون ، وإنما خصهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون بالإنذار والبشارة دون غيرهم ، فكأنه نذير وبشير لهم خاصة ، كما قال تعالى (إنما أنت منذر من يخشاها) ويجوز أن يكون متعلق النذير محذوفا تقديره : إن أنا إلا نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون ، فاستغنى بذكر أحدهما عن الآخر كما استغنى بالجملة عن التفصيل فى تلك الآية : لأن المعنى: وما أرسلناك إلا كافة بشيرا للمؤمنين ونذيرا للكافرين .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى حكاية عن آدم عليه السلام وحواء رضى الله عنها (جعلا له شركاء فيما آتاهما) وقال عز وجل (فتعالى الله عما

يشركون) والأنبياء معصومون عن مطلق الكبائر فضلا عن الشرك الذى هو أكبر الكبائر ؟

قلنا : المراد بقوله (جعلا له) أى جعل أولادهما بطريق حذف المضاف وكذا قوله تعالى (فيما آتاهما) أى فيما آتى أولادهما ، ويؤيد هذا قوله تعالى (فتعالى الله عما يشركون) حيث ذكر ضمير الجمع ولم يقل يشركان ، ومعنى اشتراك أولادهما فيما آتاهم الله تعالى تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد مناة وعبد شمس ونحو ذلك ، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم .

وقيل : الضمير فى جعلا[1] للولد الصالح وهو السليم الخلق ، وإنما قال جعلا لأن حواء كانت تلد فى بطن ذكرا وأنثى . وقيل المراد بذلك تسميتهما إياه عبد الحارث ، والحارث اسم إبليس فى الملائكة ، وسبب تلك التسمية يعرف من تفسير الآية ، وإنما قال شركاء إقامة للواحد مقام الجمع ، ولم يذهب آدم وحواء إلى أن الحارث ربه ، بل قصد أنه كان سبب نجاته . وقال جمهور المفسرين . قوله تعالى (فتعالى الله عما يشركون) فى مشركى العرب خاصة ، وهو منقطع عن قصة آدم وحواء عليهما السلام .

سورة الأنفال

فإن قيل : قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) إلى آخر الآيتين ، يدل على أن من لم يتصف بجميع تلك الصفات لايكون مؤمنا لأن كلمة إنما للحصر .

قلنا : فيه إضمار تقديره : إنما المؤمنون إيمانا كاملا ، وإنما الكاملون فى الايمان كما يقال الرجل من تصبر على الشدائد ، يعنى الرجل الكامل .

فإن قيل : قوله تعالى (أولئك هم المؤمنون حقا) ينفى إرادة ما ذكرتم .

قلنا : معناه أولئك هم المؤمنون إيمانا كاملا حقا وقيل إن حقا متعلق بما بعده لابما قبله ، والمؤمنون تمام الكلام .

---

(١) وإنما قال : جعلا ، لأن حواء كانت تلد فى بطن ذكرا وأنثى .

فإن قيل : كيف يقال : إن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان ، وقد قال تعالى (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) ؟

قلنا : المراد هنا آثار الإيمان من الطمأنينة واليقين والخشية ونحو ذلك ، لأن تظاهر الأدلة على المدلول مما يزيده رسوخا فى العقائد وثبوتا ، فأما حقيقة الإيمان فهو التصديق والإقرار بوحدانية الله تعالى ، وكما أن الإلهية الوحدانية لاتقبل الزيادة والنقصان ، فكذا الإقرار بها .

فإن قيل : : قوله تعالى (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) تشبيه فأين المشبه والمشبه به ؟

قلنا : معناه امض على ما رأيته صوابا من تنفيل الغزاة فى قسمة الغنائم وإن كرهوا ، كما مضيت فى خروجك من بيتك للحرب بالحق وهم كارهون . وقيل معناه : فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فهو خير لكم وإن كرهتم ، كما كان إخراجك من بيتك بالحق .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ليحق الحق ويبطل الباطل) وكلاهما متعذر ، لأنه تحصيل الحاصل ؟

قلنا : المراد بالحق الإيمان ، والباطل الشرك ، فاندفع السؤال .

فإن قيل : ما فائدة التكرار فى قوله تعالى (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق) ؟

قلنا : إنما ذكر أولا لبيان أن إرادتهم كانت متعلقة باختيار الطائفة التى كانت فيها الغنيمة وإرادة الله تعالى باختيار الطائفة التى فى قهرها نصرة الدين فذكره أولا للتمييز بين الإرادتين، ثم ذكره ثانيا لبيان الحكمة فى قطع دابر الكافرين .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) ومعلوم أن المؤمنين يوم بدر قتلوا الكفار

ورماهم النبي عليه الصلاة والسلام بكف من حصا الوادى فى وجوههم وقال : شاهت الوجوه ، فلم يبق مشرك إلا وقع فى عينيه شيء من ذلك ، فشغلوا بعيونهم وانهزموا ، فتبعهم المؤمنون يقتلون ويأسرون ؟

قلنا : لما كان السبب الأقوى فى قتلهم إنما هو مدد الملائكة وإلقاء الرعب فى قلوب الكافرين وتثبيت قلوب المؤمنين وأقدامهم ، وذلك كله فعل الله تعالى ، نفى الفعل عنهم ونسبه إليه ، يعنى إن كان ذلك فى الصورة منكم فهو فى الحقيقة منى ، فسبيلكم الشكر دون العجب والفخر ، وكذلك الرمية أثبتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه لأن أثرها الذى لا يوجد مثله عن رمى البشر فعل الله تعالى ، ونظير هذا قولك لمن يصدر عنه قول حسن أو فعل مكروه بتسليط من هو أعلى رتبة منه : هذا ليس قولك ولا فعلك . وقيل معنى قوله تعالى (وما رميت إذ رميت) وما رميت الرعب فى قلوبهم إذ رميت الحصا فى وجوههم ولكن الله رمى الرعب فى قلوبهم . ولأهل الحقيقة فى هذه الآية وفى نظائرها من الكتاب والسنة مباحث لايحتملها هذا المختصر ، وهى مستقصاة فى كتب التصوف .

فإن قيل : كيف قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه) ثنى فى الأمر ثم أفرد فى النهى ؟

قلنا : كما يذكر فى لغة العرب الاسم المفرد ويراد به الاثنان والجمع ، فكذلك يذكر ضمير المفرد ويراد به ضمير الاثنين كقولهم : إنعام فلان ومعروفه يغشينى ، والإنعام والمعروف لاينفع مع فلان ، وعليه جاء قوله تعالى (والله ورسوله أحق أن يرضوه) أى يرضوهما ، فكذا هنا معناه : ولا تولوا عنهما . الثانى أنه إن أفرد باعتبار عود الضمير إلى الله وحده لأنه الأصل ، مع أن طاعة الله وطاعة رسوله متلازمان ، قال الله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون

الله) فكان الإعراض عن الرسول إعراضا عن الله تعالى فاكتفى بذكره ، الثالث أن معناه : ولا تولوا عن هذا الأمر وعن أمثاله ، فالضمير للأمر لا للرسول عليه الصلاة والسلام . الرابع : أنه إنما لم يقل ولا تولوا عنهما لئلا يلزم منه الإخلال بالأدب من النبي عليه الصلاة والسلام عند نهيه للكفار فى قرانه بين اسمه واسم الله تعالى فى ذكرهما بلفظ واحد من غير تقديم اسم الله ، كما روى « أن خطيبا خطب فقال : من أطاع الله ورسوله فقد رشد ، ومن عصاهما فقد غوى ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : بئس خطيب القوم أنت ، هلا قلت : ومن عصى الله ورسوله فقد غوى » ؟

فإن قيل : مامعنى قوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) الآية ؟

قلنا : معناه ولو علم الله فيهم تصديقا وإيمانا فى المستقبل لأسمعهم سماع فهم وقبول ، أو لأنطق لهم الموتى يشهدون بصدق نبوتك كما طلبوا . وقيل معنى لأسمعهم : لرزقهم الفهم والبصيرة ، وأسمعهم وحالهم هذه الحال ، وهو أنه لم يعلم فيهم الخير لتولوا وهم معرضون لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره .

فإن قيل : التولى والإعراض واحد ، فما فائدة قوله (لتولوا وهم معرضون) ؟

قلنا : معناه لتولوا عن الإيمان وأعرضوا عن البرهان فلا تكرار .

فإن قيل : فما فائدة ذكر السماء فى قوله تعالى (فأمطر علينا حجارة من السماء) والمطر إنما يكون من السماء ؟

قلنا : المطر المطلق . إنما يكون من السماء ، ولكن المطر المضاف هنا وهو مطر الحجارة قد يكون من رءوس الجبال ومن حيطان المساكن والقصور وسقوفها ، فكان ذكر السماء مفيدا لأن الحجارة إذا نزلت من السماء كانت أشد نكاية وأكثر ضررا . الثانى أنه لما كانت الحجارة المسومة

العذاب وهى السجيل معهودة النزول من السماء ذكر السماء إشارة إلى إرادة المعهود من الحجارة ، كأنه قال : فأمطر علينا حجارة من سجيل ، فوضع قوله من السماء موضع قوله من سجيل كما تقول : صب عليه مسرودة من حديد ، يعنى درعا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ويوم بدر عذبهم الله تعالى بالقتل والأسر وهو فيهم ؟

قلنا : معناه وأنت مقيم فيهم بمكة ، وكان كذلك لأن النبى عليه الصلاة والسلام مادام بمكة لم يعذبوا ، فلما أخرجوه من مكة وخرجوا لحربه عذبوا . وقيل معناه : وما كان الله ليعذبهم عذاب الاستئصال وأنت فيهم . وقيل معناه : وما كان الله ليعذبهم العذاب الذى طلبوه وهو إمطار الحجارة وأنت فيهم .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى أولا (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) الآية ، ثم قال (وما لهم ألا يعذبهم الله) الآية ، وهو يوهم التناقض ؟

قلنا : معناه وما لهم أن لا يعذبهم الله بعد خروجك من بينهم وخروج المؤمنين والمستغفرين . وقيل المراد بالعذاب الأول عذاب الاستئصال ، وبالثانى عذاب غير الاستئصال ، وقيل المراد بالأول عذاب الدنيا ، وبالثانى عذاب الآخرة .

فإن قيل : (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) والمكاء الصفير ، والتصدية التصفيق ، وهما ليسا بصلاة ؟

قلنا : معناه أنهم أقاموا المكاء والتصدية مقام الصلاة كما يقول القائل زرت فلانا ، فجعل الجفاء صلتى : أى أقام الجفاء مقام صلتى ، ومنه قول الفرزدق :

أخافُ زِياداً أنْ يكونَ عطاؤُهُ   أداهِمَ سوداً أوْ محدْرَجةً سُمْراً

أراد بالأداهم القيود، وبالمحدرجة السياط ، ووضعهما موضع العطاء .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف وإن يعودوا) لم ينتهوا عن الكفر ، فكيف قال (وإن يعودوا) والعود إلى الشيء إنما يكون بعد تركه والإقلاع عنه ؟ .

قلنا : معناه إن ينتهوا عن عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاربته يغفر لهم ماقد سلف من ذلك ، وإن يعودوا إلى قتاله وعداوته فقد مضت سنة الأولين منهم الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر ، أو فقد مضت سنة الذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية . وقيل معناه : إن ينتهوا عن الكفر بالإيمان يغفر لهم ماقد سلف من الكفر والمعاصي ، كماقال النبي عليه الصلاة والسلام « الإسلام يجب ماكان قبله » وإن يعودوا إلى الكفر بالارتداد بعد ماأسلموا فقد مضت سنة الأولين من الأمم من أخذهم بعذاب الاستئصال .

فإن قيل : الفائدة فى تقليل الكفار فى أعين المؤمنين ظاهرة ، وهى زوال الرعب من قلوب المؤمنين وتثبيت أقدامهم وزيادة اجترائهم على القتال ، فمافائدة تقليل المؤمنين فى أعين الكفار حتى قال الله تعالى (ويقللكم فى أعينهم) مع أن فى ذلك زوال الرعب من قلوب الكافرين وتثبيت أقدامهم واجترائهم على القتال ؟

قلنا : فائدته أن لايستعد الكفار كل الاستعداد ، فيجترئوا على المؤمنين معتمدين على قلتهم ، ثم تفجؤهم الكثرة فيدهشوا ويتحيروا ، وأن يكون ذلك سببا يتنبه به المشركون على نصرة الحق إذ رأوا المؤمنين مع قلتهم فى أعينهم منصورين عليهم . وفى التقليل من الطرفين معارضة تعرف بالتأمل .

فإن قيل : قوله تعالى (ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) يدل على حرمة المنازعة والجدال أيضا لأنه منازعة ، فكيف تجوز المناظرة وهى منازعة وجدال ؟

قلنا : المراد بالمنازعة هنا : المنازعة فى أمر الحرب والاختلاف فيه ، لا المنازعة فى إظهار الحق بالحجة والبرهان والدليل عليه أن ذلك مأموربه ، قال الله تعالى (وجادلهم بالتى هى أحسن) لكن للجواز شروط يندر وجودها فى زمننا هذا : أحدها أن يكون كل المقصود منها ظهور الحق على لسان أى الخصمين كما كانت مناظرة السلف ، وعلامة ذلك أن لايفرح بظهور الحق على لسانه أكثر ممايفرح بظهوره على لسان خصمه .

فإن قيل : كيف قال إبليس (إنى أخاف الله) وهو لايخاف الله ، لأنه لو خافه لماخالفه ثم أضل عبيده ؟

قلنا : قال قتادة لو صدق وعد الله فى قوله (إنى أرى مالاترون) يعنى جبريل والملائكة عليهم السلام معه نازلين من السماء لنصرة المسلمين يوم بدر ، وكذب فى قوله (إنى أخاف الله) والله مابه مخافة الله ولكن علم أنه لاقوة له بهم . وقيل لما رأى نزول الملائكة على صورة لم يرها قط خاف قيام الساعة التى هى غاية إنظاره فيحل به العذاب الموعود . وقيل معنى أخاف الله : أعلم صدق وعده لنبيه بالنصر ، وقد جاء الخوف بمعنى العلم ، ومنه قوله تعالى (إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله) ويحتمل عندى أن يكون خاف أن يحل به من الملائكة مادون الإهلاك من الأذى إذلم يخف الإهلاك ؛ ثم أقول : كيف تؤخذ عليه كذبة واحدة وهو أفسق الفسقة وأكفر الكفرة ، فلا عجب فى كذبه وإنما العجب فى صدقه .

فإن قيل : أى مناسبة بين الشرط والجزاء فى قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) ؟

قلنا : لما أقدم المؤمنون وهم ثلاث مائة وبضعة عشر على قتال المشركين وهم زهاء ألف متوكلين على الله وقال المنافقون : غر هؤلاء دينهم حتى أقدموا على ثلاثة أمثالهم عددا أو أكثر قال الله تعالى ردا على المنافقين

وتثبيتا للمؤمنين (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز) أى غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوى وينصره عليه ، حكيم فى جميع أفعاله .

فإن قيل كيف قال (وأن الله ليس بظلام للعبيد) ولم يقل ليس بظالم، وهو أبلغ فى نفى الظلم عن ذاته المقدسة ؟

قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه فى سورة آل عمران .

فإن قيل : قوله عزّ وجلّ (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وذلك إشارة إلى إهلاك كفار مكة وآل فرعون ولم تكن لهم حال مرضية غيروها ؟

قلنا : كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها وأسوأ ، وأولئك كانوا قبل بعث الرسول إليهم عباد أصنام ، فلما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وسعوا فى قتله غيروا حالهم إلى أسوأ منها ، فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (فهم لايؤمنون) بعد قوله (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا) ؟

قلنا : مراده أن يبين أن شر الكفار الذين كفروا واستمروا على الكفر إلى وقت الموت .

فإن قيل : ما فائدة تكرار المعنى الواحد فى مقاومة الجماعة لأكثر منها قبل التخفيف وبعده فى قوله تعالى (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) إلى قوله (والله مع الصابرين) ؟

قلنا : فائدته الدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت ، بل كما ينصره الله تعالى العشرين على المائتين ينصر المائة على الألف ، وكما ينصر المائة على المائتين ينصر الألف على الألفين .

فإن قيل : كيف أخبر الله تعالى عن هذه الغلبة ونحن نشاهد الأمر بخلافها ، فإن المائة من الكفار قد تغلب المائة من المسلمين ، بل المائتين في بعض الأحوال ؟

قلنا : إنما أخبر الله عز وجل عن هذه الغلبة بشرط الصبر الذي هو الثبات في موقف الحرب ، أو الذي هو الموافقة بين المسلمين ظاهرا وباطنا فمتى وجد الشرط تحققت الغلبة للمسلمين مع قلتهم لامحالة . ولقائل أن يقول إن هذه الغلبة مخصوصة بطائفة كان النبي صلى الله عليه وسلم أحدهم ، وسياق الآية يدل عليه .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (والله يريد الآخرة) مع أنه يريد الدنيا أيضا ، لأنه لولا إرادته إياها لما وجدت ، فما فائدة هذا التخصيص ؟

قلنا : المراد بالإرادة هنا الاختيار والمحبة ، لا إرادة الوجود والكون ، فالمعنى أتحبون عرض الحياة الدنيا وتختارونه ، والله يختار ما هو سبب الجنة وهو إعزاز الاسلام بالإثخان في القتل .

سورة التوبة

فإن قيل : لأي سبب تركت كتابة البسملة في أول هذه السورة بخلاف سائر السور ؟

قلنا : لما تشابهت هي والأنفال واختلفت الصحابة في كونهما سورتين أو سورة واحدة تركت بينهما فرجة عملا بقول من قال هما سورتان ، وتركت البسملة بينهما عملا بقول من قال هما سورة واحدة ، وممن قال بذلك قتادة رحمه الله . الثاني : أن اسم الله تعالى سلام وأمان ، وبراءة فيها قتل المشركين ومحاربتهم فلا يناسب كتابتها .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا

فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر) خص الأمر بالقتال بأئمة الكفر ، مع أن النكث والطعن ليس مخصوصا بهم ، بل هو مسند إلى جميع المشركين ؟

قلنا : المراد بأئمة الكفر رءوس المشركين وقادتهم . وقيل كفار مكة لأنهم كانوا قدوة جميع العرب فى الكفر ، فكأن النكث والطعن لم يوجد إلا منهم لما كانوا هم الأصل فيه ، فلذلك خصهم بالذكر .

فإن قيل : كيف قال (وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله) ونحن نسأل اليهود والنصارى عن ذلك فينكرونه ويجحدونه ؟

قلنا : طائفة من اليهود وطائفة من النصارى هم الذين يقولون ذلك لا كلهم ، فالألف واللام للعهد لا للجنس ولا للاستغراق ، أو أطلق اسم الكل وأراد البعض ، كما قال تعالى (وإذ قالت الملائكة يامريم) وإنما قال لها جبريل وحده .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (ذلك قولهم بأفواههم) وقول كل أحد إنما يكون بفمه .

قلنا : معناه أنه قول لا تعضده حجة وبرهان ، إنما هو مجرد لفظ لا أصل له . وقيل ذكر ذلك للمبالغة فى الرد عليهم والإنكار لقولهم ، كما يقول الرجل لغيره : أنت قلت لى ذلك بلسانك .

فإن قيل : دين الحق هو من جملة الهدى فما فائدة عطفه على الهدى فى قوله تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) ؟

قلنا : المراد بالهدى هنا القرآن ، وبدين الحق الإسلام وهما متغايران . الثانى أنه وإن كان داخلا فى جملة الهدى ولكنه خصه بالذكر تشريفا له وتفضيلا كما فى قوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) وقوله تعالى (وملائكته وجبريل وميكائيل) .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ليظهره على الدين كله) ولم يقل على الأديان كلها ، مع أنه أظهره على الأديان كلها ؟

قلنا : المراد بالدين هنا اسم الجنس ، واسم الجنس المعرف باللام يفيد معنى الجمع ، كما فى قولهم : كثر الدرهم والدينار فى أيدى الناس .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ولاينفقونها فى سبيل الله) والمذكور الذهب والفضة ، فأعاد الضمير على أحدهما ؟

قلنا : أعاد الضمير على الفضة لأنها أقرب المذكورين ، أو لأنها أكثر وجودا فى أيدى الناس ، فيكون كنزها أكثر ، ونظيره قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة) . الثانى : أنه أعاد الضمير على المعنى لأن المكنوز دنانير ودراهم وأموال ، ونظيره قوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) لأن كل طائفة مشتملة على عدد كثير ، وكذا قوله تعالى (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) يعنى المؤمنين والكافرين. الثالث: أن العرب إذا ذكرت شيئين يشتركان فى المعنى تكتفى بإعادة الضمير على أحدهما استغناء بذكره عن ذكر الآخر لمعرفة السامع باشتراكهما فى المعنى ، ومنه قول حسان بن ثابت :

إنَّ شَرْخَ الشَّبابِ والشَّعَرَ الأَسْوَدِ   وَمَا لَمْ يُعاصَ كانَ جُنُونا

ولم يقل مالم يعاصيا وقول الآخر :

فَمَنْ يَكُ أَمْسَى بالمدينَةِ رَحْلُهُ   فإنى وقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ

ولم يقل لغريبان ، ومنه قوله تعالى (والله ورسوله أحق أن يرضوه) وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه) وليس قوله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها) وقوله تعالى (ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا) من هذا القبيل : لأن الإضمار ثم عن أحدهما لوجود لفظة أو ، وهى لإثبات أحد المذكورين ، فمن جعله نظير هذا فقد سها إلا أن يثبت أن أو فى هاتين الآيتين بمعنى الواو . وفى هاتين الآيتين لطيفة

وهى أن الكلام لما اقتضى إعادة الضمير على أحدهما أعاده فى الآية الأولى على التجارة ، وإن كانت أبعد ، ومؤنثة أيضا لأنها أجذب لقلوب العباد عن طاعة الله تعالى من اللهو ، لأن المشتغلين بها أكثر من المشتغلين باللهو ، أو لأنها أكثر نفعا من اللهو ، أو لأنها كانت أصلا واللهو تبعا لأنه ضرب بالطبل لقدومها على ماعرف من تفسير الآية ، وأعاده فى الآية الثانية على الإثم رعاية لمرتبة القرب والتذكير .

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا) وهى عند الناس أيضا كذلك فى كل ملة سواء كانت الشهور قمرية أو شمسية ؟

قلنا : فائدته أن يعلم أن هذا التقسيم والعدد ليس مما أحدثه الناس وابتدعوه بعقولهم من ذات أنفسهم ، وإنما هو أمر أنزله الله فى كتبه على ألسنة رسله .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) خص الأربعة الحرم بذلك وظلم النفس منهى عنه فى كل زمان ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما الضمير فى قوله تعالى (فيهن راجع إلى قوله (اثنا عشر شهرا) لا الأربعة الحرم فقط ، فاندفع السؤال الثانى : أن الضمير راجع إلى الأربعة الحرم فقط ، إما لأنها أقرب ، أو لما قاله الفراء : إن العرب تقول فى العشرة وما دونها لثلاث ليال خلون وأيام خلون وهن وهؤلاء ، فإذا جاوزت العشرة قالت خلت ومضت ، للفرق بين القليل وهو العشرة فما دونها ، وبين الكثير وهو ما زاد عليها ، ولهذا قال فى الاثنى عشر منها ، وقال فى الأربعة فيهن . فعلى هذا يكون تخصيصها بالذكر إما لمزيد فضلها وحرمتها عندهم فى الجاهلية فيكون ظلم النفس فيها أقبح ، ونظيره قوله تعالى (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) وإن كان ذلك منهيا عنه فى غير الحج أيضا ، أو لأن المراد بالظلم النسىء ،

وهو كان مخصوصا بها ، أو قتال الكفار فيها ابتداء ، أو ترك قتالهم إذا ابتدءوا وكل ذلك مخصوص بها ؟

فإن قيل : الشهر مذكر فقياسه فيها ؟

قلنا : الضمير بالهاء والنون لايختص بالمؤنث ، ولو اختص فالمراد بقوله فيهن ساعات الأشهر وهى مؤنثة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) والإنسان لايظلم نفسه بل يظلم غيره ؟

قلنا : لانسلم أنه لايظلم نفسه قال الله تعالى (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه) وقال الله تعالى(ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) . الثانى أن معناه فلا يظلم بعضكم بعضا كما قال تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم) وقال تعالى (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم) وقال تعالى (ولاتلمزوا أنفسكم) . الثالث أن معناه فلا تنقصوا حظ أنفسكم من الآخرة بالمعصية ، فإن من عصى فقد ظلم نفسه بنقصه ثوابها وتوجيه العقاب والذم إليها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه) . الرابع أن كل ظالم لغيره فهو ظالم لنفسه فى الحقيقة ، لأن ضرر ظلمه فى حق المظلوم ينقطع عن قريب لأنه لايتعدى الدنيا ، وضرر ظلمه فى حق نفسه يراه فى الآخرة حيث لا ينقطع ، أو يكون أشد وأدوم .

فإن قيل : قوله تعالى (إنما النسىء زيادة فى الكفر) يدل على قبول الكفر للزيادة والنقصان ، فكذلك الإيمان الذى هو ضده ، فيكون حجة للشافعى رحمة الله عليه فى قوله : الإيمان يقبل الزيادة والنقصان .

قلنا : معناه زيادة معصية فى الكفر .

فإن قيل : قوله تعالى (لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر) إن كان نهيا فأين الجزم ؟ وإن كان نفيا فقد وقع المنفى ، لأن كثيرا من

المؤمنين المخلصين استأذنوه فى التخلف عن الجهاد لعذر ، ويعضده قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) فقيل إن المراد به كل أمر طاعة اجتمعوا عليه كالجهاد والجمعة والعيد ونحوها ؟

قلنا : هو نهى بصيغة النفى كقوله تعالى (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) . الثانى : قال ابن عباس رضى الله عنهما هى منسوخة بقوله تعالى (لم يذهبوا حتى يستأذنوه) . الثالث : أن المراد بقوله (يستأذنك الذين) الآية الاستئذان فى التخلف عن الجهاد من غير عذر ، وكذا المراد بالآية التى بعدها ، وبقوله (لم يذهبوا حتى يستأذنوه) إباحة الاستئذان فى التخلف عن الأمر الجامع لعذر فلا نسخ لإمكان العمل بالآيتين ، لأن محل الحكم مختلف ، وهو وجود العذر وعدمه .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وقيل اقعدوا مع القاعدين) أخبر أنهم أمروا بالقعود ، وذمهم على القعود والتخلف عن الخروج للجهاد والاستئذان فى القعود ؟

قلنا : ليس فى الآية ما يدل على أن الله تعالى هو الآمر لهم ، فقيل الآمر لهم بذلك هو الشيطان بالوسوسة والتزيين . الثانى أن بعضهم أمر بعضا . الثالث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم ذلك غضبا عليهم . الرابع أنه أمر توبيخ وتهديد من الله تعالى لهم كقوله تعالى (اعملوا ما شئتم) يعضده قوله تعالى (مع القاعدين) أى مع النساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم فى البيوت .

فإن قيل : إذا كان الله تعالى علم أن المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للجهاد مازادوهم إلا خبالا : أى فسادا ، ولأوضعوا خلالهم : أى ولأسرعوا السعى بينهم بالتمائم ، فكيف أمرهم بالخروج مع المؤمنين ؟

قلنا : أمرهم بالخروج لإلزامهم الحجة ولإظهار نفاقهم :

فإن قيل : قوله تعالى (قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين) يدل على أن الفسق يمنع قبول الطاعات ؟

قلنا : المراد بالفسق هنا الفسق بالكفر والنفاق لا مطلق الفسق ، وذلك محبط للطاعات ومانع من قبولها ؛ ويعضده قوله عزّ وجلّ (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم) الآية .

فإن قيل : لم عدل فى آية الصدقات عن اللام إلى « فى » فى المصارف الأربعة الأخيرة ؟

قلنا : للتنبيه على أنهم أقوى فى استحقاق الصدقة ممن سبق ذكره ، لأن « فى » للظرفية والوعاء ، فنبه بها على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مصبا لها ، لما ورد فى فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر وفى فك الغارمين عن الدين من التخليص والإنقاذ ، والجمع الغازى الفقير أو المنقطع فى الحج الفقير بين الفقر ، ومثل هذه العبادة الشاقة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال ، ولا يرد المؤلفة قلوبهم لأن بعضهم كفار وبعضهم مسلمون ضعيفو النية فى الإسلام ، فكيف يعارض بهم من ذكرنا ، أو لأن الله تعالى علم أن وجوب إعطائهم سينسخ ، فلذلك جعلهم فى القسم المقدم الذى هو أضعف .

فإن قيل : لم كرر « فى » فى الأربعة الأخيرة ولم يكرر اللام فى الأربعة الأولى ؟

قلنا : للتنبيه على ترجيح استحقاق المصرفين الأخيرين على الرقاب والغارمين من جهة أن إعادة العامل تدل على مزيد قوة تأكيد كقولك مررت بزيد وبعمرو .

فإن قيل : لم عدّى فعل الإيمان إلى الله تعالى بالباء وإلى المؤمنين باللام فى قولة تعالى (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) ؟

قلنا : لأنه قصد التصديق بالله الذى هو ضد الكفر به ، فعداه بالباء كما

يعدى ضده بها ، وقصد التسليم والانقياد للمؤمنين فيما يخبرون به لكونهم صادقين عنده ، فعداه بما يعدى به التسليم والانقياد ، ويعضده قوله تعالى (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) وقوله تعالى (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم) وقوله تعالى (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه) وقوله تعالى (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) وأما قوله تعالى (قال آمنتم له قبل أن آذن لكم) فمشترك الدلالة لأنه قال فى موضع آخر (قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم) وقال ابن قتيبة فى الجواب عن أصل السؤال : إن الباء واللام زائدتان ، والمراد بالإيمان التصديق ، فمعناه يصدق الله ويصدق المؤمنين .

فإن قيل : قوله تعالى (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدا فيها) يدل على تخليد أصحاب الكبائر فى النار ، لأن المراد بالمحادة المخالفة والمعاداة ؟

قلنا : قوله تعالى (ألم يعلموا) خبر عن المنافقين الذين سبق ذكرهم ، فيكون المراد به المحادة بالكفر والنفاق ، وذلك موجب للتخليد فى النار .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة) ، وسور القرآن إنما تنزل على النبى صلى الله عليه وسلم لا على المنافقين ؟

قلنا : معناه أن تنزل فيهم ، فعلى هنا بمعنى فى كما فى قوله تعالى (على ملك سليمان) وقولهم كان ذلك على عهد فلان . الثانى : أن الإنزال هنا بمعنى القراءة ؛ فمعناه أن تقرأ عليهم .

فإن قيل : الحذر فى هذه الآية واقع منهم على إنزال السورة ، فكيف قال تعالى (قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون) ؟

قلنا : قوله تعالى (مخرج ما تحذرون) أى مظهر ما تحذرون ظهوره من نفاقكم بإنزال السورة ، وهو مناسب لقوله تعالى (تنبئهم بما فى قلوبهم) . الثانى : أن معناه مظهر ومبرز ما تحذرون من إنزال السورة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (تنبئهم بما فى قلوبهم) وإنباؤهم بما فى قلوبهم تحصيل الحاصل لأنهم عالمون به فما فائدته ؟

قلنا : معناه تنبئهم بأن إسرارهم وما كتموه من النفاق شائعة ذائعة ؛ وتفضحهم بظهور ما اعتقدوا أنه لايعرفه غيرهم ولا يطلع عليه سواهم ، وهذا ليس تحصيل الحاصل .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) وقال بعده (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وكلمة « من » أدل على المشابهة والمجانسة من حيث أنها تقتضى الجزئية والبعضية ، فكانت بالمؤمنين أولى وأحرى لأنهم أشد تشابها وتجانسا فى الصفات والأخلاق ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى (بعضهم من بعض) أى بعضهم على دين بعض أى على عادتهم وخلقهم بإضمار لفظة الدين أو الخلق ونحوه ، لأن « من » تأتى بمعنى على ، ومنه قوله تعالى (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) وقوله تعالى (للذين يؤلون من نسائهم) أى يحلفون على وطء نسائهم ، وهذا هو المعنى المراد فى قوله عليه الصلاة والسلام « فمن رغب عن سنتى فليس منى » وقوله عليه الصلاة والسلام « من غشنا فليس منا » والمراد بقوله تعالى (بعضهم أولياء بعض) أى أنصارهم وأعوانهم فى الدين ، وكل واحدة من العبارتين صالحة للفريقين ، إلا أنه خص المنافقين بتلك العبارة تكذيبا لهم فى حلفهم السابق فى قوله تعالى (ويحلفون بالله أنهم لمنكم) وتقريرا لقوله تعالى (وماهم منكم) ؟

فإن قيل : أى فائدة فى قوله تعالى (فاستمتعوا بخلاقهم) مع أن قوله تعالى (فاستمعتم بخلاقكم كمااستمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) بوضع الظاهر موضع الضمير مغن عنه ، كما قال تعالى (وخضتم كالذى خاضوا) من غير تكرار ؟

قلنا : فائدته تصدير التشبيه بذم المشبه بهم باستمتاعهم بما أوتوا من

حظوظ الدنيا واشتغالهم بشهواتهم الفانية عن النظر فى العاقبة الباقية وطلب الفلاح فى الآخرة ، وتهجين حالهم وتقبيح صفتهم ليكون التشبيه بعد ذلك أبلغ فى ذم المشبهين بأولئك الأولين ، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول : أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق ويظلم ويفسق وأنت تفعل مثل فعله . وأما قوله تعالى (وخضتم كالذى خاضوا) فإنه لما كان معطوفا على ماقبله وهو التشبيه المصدر بتلك المقدمة أغنى ذلك عن إعادة تلك المقدمة المذكورة للتقبيح والتهجين .

فإن قيل : قوله تعالى (أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة) حبوط العمل إن كان عبارة عن بطلان ثوابه فذلك إنما يكون فى الآخرة ، وإن كان عبارة عن بطلان منفعته فأعمال المنافقين فى الدنيا ليست باطلة المنفعة ، لأنهم ينتفعون بها فى حقن دمائهم وأموالهم وجريان أحكام المسلمين عليهم ؟

قلنا : المراد بالأعمال إن كانت نوعى أعمالهم الدينية والدينوية ، فالحبوط فى الدنيا راجع إلى أعمالهم الدنيوية وهى كيدهم ومكرهم وخداعهم ونفاقهم الذى كانوا يقصدون به إطفاء نور الله تعالى ورفع آياته وبيناته ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، فلم ينالوا من ذلك ما أملوه وقصدوه عن إبطال دين الله تعالى وستر نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، والحبوط فى الآخرة راجع إلى أعمالهم الدينية وهى عباداتهم وطاعاتهم لأنهم فعلوها نفاقا ورياء فبطل ثوابها فى الآخرة ؛ وإن كان المراد بأعمالهم مجرد الأعمال الدينية فحبوطها فى الدنيا هو عدم قبولها ، لأن الله تعالى يقبل العبادة فى الدنيا ثم يثيب عليها فى الآخرة ، والمراد بحبوطها فى الدنيا عدم قبولها وعدم إطلاق الأسماء الشريفة عليها ، كالعبادة والقربة والحسنة ونحو ذلك ، وهذا ضد قوله تعالى (وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) فدل على أن للطاعات أجرا معجلا فى الدنيا غير الأجر المؤجل إلى الآخرة ،

وهو القبول وحسن الثناء والذكر وإلقاء المحبة فى قلوب الخلق ، كما قال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) قيل معناه . يحبهم ويحببهم إلى عباده من غير سبب بينه وبينهم يوجب المحبة ، وكذلك على العكس حال العصاة والفساق يبغضهم ويبغضهم إلى عباده من غير سبب بينه وبينهم يوجب البغض .

فإن قيل : قوله تعالى (ومالهم فى الأرض من ولى ولانصير) لم خص الأرض بالنفى مع أن المنافقين ليس لهم ولى ولانصير من عذاب الله فى الأرض ولافى السماء فى الدنيا ولافى الآخرة ؟

قلنا : لما كان المنافقون لايعتقدون الوحدانية ولا يصدقون بالآخرة ، كان اعتقادهم وجود الولى والنصير مقصورا على الدنيا ، فعبر عن الدنيا ، بالأرض وخصها بالذكر لذلك . الثانى أنه أراد بالأرض أرض الدنيا والآخرة فكأنه قال : ومالهم فى الدنيا والآخرة من ولى ولانصير .

فإن قيل : لم خص السبعين بالذكر فى قوله (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) مع أن الله تعالى لايغفر للمنافقين ولو استغفر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ألف مرة بدليل قوله تعالى (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) ولأنهم مشركون ، والله تعالى لايغفر أن يشرك به ؟

قلنا : جرت عادة العرب بضرب المثل فى الآحاد بالسبعة ، وفى العشرات بالسبعين ، وفى المئات بسبعمائة استعظاما لها واستكثارا ، لا أنهم يريدون بذكرها الحصر ، فكأنه قال : إن تستغفر لهم أعظم الأعداد وأكثرها فلن يغفر الله لهم ، ويعضده ما ذكره بعد ذلك من بيان الصارف عن المغفرة فى قوله تعالى (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) .

فإن قيل : لو كان المراد ماذكرتم لما خفى ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم وهو أفصح العرب وأعلمهم بأساليب الكلام وتمثيلاته ، حتى قال

لما نزلت هذه الآية : إن الله تعالى قد رخص لى فسأزيد على السبعين. وفى رواية أخرى : فسأستغفر لهم أكثر من السبعين لعل الله أن يغفر لهم ؟

قلنا : لم يخف عليه ذلك وإنما أراد بما قال إظهار غلبة رحمته ورأفته بمن بعث إليهم ، كما وصفه الله تعالى بقوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الآية وفى إظهار النبي صلى الله عليه وسلم الرأفة والرحمة لطف لأمته ، وحث لهم على التراحم ، وشفقة بعضهم على بعض ، وهذا دأب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ألا ترى إلى قول إبراهيم صلوات الله عليه (ومن عصانى فإنك غفور رحيم) .

فإن قيل . كيف قال تعالى (ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم) والمغفرة والرحمة إنما تكون للمسيئين لا للمحسنين ؟

قلنا : معناه والله غفور رحيم للمسيئين إذا تابوا ، فهو متعلق بمحذوف لا بالمحسنين ، لأنهم قد سدوا بإحسانهم طريق العقاب والذم ، فليس عليهم سبيل فيهما . الثانى أن المحسن من الناس وإن تناهى فى إحسانه لايخلو عن إساءة بينه وبين الله تعالى ، أو بينه وبين الناس ، لكنه إذا أحسن بإجتناب الكبائر غفر الله له صغائر سيئآته ورحمه ، كما قال تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) الآية .

فإن قيل قوله تعالى (فسيرى الله عملكم ورسوله) أى سيعلم ، لأن السين للاستقبال ، والرؤية من الله تعالى بمعنى العلم ، والله تعالى عالم بعملهم حالا ومآلا ؟

قلنا : معناه فى حق الله أنه سيعلمه واقعا موجودا كما علمه غيبا ، لأن الله تعالى يعلم كل شىء على ماهو عليه ، فيعلم المنتظر منتظرا ويعلم الواقع واقعا ، وأما فى حق الرسول عليه الصلاة والسلام فهو على ظاهره .

فإن قيل : إن الله تعالى قد وصف العرب بالجهل فى القرآن بقوله تعالى

(وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) فكيف يصح الاحتجاج بألفاظهم وأشعارهم على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؟

قلنا : هذا وصف من الله لهم بالجهل فى أحكام القرآن لافى ألفاظه ، ونحن لانحتج بلغتهم فى بيان الأحكام ، بل نحتج بلغتهم فى بيان معانى الألفاظ لأن القرآن والسنة جاءا بلغتهم .

فإن قيل كيف قال تعالى فى صفة المنافقين مردوا على النفاق (لاتعلمهم نحن نعلمهم) وقال فى موضع آخر (ولتعرفنهم فى لحن القول) ؟

قلنا : هذه الآية نزلت قبل تلك الآية فلا تناقض ، لأنه نفى علمه لهم فى زمان ثم أثبته بعد ذلك فى زمان آخر .

فإن قيل : قوله تعالى (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) قد جعل كل واحد منهما مخلوطا فأين المخلوط به ؟

قلنا : كل واحد مخلوط ومخلوط به ، لأن معناه : خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك : خلطت الماء واللبن ، تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه ، وفيه من المبالغة ماليس فى قولك : خلطت الماء باللبن ، لأنك بالباء جعلت الماء مخلوطا واللبن مخلوطا به ، وبالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطا بهما ، كأنك قلت : خلطت الماء باللبن واللبن بالماء ؛ ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء كقولهم : بعت شاة ودرهما ، يعنون شاة بدرهم .

فإن قيل : كيف قال تعالى (والناهون عن المنكر) بالواو وماقبلها من الصفات بغير واو ؟

قلنا : لأنها صفة ثامنة ، والعرب تدخل الواو بعد السبعة إيذانا بتمام العدد ، فإن السبعة عندهم هى العقد التام كالعشرة عندنا ، فأتوا بحرف العطف الدال على المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ، ونظيره قوله

تعالى (وثامنهم كلبهم) بعد ماذكر العدد مرتين بغير واو ، وقوله تعالى فى صفة الجنة (وفتحت أبوابها) بالواو لأنها ثمانية . وقال فى صفة النار نعوذ بالله منها فتحت أبوابها بغير واو لأنها سبعة ، وليس قوله تعالى (ثيبات وأبكارا) من هذا القبيل ، لأن الواو لو أسقطت فيه لاستحال المعنى لتناقض الصفتين ، وقيل إنما دخلت الواو على الناهين عن المنكر إعلاما بأن الآمر بالمعروف ناه عن المنكر فى حال أمره بالمعروف ، فهما صفتان متلازمان بخلاف باقى الصفات المذكورة فإنها ليست متلازمة ، ولاينقض هذا بقوله تعالى (الراكعون الساجدون) لأنهما ليستا صفتين متلازمتين ، لأن السجود يلزم الركوع ، أما الركوع فلا يلزم السجود بدليل سجود التلاوة وسجود الشكر ، والزمخشرى لم يتكلم على هذه الواو .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ليجزيهم الله أحسن ماكانوا يعملون) أى بأحسن الذى كانوا يعملون بإضمار حرف الجر ، مع أنهم يجزون بحسنة أيضا لقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) ؟

قلنا : معناه بحسن الذى كانوا يعملون ، وهو الطاعات كلها ، لابسيئه وهو المعاصى ، فالأحسن هنا بمعنى الحسن ، وسيأتى فى سورة الروم فى قوله تعالى (وهو أهون عليه) ما يوضح هذا إن شاء الله تعالى . الثانى : أن معناه ليجزيهم الله أحسن من الذى كانوا يعملون .

فإن قيل : قوله تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) يدل على أن الإيمان يقبل الزيادة ؟

قلنا : قال مجاهد : معناه فزادتهم علما ، لأن العلم من ثمرات الإيمان نجعل مجازا عنه ، والله أعلم .

سورة يونس عليه السلام

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (يفصل الآيات لقوم يعلمون) والله تعالى فصل الآيات للعلماء والجهال أيضا .

قلنا : لما كان يقع تفصيل الآيات مخصوصا بالعلماء وانتفاعهم بالتفصيل أكثر أضاف التفصيل إليه وخصهم به .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) مع أن أقوال أهل الجنة وأحوالهم لا آخر لها ، لأن الجنة دار الخلود ؟

قلنا : معناه وآخر دعائهم فى كل مجلس دعاء أو ذكر أو تسبيح ، فإن أهل الجنة يسبحون ويذكرون للتنعم والتلذذ بالذكر والتسبيح .

فإن قيل : قد أنكر الله تعالى على الكفار احتجاجهم بمشيئته فى قوله تعالى (ولو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) ولهذا لايجوز للعاصى أن يحتج فى وجود المعصية منه بقوله لو شاء الله ما فعلت هذه المعصية فلا تقيموا علىّ حدها : فكيف قال النبى صلى الله عليه وسلم : لو شاء الله ما تلوته عليكم ؟

قلنا : النبى صلى الله عليه وسلم قال هذه الجملة بأمر الله تعالى ، لأن الله عزّ وجلّ قال له (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم) وللعبد أن يحتج بمشيئة الله إذا أمره الله أن يحتج بها ، أما ما ليس كذلك فليس له أن يحتج بمجرد المشيئة ، وما أوردتموه كذلك .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق) والبغى لايكون إلا بغير الحق ، لأن البغى هو التعدى والفساد من قولهم بغى الجرح إذا فسد ، كذا قاله الأصمعى ، فما فائدة التقييد ؟

قلنا : قد يكون الفساد بالحق كاستيلاء المسلمين على أرض الكفار وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببنى قريظة .

فإن قيل : كيف شبه الله تعالى الحياة الدنيا بمـاء السماء دون ماء الأرض فقال (إنمـا مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) ؟

قلنا : لأن ماء السماء وهو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه ولا حيلة للعبد فى زيادته ونقصانه ، كما أن الحياة لا حيلة للعبد فى زيادتها ونقصانها . الثانى : أن ماء السماء يستوى فيه جميع الخلائق ، الوضيع والشريف ، والغنى والفقير والحيوان وغيره أيضا كالمدر والحجر والشوك والثمر ، كما أن الحياة كذلك ، فكأن تشبيه الحياة بمـاء السماء أشد مناسبة ومطابقة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤهم) وقال فى موضع آخر (ولا يكلمهم الله يوم القيامة)

قلنا : يوم القيامة مواقف ومواطن ، ففى موقف لايكلمهم ، وفى موقف يكلمهم ، ونظيره قوله تعالى (فيومئذ لايسئل عن ذنبه إنس ولا جان) وقوله (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) . الثانى المراد أنه لايكلمهم كلام إكرام بل كلام توبيخ وتقريع .

فإن قيل : قوله تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض) إلى آخر الآية يدل على أنهم معترفون أن الله تعالى هو الخالق والرازق والمدبر لجميع المخلوقات ، فكيف يعترفون بذلك كله ثم يعبدون الأصنام ؟

قلنا : كانوا يعتقدون فى عبادة الأصنام أنهم يتقاربون بها عبادة الله ؛ فطائفة كانت تقول نحن لانتأهل لعبادة الله تعالى بغير واسطة لعظمة إجلاله ونقصنا وحقارتنا ، فجعلوا الأصنام وسائط كما قال تعالى (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وطائفة كانت تقول : نتخذ أصناما على هيئة الملائكة ونعبدهم لتشفع لنا الملائكة عند الله ليقربونا إلى الله ، وطائفة كانت تقول : الأصنام قبلة لنا فى عبادة الله ، كما أن الكعبة قبلة فى عبادته ، وطائفة وهى الأكثر كانت تقول : على كل صنم شيطان موكل به من عند الله ، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه على وفق مراده بأمر

الله ، ومن قصر فى عبادة الصنم أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله ، فكل الطوائف من عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله والتقرب إليه ولكن بطرق مختلفة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده) وهم غير معترفين بوجود الإعادة أصلا لا من الله ولا من غيره ؟

قلنا : لما كانت الإعادة ظاهرة الوجود لظهور برهانها وهو القدرة على ابتداء الخلق ، والإعادة أهون بالنسبة إلينا لزمهم الاعتراف بها ، فصاروا كأنهم مسلّمون وجودها من حيث ظهور الحجة ووضوحها .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون) رتب كونه شهيدا على أفعالهم على رجوعهم إليه فى القيامة ، مع أنه شهيد على أفعالهم فى الدنيا والآخرة ؟

قلنا : ذكر الشهادة وأراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب والجزاء ، فكأنه قال : ثم الله يعاقب على ما يفعلون أو مجاز على ما يفعلون . كما قال تعالى (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) ونظائره فى القرآن العزيز كثيرة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (بياتا أو نهارا) ولم يقل ليلا أو نهارا وهو أظهر فى المطابقة استعمالا مع النهار فى القرآن العزيز وغيره ؟

قلنا : لأن المعهود المألوف فى كلام العرب عند ذكر البطش والإهلاك والوعيد والتهديد ذكر لفظ البيات سواء قرن به النهار أولا ، فلذلك لم يقل ليلا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ماذا يستعجل منه المجرمون) أى ماذا يستعجلون منه ، وأول الآية للمواجهة ؟

قلنا : أراد بذكر المجرمين الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو

الإجرام ، لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ويفزع من مجيئه ، وإن أبطأ فضلا عن أن يستعجله .

فإن قيل : كيف قال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) ولم يقل فبذينك ، والمشار إليه اثنان الفضل والرحمة .

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى سورة البقرة فى قوله تعالى (عوان بين ذلك) .

فإن قيل : قوله تعالى (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) تهديد لأن فيه محذوفا تقديره : وما ظنهم أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم ، فكيف يناسبه قوله تعالى بعده (إن الله لذو فضل على الناس) .

قلنا : هو مناسب لأن معناه أن الله لذو فضل على الناس حيث أنعم عليهم بالعقل والوحى والهداية وتأخر العذاب وفتح باب التوبة ، فكيف يفترون على الله الكذب مع توافر نعمه عليهم ؟

فإن قيل : كيف قال تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن) ، فأفرد ثم قال (وما تعملون من عمل) فجمع ، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ؟

قلنا : قال ابن الأنبارى : إنما جمع فى الفعل الثالث ليدل على أن الأمة داخلون مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الفعلين الأولين . وقال غيره : المراد بالفعل الثالث أيضا النبى صلى الله عليه وسلم وحده ، وإنما جمع تفخيما له وتعظيما كما فى قوله تعالى(أفتطمعون أن يؤمنوا لكم) على قول ابن عباس رضى الله عنهما ، وكما فى قوله تعالى (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات) والمراد به النبى صلى الله عليه وسلم ، كذا قاله ابن عباس والحسن وغيرهما ، واختاره ابن قتيبة والزجاج .

فإن قيل : كيف قدم الأرض على السماء فى قوله تعالى (ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) وقدم السماء على الأرض فى قوله تعالى فى سورة سبأ (عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولافى الأرض) ؟

قلنا: حق السماء أن تقدم على الأرض مطلقا لأنها أشرف ، لكنه لما ذكر هنا فى صدر الآية شهادته على شؤون أهل الأرض وأقوالهم وأعمالهم ثم أردفه بقوله (ومايعزب عن ربك) ناسب ذلك تقديم الأرض على السماء . الثانى أن العطف بالواو نظير التثنية وحكمه حكمها ، فلا يعطى رتبة كالتثنية .

فإن قيل : كيف قال تعالى هنا (إن العزة لله جميعا) وقال فى موضع آخر (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ؟

قلنا : أثبت الاشتراك فى نفس العزة التى هى فى حق الله تعالى القدرة والغلبة ، وفى حق الرسول صلى الله عليه وسلم علو كلمته وإظهار دينه ، وفى حق المؤمنين نصرهم على أعدائهم ، وقوله تعالى (إن العزة لله جميعا) أراد به العزة الكاملة التى يندرج فيها عزة الإلهية والخلق والإماتة والإحياء والبقاء الدائم وما أشبه ذلك فلاتنافى .

فإن قيل : إذا كانت السموات والأرض ومافيهما من المخلوقات وما وراءهما كل ذلك لله تعالى ملكا وخلقا ، فما فائدة التخصيص فى قوله تعالى (من فى السموات ومن فى الأرض) ؟

قلنا : إنما خص العقلاء المميزين بالذكر وهم الملائكة والثقلان ، ليعلم أن هؤلاء إذا كانوا عبيدا له وهو ربهم ولا يصلح أحد منهم للربوبية ولا للشركة معه ، فما وراءهم مما لا يعقل كالأصنام والكواكب ونحوهما أحق أن لاتكون له ندا وشريكا .

فإن قيل : كيف قال لهم موسى عليه السلام (أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) على طريق الاستفهام ، وهم إنما قالوا ذلك على طريق الإخبار

أو التحقيق المؤكد بإن واللام لاعلى طريق الاستفهام ، قال الله تعالى (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين) ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : أتقولون للحق لما جاءكم إن هذا لسحر مبين . ثم قال أسحر هذا إنكارا لماقالوه ، فالاستفهام من قول موسى عليه السلام لامفعول لقولهم .

فإن قيل : كيف نوّع الخطاب فى قوله تعالى (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاةوبشر المؤمنين) فثنى أولا ثم جمع ثم أفرد ؟

قلنا : خوطب أولا موسى وهارون أن يتبوآ لقومهما بيوتا ويختاراها للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ثم سيق الخطاب عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيما لها أو تعظيما له عليه السلام .

فإن قيل : كيف قال تعالى (قد أجيبت دعوتكما) أضافها إليهما ، والدعوة إنما صدرت من موسى عليه السلام ، قال الله تعالى (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة) إلى آخر الآية ؟

قلنا : نقل أن موسى عليه السلام كان يدعو وهارون كان يؤمن على دعائه ، والتأمين دعاء فى المعنى فلهذا أضاف الدعوة إليهما . الثانى : أنه يجوز أن يكون هارون دعا أيضا مع موسى ، إلا أن الله تعالى خص موسى بالذكر لأنه كان أسبق بالدعوة أو أحرص عليها أو أكثر إخلاصا فيها .

فإن قيل : لو كان كذلك لقال تعالى دعوناكما بالتثنية ؟

قلنا : لما كانت الدعوة مصدرا اكتفى بذكرها فى موضع الإفراد والتثنية

والجمع بصيغة واحدة كسائر المصادر ، ونظيره قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك) وإن إنما تدخل على ما هو محتمل الوجود ، وشك النبى صلى الله عليه وسلم فى القرآن منتف قطعا ؟

قلنا : الخطاب ليس للنبى صلى الله عليه وسلم بل لمن كان شاكا فى القرآن وفى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكأنه قال (فإن كنت أيها الإنسان فى شك) .

فإن قيل : قوله تعالى (مما أنزلنا إليك) يدل على أن الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم لا لغيره .

قلنا : لا يدل ، قال الله تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا) وقال تعالى (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة) . الثانى : أن الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره كما فى قوله تعالى (يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) ويعضد قوله تعالى (إن الله كان بما تعملون خبيرا) ويعضد هذا الوجه قوله تعالى بعده (قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى) . الثالث : أن تكون إن بمعنى ما ، تقديره : فما كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل . المعنى لسنا نأمرك أن تسأل أحبار اليهود والنصارى عن صدق كتابك ، لأنك فى شك منه ، بل لتزداد بصيرة ويقينا وطمأنينة . الرابع : أن الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم مع انتفاء الشك منه قطعا أو المراد به إلزام الحجة على الشاكين الكافرين كما يقول لعيسى صلى الله عليه وسلم (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟) وهو عالم بانتفاء هذا القول منه لإلزام الحجة على النصارى .

فإن قيل : قوله تعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) ما فائدة ذكر « جميعا » بعد قوله « كلهم » وهو يفيد الشمول والإحاطة ؟

قلنا : كل يفيد الشمول والإحاطة ، ولا يدل على وجود الإيمان منهم بصفة الاجتماع وجميعا يدل على وجوده منهم فى حالة واحدة كما تقول جاءنى القوم جميعا : أى مجتمعين ، ونظيره قوله تعالى (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) .

فإن قيل : قوله تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) كيف يصح هذا الأمر مع أنا لا نعلم جميع مافيهما ولا نراه ؟

قلنا : هو عام أريد ماندركه بالبصر مما فيهما كالشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والمعادن والحيوانات والنبات ونحو ذلك مما يدل على وجود الصانع وتوحيده وعظيم قدرته ، فيستدل به على ماوراءه .

فإن قيل : قوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر) الآية ما الحكمة فى ذكر المس فى الضر والإرادة فى الخير ؟

قلنا : لاستعمال كل من المس والإرادة فى كل من الضر والخير ، وأنه لامزيل لما يصيب به منهما ولا رادّ لما يريده فيهما ، فأوجز الكلام بأن ذكر المس فى أحدهما والإرادة فى الآخر ليدل بما ذكر على مالم يذكر مع أنه قد ذكر المس فيهما فى سورة الأنعام ، وإنما عدل هنا عن لفظ المس المذكور فى سورة الأنعام إلى لفظ الإرادة ، لأن الجزاء هنا قوله تعالى (فلا راد لفضله) والرد إنما يكون فيما لم يقع بعد ، والمس إنما يكون فيما وقع ، فلهذا قال ثم (وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير) ومعناه فإن شاء أدام ذلك الخير ، وإن شاء أزاله ، فلا يطلب دوامه وزيادته إلا منه تعالى .

سورة هود عليه السلام

فإن قيل : كيف قال تعالى (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) مع أن التوبة مقدمة على الاستغفار ؟

قلنا : المراد استغفروا ربكم من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة ، كذا قاله مقاتل وهذا الاستغفار مقدم على هذه التوبة . الثانى : أن فيه تقديما وتأخيرا . الثالث قال الفراء : ثم هنا بمعنى الواو ، وهى لا تفيد ترتيبا فاندفع السؤال .

فإن قيل : من لم يستغفر ولم يتب فإن الله يمتعه متاعا حسنا إلى أجله : أى يرزقه ويوسع عليه كما قال ابن عباس ، أو يعمره كما قال ابن قتيبة ، فما فائدة قوله تعالى (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى) ؟

قلنا : قال غيرهما المتاع الحسن المشروط بالاستغفار والتوبة هو الحياة فى الطاعة والقناعة ، ومثل هذه الحياة إنما تكون للمستغفر التائب التقى .

فإن قيل : قوله تعالى (ومامن دابة فى الأرض) كيف لم يقل على الأرض مع أنه أشد مناسبة لتفسير الدابة لغة فإنها مايدب على وجه الأرض ؟

قلنا : فى هنا بمعنى على ، كما فى قوله تعالى (لأصلبنكم فى جذوع النخل) وقوله تعالى (أم لهم سلم يستمعون فيه) . الثانى : أن لفظة «فى» أعم وأشمل ، لأنها تتناول كل دابة على وجه الأرض وكل دابة فى باطن الأرض بخلاف على .

فإن قيل : كيف خص الدابة بذكر ضمان الرزق ، والطير كذلك رزقه على الله تعالى ، وهو غير الدابة بدليل قوله تعالى (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه) ؟

قلنا : إنما خص الدابة بالذكر ، لأن الدواب أكثر من الطيور عددا ، وفيها ما هو أكبر جثة من كل فرد من أفراد الطير كالفيل والحوت ، فيكون أحوج إلى الرزق ، فلذلك خصه بالذكر .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (إلا على الله رزقها) وعلى للوجوب ، والله تعالى لايجب عليه شيء وإنما يرزقها تفضلا منه وكرما .

قلنا : على هنا بمعنى من ، كما فى قوله تعالى (إذا اكتالوا على الناس يستوفون) . الثانى : أنه ذكره بصيغة الوجوب ليحصل للعبد زيادة سكون وطمأنينة فى حصوله .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) والخطاب عام للمؤمنين والكافرين ، فإنه امتحن الفريقين بالأمر بالطاعة والنهى عن المعصية ، وأعمال المؤمنين هى التى تتفاوت إلى أحسن وأحسن ، فأما أعمال الفريقين فتفاوتها إلى حسن وقبيح .

قلنا : قوله تعالى (ليبلوكم) عام أريد به الخاص وهم المؤمنون تشريفا لهم وتخصيصا فصح قوله أحسن عملا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وضائق به صدرك) ولم يقل وضيق ؟

قلنا : ليدل على أن ضيقه عارض غير ثابت ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدرا ، ونظيره قولك زيد سائد وجائد ، فإذا أردت وصفه بالسيادة والجود الثابتين المستقرين قلت زيد سيد وجواد كذا قال الزمخشرى .

فإن قيل : قال تعالى (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) أمرهم بالإتيان بمثله وما يأتون به لايكون مثله ، لأن مايأتون به مفترى والقرآن ليس بمفترى

قلنا : أراد به مثله فى البلاغة والفصاحة وإن كان مفترى . وقيل معناه . مفتريات ، كما أن القرآن مفترى فى زعمكم واعتقادكم فيتما ثلان .

فإن قيل : كيف قال تعالى (قل فأتوا) فأفرد فى قوله «قل» ثم جمع فقال (فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا) ؟

قلنا : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فى الكل ، ولكنه جمع فى قوله (لكم فاعلموا) تفخيما له وتعظيما . الثانى : أن الخطاب الثانى للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يتحدونهم بالقرآن ، وقوله تعالى فى موضع آخر (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم) يعضد الوجه الأول . الثالث : أن يكون الخطاب فى الثانى والثالث للمشركين ، والضمير فى يستجيبوا لمن استطعتم ؛ يعنى فإن لم يستجب لكم من تدعونه المظاهرة على معارضته لعجزهم فاعلموا أيها المشركون أنما أنزل بعلم الله ، وهذا وجه لطيف .

فإن قيل : قوله تعالى (وحبط ماصنعوا فيها) يدل على بطلان عملهم ، فما فائدة قوله بعده (وباطل ماكانوا يعملون) ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى (وحبط ماصنعوا فيها) أى بطل ثواب ماصنعوا من الطاعات فى الدنيا (وباطل ما كانوا يعملون) من الرياء .

فإن قيل : كيف قال نوح عليه السلام (وياقوم لا أسألكم عليه) بالواو وقال هود عليه السلام (ياقوم لا أسألكم عليه) بغير الواو ؟

قلنا : لأن الضمير فى قولهما عليه لتبليغ الرسالة المدلول عليه بأول الكلام فى القصتين ، ولكن فى قصة نوح عليه السلام وقع الفصل بين الضمير وبين ماهو عائد عليه بكلام آخر ، فجىء بواو الابتداء : وفى قصة هود عليه السلام لم يقع بينهما فصل فلم يحتج إلى واو الابتداء ، هذا ما وقع لى فيه ، والله أعلم .

فإن قيل : قوله تعالى (لا عاصم اليوم من أمر الله) لايناسبه المستثنى

فى الظاهر وهو قوله (إلا من رحم) لأن المرحوم معصوم، فظاهره يقتضى (١) لامعصوم إلا من رحم : أى لامعصوم من الغرق بالطوفان إلا من رحمه الله بالانجاء فى السفينة ؟

قلنا : عاصم هنا بمعنى معصوم ، كقوله تعالى (من ماء دافق) أى مدفوق، وقوله تعالى (فهو فى عيشة راضية) أى مرضية ، وقول العرب : سر كاتم : أى مكتوم . الثانى أن معناه : لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم : أى إلا الراحم وهو الله تعالى ، وليس معناه المرحوم ، فكأنه قال : لاعاصم إلا الله . الثالث أن معناه : لاعاصم اليوم من أمر الله إلا مكان من رحم الله من المؤمنين ونجاهم وهو السفينة، ويناسب هذا الوجه قوله تعالى (وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم) وهذا لأن ابن نوح عليه السلام لما جعل الجبل عاصما من الماء رد نوح عليه السلام ذلك ، ودله على العاصم وهو الله تعالى ، أو المكان الذى أمر الله بالالتجاء إليه وهو السفينة.

فإن قيل : كيف صح أمر السماء والأرض بقوله تعالى (وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى) وهما لايعقلان ، والأمر والنهى إنما يكون لمن يعقل ويفهم الخطاب ؟

قلنا : الخطاب لهما فى الصورة ، والمراد به الخطاب للملائكة الموكلين بتدبيرهما . الثانى : أن هذا أمر إيجاب لاأمر إيجاد ، وأمر الإيجاد لايشترط فيه العقل والفهم ، لأن الأشياء كلها بالنسبة إلى أمر الإيجاد مطيعة منقادة لله تعالى ، ومنه قوله تعالى (إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن

---

(١) قوله (فظاهره يقتضى الخ) لايخفى أنه على هذا الظاهر لاورود لصورة الإشكال إذ هو عين ما صدر به فى الجواب عنه، فكان المناسب فى تقدير السؤال بقاء العاصم على حقيقته وهو الحافظ وجعل المراد ممن رحم المرحوم لاالراحم وهو الله تعالى كما هو أحد التأويلات تأمل اهـ مصححه.

فيكون) وقوله تعالى (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها) كل ذلك أمرا إيجاد .

فإن قيل : كيف قال تعالى هنا (ونادى نوح ربه فقال رب) بالفاء ، وقال فى قصة زكريا عليه الصلاة والسلام (إذ نادى ربه نداء خفيا قال رب) بغير فاء ؟

قلنا : أراد بالنداء هنا إرادة النداء فجاء بالفاء الدالة على السببية ، فإن إرادة النداء سبب للنداء ، فكأنه قال : وأراد نوح نداء ربه فقال كيت وكيت ، وأراد به فى قصة زكريا عليه الصلاة والسلام حقيقة النداء ، فلهذا جاء بغير فاء لعدم مايقتضى السببية .

فإن قيل : هود عليه الصلاة والسلام كان رسولا ولم يظهر معجزة ، ولهذا قال له قومه (ياهود ماجئتنا ببينة) فبأى شيء لزمتهم رسالته ؟

قلنا : إنما يحتاج إلى المعجزة من الرسل من يكون صاحب شريعة لتنقاد أمته لشريعته ، فإن فى كل شريعة أحكاما غير معقولة فيحتاج الرسول الآتى بها إلى معجزة لتشهد بصحة صدقه ، فأما الرسول الذى لاتكون له شريعة ولايأمر إلا بالعقليات فلا يحتاج إلى معجزة ، لأن الناس ينقادون إلى مايأمرهم به لموافقته للعقل ، وهود كان كذلك . الثانى : أنه نقل أن معجزة هود كانت الريح الصرصر فإنها كانت سخرت له .

فإن قيل : على الوجه الأول لو كان أمره لهم مقصورا على العقليات لما خالفوه وكذبوه ونسبوه إلى الجنون بقولهم (ياهود ماجئتنا ببينة) إلى قوله (بسوء) .

قلنا : إنما صدر ذلك القول من قاصرى العقول أو المعاندين المكابرين كما قيل ذلك لكل رسول بعد إتيانه بالمعجزات الظاهرات والآيات الباهرات .

فإن قيل : هلا قال : إنى (أشهد الله وأشهدكم ليتناسب) الجملتان .

قلنا : لأن إشهاد الله تعالى على البراءة من الشرك إشهاد صحيح مفيد تأكيد التوحيد وشد معاقده ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهكم بهم وتهاون ودلالة على قلة المبالاة لأنهم ليسوا أهلا للشهادة ، فعدل به عن اللفظ الأول وأتى به على صورة التهكم والتهاون كما يقول الرجل لصاحبه إذا لاحاه : أشهد إنى لأحبك ، تهكما به واستهانة له .

فإن قيل : قوله تعالى (فإن تولوا فقد أبلغتكم) جعل التولى شرطا والابلاغ جزاء ، والابلاغ كان سابقا على التولى .

قلنا : ليس الابلاغ جزاء التولى ، بل جزاؤه محذوف تقديره : فإن تولوا لم أعاتب على تفريط فى الابلاغ أو تقصير فيه ، ودل على الجزاء المحذوف قوله (لقد أبلغتكم) . الثانى : قال مقاتل تقديره : فإن تولوا فقل لهم قد أبلغتكم .

فإن قيل : ما فائدة تكرار التنجية فى قوله تعالى (ونجيناهم من عذاب غليظ) ؟

قلنا : أراد بالتنجية الأولى تنجيتهم من عذاب الدنيا الذى نزل بقوم هود ، وهو سموم أرسلها الله تعالى عليهم فقطعتهم عضوا عضوا ، وأراد بالتنجية الثانية تنجيتهم من عذاب الآخرة الذى استحقه قوم هود بالكفر ولا عذاب أغلظ منه ولا أشد .

فإن قيل : (بعدا) معناه عند العرب الدعاء عليهم بالهلاك بعد هلاكهم ؟

قلنا : معناه الدلالة على أنهم مستأهلون له وحقيقون به ، ونقيضه قول الشاعر :

إخوَتى لاتَبْعَدُوا أبَدًا وَبَلَى وَاللهِ قَدْ بَعُدُوا

أراد بالدعاء لهم بنفى الهلاك بعد هلاكهم الإعلام بأنهم لم يكونوا مستأهلين له ولا حقيقين به .

فإن قيل : قوله تعالى (ولا تنقصوا المكيال والميزان) نهى عن النقص فيهما ، والنهى عن النقص أمر بالايفاء معنى ، فما فائدة قوله تعالى بعد ذلك (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان) ؟

قلنا : صرح أولا بنهيهم عن النقص الذى كانوا يفعلونه لزيادة المبالغة فى تقبيحه وتغييرهم إياه ، ثم صرح بالأمر بالايفاء بالعدل الذى هو حسن عقلا لزيادة الترغيب فيه والحث عليه .

فإن قيل : قوله تعالى (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) والعثو الفساد ، فيصير المعنى : ولا تفسدوا فى الأرض مفسدين ؟

قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه فى سورة البقرة . وجواب آخر معناه : ولا تعثوا فى الأرض بالكفر وأنتم مفسدون بنقص المكيال والميزان .

فإن قيل : كيف قال (بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) فشرط الايمان فى كون البقية خيرا لهم ، وهى خير لهم مطلقا لأن المراد ببقية الله مايبقى لهم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن وذلك خير لهم وإن كانوا كفارا ، لأنهم يسلمون معه من عقاب البخس والتطفيف ؟

قلنا : إنما شرط الايمان فى خيرية البقية ، لأن خيريتها وفائدتها مع الإيمان أظهر ، وهو حصول الثواب مع النجاة من العقاب ، ومع فقد الإيمان أخفى لانغماس صاحبها فى عذاب الكفر الذى هو أشد العذاب . الثانى : أن المراد إن كنتم مصدقين فيما أقول لكم وأنصح .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وما قوم لوط منكم ببعيد) ولم يقل ببعيدين والقوم اسم لجماعة الرجال ، وما جاء فى القرآن الضمير العائد إليه إلا ضمير جماعة ، قال الله تعالى (أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم) وقال تعالى (لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم) .

قلنا : فيه إضمار تقديره : وما هلاك قوم لوط أو مكان قوم لوط ،

ومكان قوم لوط كان قريبا منهم ، وإهلاكهم أيضا كان قريبا من زمانهم
الثانى : أن فعيلا يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ، قال الجوهرى :
يقال ما أنتم منا ببعيد ، وقال الله تعالى (والملائكة بعد ذلك ظهير) وقال
(عن اليمين وعن الشمال قعيد) .

فإن قيل : قولهم (ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) كلام
واقع فيه وفى رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه ، فكيف صح قوله (أرهطى
أعز عليكم من الله) ؟

قلنا : تها ونهم به وهو نبى الله تهاون بالله ، فحين عز رهطه عليهم
دونه كان رهطه أعز عليهم من الله ، ألا ترى إلى قوله تعالى (من يطع
الرسول فقد أطاع الله) وقوله (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) .

فإن قيل : قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته ، ثم أتبعه
بذكر عاقبة العاملين منه ومنهم ، فكان المطابق والموافق فى ظاهر الفهم أن
يقول : من يأتيه عذاب يخزيه حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إليهم،
ومن هو صادق إليه .

قلنا : القياس ماذكرت ، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذبا قال : ومن
هو كاذب ، يعنى فى زعمكم ودعواكم تجهيلا لهم .

فإن قيل : كيف قال تعالى (إذا أخذ القرى وهى ظالمة) والقرى لاتكون
ظالمة ، لأن الظلم من صفات من يعقل أو من صفات الحيوان دون
الجماد ؟

قلنا : هو من الإسناد المجازى ، والمراد به أهلها ، كما قال تعالى فى
موضع آخر (أخرجنا من هده القرية الظالم أهلها) لكن لما أمن اللبس
أسند الظلم إلى القرية لفظا كما فى قوله تعالى (واسأل القرية) .

فإن قيل : كيف التوفيق بين قوله تعالى (يوم يأت لاتكلم نفس إلا
بإذنه) وقوله (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) وقوله (هذا يوم

لاينطقون ولايؤذن لهم فيعتذرون) فإن الآية الثالثة تناقض الآية الأولى بنفى الإذن ، وتناقض الآيتين جميعا بنفى النطق ؟

قلنا : أما التوفيق بين الآيتين الأوليين فظاهر ، لأن معناه تجادل عن نفسها بإذنه فتوافقت الآيتان ، وأما الآية الثالثة فإنها لاتناقض الآية الأولى بنفى الإذن ، إن قلنا إن الاستثناء من النفى ليس بإثبات لأن الآية الأولى لاتقتضى وجود الإذن حينئذ بل تقتضى نفى الكلام عند انتفاء الإذن ، فأما إن قلنا إن الاستثناء من النفى إثبات ناقضت الآية الثالثة الأولى ، ولاتناقض الآيتين بنفى النطق ، لأن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف ومواطن ؛ فنى بعضها يكفون عن الكلام فلايؤذن لهم فيه ، وفى بعضها يؤذن لهم فيتكلمون ، وفى بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم ، وهذا جواب عام عن مثل هذه الآيات ويرد على هذا أن يقال قوله تعالى (هذا يوم لاينطقون) نفى النطق عنهم يوم القيامة ، فيقتضى انتفاءه فى جميع أجزاء ذلك الزمان عملا بعموم النفى ، كما يعم النفى جميع أجزاء المكان فى قولنا لاوجود لزيد فى الدار ، فاندفع الجواب باختلاف المواقف والمواطن ، فيكون الجواب أن الآية الثالثة أريد بها طائفة خاصة غير الطائفتين الأوليين فلا تناقض .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فمنهم شقى وسعيد) وكلمة من للتبعيض ، ومعلوم أن الناس كلهم إما شقى أوسعيد ، فما معنى التبعيض ؟

قلنا : التبعيض هنا على حقيقته ، لأن أهل القيامة ثلاثة أقسام : قسم شقى وقسم سعيد وهم أهل النار والجنة كما ذكر فى هذه الآية مفصلا ، وقسم لاشقى ولاسعيد وهم أهل الأعراف . الثانى أن معنى الكلام : فمنهم شقى ومنهم سعيد ، وهذا يقتضى أن يكون الشقى بعض الناس والسعيد بعض الناس ، والأمر كذلك ، ولا يقتضى أن يكون الشقى والسعيد كلاهما بعض الناس بل

كل واحد منهما بعض، وكلاهما كل كما تقول من الحيوان إنسان ، ومن الحيوان غير إنسان ، وكل الحيوان إما إنسان أو غير إنسان .

فإن قيل : كيف قال تعالى (خالدين فيها مادامت السموات والأرض) وأراد به بيان دوام الخلود ، مع أن أهل الجنة وأهل النار مخلدون فيهما خلودا لانهاية له ، والسموات والأرض ودوامهما منقطع لأنهما يوم القيامة ينهدمان ، قال الله تعالى (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا) وقال تعالى (إذا السماء انفطرت) وقال تعالى (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) ونظائره كثيرة مما يدل على خراب السموات والأرض ؟

قلنا : للعرب فى معنى الأبد ألفاظ تعبر بها عن إرادة الدوام دون التأقيت منها ، هذا ، يقولون : لا أفعل كذا ما اختلف الليل والنهار ، وما دامت السماء والأرض ، وما أطمت الابل ، ويريدون بذلك لا أفعله أبدا مع قطع النظر عن كون المؤقت به له نهاية أو لانهاية له . الثانى : أنه خاطبهم على معتقدهم أن السموات والأرض لا تزول ولا تتغير . الثالث : أنه أراد به كون الفريقين فى قبورهم إما منعمين أو معذبين ، كما جاء فى الحديث أن « القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» ومن كان فى روضة من رياض الجنة فهو فى الجنة ، ومن كان فى حفرة من حفر النار فهو فى النار، فعلى هذا يكون المراد بالتأقيت بدوام السموات والأرض مدة الخلود إلى يوم القيامة . الرابع : أن المراد بها سموات الآخرة وأرضها ، قال الله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) وتلك دائمة لا تزول ولا تفنى ، ولأنه لابد لأهل الجنة مما يقلهم ويظلهم ، إما سماء يخلقها الله تعالى ، أو العرش ، كما جاء فى الأخبار أن أهل الجنة تحت ظل العرش ، وكل ما أظلك فهو سماء ، وجاء فى الأخبار أيضا فى صفة الجنة أن ترابها من زعفران ، فدل أن لها أرضا ، والمراد تلك السموات وتلك الأرض ::

فإن قيل : إذا كان المراد بهذا التأقيت دوام الخلود دواما لا آخر له ، فكيف يصح الاستثناء فى قوله تعالى (إلا ماشاء ربك) ؟

قلنا : قال الفراء « إلا » هنا بمعنى غير وسوى ، فمعناه : خالدين فيها مادامت السموات والأرض سوى ماشاء الله تعالى من الخلود والزيادة ، فكأنه قال : خالدين فيها قدر مدة الدنيا غير ما شاء الله من الزيادة عليها إلى غير نهاية ، وهذاالوجه إنما يصح إذا كان المراد سموات الدنيا وأرضها . قال ابن قتيبة : ومثله فى الكلام قولك : لأسكننك فى هذه الدار حولا إلاماشئت ، يريد سوى ماشئت أن أزيدك على الحول . الثانى : أنه استثناء لايفعله كما تقول : لأهجرنك إلا أن أرى غير ذلك ، وعزمك على هجرانه أبدا وهو معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما ، إلاماشاء ربك وقد شاء أن يخلدوا فيها . قال الزجاج : وفائدة هذا الاستثناء إعلامنا أنه لو شاء أن لايخلدهم لماخلدهم ، ولكنه ماشاء إلا خلودهم . الثالث أنه استثناء لزمان البعث والحشر والوقوف للعرض والحساب ، فإن الأشقياء والسعداء فى ذلك الزمان كله ليسوا فى النار ولافى الجنة . الرابع : أن « ما » بمعنى من ، والمستثنى من يدخل النار من الموحدين فيعذب بقدر ذنوبه ثم يخرج من النار ويدخل الجنة ، وهذا الوجه يختص بالاستثناء من الأشقياء فقط . الخامس أن المستثنى زمان كون أهل الأعراف على الأعراف قبل دخولهم الجنة ، وهذا الوجه يختص بالاستثناء من السعداء ، لأنهم لم يدخلوا النار لأن مصيرهم إلى الخلود فى الجنة . السادس أنه استثناء من الخلود فى عذاب النار ومن الخلود فى نعيم الجنة ، الأشقياء لايخلدون فى عذاب النار بل يعذبون بالزمهرير وغيره من أنواع العذاب سوى النار وهو سخط الله عليهم فإنه أشد ، وكذلك السعداء لهم سوى نعيم الجنة ماهو أجل منها ، وهو الزيادة التى وعدهم الله تعالى إياها بقوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ورضوان الله كما قال تعالى (وعد الله المؤمنين والمؤمنات

جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضون من الله أكبر) وقوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) فهو المراد بالاستثناء ، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى بعد ذكر الاستثناء (إن ربك فعال لما يريد) وقوله تعالى بعد ذكر السعداء (عطاء غير مجذوذ) يعنى أنه يفعل بأهل النار مايريد من أنواع العذاب ، ويعطى أهل الجنة أنواع العطاء الذى لا انقطاع له ، فاختلاف المقطعين يؤكد صرف الاستثناء إلى ماذكرنا ، فتأمل كيف يفسر القرآن بعضه بعضا .

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى (غير منقوص) بعد قوله (وإنا لموفوهم نصيبهم) والتوفية والإيفاء إعطاء الشىء وافيا : أى تاما ، نقله الجوهرى وغيره ، والتام لايكون منقوصا ؟

قلنا : هو من باب التأكيد .

فإن قيل : قوله تعالى (ولذلك خلقهم) إشارة إلى ماذا ؟

قلنا : هو إشارة إلى ما عليه الفريقان من حالى الاختلاف والرحمة ، فمعناه أنه خلق أهل الاختلاف للاختلاف وأهل الرحمة للرحمة ، وقد فسره ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فقال : خلقهم فريقين : فريقا رحمهم فلم يختلفوا ، وفريقا لم يرحمهم فاختلفوا .

وقيل : هو إشارة إلى معنى الرحمة وهو الترحم ، وعلى هذا يكون الضمير فى خلقهم للذين رحمهم فلم يختلفوا .

وقيل : هو إشارة إلى الاختلاف والضمير فى خلقهم للمختلفين ، واللام على الوجه الأول والثالث لام العاقبة والصيرورة لا لام كى وهى التى تسمى لام الغرض والمقصود ، لأن الخلق للاختلاف فى الدين لايليق بالحكمة ، ونظير هذه اللام قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) وقول الشاعر :

لِدُوا للمَوْتِ وَابْنُوا للخَرَابِ   فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إلى التُّرابِ

وقيل : إنها لام التمكين والاقتدار كما فى قوله تعالى (جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) وقوله تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) والتمكن والاقتدار حاصل وإن لم يسكن بعض الناس فى الليل ولم يركب بعض هذه الدواب ، ومعنى التمكين والاقتدار هنا أنه سبحانه وتعالى أقدرهم على قبول حكم الاختلاف ومكنهم منه . وقيل : اللام هنا بمعنى على كما فى قوله تعالى (وتله للجبين) وقوله تعالى (يخرون للأذقان سجدا) .

فإن قيل : كيف الجمع بين قوله تعالى (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل) وقوله تعالى (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) ؟

قلنا : معناه وكل نبأ نقصه عليك من أنباء الرسل هو ماتثبت به فؤادك فما فى موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف ، فلا يقتضى اللفظ قص أنباء جميع الأنبياء ، فلا تناقض بين الآيتين . الثانى : أن المراد بالكل هنا البعض كما فى قوله تعالى (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) وقوله تعالى (وجاءهم الموج من كل مكان) وقوله تعالى (وأوتيت من كل شىء) وقوله تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) وقول لبيد الشاعر :

ألا كُلُّ شَىءٍ ماخَلاَ اللهَ باطِلُ ... وكُلُّ نَعيمٍ لامَحَالَةَ زَائِلُ

وكثير من الأشياء غير الله تعالى حق ، كالنبى عليه الصلاة والسلام والإيمان والجنة وغير ذلك ، وكذلك نعيم الجنة والآخرة ليس بزائل ، ولبيد صادق فى هذا البيت لقوله صلى الله عليه وسلم : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد * ألا كلُّ شَىءٍ ماخَلاَ اللهَ بَاطِلُ * إلى آخره .

فإن قيل : ما فائدة تخصيص هذه الصورة بقوله تعالى (وجاءك فى هذه الحق) مع أن الحق جاء فى كل سور القرآن ؟

قلنا : قالوا فائدة تخصيص هذه السورة بذلك زيادة تشريفها وتفضيلها

مع مشاركة غيرها إياها فى ذلك كما فى قوله تعالى (وأن المساجد لله) وقوله تعالى (جبريل وميكال) بعد قوله (وملائكته) وقوله تعالى (والصلاة الوسطى) بعد قوله (الصلوات) ووجه المشابهة بينهما أنه حمل قوله تعالى (وجبريل وميكال) على التشريف والتفضيل عند تعذر حمله على تعليق العداوة به لئلا يلزم تحصيل الحاصل ، وكذا فى المثال الأخير تعذر حمله على إيجاب المحافظة لما قلنا ، وهنا تعذر حمله على حقيقته وهو الجنس بأن حقيقته انحصار كل حق فى هذه السورة وهو منتف ، أو حمل الحق على معهود سابق وهو منتف ، وحمله على بعض الحق يلزم منه وصف هذه السورة بوصف مشترك بينها وبين كل السور ، وأنه لا يحسن كما لو قال : وجاءك فى هذه الحق آيات الله أو كلام الله أو كلام معجز ، فجعل مجازا عن التفضيل والتشريف .

وقيل : الإشارة بهذه إلى الدنيا لا إلى السورة ، والجمهور على القول الأول . ولا يقال إنما خصت هذه السورة بذلك لأن فيها الأمر بالاستقامة بقوله تعالى (فاستقم كما أمرت) والاستقامة من أعلى المقامات عند العارفين لأنا نقول الأمر بالاستقامة جاء أيضا فى سورة حمعسق قال الله تعالى (فاستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم) ولا يصلح هذا علة للتخصيص ، والله أعلم .

سورة يوسف عليه السلام

فإن قيل : كيف قال (إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) ولم يقل ثلاثة عشر كوكبا وهو أوجز وأخصر ، والذى رآه كان أحد عشر كوكبا غير الشمس والقمر ؟

قلنا : قصد عطفها على الكواكب تخصيصا لهما بالذكر وتفضيلا لهما على سائر الكواكب لما لهما من المزية والرتبة على الكل ، ونظيره تأخير

جبريل وميكائيل عن الملائكة عليهم السلام ثم عطفهما عليهم إن قلنا إنهما غير مرادين بلفظ الملائكة وكذا قوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) إن قلنا إنها غير مرادة بلفظ الصلوات .

فإن قيل : ما فائدة تكرار رأيت ؟

قلنا : قال الزمخشري : ليس ذلك تكرارا ، بل هو كلام مستأنف وضع جوابا لسؤال مقدر من يعقوب عليه السلام ، كأنه قال له بعد قوله تعالى (والشمس والقمر) كيف رأيتها سائلا عن حال رؤيتها ؟ فقال مجيبا له (رأيتهم لى ساجدين) وقال الزجاج : إنما كرر الفعل تأكيدا لما طال الكلام كما فى قوله تعالى (وهم عن الآخرة هم غافلون ـ وهم بالآخرة كافرون) وقال غيره ، إنما كرره تفخيما للرؤية وتعظيما لها .

فإن قيل : كيف أجريت مجرى العقلاء فى قوله (رأيتهم) وفى قوله (ساجدين) وأصله رأيتها ساجدة ؟

قلنا : لما وصفها بما هو من صفات من يعقل وهو السجود أجرى عليها حكمه كأنها عاقلة ، وهذا شائع فى كلامهم أن يلابس الشىء الشىء من بعض الوجوه فيعطى حكما من أحكامه إظهارا لأثر الملابسة المقارنة ، ونظيره قوله تعالى (قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا) وقوله تعالى فى وصف السماء والأرض (قالتا أتينا طائعين) .

فإن قيل : كيف قال (نرتع ونلعب) وكانوا عاقلين بالغين وأنبياء أيضا فى قول البعض ، وكيف رضى يعقوب عليه السلام لهم بذلك ؟

قلنا : على قراءة الياء لا إشكال لأن يوسف عليه السلام كان يومئذ دون البلوغ فلا يحرم عليه اللعب ، وعلى قراءة النون نقول كان لعبهم المسابقة والمناضلة ليعودوا أنفسهم الشجاعة لقتال الأعداء لا للهو وذلك جائز بالشرع ، ويعضد هذا قولهم (إنا ذهبنا نستبق) وإنما سموه لعبا لأنه فى صورة اللعب . ويرد على أصل السؤال أن يقال : كيف يتورعون عن اللعب وهم

قد فعلوا ماهو أعظم حرمة من اللعب وأشد وهو إلقاء أخيهم فى الجب على قصد القتل .

فإن قيل : كيف اعتذر إليهم يعقوب عليه السلام بعذرين أحدهما (إنى ليحزننى أن تذهبوا به) لأنه كان لايصبر عنه ساعة واحدة ، والثانى خوفه عليه من الذئب ، فأجابوه عن أحد العذرين دون الآخر ؟

قلنا : حبه إياه وإيثاره له وعدم صبره على مفارقته هو الذى كان يغيظهم ويؤلمهم فأضربوا عنه صفحا ولم يجيبوا عنه .

فإن قيل : كيف قال (وأوحينا إليه) وهو يومئذ لم يكن بالغا ، والوحى إنما يكون بعد الأربعين ؟

قلنا : المراد به وحى الإلهام لاوحى الرسالة الذى هو مخصوص بما بعد الأربعين ؛ ونظيره قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) وقوله تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) وقال فى حق موسى عليه السلام (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما) .

قلنا : المراد ببلوغ الأشد دون الأربعين سنة على اختلاف مقداره ، والمراد بالاستواء بلوغ الأربعين أو الستين ، وكان إيتاء كل واحد منهما الحكم والعلم فى ذلك الزمان فأخبر عنه كما وقع .

فإن قيل : كيف وحد الباب فى قوله (واستبقا الباب) بعد جمعه فى قوله (وغلقت الأبواب) .

قلنا : لأن إغلاق الباب للاحتياط لايتم إلا بإغلاق جميع أبواب الدار سواء كانت كلها فى جدار الدار أولا ، وأما هربه منها إلى الباب فلا يكون إلا إلى باب واحد إن كانت كلها فى جدار الدار ولأن خروجه فى وقت هربه لايتصور إلا من باب واحد منها ، وإن كان بعض الأبواب داخل

بعض فإنه أول ما يقصد الباب الأدنى لقربه ، ولأن الخروج من الباب الأوسط والباب الأقصى موقوف على الخروج من الباب الأدنى فلذلك وحد الباب .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وشهد شاهد من أهلها) ولم يكن قوله شهادة ؟

قلنا : لما أدى معنى الشهادة فى ثبوت قول يوسف عليه السلام وبطلان قولها سمى شهادة ، فالمراد بقوله شهد : أعلم وبين وحكم .

فإن قيل : (قد قميصه من دبر) يدل على أنها كاذبة وأنها هى التى تبعته وجذبت قميصه من خلفه فقدته ، وأما قده من قبل فكيف يدل على أنها صادقة ؟

قلنا : يدل من وجهين ، أحدهما أنه إذا كان طالبها وهى تدفعه عن نفسها بيدها أو برجلها فإنها تقد قميصه من قبل بالدفع . الثانى : أنه يسرع خلفها وهى هاربة منه فيعثر فى مقادم قميصه فيشقه . ويرد على الوجه الثانى أنه مشترك الدلالة من جهة العثار الذى هو نتيجة الإسراع ، لأنه يحتمل أن يكون إسراعا فى الهرب منها وهى خلفه فيعثر فينقد قميصه من قبل .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وقالت اخرج عليهن) وإنما يقال خرجت إلى السوق وطرقت عليه الباب فخرج إلى ؟

قلنا : إذا كان الخروج بقهر وغلبة أو بجمال وزينة أو بآية وأمر عظيم فإنما يعدى بعلى ، ومنه قولهم خرج علينا فى السفر قطاع الطريق ، وقوله تعالى (فخرج على قومه فى زينته) وقوله تعالى (فخرج على قومه من المحراب) .

فإن قيل : كيف شبهن يوسف عليه السلام بالملك فقلن (ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) وهن مارأين الملائكة قط ؟

قلنا : إن كن مارأين الملائكة فقد سمعن وصفها . الثانى : أن الله تعالى قد ركز فى الطباع حسن الملائكة كما ركز فيها قبح الشيطان ، ولذلك يشبه كل متناه فى الحسن بالملك ، وكل متناه فى القبح بالشيطان .

فإن قيل : كيف قال يوسف عليه السلام (إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) وترك الشيء إنما يكون بعد ملابسته والكون فيه ، يقال ترك فلان شرب الخمر وأكل الربا ونحو ذلك إذا كان فيه ثم أقلع عنه ، ويوسف عليه السلام لم يكن على ملة الكفار قط ؟

قلنا : الترك نوعان : ترك بعد الملابسة ويسمى ترك انتقال ، وترك قبل الملابسة ويسمى ترك إعراض كقوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام (ويذرك وآلهتك) وموسى عليه السلام مالابس عبادة فرعون ولاعبادة آلهته فى وقت من الأوقات وما نحن فيه من النوع الثانى وسيأتى نظير هذا السؤال فى سورة ابراهيم عليه السلام فى قوله تعالى (أولتعودن فى ملتنا) .

فإن قيل : كيف قال تعالى (أمر ألاتعبدوا إلا إياه) فسر الأمر بالنهى أو بما جزؤه النهى وهما ضدان ؟

قلنا : فيه إضمار أمر آخر تقديره أمر أمرا اقتضى أن لاتعبدوا إلا إياه وهو قوله تعالى (فإياى فاعبدون) فإنه باعتبار تقديم المفعول فى معنى الحصر كما قال فى قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) . الثانى أن فيه إضمار نهى تقديره : أمر ونهى ، ثم فسر الأمرين بقوله تعالى (ألا تعبدوا إلا إياه) . الثالث : أن قوله تعالى (ألا تعبدوا) وإن كان مضادا للأمر من حيث اللفظ فهو موافق له من حيث المعنى ، فلم قلتم إن تفسير الشيء بما يضاده صورة ، ويوافقه معنى غير جائز بيان موافقته معنى من وجهين : أحدهما أن النهى عن الشيء أمر بضده ، وعبادة الله ضد لا عبادة الله . الثانى أن معنى مجموع قوله تعالى (ألا تعبدوا إلا إياه) اعبدوه وحده فيكون تفسيرا للأمر المطلق بفرد من أفراده وأنه جائز .

فإن قيل : الأنبياء عليهم السلام أعظم الناس زهدا فى الدنيا ورغبة فى

الآخرة فكيف قال يوسف عليه السلام (اجعلنى على خزائن الأرض) طلب أن يكون معتمدا على الخزائن متوليا لها وهو من أكبر مناصب الدنيا ؟

قلنا : إنما طلب ذلك ليتوصل به إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل ونحوه مما يبعث له الأنبياء ، ولعلمه أن أحدا غيره لايقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء لوجه الله تعالى وسعيا لمنافع العباد ومصالحهم لهم لا لحب الملك والدنيا ، ونظيره قوله تعالى (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) يعنى لو كنت أعلم أى وقت يكون القحط لادخرت لزمن القحط طعاما كثيرا ، لا للحرص لكن لأتمكن من إعانة الضعفاء والفقراء وقت الضرورة والمضايقة ، ويحتمل أن يكون علم تعينه بذلك العمل فكان طلبه واجبا عليه .

فإن قيل : كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يأمر المؤذن أن يقول (أيتها العير إنكم لسارقون) وذلك بهتان وتسريق بالصواع لمن لم يسرقه ، وتكذيب للبرىء واتهام من لم يسرق بأنه سرق ؟

قلنا : قوله (إنكم لسارقون) تورية عما جرى منهم مجرى السرقة وتصور بصورتها من فعلهم بيوسف ما فعلوه أولا . الثانى : أن ذلك القول كان من المؤذن بغير أمر يوسف عليه السلام ، كذا قاله بعض المفسرين الثالث : أن حكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التى يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية كقوله تعالى لأيوب عليه السلام (وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولاتحنث) وقول إبراهيم عليه السلام فى حق زوجه هى أختى لتسلم من يد الكافر ، وما أشبه ذلك .

فإن قيل : كيف تأسف يعقوب عليه السلام على يوسف دون أخيه بقوله (ياأسفى على يوسف) والرزء الأحدث أشد على النفس وأعظم أثرا ؟ قلنا : إنما يكون أشد إذا تساوت المصيبتان فى العظم ولم يتساويا هنا ، بل

فقد يوسف كان أعظم عليه وأشد من فقد أخيه ، فإنما خصه بالذكر ليدل على أن الرزء فيه مع تقادم عهده مازال غضا طريا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وابيضت عيناه من الحزن) والحزن لايحدث بياض العين لاطبا ولاعرفا ؟

قلنا : قال ابن عباس : أى من البكاء ، لأن الحزن سبب البكاء ، فأطلق اسم السبب وأراد به المسبب ، وكثرة البكاء قد تحدث بياضا فى العين يغشى السواد ، وهكذا حدث ليعقوب عليه السلام وقيل إذا كثرت الدموع محقت سواد العين وقلبته إلى بياض كدر .

فإن قيل : كيف قال يعقوب عليه السلام (إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) مع أن من المؤمنين من ييأس من روح الله : أى من فرجه وتنفيسه أو من رحمته على اختلاف القولين ، إما لشدة مصيبته أو لكثرة ذنوبه ، كما جاء فى الحديث فى قصة الذى أمر أهله إذا مات أن يحرقوه ويذروا رماده فى البر والبحر ففعلوا به ذلك ، ثم إن الله غفر له كما جاء مشروحا فى الحديث المشهور وهو من الصحاح ، مع أنه يئس من رحمة الله تعالى وضم إلى يأسه ذنبا آخر وهو اعتقاده أنه إذا أحرق وذرى رماده لايقدر الله على إحيائه وتعذيبه ومع هذا كله يغفر له ، فدل على أنه لم يمت كافرا ؟

قلنا : إنما ييأس من روح الله الكافر لا المسلم عملا بظاهر الآية ، وكل مؤمن يتحقق منه اليأس من روح الله فهو كافر فى الحال حتى يعود إلى الإسلام بعوده إلى رجاء روح الله ، وأما الرجل المغفور له فى الحديث فلا نسلم أنه لم يكفر ، ثم إن الله تعالى لما أحياه فى الدنيا عاد إلى الإسلام بعوده إلى رجاء روح الله تعالى فلذلك غفر له ، وقد يكون قد عاد إلى رجاء روح الله تعالى قبل موتته الأولى ، ولم يتسع له الزمان أن يرجع عن وصيته التى أوصى بها أهله ، فمات مسلما فلذلك غفر له .

فإن قيل : فى قوله تعالى (وخروا له سجدا) كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله تعالى ؟

قلنا : لعله كان السجود عندهم تحية وتكرمة كالقيام والمصافحة عندنا . وقيل : كان انحناء كالركوع ولم يكن بوضع الجبهة على الأرض ، إلا أن قوله تعالى (وخروا) يأبى ذلك ، لأن الخرور عبارة عن السقوط ، ولا يرد عليه قوله تعالى (وخر راكعا) لأنهم قالوا أراد به ساجدا فعبر عن السجود بالركوع كما عبر عن الصلاة فى قوله تعالى (واركعوا مع الراكعين) أى صلوا مع المصلين . وقيل له : أى لأجله ، فاللام للسببية لا لتعدية السجود إلى يوسف عليه السلام ، فالمعنى وخروا لأجل يوسف سجدا لله تعالى شكرا على جميع شملهم به وقيل الضمير فى له يعود إلى الله تعالى ، وهذا الوجه يدفعه قوله تعالى (ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا) .

فإن قيل : كيف ذكر يوسف عليه السلام نعمة الله تعالى عليه فى إخراجه من السجن فقال (وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن) ولم يذكر نعمته عليه فى إخراجه من الجب وهو أعظم نعمة ، لأن وقوعه فى الجب كان أعظم خطرا ؟

قلنا : إنما ذكر هذه النعمة دون تلك النعمة لوجوه . أحدهما : أن محنة السجن ومصيبته كانت أعظم لطول مدتها ، فإنه لبث فيه بضع سنين وما لبث فى الجب إلا مدة يسيرة . الثانى : أنه إنما لم يذكر الجب كيلا يكون فى ذكره توبيخ وتقريع لإخوته عند قوله لهم (لاتثريب عليكم اليوم) . الثالث : أن خروجه من السجن كان مقدمة لملكه وعزه فلذلك ذكره ، وخروجه من الجب كان مقدمة الذل والرق والأسر فلذلك لم يذكره . الرابع : أن مصيبة السجن كانت أعظم عنده لمصاحبة الأوباش والأراذل وأعداء الدين ، بخلاف مصيبة الجب فإنه كان مؤنسه فيه جبريل وغيره من الملائكة عليهم السلام .

فإن قيل : كيف قال يوسف (توفنى مسلما) وهو يعلم أن كل نبى لايموت إلا مسلما ؟

قلنا : يجوز أن يكون دعا بذلك فى حالة غلبة الخوف عليه غلبة أذهلته عن ذلك العلم فى تلك الساعة . الثانى : أنه دعا بذلك مع علمه إظهارا للعبودية والافتقار وشدة الرغبة فى طلب سعادة الخاتمة وتعليما للأمة وطلبا للثواب .

فإن قلنا : كيف يجتمع الإيمان والشرك وهما ضدان حتى قال تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ؟

قلنا : معناه وما يؤمن أكثرهم بأن الله تعالى خالقه ورازقه وخالق السموات والأرض قولا إلا وهو مشرك بعبادة الأصنام فعلا . الثانى أن المرادبها المنافقون يؤمنون بألسنتهم قولا ويشركون بقلوبهم اعتقادا . الثالث أن المراد بها تلبية العرب ، كانوا يقولون : لبيك لاشريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، فكانوا يؤمنون بأول تلبيتهم بنفى الشريك ويشركون بآخرها بإثباته .

فإن قيل : هذه التلبية توحيد كلها ولاشرك فيها ، لأن معنى قولهم إلا شريكا هو لك : إلا شريكا هو مملوك لك موصوفا بأنك تملكه وتملك ما ملك ، واللام هنا للملك لالعلاقة الشركة ، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون حقيقيا ويحتمل أن يكون مجازيا ، بيان الأول أنا إن قلنا إن اللام حقيقة فى المعنى العام فى مواردها وهو الاختصاص يكون قولهم : لاشريك لك ، عاما فى نفى كل شريك يضاف إلى الله تعالى بجهة اختصاص ما ، فيدخل فى النفى من جهة لفظ الشريك المضاف بجهة المملوكية ، وهو شريك زيد وعمرو ونحوهما ثم يقع عليه الاستثناء فيكون استثناء حقيقيا ، وإن قلنا إنها مشتركة بين المعانى الثلاثة الموجودة فى موارد استعمالها وهى الملك والاستحقاق ، ويقال

الاختصاص والعلية ، فقولهم : لاشريك لك يكون عاما أيضا عند من يجوز حمل المشترك على مفهومه فى حالة واحدة فيكون الاستثناء أيضا حقيقيا كما مر ، وأما على قول من لايجوز ذلك يكون النفى واردا على أحد مفهوماته وهو علاقة الشركة ، فيكون الاستثناء بعده مجازيا من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وهو نوع من أنواع البلاغة مذكور فى علم البيان ، وشاهده قول الشاعر :

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ
بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

معناه : إن كان هذا عيبا ففيهم عيب ، وهذا ليس بعيب فلا يكون فيهم عيب ، فكذا هنا معناه : إن كان الشريك المملوك لك يصلح شريكا فلك شريك وهو لايصلح شريكا لك فلا يكون لك شريك ، لأن كل ما يدعى أنه شريك لك فهو مملوك لك ، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) الآية .

قلنا : على الوجه الأول إنه ليس بصحيح ، لأنه لو جعلنا اللام حقيقة فى المعنى العام وهو الاختصاص يلزم منه الكفر حيث وجد نفى الشريك من غير استثناء ، لأنه يلزم منه نفى ملكه تعالى شريك زيد وعمرو ونحوهما وهو كفر ، واللازم منتف لأنه إيمـان محض بلا خلاف .

فإن قيل : إنمـا لم يكن كفرا مع عمومه لأن الحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء نفى كل شريك يضاف إلى الله تعالى بعلاقة الشريك ، لانفى كل شريك يضاف إليه بجهة مافصارت الحقيقة اللغوية مهجورة بالحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء ، والجواب عن أصل السؤال أنه سؤال حسن محقق ، وأن هذه التلبية توحيد محض على التقديرين ، فإن صح النقل أن النبى عليه الصلاة والسلام نهى عنها فإنمـا نهى عنها لأنها توهم إثبات الشريك لمقتضى الاستثناء عند قاصرى النظر وهم عوام الناس ، فلهذه المفسدة نهى عنها .

سورة الرعد

فإن قيل : كيف قال تعالى (ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) ولم يقل ومن هو سارب بالنهار، ليتناول معنى الاستواء المستخفى والسارب ، وإلا فقد تناول واحدا هو مستخف وسارب : أى ظاهر ، وليتناسب لفظ الجملة الأولى والثانية، فإنه قال فى الجملة الأولى (من أسر القول ومن جهر به) ؟

قلنا : قوله تعالى (وسارب) معطوف على « من » لا على مستخف ، فيتناول معنى الاستواء اثنين . الثانى : أنه وإن كان معطوفا على مستخف إلا أن من هنا فى معنى التثنية كقوله :

* نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَاذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ *

فكأنه قال سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) أى فى ضياع وبطلان ، والكفار يدعون الله تعالى فى وقت الشدائد والأهوال ومشارفتهم الغرق فى البحر فيستجيب لهم ؟

قلنا : المراد : وما عبادة الكافرين الأصنام إلا فى ضلال ، ويعضده قوله تعالى قبله (والذين يدعون من دونه) أى يعبدون .

فإن قيل : كيف طابق قولهم (لولا أنزل عليه آية من ربه) قوله (قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب) ؟

قلنا : هو كلام جرى مجرى التعجب من قولهم ، لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التى أوتيها رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يؤتها نبى قبله ، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية، فإذا جحدوا آياته ولم يعتدّوا بها وجعلوه كأنّ آية لم تنزل عليه قط كان موضعا يتعجب منه، فكأنه قيل لهم : ماأعظم عنادكم وماأشد تصميمكم على كفركم .

فإن قيل : كيف المطابقة بين قوله تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) وقوله (وجعلوا لله شركاء) ؟

قلنا : فيه محذوف تقديره : أفمن هو رقيب على كل نفس صالحة وطالحة يعلم ماكسبت من خير وشر ، ويعد لكل جزاء كمن ليس كذلك وهو الصنم ، ثم ابتدأ فقال (وجعلوا لله شركاء) أو تقديره : أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه وجعلوا له شركاء ، أو التقدير : أفمن كان بهذه الصفة يغفل عن أهل مكة وأقوالهم وأفعالهم وجعلوا لله شركاء .

فإن قيل : كيف اتصل قوله تعالى (قل إنما أمرت أن أعبد الله) بما قبله وهو قوله تعالى (ومن الأحزاب من ينكر بعضه) ؟

قلنا : هو جواب للمنكرين معناه : قل إنما أمرت فيما أنزل إلىّ بأن أعبد الله ولا أشرك به ، فإنكارهم لبعضه إنكار لعبادة الله تعالى وتوحيده ، كذا أجاب به الزمخشرى ، وفيه نظر .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وقد مكر الذين من قبلهم) أثبت لهم مكرا ثم نفاه عنهم بقوله تعالى (فلله المكر جميعا) ؟

قلنا : معناه أن مكر الماكرين مخلوق له ولا يصير إلا بإرادته ، فبهذه الجهة صحت إضافة مكرهم إليه . الثانى : أنه جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره ، لأنه يأتيهم من حيث لايعلمون فيعكس مكرهم عليهم ، فإثباته لهم باعتبار الكسب ونفيه عنهم باعتبار الخلق .

سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

فإن قيل : قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) هذا فى حق غير النبى عليه الصلاة والسلام من الرسل مناسب ، لأن غيره لم يبعث إلى الناس كافة بل إلى قومه فقط ، فأرسل بلسانهم ليفقهوا عنه الرسالة ولا تبقى لهم حجة بأنا لم نفهم رسالتك ، فأما النبى عليه الصلاة

والسلام فإنه بعث إلى الناس كافة ، قال تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ـ وما أرسلناك إلا كافة للناس) فإرساله بلسان قومه إن كان لقطع حجة العرب ، فالحجة باقية لغيرهم من أهل الألسن الباقية ، وإن لم يكن لغير العرب حجة أن لو نزل القرآن بلسان غير العرب يكن للعرب الحجة .

قلنا : نزوله على النبى عليه الصلاة والسلام بلسان واحد كاف ، لأن الترجمة لأهل بقية الألسن تغنى عن نزوله لجميع الألسن ، ويكفى التطويل كما جرى فى القرآن العزيز . الثانى أن نزوله بلسان واحد أبعد عن التحريف والتبديل ، وأسلم من التنازع والخلاف . الثالث : أنه لو نزل بألسنة كل الناس وكان معجزا فى كل واحد منها ، وكلم الرسول العربى كل أمة بلسانها كما كلم أمته التى هو منها لكان ذلك أمرا قريبا من القسر والإلجاء ، وبعثة الرسل لم تبن على القسر والإلجاء بل على التمكين من الاختيار ، فلما كان نزوله بلسان واحد كافيا كان أولى الألسنة لسان قوم الرسول ، لأنهم أقرب إليه وأفهم عنه .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى سورة البقرة (يذبحون) وفى سورة الأعراف (يقتلون) بغير واو فيهما ، وقال هنا (ويذبحون) بالواو والقصة واحدة ؟

قلنا : حيث حذف الواو جعل التذبيح والتقتيل تفسيرا للعذاب وبيانا له ، وحيث أثبتها جعل التذبيح كأنه جنس آخر غير العذاب ، لأنه أوفى على بقية أنواعه وزاد عليها زيادة ظاهرة ، فعلى هذا يكون إثبات الواو أبلغ .

فإن قيل : مامعنى التبعيض فى قوله تعالى (ليغفر لكم من ذنوبكم) ؟

قلنا : ماجاء هذا إلا فى خطاب الكافرين كقوله تعالى فى سورة نوح عليه السلام (يغفر لكم من ذنوبكم) وقوله تعالى فى سورة الأحقاف

(ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم) وقال تعالى في خطاب المؤمنين فى سورة الصف (ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة) إلى قوله (يغفر لكم ذنوبكم) وقال تعالى فى آخر سورة الأحزاب (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم) وكذا باقى الآيات فى خطاب الفريقين إذا تتبعتها، وماذلك إلا للتفرقة بين الخطابين لئلا يسوى بين الفريقين فى الوعد مع اختلاف رتبتهما، لا لأنه يغفر للكفار مع بقائهم على الكفر بعض ذنوبهم، والذى يؤيد ما ذكرناه من العلة أنه فى سورة نوح عليه السلام وفى سورة الأحقاف وعدهم مغفرة بعض الذنوب بشرط الإيمان مطلقا. وقيل معنى التبعيض أنه يغفر لهم مابينهم وبينه لامابينهم وبين العباد من المظالم ونحوها. وقيل «من» زائدة.

فإن قيل: كيف كرر تعالى الأمر بالتوكل وكيف قال أولا (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال ثانيا (وعلى الله فليتوكل المتوكلون)؟

قلنا: الأمر الأول لاستحداث التوكل، والثانى لتثبيت المتوكلين على مااستحدثوا من توكلهم فلهذا كرره، وقال أولا المؤمنون وثانيا المتوكلون.

فإن قيل: كيف قالوا لرسلهم (أو لتعودن فى ملتنا) والرسل لم يكونوا على ملة الكفار قط، والعود هو الرجوع إلى ماكان فيه الإنسان؟

قلنا: العود فى كلام العرب يستعمل كثيرا بمعنى الصيرورة، يقولون: عاد فلان يكلمنى، وعاد لفلان مال وأشباه ذلك، ومنه قوله تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم). الثانى: أنهم خاطبوا الرسل بذلك بناء على زعمهم الفاسد واعتقادهم أن الرسل كانوا أولا على ملل قومهم ثم انتقلوا عنها. الثالث: أنهم خاطبوا كل رسول ومن آمن به فغلبوا فى الخطاب الجماعة على الواحد، ونظير هذا السؤال ماسبق فى سورة الأعراف من قوله تعالى

(أو لتعودنّ فى ملتنا) وفى سورة يوسف عليه السلام من قوله تعالى (إنى تركت ملة قوم لايؤمنون) الآية .

فإن قيل : كيف طابق الجواب السؤال فى قوله تعالى (وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديناكم) .

قلنا : لما كان قول الضعفاء توبيخا وتقريعا وعتابا للذين استكبروا على استتباعهم إياهم واستغوائهم ، أحالوا الذنب على الله تعالى فى ضلالهم وإضلالهم ، كما قالوا : (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ـ ولو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء) يقولون ذلك فى الآخرة كما كانوا يقولونه فى الدنيا ، كما حكى الله تعالى عن المنافقين (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم) الآية . وقيل معنى جوابهم : لو هدانا الله فى الآخرة طريق النجاة من العذاب لهديناكم : أى لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة فى الدنيا .

فإن قيل : كيف اتصل وارتبط قولهم (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) بما قبله ؟

قلنا : اتصاله به من حيث إن عتاب الضعفاء للذين استكبروا كان جزعا مما هم فيه وقلقا من ألم العذاب ، فقال لهم رؤساؤهم (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) يريدون أنفسهم وإياهم لاجتماعهم فى عقاب الضلالة التى كانوا مجتمعين عليها فى الدنيا ، كأنهم قالوا للضعفاء : ما هذا الجزع والتوبيخ ، ولا فائدة فيه كما لا فائدة فى الصبر ، فإن الأمر أعظم من ذلك وأعم .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وقال الشيطان لما قضى الأمر) عبر عنه بلفظ الماضى ، وذلك القول من الشيطان لم يقع بعد وإنما هو مترقب منتظر يقوله يوم القيامة ؟

قلنا : يجوز وضع المضارع موضع الماضى ، ووضع الماضى موضع المضارع إذا أمن اللبس ، قال الله تعالى (واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان) أى ماتلت ، وقال تعالى (فلم تقتلون أنبياء الله) وقال الحطيئة الشاعر :

شَهِدَ الحُطَيْئَةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ أَنَّ الوَلِيدَ أَحَقُّ بالعَذْرِ

فقوله (على ملك سليمان) نفى اللبس ، وكذا قوله تعالى (من قبل) وقول الحطيئة يوم يلقى ربه ، وقوله تعالى (لما قضى الأمر) لأن قضاء الأمر إنما يكون يوم القيامة .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (ويضل الله الظالمين) وقد رأينا كثيرا من الظالمين هداهم الله بالإسلام وبالتوبة وصاروا من الأتقياء ؟

قلنا : معناه أنه لايهديهم ماداموا مصرين على الكفر والظلم معرضين عن النظر والاستدلال . الثانى : أن المراد منه الظالم الذى سبق له القضاء فى الأزل أنه يموت على الظلم ، فالله تعالى يثبته على الضلالة لخذلانه ، كما يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت وهو كلمة التوحيد . الثالث أن معناه : أن يضل المشركين عن طريق الجنة يوم القيامة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله) والضلال والإضلال لم يكن غرضهم فى اتخاذ الأنداد وهى الأصنام ، وإنما عبدوها لتقربهم إلى الله تعالى ، كما حكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ؟

قلنا : قد شرحنا ذلك فى سورة يونس عليه السلام إذ قلنا هذه لام العاقبة والصيرورة لالام الغرض ، والمقصود كما فى قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) وقول الشاعر :

* لِدُوا للمَوْتِ وَابْنُوا للخَرَابِ * وقول الآخر :

فللمَوْتِ تَغْذُو الوالداتُ سِخَالَها كما لخرابِ الدَّهْرِ تُبْنَى المساكِنُ

والمعنى فيه أنهم لما أفضى بهم اتخاذ الأنداد إلى الضلال أو الإضلال صار كأنهم اتخذوها لذلك ، وكذا الالتقاط والولادة والبناء، ونظائره كثيرة فى القرآن العزيز وفى كلام العرب .

فإن قيل : كيف طابق الأمر بإقامة الصلاة وإنفاق المال وصف اليوم بأنه لابيع فيه ولا خلال ؟

قلنا : معناه قل لهم يقدمون من الصلوات والصدقة متجرا يجدون ربحه يوم لاتنفعهم متاجر الدنيا من المعاوضات والصدقات التى يجلبونها بالهدايا والتحف لتحصيل المنافع الدنيوية ، فجاءت المطابقة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (لابيع فيه ولا خلال) أى لا صداقة ، وفى يوم القيامة خلال لقوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين) ولقوله عليه الصلاة والسلام « المرء مع من أحب » ؟

قلنا : لاخلال فيه لمن لم يقم الصلاة ولم يؤد الزكاة ، فأما المقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة فهم الأتقياء ، وبينهم الخلال يوم القيامة لما تلونا من الآية .

فإن قيل : كيف قال (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار) والمسخر للإنسان هو الذى يكون فى طاعته يصرفه كيف شاء فى أمره ونهيه كالدابة والعبد والفلك كما قال تعالى (وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا) وقال تعالى (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) وقال تعالى (وسخر لكم الفلك) ويقال فلان مسخر لفلان إذا كان مطيعا له وممتثلا لأوامره ونواهيه ؟

قلنا : لما كان طلوعهما وغروبهما وتعاقب الليل والنهار لمنافعنا متصلا مستمرا اتصالا لاتنقطع علينا فيه المنفعة ولا تنخرم سواء شاءت هذه المخلوقات أم أبت ، أشبهت المسخر المقهور فى الدنيا كالعبد والفلك ونحوهما .
والثانى : أن معناه أنها مسخرة لله لأجلنا ومنافعنا : فإضافة التسخير إلى الله

تعالى : بمعنى أنه فاعل التسخير ، وإضافة التسخير إلينا بمعنى عود نفع التسخير إلينا فصحت الإضافتان .

فإن قيل : كيف قال تعالى(وآتاكم من كل ماسألتموه) والله تعالى لم يعطنا كل ماسألناه ولابعضا من كل فرد مماسألناه ؟

قلنا : معناه : وآتاكم بعضا من جميع ماسألتموه لامن كل فرد فرد .

فإن قيل : لايصح هذا المحمل لوجهين : أحدهما أنه لايحسن الامتنان به الثانى أنه لايناسبه قوله تعالى (وإن تعدوا نعمت الله لاتحصوها) ؟

قلنا : إذا كان البعض الذى أعطانا هو الأكثر من جميع ماسألناه وهو الأصلح والأنفع لنا فى معاشنا ومعادنا بالنسبة إلى البعض الذى منعه عنا لمصلحتنا أيضا ، لايحسن الامتنان به ويكون مناسبا لما بعده .

وجواب آخر : عن أصل السؤال : أنه يجوز أن يكون قد أعطى جميع السائلين بعضا من كل فرد مماسأله جميعهم ، وبهذا المقدار يصح الإخبار فى الآية وإن لم يعط كل واحد من السائلين بعضا من كل فرد مما سأله ، وإيضاح ذلك أن يكون هذا قد أعطى شيئا مما سأله ذاك، وأعطى ذاك شيئا مماسأله هذا على ما اقتضته الحكمة والمصلحة فى حقهما ، كماأعطى النبى عليه الصلاة والسلام الرؤية ليلة المعراج وهى مسئول موسى عليه السلام وما أشبه ذلك .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وإن تعدوا نعمت الله لاتحصوها) والإحصاء والعد بمعنى واحد كذا نقله الجوهرى ، فيكون المعنى وإن تعدوا نعمة الله لاتعدوها ، وهو متناقض كقولك : إن ترزيدا لاتبصره ، إذ الرؤية والإبصار واحد ؟

قلنا : بعض المفسرين فسر الإحصاء بالحصر ، فإن صح ذلك لغة اندفع السؤال ، ويؤيد ذلك قول الزمخشرى لاتحصوها : أى لاتحصروها ولاتطيقوا

عدها وبلوغ آخرها، وعلى القول الأول فيه إضمار تقديره : وإن تريدوا عد نعمة الله لاتعدوها .

فإن قيل : كيف قال تعالى (لاتحصوها) وهو يوهم أن نعم الله غير متناهية ، وكل نعمة ممتن بها علينا فهى مخلوقة ، وكل مخلوق متناه ؟

قلنا : لانسلم أنه يوهم أنها لاتتناهى ، وذلك لأن المفهوم منه منحصر فى أنا لانطيق عددها أو حصر عددها ، ويجوز أن يكون الشىء متناهيا فى نفسه ، والإنسان لايطيق عدده كرمل القفار وقطر البحار وورق الأشجار وما أشبه ذلك .

فإن قيل : كيف قال إبراهيم عليه السلام (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) وعبادة الأصنام كفر ، والأنبياء معصومون عن الكفر بإجماع الأمة ، فكيف حسن منه هذا السؤال ؟

قلنا : إنما سأل هذا السؤال فى حالة خوف أذهله عن ذلك العلم ، لأن الأنبياء عليهم السلام أعلم الناس بالله فيكونون أخوفهم منه فيكون معذورا بسبب ذلك . وقيل إن فى حكمة الله تعالى وعلمه أن لايبتلى نبيا من الأنبياء بالكفر بشرط أن يكون متضرعا إلى ربه طالبا منه ذلك ، فأجرى على لسانه هذا السؤال لتحقيق شرط العصمة .

فإن قيل : كيف قال (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) جعل الأصنام مضلة . والمضل ضار . وقال فى موضع آخر : ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ونظائره كثيرة فكيف التوفيق بينهما ؟

قلنا : إضافة الإضلال إليها مجاز بطريق المشابهة ووجهه أنهم لما ضلوا بسببها فكأنها أضلتهم ، كما يقال فتنتهم الدنيا وغرتهم : أى افتتنوا بسببها واغتروا ، ومثله قولهم : دواء مسهل ، وسيف قاطع ، وطعام مشبع ، وماء مرو وما أشبه ذلك . ومعناه: حصول هذه الآثار بسبب هذه الأشياء ، وفاعل الآثار هو الله تعالى .

فإن قيل : كيف قال (أفئدة من الناس) ولم يقل أفئدة الناس ، وقوله قلوب الناس أظهر استعمالا من قوله قلوبا من الناس ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لو قال إبراهيم عليه السلام فى دعائه أفئدة الناس ، لحجت جميع الملل وازدحم عليه الناس حتى لم يبق لمؤمن فيه موضع ، مع أن حج غير الموحدين لايفيد ، والأفئدة هنا القلوب فى قول الأكثرين ، وقيل الجماعة من الناس.

فإن قيل : إذا كان الله تعالى قد ضمن رزق العباد ، فلم سأل إبراهيم عليه السلام الرزق لذريته فقال (وارزقهم من الثمرات) ؟

قلنا : الله تعالى ضمن الرزق والقوت الذى لابد للإنسان منه مادام حيا ولم يضمن كونه ثمرا أو حبا أو نوعا معينا ، فالسؤال كان لطلب الثمر عينا .

فإن قيل : قوله (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق) شكر على نعمة الولد ، فكيف يناسبه بعده (إن ربى لسميع الدعاء) ؟

قلنا : لما كان قد دعا ربه لطلب الولد بقوله (رب هب لى من الصالحين فاستجاب له) ناسب قوله بعد الشكر (إن ربى لسميع الدعاء) أى لمجيبه من قولهم : سمع الملك قول فلان إذا أجابه وقبله ، ومنه قولهم فى الصلاة « سمع الله لمن حمده » أى أجابه وأثابه .

فإن قيل : كيف قال (ربى اغفر لى ولوالدى) استغفر إبراهيم لوالديه وكانا كافرين ، والاستغفار للكافرين لايجوز ، ولا يقال إن هذا موضع الاستثناء المذكور فى قوله تعالى (وماكان استغفار إبراهيم لأبيه) الآية ، لأن المراد بذلك استغفاره لأبيه خاصة بقوله (واغفر لأبى إنه كان من الضالين) والموعدة التى وعدها إياه إنما كانت له خاصة بقوله (سأستغفر لك ربى) ولهذا قال الله تعالى (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) ؟

قلنا : هذا الاستغفار لهما كان مشروطا بإيمانهما تقديرا ، كأنه قال

ولوالدى إن آمنا . الثانى : أنه أراد بهما آدم وحواء صلوات الله عليهما ، وقرأ ابن مسعود وأبى والنخعى والزهرى رضى الله عنهم (ولولدى) يعنى إسماعيل وإسحاق ، ويعضد هذه القراءه سبق ذكرهما ، ولا إشكال على هذه القراءة وقيل إن هذا الدعاء على القراءة المشهورة كان زلة [1] من إبراهيم صلوات الله عليه ، وإليها أشار بقوله (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) .

فإن قيل : الله تعالى منزه ومتعال عن الغفلة ، والنبى عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بصفات جلاله وكماله ، فكيف يحسبه النبى عليه الصلاة والسلام غافلا وهو أعلم الخلق بالله حتى نهاه عن ذلك بقوله (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) ؟

قلنا : يجوز أن يكون هذا نهيا لغير النبى عليه الصلاة والسلام ممن يجوز أن يحسبه غافلا لجهله بصفاته ، وقوله تعالى بعده (وأنذر الناس) لايدل قطعا على أن الخطاب الأول للنبى عليه الصلاة والسلام ، لجواز أن يكون ذلك النهى لغيره مع أن هذا الأمر له . الثانى :أنه مجاز [2] معناه : ولا تحسبن الله مهمل الظالمين وتاركهم سدى : أى لكون هذا من لوازم الغفلة عنهم الثالث : أن النهى وإن كان حقيقة والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام فالمراد به دوامه وثباته على ما كان عليه من أنه لايحسب الله غافلا كقوله تعالى (ولا تكونن من المشركين) وقوله تعالى (ولا تدع مع الله إلها آخر) ونظير هذا النهى من الأمر قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) وقول بعض المفسرين: إن معنى الآية يا أيها الذين آمنوا آمنوا بموسى أو بعيسى آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام لايخرج الآية عن كونها نظيرا ، لأن الاستبدال بالإيمان بالله باق فتأمل .

---

(١) (قوله كان زلة الخ) لايخفى مافيه ، فكان الصواب حذفه اهـ مصححه .

(٢) (قوله أنه مجاز الخ) لايخفى أن هذا الجواب هو عين الإشكال أو كأنه هو ، فكان الواجب حذفه والاقتصار على مابعده اهـ .

سورة الحجر

فإن قيل : كيف قالوا (يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) اعترفوا بنبوته إذ الذكر هو القرآن الذى نزل عليه ثم وصفوه بالجنون ؟

قلنا : إنما قالوا ذلك استهزاء وسخرية لاتصديقا واعترافا ، كما قال فرعون لقومه (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) وكما قال قوم شعيب عليه السلام (إنك لأنت الحليم الرشيد) ونظائره كثيرة . الثانى : أن فيه إضمارا تقديره : يا أيها الذى تدعى أنك نزل عليك الذكر .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون) والوارث هو الذى يتجدد له الملك بعد فناء المورث ، والله تعالى إذامات الخلائق لم يتجدد له ملك ، لأنه لم يزل مالكا للعالم بجميع مافيه ومن فيه ؟

قلنا : الوارث فى اللغة عبارة عن الباقى بعد فناء غيره ، سواء تجدد له من بعده ملك أولا ، ولهذا يصح أن يقال لمن أخبر أن زيدا مات وترك ورثة هل ترك لهم مالا أولا ؟ فيكون معنى الآية : ونحن الباقون بعد فناء الخلائق الثانى أن الخلائق لما كانوا يعتقدون أنهم مالكون يسمون بذلك أيضا إما مجازا أو خلافة عن الله تعالى كالعبد المأذون والمكاتب ، ويدل عليه قوله تعالى (تؤتى الملك من تشاء) فإذا مات الخلائق كلهم سلمت الأملاك كلها لله تعالى عن ذلك القدر من التعلق ، فبهذا الاعتبار كانت الوراثة ، ونظير هذا قوله تعالى (لمن الملك اليوم) والملك له أزلا وأبدا .

فإن قيل : قوله تعالى (فسجد الملائكة كلهم) دل على الشمول والإحاطة وأفاد التوكيد ، فمافائدة قوله (أجمعون) ؟

قلنا : قال سيبويه والخليل : هو توكيد بعد توكيد ، فيفيد زيادة تمكين المعنى وتقريره فى الذهن ، فلا يكون تحصيل الحاصل بل تكون نسبة

أجمعون كنسبة كلهم إلى أصل الجملة . وقال المبرد: قوله تعالى (أجمعون) يدل على اجتماعهم فى زمان السجود ، وكلهم يدل على وجود السجود من الكل ، فكأنه قال : فسجد الملائكة كلهم معا فى زمان واحد . واختار ابن الأنبارى هذا القول ، واختار الزجاج وأكثر الأئمة قول سيبويه وقالوا : لو كان الأمر كما زعم المبرد لكان أجمعون حالا لوجود حد الحال فيه ، وليس بحال لأنه مرفوع ولأنه معرفة كسائر ألفاظ التوكيد .

فإن قيل : ما وجه ارتباط قوله تعالى (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) بما قبله من قوله تعالى (نبئ عبادى) الآيتين ؟

قلنا : لما أنزل الله عز وجل (نبئ عبادى) الآيتين ولم يعين أهل المغفرة وأهل العذاب غلب الخوف على الصحابة رضى الله عنهم ، فأنزل الله تعالى بعد ذلك قصة ضيف إبراهيم عليه السلام ليزول خوف الصحابة وتسكن قلوبهم ، فإن ضيف إبراهيم عليه السلام جاءوا ببشارة للولى وهو إبراهيم ، وعقوبة للعدو وهم قوم لوط عليه السلام وكذلك تنزل الآيتين المتقدمتين على الولى والعدو لا على الولى وحده . الثانى أن وجه الارتباط أن العبد وإن كان كثير الذنوب والخطايا غير طامع فى المغفرة ، لا يبعد أن يغفر الله تعالى له على يأسه ، كما رزق إبراهيم الولد على يأسه بعد ماشاخ وبلغ مائة سنة أو قريبا منها .

فإن قيل : كيف قالت الملائكة (قدرنا أنها لمن الغابرين) أى قضينا ، والقضاء لله تعالى لا لهم ؟

قلنا : إسناد التقدير للملائكة هو مجاز ، كما يقول خواص الملك ، دبرنا كذا وأمرنا بكذا ونهينا عن كذا ، ويكون الفاعل لجميع ذلك هو الملك لاهم ، وإنما يظهرون بذلك مزيد قربهم واختصاصهم بالملك .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين)

وأصحاب الحجر قوم صالح ، والحجر اسم واديهم أو مدينتهم على اختلاف القولين ، وقوم صالح لم يرسل إليهم غير صالح فكيف يكذبون المرسلين ؟

قلنا : من كذب رسولا واحدا فكأنما كذب الكل ، لأن كل الرسل متفقون فى دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى .

فإن قيل : كيف قال تعالى هنا (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقال فى سورة الرحمن (فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جان) ؟

قلنا : الجواب عنه من وجهين : أحدهما قد ذكرناه فى مثل هذا السؤال فى سورة هود . والثانى أن المراد هنا أنهم يسألون سؤال توبيخ وهو سؤال لم فعلتم ؟ والمراد ثم إنهم لايسألون سؤال استعلام واستخبار وهو سؤال هل فعلتم ، أو يقال : إن فى يوم القيامة مواقف ، فى بعضها يسألون ، وفى بعضها لايسألون ، وتقدم نظيره .

سورة النحل

فإن قيل : لم قدمت الإراحة وهى مؤخرة فى الواقع على السروح وهو مقدم فى الواقع فى قوله تعالى (حين تريحون وحين تسرحون) ؟

قلنا : لأن الأنعام فى وقت الإراحة وهى ردها عشيا إلى المراح تكون أجمل وأحسن ، لأنها تقبل ملأى البطون حاملة الضروع متهادية فى مشيها يتبع بعضها بعضا ، بخلاف وقت السروح وهو إخراجها إلى المرعى فإن كل هذه الأمور تكون على ضد ذلك .

فإن قيل : قوله تعالى (لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) إن أريد به لم تكونوا بالغيه عليها إلا بشق الأنفس فلا امتنان فيه ، وإن أريد به لم تكونوا بالغيه بدونها إلا بشق الأنفس فهم لايبلغونه عليها أيضا إلا بشق الأنفس ، فما فائدة ذلك ؟

قلنا : معناه وتحمل أثقالكم : أى أجسامكم وأمتعتكم معكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لاتبلغونه بدونها بأنفسكم من غير أمتعتكم إلابجهد ومشقة ، فكيف لو حملتم أمتعتكم على ظهوركم ؟ والمراد بالمشقة : المشقة التى تنشأ من المشى ، أو من المشى مع الحمل على الظهر لامطلق مشقة السفر ، وهذا مخصوص بحال فقد الإبل ، فظهر فائدة ذلك .

فإن قيل : قوله تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) يقتضى حرمة أكل الخيل كما اقتضاه فى البغال والحمير من حيث أنه لم ينص على منفعة أخرى فيها غير الركوب والزينة ، ومن حيث أن التعليل بعلة يقتضى الانحصار فيهاكقولك : فعلت هذا لكذا ، فإنه يناقضه أن تكون فعلته لغيره أوله مع غيره إلا إذاكان أحدهما جهة فى الآخر .

قلنا : ينتقض بالحمل غليها والحراثة بها ، فإن ذلك مباح مع أنه لم ينص عليه .

فإن قيل : إنما ثبت ذلك بالقياس على الأنعام ، فإنه منصوص عليه فيها بقوله تعالى (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع) والمراد به كل منفعة معهودة منها عرفا لاكل منفعة ، فثبت مثل ذلك فى الخيل والبغال والحمير .

قلنا : لوكان ثبوته فيها بالقياس على ثبوته فى الأنعام لثبت حل الأكل فى الخيل بالقياس على ثبوته فى الأنعام أيضا ، ولو ثبت حل الأكل فى الخيل بالقياس لثبت فى البغال والحمير ، كما ثبت الحمل والحراثة ثبوتا شاملا للكل بالقياس على ثبوته فى الأنعام . والجواب عن الجهة الثانية فى أصل السؤال أن هذه اللام ليست لام التعليل بل لام التمكين ، كقوله تعالى (جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) ومع هذا يجوز فى الليل غير السكون .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى فى وصف ماء السماء (ينبت لكم به الزرع

والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) ولم يقل كل الثمرات ، مع أن كل الثمرات تنبت بماء السماء ؟

قلنا : كل الثمرات لاتكون إلا فى الجنة ، وإنما ينبت فى الدنيا بعض منها أنموذجا وتذكرة ، فالتبعيض بهذا الاعتبار ، فيكون المراد بالثمرات ماهو أعم من ثمرات الدنيا ، ومن يجوز زيادة « من » فى الإثبات يحتمل أن يجعلها زائدة هنا .

فإن قيل : قوله تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق) المراد بمن لا يخلق الأصنام بدليل قوله تعالى بعده (والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون) فكيف جىء بمن المختصة بأولى العلم والعقل ؟

قلنا : خاطبهم على معتقدهم ، لأنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولى العلم ، ونظير هذا قوله تعالى فى الأصنام أيضا (ألهم أرجل يمشون بها) الآية ، فأجرى عليهم ضمير أولى العلم والعقل لما قلناه ، ويرد على هذا الجواب أن يقال : إذا كان معتقدهم خطأ وباطلا فالحكمه تقتضى أن ينزعوا عنه ويقلعوا ، لا أن يبقوا عليه ويقروا فى خطابهم على معتقدهم إيهاما لهم أن معتقدهم حق وصواب وجوابه : أن الغرض من الخطاب الإفهام ، ولو خاطبهم على خلاف معتقدهم ومفهومهم فقال : أفمن يخلق كما لايخلق ، لاعتقدوا أن المراد من الثانى غير الأصنام من الجماد . الثانى : قال ابن الأنبارى : إنما جاز ذلك لأنها ذكرت مع العالم فغلب عليها حكمه فى اقتضاء «من» كما غلب حراما على الدواب فى قوله تعالى (فمنهم من يمشى على بطنه) الآية، وكما فى قول العرب : اشتبه على الراكب ، وجملة : فما أدرى من ذا ومن ذا .

فإن قيل : هذا إلزام للذين عبدوا الأصنام وسموها آلهة تشبيها بالله فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق ، فظاهر الإلزام يقتضى أن يقال لهم : أفمن لايخلق كمن يخلق ؟

قلنا : لما سووا بين الأصنام وخالقها سبحانه وتعالى فى تسميتها باسمه وعبادتها كعبادته فقد سووا بينها وبين خالقها قطعا ، فصح الإنكار بتقديم أيهما كان ، وإنما قدم فى الإنكار عليهم ذكر الخالق ، إما لأنه أشرف ، أو لأنه هو المقصود الأصلى من هذا الكلام تنزيها له وإجلالا وتعظيما .

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى فى وصف الأصنام (غير أحياء) بعد قوله تعالى (أموات) ؟

قلنا : فائدته أنها أموات لايعقب موتها حياة احترازا عن أموات يعقب موتها حياة ، كالنطف والبيض والأجساد الميتة ، وذلك أبلغ فى موتها كأنه قال : أموات فى الحال غير أحياء فى المآل . الثانى : أنه ليس وصفا لها بل لعبادها ؛ معناه : وعبادها غير أحياء القلوب . الثالث : أنه إنما قال (غير أحياء) ليعلم أنه أراد أمواتا فى الحال ، لأنها ستموت كما فى قوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) .

فإن قيل : كيف عاب الأصنام وعبادها بأنهم لايعلمون وقت البعث فقال تعالى (ومايشعرون أيان يبعثون) والمؤمنون الموحدون كذلك ؟

قلنا : معناه ومايشعر الأصنام متى يبعث عبادها ، فكيف تكون آلهة مع الجهل ؟ أو معناه : وما يشعر عبادها وقت بعثهم لامفصلا ولامجملا لأنهم ينكرون البعث ، بخلاف الموحدين فإنهم يشعرون وقت بعثهم مجملا أنه يوم القيامة وإن لم يشعروه مفصلا .

فإن قيل : قوله تعالى (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) كيف يعترفون بأنه من عند الله تعالى بالسؤال المعاد فى ضمن الجواب ثم يقولون هو أساطير الأولين ؟

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى سورة الحجر فى قوله تعالى (وقالوا ياأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) .

فإن قيل : كيف قال هنا (وليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) وقال فى موضع آخر (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ؟

قلنا : معناه ومن أوزار إضلال الذين يضلونهم ، فيكون عليهم وزر كفرهم مباشرة ووزر كفر من أضلوهم تسببا ، فقوله تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة) يعنى أوزار الذنوب التى باشروها . وأما قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فمعناه : وزر لامدخل لها فيه ولا تعلق له بها مباشرة ولا تسببا ، ونظير هاتين الآيتين الأيتان الآخريان فى قوله تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) إلى قوله تعالى (أثقالا مع أثقالهم) وجوابهما مثل جواب هاتين الآيتين .

فإن قيل : قوله تعالى (إنما قولنا لشيء إذا أردناه) الآية ، يدل على أن المعدوم شيء ، ويدل على أن خطاب المعدوم جائز ، والأول منتف عند أكثر العلماء ، والثانى منتف بالإجماع ؟

قلنا : أما تسميته شيئا فمجاز باعتبار مايئول إليه ، ونظيره قوله تعالى (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) وقوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) وأما الثانى فإن هذا خطاب تكوين يظهر به أثر القدرة فيمتنع أن يكون المخاطب به موجودا قبل الخطاب ، لأنه إنما يكون بالخطاب فلا يسبقه ، بخلاف خطاب الأمر والنهى .

فإن قيل : قوله تعالى (ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض من دابة) كيف لم يغلب العقلاء من الدواب على غيرهم كما فى قوله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء) الإية ، بل أولى لأنه ثم وصف مالا يعقل بخصوصه بلفظ « من » وهو الحية والأنعام ، وهنا لو قال من فى السموات ومن فى الأرض لايلزم وصف ما لا يعقل بخصوصه وتعيينه بلفظه « من » بل المجموع ؟

قلنا : لأنه أراد عموم كل دابة وشمولها ، فجاء بما التى تعم النوعين وتشملهما ، ولو جاء بمن لخص العقلاء .

فإن قيل : قوله تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) يقتضى أنه لو آخذ الظالمين بظلمهم لأهلك غير الظالمين من الناس ، ولأهلك جميع الدواب غير الناس ، ومؤاخذة البرىء بسبب ظلم الظالم لا يحسن بالحكيم ؟

قلنا : المراد بالظلم هنا الكفر ، وبالدابة الظالمة وهى الكافر ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما . وقيل معناه : لو أهلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء . الثانى : يجوز أن يهلك الجميع بشؤم ظلم الظالمين مبالغة فى إعدام الظلم ونفى وجود أثره حتى لايوجد بعد ذلك من بقية الناس ظلم موجب للإهلاك ، كما وجد من الذين أهلكهم بظلمهم ، ودليل جواز ذلك ماوجد فى زمن نوح عليه السلام ، فإنه أهلك بشؤم ظلم قوم نوح جميع دواب الأرض ، ومانجا إلا من فى السفينة ولم يبق على ظهر الأرض دابة ، ولهذا قال تعالى (واتقوا فتنه لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ثم إذا فعل ذلك للحكمة والمصلحة التى اقتضت فعله عوّض البرىء فى الآخرة ماهو خير وأبقى الثالث أن كل إنسان مكلف فهو ظالم إما لنفسه أولغيره ، لأنه لايخلو عن ذنب صغير أو كبير ، فلو أهلك الناس بذنوبهم لأهلك الدواب أيضا ، لأنه إنما خلق الدواب لمصالح الناس وإذا عدم الناس وقع استغناؤهم عن الدواب كلها .

فإن قيل : لانسلم أن غير الإنسان من الحيوان مخلوق لمصالح الإنسان ، ومستنده أنه كان مخلوقا قبل خلق الإنسان بالنقل عن الكتب الشرعية وغيرها ، وقد جاء مصرحا به فى الحديث فى باب الخلق من جامع الأصول سلمنا أنه مخلوق لمصلحة الإنسان ، لكن هلاك غير الإنسان معه يخفف عنه ألم المصيبة ، لاسيما إذا كان الهالك معه من جنسه ، ولهذا قيل :

المصيبة إذا عمت طابت . سلمنا أن إهلاك غيره معه مؤلم له ، لـكن لو كان إهلاكه معه لأنه خلق لمصلحته فأهلك تبعا له لاستغنائه عنـه أو لزيادة الإيلام فالبار أيضا خلق لمصلحته على قولكم ، فلم كان إهلاك الحيوان عقوبة للإنسان أولى من إهلاك النبات ، ولم يقل : ما ترك عليها من دابة ونبات أو من شيء ؟

قلنا : الجواب عن الأول قوله تعالى (خلق لـكم مافى الأرض جميعا) وخلقه قبل الإنسان لاينفى خلقه لمصلحة الإنسان ، كما يعد عظماء الناس الدور والقصور والخدم والحشم والدواب والثياب لأولادهم وأولاد أولادهم قبل وجودهم . وعن الثانى أنا لاندعى أنه يهلك مع الإنسان بل قبله لتألمه مشاهدة هلاك محبوبه ومألوفه . وعن الثالث أن المراد ماترك عليها من دابة بواسطة منع المطر فيعدم النبات ، ثم يعدم بواسطة عدمه غير الإنسان من الحيوان ، ثم يعدم الإنسان ، كذا جاء فى تفسير هذه الآية والآية التى فى آخر سورة فاطر ، وهذا الترتيب أبلغ فى العذاب وأعظم فى العقاب من تقديم إهلاك الحيوان على النبات ، لأن الإنسان إذا بقى حيوانه بلا علف كان أوجع مما إذا بقى علفه بلا حيوان .

فإن قيل : كيف قال تعالى (من الجبال بيوتا ومن الشجر) ولم يقل فى الجبال وفى الشجر ، والاستعمال وإنمـا هو بنى يقال اتخذ فلان بيتا فى الجبل أوفى الصحراء أونحو ذلك ؟

قلنا : قال الزمخشرى رحمه الله : إنمـا أتى بلفظة من لأنه أراد معنى البعضية ، وأن لاتبنى بيوتها فى كل جبل وكل شجر ولافى كل مكان من الجبل والشجر . وأنا أقول : إنمـا ذكره بلفظة « من » لأنه أراد كون البيت بعض الجبل وبعض الشجر كما نشاهد ونرى من بيوت النحل ، لأنه يتخذ من طين أو عيدان فى الجبل والشجر كماتتخذ الطيور . فلو أتى بلفظة « فى » لم تدل على هذا المعنى ، ونظيره قوله تعالى (وتنحتون من الجبال بيوتا) .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) وأزواجنا لسن من أنفسنا ، لأنهن لو كن من أنفسنا لكن حراما علينا ، فإن المتفرعة من الإنسان لايحل له نكاحها ؟

قلنا : المراد بهذا أنه خلق آدم ثم خلق منه حواء ، كماقال تعالى (الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) . الثانى أن المراد من جنسكم كماقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولايستطيعون) فعبر بالواو والنون وهما من خواص من يعقل ؟

قلنا : كان فيمن يعبدونه من دون الله من يعقل كالعزير وعيسى والملائكة عليهم الصلاة والسلام فغلبهم .

فإن قيل : لم أفرد فى قوله تعالى (مالا يملك) ثم جمع فى قوله (ولا يستطيعون)؟

قلنا : أفرد نظرا إلى لفظ ما ، وجمع نظرا إلى معناها ، كما قال تعالى (وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون لتستووا على ظهوره) أفرد الضمير نظرا إلى لفظها ، وجمع الظهور نظرا إلى معناها .

فإن قيل : مافائدة نفى استطاعة الرزق بعد نفى ملكه والمعنى واحد ، لأن نفى ملك الفعل هو نفى استطاعته ، والرزق هنا اسم مصدر بدليل إعماله فى « شيئا » ؟

قلنا ليس فى يستطيعون ضمير مفعول هو الرزق ، بل الاستطاعة منفية عنهم مطلقا؛ معناه لايملكون أن يرزقوا ، ولا استطاعة لهم أصلا فى رزق أو غيره لأنهم جماد . الثانى : أنه لو قدر فيه ضمير مفعول على معنى ولا يستطيعونه كان مفيدا أيضا على اعتبار كون الرزق اسما للعين ، لأن

الإنسان يجوز أن لايملك الشيء ولكن يستطيع أن يملكه بخلاف هؤلاء فإنهم لايملكون ولا يستطيعون أن يملكوا .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (مملوكا) بعد قوله (عبدا) وما فائدة قوله (لايقدر على شيء) بعد قوله (مملوكا) ؟

قلنا : لفظ العبد يصلح للحر والمملوك لأن الكل عبيد الله تعالى ، قال الله تعالى (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد) فقال مملوكا لتمييزه عن الحر ، وقال (لايقدر على شيء) لتمييزه عن المأذون والمكاتب فإنهما يقدران على التصرف والاستقلال .

فإن قيل : المضروب به المثل اثنان وهما المملوك والمرزوق رزقا حسنا فظاهره أن يقال هل يستويان ، فكيف قال تعالى (يستوون) ؟

قلنا : لأنه أراد جنس المماليك وجنس المالكين لامملوكا معينا ولا مالكا معينا . الثانى : أنه أجرى الاثنين مجرى الجمع . الثالث : أن « من » تقع على الجمع ، ولقائل أن يقول على الوجه الثالث يلزم منه أن يصير المعنى ضرب الله مثلا عبدا مملوكا وجماعة مالكين هل يستوون ، إنه لا يحسن مقابلة الفرد بالجمع فى التمثيل .

فإن قيل : «أو» فى الخبر للشك ، والشك على الله تعالى محال ، فما معنى قوله (إلا كلمح البصر أو هو أقرب) ؟

قلنا : قيل «أو» هنا بمعنى بل كما فى قوله تعالى (إلى مائة ألف أو يزيدون) وقوله تعالى (فهى كالحجارة أو أشد قسوة) وقوله (فكان قاب قوسين أو أدنى) ويرد على هذا أن بل للإضراب ، والإضراب رجوع عن الإخبار وهو على الله محال . وقيل هى بمعنى الواو فى هذه الآيات . وقيل أو للشك فى الكل لكن بالنسبة إلينا لا إلى الله تعالى ، وكذا فى قوله (فكان قاب قوسين أو أدنى) يعنى بالنسبة إلى نظر النبى صلى الله عليه وسلم . وقال الزجاج :

ليس المراد أن الساعة تأتى فى أقرب من لمح البصر ، ولكن المراد وصف قدرة الله على سرعة الإتيان بها متى شاء .

فإن قيل ، كيف قال تعالى (سرابيل تقيكم الحر) ولم يقل والبرد ، مع أن السرابيل وهى الثياب تلبس لدفع الحر والبرد وهى مخلوقة لهما ؟

قلنا : حذف ذكر أحدهما لدلالة ضده عليه كما فى قوله تعالى (بيدك الخير) ولم يقل والشر ، وكما قال الشاعر :

وَمَا أدرِى إذَا يَمَّمْتُ أرْضًا أُرِيدُ الخَيْرَ أيُّهُمَا يَلِينِى

أى أريد الخير لا الشر ، أو أريد الخير وأحذر الشر .

فإن قيل : لم كان ذكر الخير والحر أولى من ذكر الشر والبرد ؟

قلنا : لأن الخير مطلوب العباد من ربهم ومرغوبهم إليه ، أو لأنه أكثر وجودا فى العالم من الشر ، وأما الحر فلأن الخطاب بالقرآن أول ماوقع مع أهل الحجاز ، والوقاية من الحر أهم عندهم لأن الحر فى بلادهم أشد من البرد .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) مع أن كلهم كافرون ؟

قلنا : قال الزمخشرى : الأحسن أن المراد بالأكثر هنا الجمع ، وفى هذا نظر لأن بعض الناس لايجوز إطلاق اسم البعض على الكل ، لأنه ليس لازما له بخلاف عكسه .

فإن قيل : مافائدة قول المشركين عند رؤية الأصنام (ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك) والله تعالى عالم بذلك ؟

قلنا : لما أنكروا الشرك بقولهم (والله ربنا ماكنا مشركين) عاقبهم الله تعالى بإصمات ألسنتهم وأنطق جوارحهم ، فقالوا عند معاينة آلهتهم (ربنا هؤلاء شركاؤنا) أى قد أقررنا بعد الإنكار وصدقنا بعد الكذب

طلبا للرحمة وفرارا من الغضب ، فكان هذا القول على وجه الاعتراف منهم بالذنب لاعلى وجه إعلام من لايعلم . الثانى : أنهم لما عاينوا عظيم غضب الله تعالى وعقوبته قالوا (ربنا هؤلاء شركاؤنا) رجاء أن يلزم الله الأصنام ذنوبهم لأنهم كانوا يعتقدون لها العقل والتميز فيخف عنهم العذاب .

فإن قيل : لم قالت الأصنام للمشركين (إنكم لكاذبون) وكانوا صادقين فيما قالوا ؟

قلنا : إنما قالت لهم ذلك لتظهر فضيحتهم ، وذلك أن الأصنام كانت جمادا لاتعرف من يعبدها ، فلم تعلم أنهم عبدوها فى الدنيا فظهرت فضيحتهم حيث عبدوا من لايعلم بعبادتهم ، ونظير هذا قوله تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) .

فإن قيل : قوله تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء) فإذا كان القرآن تبيانا لكل شىء من أمور الدين ، فمن أين وقع بين الأمة فى أحكام الشريعة هذا الخلاف الطويل العريض ؟

قلنا : إنما وقع الخلاف بين الأئمة لأن كل شىء يحتاج إليه من أمور الدين ليس مبينا فى القرآن نصا ، بل بعضه مبين وبعضه مستنبط بيانه منه بالنظر والاستدلال ، وطريق النظر والاستدلال مختلفة فلذلك وقع الخلاف .

فإن قيل : كثير من أحكام الشريعة لم تعلم من القرآن نصا ولا استنباطا كعدد ركعات الصلاة ، ومقادير باقى الأعضاء ، ومدة السفر والمسح والحيض ، ومقدار حد الشرب ، ونصاب السرقة وما أشبه ذلك مما يطول ذكره ؟

قلنا : القرآن تبيان لكل شىء من أمور الدين ، لأنه نص على بعضها ، وأحال على السنة فى بعضها فى قوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا) وقوله تعالى (وماينطق عن الهوى) وأحال على الإجماع أيضا بقوله تعالى (ويتبع غير سبيل المؤمنين) الآية ، وأحال على القياس أيضا

بقوله تعالى (فاعتبروا يا أولى الأبصار) والاعتبار النظر والاستدلال ، فهذه أربعة طرق لايخرج شيء من أحكام الشريعة عنها ، وكلها مذكورة فى القرآن فصح كونه تبيانا لكل شيء .

فإن قيل : كيف وحدت القدم ونكرت فى قوله تعالى (فتزل قدم بعد ثبوتها) ولم يقل القدم أو الأقدام ، وهو أشد مناسبة لجمع الإيمان ؟

قلنا : وحدت ونكرت فى قوله تعالى لاستعظام أن تزل قدم واحدة على طريق الجنة فكيف بأقدام كثيرة ؟

فإن قيل : «من» تتناول الذكر والأنثى لغة ، ويؤيده قوله تعالى (من جاء بالحسنة) الآية ، وقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) وقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) الآية ، وقوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) ونظائره كثيرة ، فكيف قال تعالى هنا (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى) ؟

قلنا : إنما صرح بذكر النوعين هنا لسبب اقتضى ذلك ، وهو أن النساء قلن : ذكر الله تعالى الرجال فى القرآن بخير ولم يذكر النساء بخير ، فلو كان فينا خير لذكرنا به ، فأنزل الله تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) الآية ، وأنزل (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) فذهب عن النساء وهم تخصيصهن عن العمومات .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) وقد رأينا كثيرا من الصلحاء والأتقياء قطعوا أعمارهم فى المصائب والمحن وأنواع البلايا باعتبار الأمثل فالأمثل إلى الأنبياء ؟

قلنا : المراد بالحياة الطيبة الحياة فى القناعة . وقيل فى الرزق الحلال . وقيل فى رزق يوم بيوم . وقيل التوفيق للطاعات . وقيل فى حلاوة الطاعات . وقيل فى الرضا بالقضاء . وقيل المراد به الحياة فى القبر كما قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) وقيل المراد به

الحياة فى الدار الآخرة ، وهى الحياة الحقيقية لأنها حياة لاموت بعدها دائمة فى النعيم المقيم ، والظاهر أن المرادبه الحياة فى الدنيا لقوله تعالى (ولنجزينهم أجرهم ـ وعدهم الله ثواب الدنيا والآخرة) كماقال تعالى (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وإن الله لايهدى القوم الكافرين) وكثير من الصحابة وغيرهم كانوا كافرين فهداهم الله تعالى إلى الإيمان ؟

قلنا : المراد من هذا الكافرون الذين علم الله تعالى أنهم يموتون على الكفر ويؤيده مابعد ذلك من الآيتين .

فإن قيل : مامعنى إضافة النفس إلى النفس فى قوله تعالى (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) والنفس ليس لها نفس أخرى ؟

قلنا : النفس اسم للروح وللجوهر القائم بذاته المتعلق بالجسم تعلق التدبير . وقيل هى اسم لجملة الانسان لقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) وقوله تعالى (كتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس) والنفس أيضا اسم لعين الشىء وذاته . كمايقال نفس الذهب والفضة محبوبة : أى عينهما وذاتهما ، فالمراد بالنفس الأولى الإنسان وبالثانية ذاته ، فكأنه يوم يأتى كل إنسان يجادل عن نفسه : أى ذاته لايهمه شأن غيره ، كل يقول نفسى نفسى ، فاختلف معنى النفسين .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) والإذاقة لاتناسب اللباس وإنما تناسبه الكسوة ؟

قلنا : الإذاقة تناسب المستعار له وهو الجوع من حيث أن الجوع يقتضى الأكل فيقتضى الذوق ، وإن كانت لاتناسب المستعار وهو اللباس والكسوة تناسب المستعار وهو اللباس ، ولا تناسب المستعار له وهو الجوع ، وكلاهما من دقائق علم البيان ، يسمى الأول تجريد الاستعارة ، والثانى ترشيح الاستعارة فجاء القرآن العزيز فى هذه الآية بتجريد الاستعارة ، وقد ذكرنا تمام هذا فى

كتابنا «روضة الفصاحة» ولباس الجوع والخوف استعارة لما يظهر على أهل القرية من أثر الجوع والخوف من الصفرة والنحول ، فهو كقوله تعالى (ولباس التقوى) استعار اللباس لما يظهر على المتقى من أثر التقوى . وقيل إن فيه إضمارا تقديره : فأذاقها الله طعم الجوع وكساها لباس الخوف .

سورة الإسراء

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (بعبده) ولم يقل بنبيه أو برسوله أو بحبيبه أو بصفيه ونحو ذلك ، مع أن المقصود من ذلك الإسراء تعظيمه وتبجيله ؟

قلنا : إنما سماه عبدا فى أرفع مقاماته وأجلها وهو هذا ، وقوله (فأوحى إلى عبده ما أوحى) كيلا يغلط فيه أمته وتضل به كما ضلت أمة المسيح به فدعته إلها . وقيل كيلا يتطرق إليه العجب والكبر .

فإن قيل : الإسراء لايكون إلا بالليل ، فما فائدة ذكر الليل ؟

قلنا : فائدته أنه ذكر منكرا ليدل على قصر الزمان الذى كان فيه الإسراء والرجوع ، مع أنه كان من مكة إلى بيت المقدس مسيرة أربعين ليلة ، وذلك لأن التنكير يدل على البعضية ، ويؤيده قراءة عبد الله وحذيفة من الليل : أى بعض الليل كقوله تعالى (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) فإنه أمر بالقيام فى بعضه .

فإن قيل : أى حكمة فى نقله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ثم العروج به من بيت المقدس إلى السماء ، وهلا عرج به من مكة إلى السماء دفعة واحدة ؟

قلنا . لأن بيت المقدس محشر الخلائق ، فأراد الله تعالى أن يطأها قدمه ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم عليها ببركة أثر قدمه صلى الله عليه وسلم.

الثانى : أن بيت المقدس مجمع أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فأراد الله تعالى أن يشرفهم بزيارته صلى الله عليه وسلم . الثالث : أنه أسرى به إلى البيت المقدس ليشاهد من أحواله وصفاته مايخبر به كفار مكة صبيحة تلك الليلة ، فيدلهم إخباره بذلك مطابقا لما رأوا وشاهدوا على صدقه فى حديث الإسراء .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (باركنا حوله) ولم يقل باركنا عليه أوباركنا فيه ، مع أن البركة فى المسجد تكون أكثر من خارج المسجد وحوله خصوصا المسجد الأقصى ؟

قلنا : أراد البركة الدنيوية بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة وذلك حوله لافيه . وقيل أراد البركة الدينية فإنه مقرَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومتعبدهم ومهبط الوحى والملائكة ، وإنما قال (باركنا حوله) ليكون بركته أعم وأشمل ، فإنه أراد بما حوله ماأحاط به من أرض بلاد الشام وما قاربه منها ، وذلك أوسع من مقدار بيت المقدس ، ولأنه إذا كان هو الأصل وقد بارك فى لواحقه وتوابعه من البقاع كان هو مباركا فيه بالطريق الأولى ، بخلاف العكس . وقيل المراد البركة الدنيوية والدينية ووجههما مامر . وقيل المراد باركنا حوله من بركة نشأت منه فعمت جميع الأرض ، فإن مياه الأرض كلها أصل انفجارها من تحت الصخرة التى فى بيت المقدس .

فإن قيل : ماوجه ارتباط قوله تعالى (إنه كان عبدا شكورا) بما قبله ومناسبته له ؟

قلنا : معناه لاتتخذوا من دونى ربا فتكونوا كافرين ، ونوح كان عبدا شكورا وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه ، فتأسوا به فى الشكر كما تأسى به آباؤكم .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (وإن أسأتم فلها) ولم يقل : فعليها ، كما قال الله تعالى (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) ؟

قلنا : اللام هنا بمعنى على كما فى قوله تعالى (وتله للجبين) وقوله تعالى (ويخرون للأذقان) وقيل معناه : فلها رجاء بالرحمة ، أو فلها مخلص بالتوبة والاستغفار ، والصحيح أن اللام هنا على بابها لأنها للاختصاص ، وكل عامل مختص بجزاء عمله حسنة كانت أو سيئة ، وقد سبق مثل هذا مستوفى فى آخر سورة البقرة فى قوله تعالى (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى هنا (وجعلنا الليل والنهار آيتين) وقال فى قصة مريم وعيسى عليهما السلام (وجعلناها وابنها آية للعالمين ـ وجعلنا ابن مريم وأمه آية) مع أن عيسى صلى الله عليه وسلم كان وحده آيات شتى حيث كلم الناس فى المهد ، وكان يحيي الموتى ، ويبرئ الأكمه والأبرص ، ويخلق الطير وغير ذلك ، وأمه وحدها كانت آية حيث حملت من غير فحل ؟

قلنا : إنما أراد به الآية التى كانت مشتركة بينهما ولم تتم إلا بهما ، وهى ولادة ولد من غير فحل ، بخلاف الليل والنهار والشمس والقمر . الثانى : أن فيه آية محذوفة إيجازا واختصارا تقديره : وجعلناها آية وابنها آية ، وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (وجعلنا آية النهار مبصرة) والإبصار من صفات ماله حياة ، والمراد بآية النهار إما الشمس أو النهار نفسه وكلاهما غير مبصر ؟

قلنا : المبصرة فى اللغة بمعنى المضيئة ، نقله الجوهرى . وقال غيره : معناه بينة واضحة ، ومنه قوله تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أى آية واضحة مضيئة ، وقوله تعالى (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) الثانى معناه : مبصرا بها إن كانت الشمس ، أو فيها إن كانت النهار ، ومنه قوله تعالى (والنهار مبصرا) أى مبصرا فيه ، ونظيره قولهم ، ليل نائم ونهار صائم : أى ينام فيه ويصام فيه . الثالث : أنه فعل رباعى منقول بالهمزة عن الثلاثى .

الذى هو بصر بالشىء : أى علم به ، فهو بصير : أى عالم معناه أنه يجعلهم بصراء ، فيكون أبصره بمعنى بصره ، وعلى هذا حمل الأخفش قوله تعالى (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) أى تبصرهم فتجعلهم بصراء . الرابع أن بعض الناس زعم أن الشمس حيوان له حياة وبصر وقدرة ، وهو متحرك بإرادته امتثال أمر الله تعالى كما يتحرك الإنسان .

فإن قيل : ما الفائدة فى ذكر عدد السنين مع أنه لو اقتصر على قوله لتعلموا الحساب دخل فيه عدد السنين إذ هو من جملة الحساب ؟

قلنا : العدد كله موضوع الحساب كبدن الإنسان فإنه موضوع الطب ، وأفعال المكلفين موضوع الفقه ، وموضوع كل علم مغاير له وليس جزءا منه ، كبدن الإنسان ليس جزءا من الطب ، ولا أفعال المكلفين جزءا من الفقه ؛ فكذا العدد ليس جزءا من الحساب ، وإنما ذكر عدد السنين وقدمه على الحساب ،لأن المقصود الأصلى من محو الليل وجعل آية النهار مبصرة علم عدد الشهور والسنين ، ثم يتفرع من ذلك علم حساب التاريخ وضرب المدد والآجال .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى هنا (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) وقال فى موضع آخر (وكفى بنا حاسبين) ؟

قلنا : مواقف القيامة مختلفة ،ففى موقف يكل الله حسابهم إلى أنفسهم وعلمه محيط به ، وفى موقف يحاسبهم هو . وقيل هو الذى يحاسبهم لاغيره ، وقوله تعالى (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أى يكفيك أنك شاهد على نفسك بذنوبها عالم بذلك ، فهو توبيخ وتقريع لا أنه تفويض حساب العبد إلى نفسه . وقيل من يريد مناقشته فى الحساب يحاسبه بنفسه ، ومن يريد مسامحته فيه يكل حسابه إليه .

فإن قيل : قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) يرد ماجاء فى الأخبار أن فى يوم القيامة يؤخذ من حسنات المغتاب والمديون ويزاد

فى حسنات رب الدين والشخص الذى اغتيب ، فإن لم تكن لهما حسنات يوضع عليهما من سيئات خصميهما ، وكذلك جاء هذا فى سائر المظالم ؟

قلنا: المراد من الآية أنها لاتحمله اختيارا ردا على الكافرين حيث قالوا للذين آمنوا (اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) الآيتين ، والمراد من الخبر أنها تحمله كرها فلا تنافى ، وقد سبق هذا مرة فى آخر سورة الأنعام .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) وقال فى آية أخرى (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره أمرناهم بالطاعة ففسقوا . وقال الزجاج : ومثله قولهم أمرته فعصانى ، وأمرته فخالفنى ، لايفهم الأمر بالمعصية ولا الأمر بالمخالفة . الثانى : أن معناه كثرنا مترفيها ، يقال أمرته وآمرته بالمد والقصر يعنى كثرته ، وقد قرئ بهما ، ومنه الحديث « خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة » أى كثيرة النتاج والنسل . الثالث أن معناه أمرنا مترفيها بالتشديد ، يقال أمرت فلانا بمعنى أمرته : أى جعلته أميرا ، فمعنى الآية سلطانهم بالإمارة ، ويعضد هذا الوجه قراءة من قرأ (أمرنا) بالتشديد . وقال الزمخشرى رحمه الله: لايجوز أن يكون معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا ، لأن حذف مالا دليل عليه فى اللفظ غير جائز فكيف يقدر حذف ماقام الدليل فى اللفظ على نقيضه ، وذلك لأن قوله (ففسقوا) يدل على أن المأمور به المحذوف هو الفسق وهو كلام مستفيض ، يقال : أمرته فقام وأمرته فقعد وأمرته فقرأ ، لايفهم منه إلا أن المأمور به القيام والقعود والقراءة ، بخلاف قولهم أمرته فعصانى وأمرته فخالفنى ، حيث لا يكون المأمور به المحذوف المعصية والمخالفة ، لأن ذلك مناف للأمر مناقض له ، ولا يكون مايناقض الأمر وينافيه مأمورا به ، فيكون المأمور به فى هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوى ، والمتكلم بمثل هذا لاينوى لأمره مأمورا به ، بل كأنه قال : كان منى أمر فلم تكن منه طاعة ، أو كانت منه مخالفة ،

كما تقول : مر زيدا يطعك ، وكما تقول : فلان يأمر وينهى ، ويعطى ويمنع ، ويصل ويقطع ، ويضر وينفع ، فإنك لاتنوى مفعولا .

فإن قيل : على هذا حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم افسقوا ، وهذا لايكون من الله ، فلا يقال يقدر الفسق محذوفا ولا مأمورا به .

قلنا : الفسق المحذوف المقدر مجاز عن إترافهم وصب النعم عليهم صبا أفضى بهم إلى جعلها ذريعة إلى المعاصى ووسيلة إلى اتباع الشهوات ، فكأنهم أمروا بذلك لما كان السبب فى وجوده الإتراف وفتح باب النعم .

فإن قيل : لم لا يكون ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء ، وإنما يأمر بالطاعة والعدل والخير دليلا على أن المراد أمرناهم بالطاعة ففسقوا .

قلنا : لو جاز مثل هذا الإضمار والتقدير لكان المتكلم مريدا من مخاطبه علم الغيب، لأنه أضمر مالا دلالة عليه فى اللفظ بل أبلغ ، لأنه أضمر فى اللفظ مايناقضه وينافيه وهو قوله (ففسقوا) فكأنه أظهر شيئا وادعى إضمار نقيضه ، فكان صرف الأمر إلى ماذكرنا من المجاز هو الوجه ، هذا كله كلام الزمخشرى ، ولا أعلم أحدا من أئمة التفسير صار إليه غيره ، ثم إنه أيد فقال : ونظيره أمر شاء فى أن مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده تقول : لو شاء فلان لأحسن إليك ، ولو شاء لأساء إليك ، تريد لو شاء الإحسان لأحسن ولو شاء الإساءة إليك لأساء ، فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت وتعنى ولو شاء الإساءة لأحسن إليك ، ولو شاء الإحسان لأساء إليك ، وتقول قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان دائما ومن أهل الإساءة دائما ، فيترك الظاهر المنطوق به ويضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة لم تكن على سداد .

فإن قيل : على الوجه الأول لو كان المضمر المحذوف الأمر بالطاعة لما كان مخصوصا بالمترفين ، لأن أمر الله تعالى بالطاعة عام للمترفين وغيرهم .

قلنا : أمر الله بالطاعة وإن كان عاما ، ولكن لما كان صلاح الأمراء

والرؤساء وفسادهم مستلزما لصلاح الرعية وفسادها غالبا خصهم بالذكر ، ويؤيد هذا ماجاء فى الخبر « صلاح الوالى صلاح الرعية ، وفساد الوالى فساد الرعية » .

فإن قيل : قوله تعالى (من كان يريد العاجلة) الآية ، يدل على أن من لم يزهد فى الدنيا ولم يتركها كان من أهل النار ، والأمر بخلافه .

قلنا : المراد من كان يريد بإسلامه وطاعته وعبادته الدنيا لاغير ، ومثل هذا لايكون إلا كافرا أو منافقا ، ولهذا قال ابن جرير : هذه الآية لمن لايؤمن بالمعاد ، وأما من أراد من الدنيا قدر ما يتزود به إلى الآخرة فكيف يكون مذموما ، مع أن الاستغناء عن الدنيا بالكلية وعن جميع مافيها لايتصور فى حق البشر ولو كانوا أنبياء ، فعلم أن المراد ما قلنا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وما كان عطاء ربك محظورا) أى ممنوعا ، ونحن نرى ونشاهد فى الواقع أن واحدا أعطاه قناطير مقنطرة وآخر منعه العطاء حتى الدانق والحبة ؟

قلنا : المراد بالعطاء هنا الرزق ، والله تعالى سوّى فى ضمان الرزق وإيصاله بين البر والفاجر والمطيع والعاصى ، ولم يمنع الرزق عن العاصى بسبب عصيانه ، فلا تفاوت بين العباد فى أصل الرزق ، وإنما التفاوت بينهم فى مقادير الإملاك .

فإن قيل : كيف منع الله تعالى الكفار التوفيق والهداية ولم يمنعهم الرزق ؟

قلنا : لأنه لو منعهم الرزق لهلكوا وصار ذلك حجة لهم يوم القيامة ، بأن يقولوا لو أمهلتنا ورزقتنا لبقينا أحياء فآمنا . الثانى : أنه لو أهلكهم بمنع الرزق لكان قد عاجلهم بالعقوبة ، فيتعطل معنى اسمه الحليم عن معناه ، لأن الحليم هو الذى لايعجل بالعقوبة على من عصاه . الثالث : أن منع الطعام والشراب من صفات البخلاء الأخساء ، والله تعالى منزه عن ذلك . وقيل

إعطاء الرزق لجميع العبيد عدل ، وعدل الله عام ، وهبته التوفيق والهداية فضل ، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

فإن قيل : ما فائدة قوله « عندك » فى قوله تعالى (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) ؟

قلنا : فائدته أنهما يكبران فى بيته وكنفه ويكونان كلا عليه لا كافل لهما غيره ، وربما تولى منهما من المشاق ما كانا يتوليان منه فى حال الطفولية .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ولا تقربوا الزنا) ولم يقل ولا تزنوا ؟

قلنا : لو قال ولا تزنوا كان نهيا عن الزنا لا عن مقدماته كاللمس والمعانقة والقبلة ونحو ذلك ، ولما قال (ولا تقربوا) كان نهيا عنه وعن مقدماته ، لأن فعل المقدمات قربان للزنا .

فإن قيل : الإشارة بقوله تعالى (كل ذلك كان سيئه) على ماذا تعود ؟

قلنا : الإشارة إلى كل ماهو منهى عنه من جميع ماذكر من قوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) إلى هذه الآية لا إلى جميع ماذكر فإن فيه حسنا وسيئا . وقال أبو على : هو إشارة إلى قوله (ولا تقف) وما بعده لأنه لا حسن فيه .

فإن قيل : كيف قال تعالى (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) فقوله ومن فيهن يتناول أهل الأرضين كلهم ، والمراد به العموم كما هو مقتضى الصيغة بدليل تأكيده بقوله تعالى بعده (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) والتسبيح هو التنزيه عن كل ما لا يليق بصفات جلاله وكماله ، والكفار يضيفون إليه الزوج والولد والشريك وغير ذلك ، فأين تسبيحهم؟

قلنا : الضمير فى قوله تعالى (ومن فيهن) راجع إلى السموات فقط . الثانى : أنه راجع إلى السموات والأرض ، والمراد بقوله تعالى (ومن فيهن) يعنى من المؤمنين ، فيكون عاما أريد به الخاص ، وعلى هذا يكون

المراد بالتسبيح المسند إلى من فيهن التسبيح بلسان المقال . الثالث : أن المراد به التسبيح بلسان الحال حيث تدل على وجود الصانع وعظيم قدرته ونهاية حكمته ، فكأنها تنطق بذلك وتنزهه عما لايجوز عليه وما لايليق به من السوء ، ويؤيده قوله تعالى بعده (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) والتسبيح العام لجميع الموجودات إنما هو التسبيح بلسان الحال .

فإن قيل : لو كان المراد هو التسبيح بلسان الحال لما قال (ولكن لاتفقهون تسبيحهم) لأن التسبيح بلسان الحال مفقود لنا : أى مفهوم ومعلوم ؟

قلنا : الخطاب بقوله تعالى (ولكن لاتفقهون تسبيحهم) للكفار ، وهم مع تسبيحهم بلسان الحال لايفقهون تسبيح الموجودات على ماذكرنا من التفسير ؛ لأنهم لما جعلوا لله شركاء وزوجا وولدا دل ذلك على عدم فهمهم التسبيح للموجودات وتنزيهها وعدم إيضاح دلائل الوحدانية لهم ، لأن الله تعالى طبع على قلوبهم .

فإن قيل : (من فيهن) وهم الملائكة والثقلان يسبحون حقيقة والسموات والأرض والجمادات تسبح مجازا ، فكيف جمع بين إرادة الحقيقة والمجاز من لفظ واحد وهو قوله (تسبح) ؟

قلنا : التسبيح المجازى بلسان الحال حاصل من الجميع ، فيحمل عليه دفعا لما ذكرتم من المجاز .

فإن قيل : كيف قال تعالى (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) والمستعمل الشائع دعاء فاستجاب لأمره أو بأمره : أى أجاب ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : المراد بقوله تعالى (بحمده) بأمره . وقال سعيد بن جبير رضى الله عنه : إذا دعا الله الخلائق للبعث يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك . وقال غيره وهم يقولون : الحمد لله الذى صدقنا وعده ،

فعلى هذا تكون الباء بمعنى مع كما فى قوله تعالى (تنبت بالدهن) وقوله تعالى (وسبح بحمد ربك) .

فإن قيل : كيف أجمل ذكر الأنبياء كلهم بقوله (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) ثم خص داود بالذكر فقال (وآتينا داود زبورا) .

قلنا : لأنه اجتمع له مالم يجتمع لغيره من الأنبياء ، وهو الرسالة والكتابة والخطابة والخلافة والملك والقضاء فى زمن واحد ، قال الله تعالى (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وقال (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) . الثانى : أن قوله تعالى (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) إشارة إلى تفضيل محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله (وآتينا داود زبورا) دلالة على وجه تفضيله وهو أنه خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم ، لأن ذلك مكتوب فى زبور داود عليه الصلاة والسلام ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته .

فإن قيل : لم نكر الزبور هنا وعرفه فى قوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر) ؟

قلنا : يجوز أن يكون الزبور من الأعلام التى تستعمل بالألف واللام وبغيرهما كالعباس والفضل والحسن والحسين ونحوها . الثانى أنه نكره هنا لأنه أراد وآتينا داود بعض الزبور وهى الكتب . الثالث : أنه نكره لأنه أراد به ماذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزبور ، فسمى ذلك زبورا لأنه بعض الزبور كما سمى بعض القرآن قرآنا فقال تعالى (وقرآنا فرقناه) الآية ، وقال (بما أوحينا إليك هذا القرآن) وأراد به سورة يوسف عليه السلام ، وقال (وقرآن الفجر) أى القرآن المتلو فى صلاة الفجر .

فإن قيل : قوله تعالى (فلا يستطيعون كشف الضر عنكم) مغن عن قوله تعالى (ولاتحويلا) لأنهم إذا لم يستطيعوا كشف الضر لايستطيعون

تحويله ، لأن تحويل الضر نقله من محل وإثباته فى محل آخر ، ومنه تحويل الفراش والمتاع وغيرهما ، وكشف الضر مجرد إزالة ، ومن لايقدر على الإزالة وحدها فكيف يقدر على الإزالة مع الإثبات ؟ والمراد بالآية كشف الضر والمرض والقحط ونحوها ؟

قلنا : التحويل له معنيان : أحدهما ماذكرتم . والثانى التبديل ، ومنه قولهم : حوّلت القميص قباء، والفضة خاتما ؛ وأريد بالتبديل هنا الكشف لأن فى الكشف المنفى فى الآية تبديلا؛فإن المرض متى كشف يبدل بالصحة، والفقر متى كشف يبدل بالغنى ، والقحط متى كشف يبدل بالخصب وكذا جميع الأضداد ، فأطلق التبديل وأراد به الكشف ، إلا أنه لم يرد به كشف الضر لئلا يلزم التكرار ، بل أراد به مطلق الكشف الذى هو الإزالة ، يعنى فلا يستطيعون كشف الضر عنكم ولا كشفا ما ، ولهذا لم يقل ولا تحويله وهذا الجواب مما فتح الله علىّ به من خزائن جوده ، ونظيره ماذكرناه فى سورة النحل فى قوله تعالى (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون) .

فإن قيل : قوله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية فيها أسئلة : أولها أن الله تعالى لايمنعه عما يريده مانع ، فإن أراد إرسال الآيات فكيف يمنعه تكذيب الأمم الماضية ؟ وإن لم يرد إرسالها كان وجود تكذيبهم وعدمه سواء وكان عدم الإرسال لعدم الإرادة الثانى أن الإرسال يتعدى بنفسه ، قال الله تعالى (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه) فأىّ حاجة إلى الباء؟ الثالث : أن المراد بالآيات هنا مااقترحه أهل مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جعل الصفا ذهبا ، وإزالة جبال مكة ليتمكنوا من الزراعة ، وإنزال مكتوب من السماء ونحو ذلك ، وهذه الآيات ماأرسلت إلى الأولين ولاشاهدوها فكيف كذبوا بها ؟ الرابع : أن تكذيب الأولين لايمنع إرسالها إلى الآخرين لجواز أن لايكذب الآخرون

الخامس : أىّ مناسبة وارتباط بين صدر الآية وقوله تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) ؟ السادس : مامعنى وصف الناقة بالإبصار ؟ السابع أن الظلم يتعدى بنفسه قال الله تعالى (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه) فأىّ حاجة إلى الباء ، وهلا قال فظلموها يعنى العقر والقتل ؟ الثامن : أن قوله تعالى (وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) يدل على الإرسال بها ، وقوله تعالى (ومامنعنا أن نرسل بالآيات) يدل على عدم الإرسال بها ؟

قلنا : الجواب عن الأول أن المنع مجاز عبر به عن ترك الإرسال بالآيات ، كأنه تعالى قال : وما كان سبب ترك الإرسال بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . وعن الثانى : أن الباء لتعدية الإرسال إلى المرسل به لا إلى المرسل، لأن المرسل محذوف وهو الرسول، تقديره: ومامنعنا أن نرسل الرسل بالآيات ، والإرسال يتعدى إلى المرسل بنفسه ، وإلى المرسل به بالباء ، وإلى المرسل إليه بإلى ، قال الله تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه) . وعن الثالث : أن الضمير فى قوله تعالى بها عائد إلى جنس الآيات المقترحة لا إلى هذه الآيات المقترحة ، كأنه تعالى قال : ومامنعنا أن نرسل بالآيات المقترحة إلا تكذيب من قبلهم بالآيات المقترحة ، يريد المائدة والناقة ونحوهما مما اقترحه الأولون على أنبيائهم . وعن الرابع : أن سنة الله تعالى فى عباده أن من اقترح على الأنبياء آية وأتوه بها فلم يؤمن عجل الله هلاكه ، والله تعالى لم يرد هلاك مشركى مكة ، لأنه تعالى علم أنه يولد منهم من يؤمن ، أو لأنه قضى وقدّر فى سابق علمه بقاء من بعث إليهم محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة ، فلو أرسل بالآيات التى اقترحوها فلم يؤمنوا لأهلكهم ، وحكمته اقتضت عدم إهلاكهم ، فلذلك لم يرسلها ، فيصير معنى الآية : ومامنعنا أن نرسل بالآيات المقترحة عليك إلا أن كذب بالآيات المقترحة الأولون فأهلكوا ، فربما كذب بها قومك فأهلكوا . وعن الخامس : أنه تعالى لما أخبر أن

الأولين كذبوا بالآيات المقترحة عين منها واحدة وهى ناقة صالح عليه السلام لأن آثار ديارهم المهلكة فى بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم . وعن السادس : أن معنى مبصرة دالة ، كما يقال الدليل مرشدوها وقيل مبصرا بها كما يقال ليل نائم ونهار صائم : أى ينام فيه ويصام فيه ، وقيل معناه مبصرة ، يعنى أنها تبصر الناس صحة نبوة صالح عليه السلام ، ويعضد هذا قراءة من قرأ (مبصرة) بفتح الميم والصاد : أى تبصرة . وقيل مبصرة صفة لآية محذوفة، تقديره : آية مبصرة : أى مضيئة بينة . وعن السابع : أن الباء ليست لتعدية الظلم إلى الناقة بل معناه : فظلموا أنفسهم بقتلها أو بسببها . وقيل الظلم هنا الكفر ، فمعناه : فكفروا بها ؛ فلما ضمن الظلم معنى الكفر عداه تعديته . وعن الثامن : أن المراد بالآيات ثانيا العبر والدلالات لا الآيات التى اقترحها أهل مكة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (والشجرة الملعونة فى القرآن) وليس فى القرآن لعن شجرة ما ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : والشجرة الملعونة المذكورة فى القرآن : الثانى أن معناه . الملعون آكلوها وهم الكفرة . الثالث : أن الملعونة يعنى المذمومة كذا قال ابن عباس رضى الله عنهما ، وهى مذمومة فى القرآن بقوله تعالى (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) وبقوله تعالى (طلعها كأنه رءوس الشياطين) الرابع : أن العرب تقول لكل طعام مكروه أو ضار ملعون ، وفى القرآن الإخبار عن ضررها وكراهتها . الخامس : أن اللعن فى اللغة الطرد والإبعاد ، والملعون هو المطرود عن رحمة الله تعالى المبعد ، وهذه الشجرة مطرودة مبعدة عن مكان رحمة الله تعالى وهو الجنة لأنها فى قعر جهنم وهذا الإبعاد والطرد مذكور فى القرآن بقوله تعالى (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم) وقال ابن الأنبارى : سميت ملعونة لأنها مبعدة عن منازل أهل الفضل .

فإن قيل : كيف خص أصحاب اليمين بقراءة كتبهم بقوله تعالى (فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم) ولم خصهم بنفى الظلم عنهم بقوله تعالى(ولا يظلمون فتيلا)مع أنأصحاب الشمال يقرءون كتابهم ولا يظلمون أيضا ؟

قلنا :إنما خص أصحاب اليمين بذكر القراءة لأن أصحاب الشمال إذا رأوا ما فى كتبهم من الفضائح والقبائح أخذهم من الحياء والخجل والخوف مايوجب حبسة اللسان وتتعتع الكلام والعجز عن إقامة الحروف ، فتكون قراءتهم كلا قراءة ؛ فأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك ، لاجرم أنهم يقرءون كتابهم أحسن قراءة وأبينها ، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر (هاؤم اقرءوا كتابيه) وأما قوله تعالى (ولايظلمون فتيلا) فهوعائد إلى كل الناس لا إلى أصحاب اليمين . الثانى : أنه عائد إلى أصحاب اليمين خاصة ، وإنما خصهم بذلك لأنهم يعلمون أنهم لايظلمون، ويعتقدون ذلك بخلاف أصحاب الشمال فإنهم يعتقدون أو يظنون أنهم يظلمون ، ويعضض هذا الوجه قوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولاهضما) .

فإن قيل : كيف قال موسى عليه السلام لفرعون (لقد علمت ما أنزل هؤلاء) يعنى الآيات (إلا رب السموات والأرض بصائر) يعنى بينات وحججا واضحات ، وفرعون لم يعلم ذلك ، لأنه لو علم ذلك لم يقل لموسى عليه السلام (إنى لأظنك ياموسى مسحورا) أى مخدوعا أوقد سحرت أوساحرا مفعول بمعنى فاعل على اختلاف الأقوال ، بل كان يؤمن به ؛ وكيف يعلم ذلك وقد طبع الله على قلبه وأضله وحال بينه وبين الهدى والرشاد ، ولهذا قرأ على كرم الله وجهه (لقد علمت) بضم التاء وقال : والله ماعلم عدو الله ولكن موسى عليه السلام هو الذى علم . واختار الكسائى وثعلب قراءة على رضى الله عنه ونصراها بأنه لما نسبه إلى أنه مسحور أعلمه بصحة عقله بقوله (لقد علمت) ؟

قلنا : معناه لقد علمت لو نظرت نظرا صحيحا إلى الحجة والبرهان ،

ولكنك معاند مكابر تخشى فوات دعوى الإلهية لو صدقتنى ، فكان فرعون ممن أضله الله على علم ، ولهذا بلغ ابن عباس قراءة علىّ رضى الله عنهم ويمينه فاحتج بقوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) .

فإن قيل : كيف قالَ موسى عليه السلام (وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا) وموسى عليه السلام كان عالما بذلك لاشك عنده فيه ؟

قلنا : قال أكثر المفسرين : الظن هنا بمعنى العلم كما فى قوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم) وإنما أتى بلفظ الظن ليعارض ظن فرعون بظنه ، كأنه قال : إن ظننتنى مسحورا فأنا أظنك مثبورا والمثبور الهالك والمصروف عن الخيرات أو الملعون والخاسر .

فإن قيل : كيف كرر تعالى الإخبار بالخرور ؟

قلنا · كرره ليدل على تكرار الفعل منهم . الثانى : أنه كرره لاختلاف الحالين وهما خرورهم فى حال كونهم ساجدين وفى حال كونهم باكين . الثالث : أنه أراد بالخرور الأول الخرور فى حالة سماع القرآن وقراءته ، وبالخرور الثانى الخرور فى سائر الحالات وباقيها .

فإن قيل : الحمد إنما يكون على نعمة أنعم الله تعالى بها على العبد ، كما فى قوله تعالى (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ـ الحمد لله الذى هدانا لهذا ـ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) لأن فيها من المنافع لنا ما لايعد ولا يحصى ، فأى نعمة حصلت لنا من كون الله تعالى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولا ناصر حتى قال (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) الآية ؟

قلنا : النعمة فى ذلك أن الملك إذا كان له ولد وزوج فإنما ينعم على عبيده بما يفضل عن ولده وزوجه ، وإذا لم يكن له ولد وزوج كان جميع إنعامه وإحسانه مصروفا إلى عبيده ، فكان نفى اتخاذ الولد مقتضيا مزيد

الإنعام عليهم ، وأما نفى الشريك فلأنه يكون أقدر على الإنعام على عبيده لعدم المزاحم ، وأما نفى النصير فلأنه يدل على القوة والاستغناء ، وكلاهما يقتضى القدرة على زيادة الإنعام ، والله أعلم وأحكم .

سورة الكهف

فإن قيل : قوله تعالى (قيما) يعنى مستقيما ، وقوله (ولم يجعل له عوجا) مغن عن قوله قيما لأنه متى انتفى العوج ثبتت الاستقامة ، لأن العوج فى المعانى كالعوج فى الأعيان ، والمراد به هنا نفى الاختلاف والتناقض فى معانيه ، وأنه لايخرج منه شىء عن الصواب والحكمة . وقيل فى الآية تقديم وتأخير تقديره : الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا .

قلنا : قال الفراء : معنى قوله (قيما) قائما على الكتب السماوية كلها مصدقا لها شاهدا بصحتها ناسخا لبعض شرائعها ، فعلى هذا لاتكرار فيه ، وعلى القول المشهور يكون الجمع بينهما للتأكيد سواء قدر قيما مقدما أوأقرفى مرتبته ، ونصب بفعل مضمر تقديره : ولكن جعله قيما ولابد من هذا الإضمار أو من التقديم والتأخير وإلا يصير المعنى : ولم يجعل له عوجا مستقيما والعوج لايكون مستقيما .

فإن قيل : اتخذ الله تعالى ولدا محال ، فكيف قال (مالهم به من علم) وإنما يستقيم أن يقال فلان ماله علم بكذا إذا كان ذلك الشىء مما يعلمه غيره أو مما يصح أن يعلم ، كقولنا زيد ماله علم بالعربية أو بالحساب أو بالشعر ونحو ذلك .

قلنا : معناه مالهم به من علم لأنه ليس مما يعلم لاستحالته ، وهذا لأن انتفاء العلم بالشىء تارة يكون للجهل بالطريق الموصل إليه ، وتارة يكون

لاستحالة العلم به لأنه فى نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به وما نحن فيه من هذا القبيل .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ثم بعثناهم لنعلم أىّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) وهو عالم بذلك فى الأزل ؟

قلنا : معناه لنعلم ذلك علم مشاهدة كما علمناه علم غيب .

فإن قيل : كيف قال (فابعثوا أحدكم) ولم يقل واحد ؟

قلنا : لأنه أراد فردا منهم أيهم كان ، ولو قال واحدكم لدلّ على بعث رئيسهم ومقدمهم ، فإن العرب تقول : رأيت أحد القوم : أى فردا منهم ولا تقول : رأيت واحدا لقوم إلا إذا أردت المقدم المعظم .

فإن قيل : كيف جاء تعالى بسين الاستقبال فى الفعل الأول دون الآخرين فى قوله تعالى (سيقولون ثلاثة) الآية ؟

قلنا : أراد دخول الفعلين الآخرين فى حكم الأول بمقتضى العطف ، فاقتصر على ذكر السين فى الأول إيجازا واقتصارا كما تقول : زيد قد يخرج ويركب ، تريد وقد يركب .

فإن قيل : كيف دخلت الواو فى الجملة الثالثة دون الأولين وهى قوله (وثامنهم كلبهم)

قلنا : قال بعض المفسرين هى واو الثمانية ، وقد ذكرنا مثلها فى آخر سورة التوبة . وقال الزجاج : دخول هذه الواو وخروجها سواء فى صفة النكرة ، وجاء القرآن بهما . وقال غيره : الواو مرادة فى الجملتين الأولين وإنما حذفت فيهما تخفيفا ، وأتى بها فى الجملة الثالثة دلالة على إرادتها فيهما ويرد على هذا القول ، أنه لو كان كذلك لكانت مذكورة فى الجملة الأولى محذوفة فى الجملة الثانية والثالثة ، ليدل ذكرها أولا على حذفها بعد ذلك كما سبق فى سين الاستقبال . وقال الزمخشرى وغيره : هى الواو التى تدخل

على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخل على الصفة الواقعة حالا من المعرفة ، تقول : جاءنى رجل ومعه آخر ، ومررت بزيد وفى يده سيف ، ومنه قوله تعالى (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) وفائدتها توكيد اتصاله الصفة بالموصوف ، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر ، وهذه الواو هى التى أذنت بأن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم ، والدليل عليه أن الله تعالى أتبع القولين الأولين قوله (رجما بالغيب) وأتبع القول الثالث قوله (ما يعلمهم إلا قليل) وقال ابن عباس : وقعت الواو لقطع العدد : أى لم يبق بعدها عدد عاد يلتفت إليه ، ويثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والبتات . وقال الثعلبى : هذه واو الحكم والتحقيق ، كأن الله تعالى حكى اختلافهم فتم الكلام عند قوله سبعة ، ثم حكى بأن ثامنهم كلبهم باستئنافه الكلام ، فحقق ثبوت العدد الأخير لأن الثامن لا يكون إلا بعد السبعة ، فعلى هذا يكون قوله (وثامنهم كلبهم) من كلام الله تعالى حقيقة أو تقديرا . ويرد على هذا أن قوله تعالى بعد هذه الواو (قل ربى أعلم بعدتهم) وقوله تعالى (ما يعلمهم إلا قليل) يدل على بقاء الإبهام وعدم زوال اللبس بهذه الواو .

فإن قيل : كيف قال (لا مبدل لكلماته) وقال فى موضع آخر (وإذا بدلنا آية مكان آية) ويلزم من تبديل الآية بالآية تبديل الكلمات فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : معنى الأول لا مغير للقرآن من البشر ، وهو جواب لقولهم للنبى صلى الله عليه وسلم : ائت بقرآن غير هذا أو بدله . الثانى : أن معناه لا خلف لمواعيده ولا مغير لحكمه ، ومعنى الثانى النسخ والتبديل من الله تعالى فلا تنافى بينهما .

فإن قيل : قوله تعالى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) إباحة وإطلاق للكفر ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه : فمن شاء ربكم فليؤمن ومن شاء ربكم فليكفر ، يعنى لاإيمان ولاكفر إلا بمشيئته . الثانى : أنه تهديد ووعيد . الثالث : أن معناه لاتنفعون الله بإيمانكم ولا تضرونه بكفركم ، فهو إظهار للغنى لا إطلاق للكفر .

فإن قيل : لبس الأساور فى الدنيا عيب للرجال ، ولهذا لايلبسها من يلبس الذهب والحرير من الرجال ، فكيف وعدها الله تعالى المؤمنين فى الجنة فى قوله تعالى (يحلون فيها من أساور من ذهب) ؟

قلنا : كانت عادة ملوك الفرس والروم لبس الأساور والتيجان مخصوصين بها دون من عداهم ، فلذلك وعدها الله تعالى المؤمنين لأنهم ملوك الآخرة .

فإن قيل : كيف أفرد الله تعالى الجنة بعد التثنية فقال (ودخل جنته) ؟

قلنا : أفردها ليدل على الحصر ، معناه : ودخل ماهو جنته لاجنة له غيرها ولا نصيب له فى الجنة التى وعد المتقون ، بل ماملكه فى الدنيا هو جنته لاغير ، ولم يقصد جنة معينة منهما بل جنس ماكان له .

فإن قيل : كيف قال الأخ المؤمن لأخيه (لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا) وهذا تعريض بأن أخاه مشرك وليس فى كلام أخيه ما يقتضى الشرك بل الكفر وهو قوله (وما أظن الساعة قائمة) ؟

قلنا : إشراك أخيه الذى عرض له به هو اعتقاده أن زكاة جنته ونماءها بحوله وقوته ، ولهذا قال له (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) ولهذا قال هو أيضا لما أصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها (ياليتنى لم أشرك بربى أحدا) فاعترف بالشرك .

فإن قيل : ما فائدة أنا فى قوله (إن ترن أنا أقل) ؟

قلنا : أنا فى مثل هذا الموضع تفيد حصر الخبر فى المخبر عنه ، ومنه قوله تعالى (إنى أنا ربك) وقوله (إنى أنا الله) ونظائره كثيرة .

فإن قيل : مامعنى قوله (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله) وكذلك كل ماأشبهه مما جاء فى القرآن العزيز (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ـ والذين اتخذوا من دون الله أولياء ـ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) وكيف تحقيق معناه ؟

قلنا : « دون » يستعمل فى كلام العرب بمعنى غير كقولهم لفلان : مال دون هذا ، ومن دون هذا : أى غير هذا : ونظيره قوله تعالى (ولهم أعمال من دون ذلك) أى من غيره ، وتستعمل أيضا بمعنى قبل كقولهم المدينة دون مكة : أى قبلها ، ومن دونه خرط القتاد . ولا أقوم من مجلسى دون أن تجىء ، ولا أفارقك دون أن تعطينى حقى ، وما أعلم أنها جاءت فى القرآن العزيز بمعنى قبل بل بمعنى غير فقط ؟

فإن قيل : كيف قال (هنالك الولاية لله الحق) يعنى فى يوم الآخرة أو فى يوم القيامة ، والولاية بكسر الواو السلطان والملك ، وبفتح الواو التولى والنصرة ، وكل ذلك لله تعالى فى الدنيا والآخرة يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وينصر من يشاء ، ويخذل من يشاء ، ويتولى من يشاء بحراسته وحفظه ، فمافائدة تخصيص يوم القيامة ؟

قلنا : فائدته أن الدعاوى المجازية كثيرة فى الدنيا ويوم القيامة تنقطع كلها ، ويسلم الملك لله تعالى عن كل منازع ، وقد سبق نظير هذا السؤال فى سورة الأنعام فى قوله تعالى (قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور)

فإن قيل : كيف قال تعالى (هو خير ثوابا وخير عقبى) أى عاقبة ، وغير الله تعالى لايثيب ليكون الله خيرا منه ثوابا ؟

قلنا : هذا على الفرض والتقدير معناه : لوكان غيره يثيب لكان ثوابه أفضل ، ولكانت طاعته أحمد عاقبة وخيرا من طاعة غيره .

فإن : قيل كيف قال الله تعالى (وحشرناهم) بلفظ الماضى وما قبله

مضارعان وهو قوله تعالى (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة) أى لاشيء عليها يسترها كما كان فى الدنيا ؟

قلنا : للدلالة على أن حشرهم كان قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال والعظائم كأنه قال : وحشرناهم قبل ذلك .

فإن قيل : كيف قال تعالى (مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) مع أنه أخبر أن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر بقوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم) ؟

قلنا : الآية الأولى فى حق الكافرين بدليل قوله تعالى (فترى المجرمين) والمراد بهم هنا الكافرون ، كذا قال مجاهد ، وقال غيره كل مجرم فى القرآن فالمراد به الكافر ، والآية الثانية المراد بها المؤمنون لأن اجتناب الكبائر لايكون متحققا مع وجود الكفر . الثانى لوثبت أن المراد بالمجرم مطلق المذنب لم يلزم التناقض لجواز أن تكتب الصغائر ليشاهدها العبد يوم القيامة ثم تكفر عنه فيعلم قدر نعمة العفو فإن أكثر ذنوب العبد ينساها خصوصا الصغائر .

فإن قيل : قولة تعالى (إلا إبليس كان من الجن) يدل على أنه من الجن وقوله تعالى فى موضع آخر (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) يدل على أنه من الملائكة ، فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : فيه قولان : أحدهما أنه من الجن حقيقة عملا بظاهر هذه الآية ، ولأن له ذرية قال تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى) والملائكة لاذرية لهم ، ولأنه أكفر الكفرة وأفسق الفسقة ، والملائكة معصومون عن الكبائر لأنهم رسل الله ، وعن المعاصى مطلقا لأنهم عقول مجردة بغير شهوة ولا معصية إلا عن شهوة ، ويؤيده قوله تعالى (لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وقال تعالى (ومن عنده) يعنى الملائكة (لايستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فكيف يكون

إبليس منهم ويؤمر بالسجود فيمتنع ، فعلى هذا يكون استثناؤه من الملائكة استثناء من غير الجنس ؛ أو يكون استثناء من جنس المأمورين بالسجود لامن جنس الملائكة ، ويكون التقدير : وإذ قلنا للملائكة وإبليس اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كما تقول : أمرت إخوتى وعبدى بكذا فأطاعونى إلا عبدى ، والعبد ليس من الإخوة ولا داخلا فيهم إلا من حيث شمله الأمر بالفعل معهم ، فهذا كذلك . القول الثانى أنه كان من الملائكة قبل أن يعصى الله تعالى ، فلما عصاه مسخه شيطانا . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فيكون معنى قوله تعالى (كان من الجن) لمخالفته ، فتكون كان بمعنى صار . وقيل معناه : أنه كان من الجن فى سابق علم الله تعالى وهذان القولان يدلان على أنه كان من الملائكة قبل المعصية . وروى عنه أيضا أنه كان من خزان الجنة ، وهم جماعة من الملائكة يسمون الجن ، فعلى هذا يكون قوله تعالى (من الجن) أى من الملائكة الذين هم خزان الجنة (ففسق عن أمر ربه) بمخالفته فيكون استثناء من الجنس . وقال الزمخشرى فى سورة البقرة فى قوله تعالى (فسجدوا إلا إبليس) هو استثناء متصل ، لأنه كان جنيا واحدا بين أظهر الألوف من الملائكة مغمورا بهم ، فغلبوا عليه فى قوله (فسجدوا) قلت : وفى هذا التعليل نظر ، ثم قال بعده : ويجوز أن يجعل منقطعا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى) والأولياء : الأصدقاء والأحباب وهم ضد الأعداء ، ويؤيده قوله تعالى (وهم لكم عدو) وليس من الناس أحد يحب إبليس وذريته ويصادقهم ؟

قلنا : المراد بالموالاة هنا إجابة الناس لهم فيما يأمرونهم به من المعاصى ويوسوسون فى صدورهم وطاعتهم إياهم ، فالموالاة مجاز عن هذا لأنه من لوازمها .

فإن قيل : قال تعالى هنا (ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم)

فدعوهم فلم يستجيبوا لهم : أى فلم يجب الأصنام المشركين ، فنفى عن الأصنام النطق ، وقال تعالى فى سورة النحل (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) يعنى فكذبتهم الأصنام فيما قالوا ، فأثبت لهم النطق فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : المراد بقوله هنا (نادوا شركائى الذين زعمتم) أى نادوهم للشفاعة لكم أولدفع العذاب عنكم ، فدعوهم فلم يجيبوهم لذلك ، فنفى عنهم النطق بالإجابة إلى الشفاعة ودفع العذاب عنهم ، وفى سورة النحل أثبت لهم النطق بتكذيب المشركين فى دعوى عبادتهم ، فلا تناقض بين المنفى والمثبت .

فإن قيل : كيف قال تعالى (شركائى) وقال فى سورة النحل (شركاءهم) ؟

قلنا : قوله تعالى (شركائى) معناه فى زعمكم واعتقادكم ، ولهذا قال (شركائى الذين زعمتم) وأخرجه مخرج التهكم بهم ، كما قال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم (يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) وقوله تعالى (شركاءهم) يعنى آلهتهم التى جعلوها شركاء ، فإضافتها إلى الله تعالى لجعلهم إياها شركاء ، والإضافة تصح بأدنى ملابسة لفظية أو معنوية فصحت الإضافتان .

فإن قيل : كيف قال تعالى (نسيا حوتهما) والناسى إنما كان يوشع وحده بدليل قوله لموسى عليه الصلاة والسلام معتذرا (فإنى نسيت الحوت) أى قصة الحوت وخبره (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) ؟

قلنا : أضيف النسيان إليهما مجازا ، والمراد أحدهما . قال الفراء : نظيره قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وإنما يخرج من الملح لامن العذب وقيل نسى موسى عليه السلام تفقد الحوت ونسى يوسع أن يخبره خبره ، وذلك أنه كان حوتا مملوحا فى مكتل قد تزوّداه ، فلما أصابه من ماء عين

الحياة رشاش حيي وانسل ، وكان قد ذهب لقضاء حاجة فعزم يوشع أن يخبره بما رأى من أمر الحوت ، فلما جاء موسى نسى أن يخبره ، ونسى موسى تفقد الحوت والسؤال عنه .

فإن قيل : هذا التفسير يدل على أن النسيان من يوشع أو منهما كان بعد حياة الحوت وذهابه فى البحر ، وظاهر الآية يدل على النسيان كان سابقا على ذهابه فى البحر متصلا ببلوغ مجمع البحرين لقوله تعالى (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا) .

قلنا : فى الآية تقديم وتأخير تقديره : فلما بلغا مجمع بينهما اتخذ الحوت سبيله فى البحر سربا فنسيا حوتهما .

فإن قيل : كيف نسى يوشع مثل هذه الأعجوبة العظيمة فى مدة يسيرة بل فى لحظة ، واستمر به النسيان يومه ذلك وليلته إلى وقت الغداء من اليوم الثانى ، ومثل ذلك لاينسى مع تطاول الزمان كيف وقد كان الله تعالى جعل فقدان الحوت علامة لهما على وجدان الخضر عليه السلام ، على ما نقل أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى علامة على موضع وجدانه ، فأوحى إليه أن خذ معك حوتا فى مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ؟

قلنا : سبب نسيانه أنه كان قد اعتاد مشاهدة المعجزات من موسى عليه السلام واستأنس بها فكان إلفه لمثلها من خوارق العادات سببا لقلة اهتمامه بتلك الأعجوبة وعدم اكتراثه لها .

فإن قيل : كيف قال تعالى (حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها) بغير فاء و (حتى إذا لقيا غلاما فقتله) بالفاء ؟

قلنا : جعل خرقها جزءا للشرط فلم يحتج إلى الفاء كقولك إذا ركب زيد الفرس عقره ، وجعل قتل الغلام من جملة الشرط فعطفه عليه بالفاء والجزاء قال أقتلت ، كقولك : إذا ركب زيد الفرس فعقره قال له صاحبه أعقرته ؟

فإن قيل : كيف خولف بين القصتين ؟

قلنا : لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب ، وقتل الغلام تعقب لقاءه .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى فى قصة الغلام (لقد جئت شيئا نكرا) وفى قصة السفينة (لقد جئت شيئا إمرا) ؟

قلنا : قيل إمرا معناه نكرا ، فعلى هذا لافرق فى المعنى ، لأن الإمر والنكر بمعنى واحد . وقيل الإمر العجب أو الداهية وخرق السفينة كان أعظم من قتل نفس واحدة ، لأن فى الأول هلاك كثيرين . وقيل النكر أعظم من الإمر فمعناه : جئت شيئا أنكر من الأول ، لأن ذلك كان يمكن تداركه بالسد وهذا لايمكن تداركه .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى قصة السفينة (ألم أقل إنك) وفى قصة الغلام (ألم أقل لك) ؟

قلنا : لقصد زيادة المواجهة بالعتاب على رفض الوصية مرة ثانية والتنبيه على تكرر ترك الصبر والثبات .

فإن قيل : مافائدة إعادة ذكر الأهل فى قوله (استطعما أهلها) وهلا قال استطعماهم ، لأنه قد سبق ذكر الأهل مرة ؟

قلنا : فائدة إعادته التأكيد لاغير .

فإن قيل : كيف قال تعالى (يريد أن ينقض) نسب الإرادة إلى الجماد وهى من صفات من يعقل ؟

قلنا : هذا مجاز بطريق المشاهدة لأن الجدار بعد مشارفته ومداناته للانقضاض والسقوط شابه من يعقل ، ويريد فى تهيئه للسقوط فظهر منه هيئة السقوط كما تظهر ممن يعقل ، ويريد فنسبت إليه الإرادة مجازا بطريق المشابهة فى الصورة ، وقد أضافت العرب أفعال العقلاء إلى ما لا يعقل مجازا قال الشاعر :

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ وَيَعْدِلُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلِ

وقال حسان :

إنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِالإِحْسَانِ

ومن أمثالهم « تمرد مارو وعز الأبلق » ومنه قوله تعالى (ولما سكت عن موسى الغضب) وقوله (فإذا عزم الأمر) وقوله (قالتا أتينا طائعين) ونظائره كثيرة .

فإن قيل : لأى سبب لم يفارقه الخضر عليه السلام عند الاعتراض الأول والثانى وفارقه عند الثالث ؟

قلنا لوجهين : أحدهما أن موسى عليه السلام شرط على الخضر ترك مصاحبته على تقدير وجود الاعتراض الثالث وقد وجد ، فكان راضيا به الثانى أن اعتراض موسى عليه السلام فى المرة الأولى والثانية كان تورعا وصلابة فى الدين ، واعتراضه فى المرة الثالثة لهوى نفسه[1] وشهوة بطنه فأعقبه هواه هوانا .

فإن قيل : قوله (فأردت أن أعيبها) علته خوف الغصب ، فكان حقه أن يتأخر عن علته فلم قدم عليها ؟

قلنا : هو متأخر عنه لأن علة تعييبها أو علة إرادته تعييبها خوف الغصب وخوف الغصب سابق ، لأنه الحامل للخضر عليه السلام على ما فعله . وفى قراءة أبى وعبد الله رضى الله عنهما « كل سفينة صالحة » ولا بد من إضمار هذه الزيادة على قراءة الجمهور وإلا لم يفد الخرق .

فإن قيل : الشمس فى السماء الرابعة وهى بقدر كرة الأرض مائة وستين مرة ، وقيل مائة وخمسين ، وقيل مائة وعشرين ، فكيف تسعها عين فى الأرض

---

(١) (قوله لهوى نفسه الخ) لايخفى ما فيه من الجرءة على شرف الأنبياء مما ينبو عن ساحة الأدب اه مصححه .

حتى أخبر الله تعالى عن ذى القرنين أنه وجدها تغرب فى عين حمئة أو حامئة على اختلاف القراءتين ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى وجدها : أى فى زعمه وظنه ، كما يرى راكب البحر إذا لجج فيه وغابت عنه الأطراف والسواحل أن الشمس تطلع من البحر وتغرب فيه ، فذو القرنين انتهى إلى آخر البنيان فى جهة المغرب فوجد عينا حمئة واسعة عظيمة فظن أن الشمس تغرب فيها .

فإن قيل : ذو القرنين كان نبيا أو تقيا حكيما على اختلاف القولين ، فكيف خفى عليه هذا حتى وقع فى الظن المستحيل الذى لايقبله العقل ؟

قلنا : الأنبياء والأولياء والحكماء ليسوا معصومين عن ظن الغلط الخطأ ، وإن كانوا معصومين عن الكبائر . ألا ترى إلى ظن موسى عليه السلام فيما أنكره على الخضر عليه السلام فى القضايا الثلاث ، وظنه أنه يرى الله تعالى فى الدنيا وهو من كبار الأنبياء ، وكذلك يونس عليه السلام على ماأخبر الله تعالى عنه بقوله (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه) وكان الواقع بخلاف ظنه . الثانى : أن الله تعالى قادر على تصغير جرم الشمس وتوسيع العين الحمئة وكرة الأرض بحيث تسع عين الماء عين الشمس ، فلم لايجوز أن يكون قد وقع ذلك ولم نعلم به لقصور علمنا عن الإحاطة بذلك ؟

فإن قيل : قوله تعالى (قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا) يدل على أنه كان نبيا لأن الله تعالى خاطبه .

قلنا : من قال إنه ليس نبيا يقول هذا الخطاب له كان بواسطة النبى الموجود فى زمانه كما فى قوله (يابنى إسرائيل) وما أشبه .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى هنا فى حق الكفار (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) أى فلا ننصب لهم ميزانا ، لأن الميزان إنما ينصب لتوزن به الحسنات بمقابلة السيئآت ، والكافر لا حسنة له ولا طاعة لقوله تعالى

(وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقال فى موضع آخر (وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) أى فمسكنه النار فأثبت له ميزانا .

قلنا : معنى قوله تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) أى لايكون لهم عندنا قدر ولا خطر لخستهم وحقارتهم ، ولو كان معناه ماذكرتم يكون المراد بقوله تعالى (وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) من غلبت سيئاته على حسناته من المؤمنين فإنه يستكين فى النار ، ولكن لايخلد فيها بل بقدر مايمحص عنه ذنوبه فلا تنافى بينهما .

سورة مريم عليها السلام

فإن قيل : النداء الصوت والصياح ، يقال ناداه نداء : أى صاح به ، فكيف وصفه تعالى بكونه خفيا ؟

قلنا : النداء هنا عبارة عن الدعاء ، وإنما أخفاه ليكون أقرب إلى الإخلاص ، أو لئلا يلام على طلبه الولد بعد الشيخوخة ، أو لئلا يعاديه بنو عمه ويقولوا : كره أن نقوم مقامه بعده فسأل ربه الولد لذلك .

فإن قيل : كيف قال (يرثنى ويرث من آل يعقوب) والنبى لايورث لقوله صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ما تركناه صدقة » ؟

قلنا : المراد بقوله يرثنى : أى يرثنى العلم والنبوة ، ويرث من آل يعقوب الملك ، وقيل الأخلاق ، فأجابه الله تعالى إلى وراثته العلم والنبوة والأخلاق دون الملك ، والمراد بقوله صلى الله عليه وسلم « لانورث » المال ويؤيده قوله « ماتركناه صدقة » ويعقوب هنا أبو يوسف عليهما السلام ، وقيل لابل هو أخو زكريا ، وقيل لابل هو أخو عمران الذى هو أبو مريم .

فإن قيل : كيف قال (يرثنى ويرث من آل يعقوب) فعدى الفعل فى الأول بنفسه والثانى بحرف الجر وهو واحد ؟

قلنا : يقال ورثه وورث منه ، فجمع بين اللغتين . وقيل « من » هنا للتبعيض لا للتعدية ، لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء .

فإن قيل : كيف طلب الولد بقوله (فهب لى من لدنك وليا) أى ولدا صالحا ، فلما بشره الله تعالى بقوله (يازكريا إنا نبشرك) الآية استبعد ذلك وتعجب منه وأنكره بقوله (أنى يكون لى غلام) الآية ؟

قلنا : لم يقل ذلك على طريق الإنكار والاستبعاد ، بل ليجاب بما أجيب به عن طلبه الولد وهو قوله تعالى (يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) فيزداد الموقنون إيقانا ويرتدع المبطلون ، وإلا فمعتقد زكريا أولا وآخرا كان على منهاج واحد فى أن الله تعالى غنى عن الأسباب . الثانى : أنه قال ذلك تعجب فرح وسرور ، لاتعجب إنكار واستبعاد . الثالث : قيل إنه قال ذلك استفهاما عن الحالة التى يهبه الله تعالى فيها الولد ، هل يهبه فى حال الشيخوخة أم يرده إلى حالة الشباب ثم يهبه ولكن هذا الجواب لا يناسبه ما أجيب به زكريا عليه السلام بعد استفهامه .

فإن قيل : كيف قال (رب اجعل لى آية) والآية العلامة ، فطلب العلامة على وجود الولد بعد مابشره الله تعالى به ، أكان عنده شك بعد بشارة الله تعالى فى وجوده حتى طلب العلامة ؟

قلنا : إنما طلب العلامة على وجود الحمل ليبادر إلى الشكر ويتعجل السرور ، فإن الحمل لايظهر فى أول العلوق بل بعد مدة ، فأراد معرفته أول ما يوجد ، فجعل الله آية وجود الحمل عجزه عن الكلام وهو سوى الجوارح ما به خرس ولا بكم .

فإن قيل : كيف قالت مريم (إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) وإنما يتعوذ من الفاسق لامن التقى .

قلنا : معناه إن كنت ممن يتقى الله ويخشاه فانته عنى بتعوذى به منك فمعنى أعوذ أحصل على ثمرة التعوذ . وعن ابن عباس رضى الله عنهما

أنه كان فى زمانها رجل اسمه تقى ، ولم يكن تقيا بل كان فاجرا ، فظنته إياه فتعوذت منه . والقول الأول هو الذى عليه المحققون . وقيل هو على المبالغة معناه : إنى أعوذ منك إن كنت تقيا فكيف يكون حالى فى القرب منك إلى الله تعالى إذا لم تكن تقيا ؟ قالوا : ونظير هذا ما جاء فى الخبر « نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه » معناه : أنه إذا كان بحال لو لم يخف الله تعالى لايوجد منه عصيان ، فكيف يكون حاله إذا خاف الله تعالى ؟ وفى قراءة أبى رجاء وابن مسعود (إلا أن تكون تقيا) .

فإن قيل : اتفق العلماء على أن الوحى لم ينزل على امرأة ولم يرسل جبريل عليه السلام برسالة إلى امرأة قط ، ولهذا قالوا فى قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) أنه كان وحى إلهام ، وقيل وحى منام فكيف قال تعالى هنا (فأرسلنا إليها روحنا وقال إنما أنا رسول ربك) ؟

قلنا : لانسلم أن الوحى لم ينزل على امرأة قط ، فإن مقاتلا قال فى قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) أنه كان وحيا بواسطة جبريل عليه السلام ، وإنما المتفق عليه بين العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بوحى الرسالة على امرأة لابمطلق الوحى ، وهنا لم ينزل على مريم بوحى الرسالة بل بالبشارة بالولد ، ولهذا جاء على صورة البشر (فتمثل لها بشرا سويا) .

فإن قيل : ماوجه قراءة الجمهور (لأهب لك) والواهب للولد هو الله تعالى لاجبريل عليه السلام ؟

قلنا : قال ابن الأنبارى : معناه إنما أنا رسول ربك بقوله لك أرسلت رسولى إليك لأهب لك ، فيكون حكاية عن الله تعالى لاعن قول جبريل عليه السلام ، فيكون فعل الهبة مسندا إلى الله تعالى لا إليه . الثانى : أن معناه لأكون سببا فى هبة الولد بواسطة النفخ فى الدرع ، فالإضافة إليه بواسطة السببية .

فإن قيل : كيف قالت (ولم أك بغيا) ولم تقل بغية مع أنه وصف مؤنث ؟

قلنا : قال ابن الأنبارى : لما كان هذا الوصف غالبا على النساء ، وقلما تقول العرب رجل بغى ، لم يلحقوا به علامة التأنيث إجراء له مجرى حائض وعاقر . وقال الأزهرى : لايقال رجل بغىّ ، بل هو مختص بالمؤنث ، ولام الكلم ياء يقال بغت تبغى ، وهى فعول عند المبرد أصلها بغوىّ قلبت الواو ياء وأدغمت وكسرت الغين إتباعا ، فهو كصبور وشكور فى عدم دخول التاء ، وقال ابن جنى فى كتابه التمام : هى فعيل ، ولو كان فعولا لقيل بغو ، كما قيل هو نهو عن المنكر ، ثم قيل هى فعيل بمعنى فاعل ، فهى كقوله تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) وقال الأخفش : هى مثل ملحفة جديد فجعلها بمعنى مفعول . وقيل إنما لم يقل بغية مراعاة لبقية رءوس الآيات .

فإن قيل : ما كان حزن مريم وقولها (ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) ألفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسرى والرطب ، أم كان لخوف أن يتهمها قومها بفعل الفاحشة ؟

قلنا : كان حزنها لمجموع الأمرين ، وهو ماذكرتم ، وجدب مكانها الذى ولدت فيه ، فإنه لم يكن فيه طعام ولا شراب ولا ماء تتطهر به ، وكان إجراء النهر فى المكان اليابس الذى لم يعهد فيه ماء ، وإخراج الرطب من الشجرة اليابسة دافع لجهتى الحزن ، أما دفع الجدب فظاهر ، وأما دفع حزن التهمة فمن حيث أنهما معجزتان تدلان قومها على عصمتها وبراءتها من السوء وأن الله تعالى قد خصها بأمور إلهية خارجة عن العادة خارقة لها ، فتبين لهم أن ولادتها من غير فحل ليس ببدع من شأنها ولا بعيد فى قدرة الله تعالى ، المخرج فى لحظة واحدة الرطب الجنىّ من النخلة اليابسة ، والمجرى للماء بغتة فى مكان لم يعهد فيه .

فإن قيل : كيف أمرها جبريل عليه السلام إذا رأت إنسانا أن تكلمه بعد النذر بالسكوت بقوله (فإما ترين من البشر أحدا) الآية ، وذلك خلف فى النذر ؟

قلنا : إنما أمرها بذلك لأنه تمام نذرها ، فإنها لم تكن مأمورة بنذر مطلق السكوت حتى يندرج فيه الكف عن الذكر والتسبيح والدعاء ونحوها ، بل بنذر السكوت عن تكليم الإنس ، وإذا كان تمام نذرها بقولها (فلن أكلم اليوم إنسيا) لاتكون مكلمة لإنسى بعد تمام النذر .

فإن قيل : كيف قال تعالى (من كان فى المهد صبيا) وكل أحد كان ، فى المهد صبيا ؟

قلنا : كان هنا زائدة ، وصبيا منصوب على الحال لاعلى أنه خبر كان تقديره : كيف نكلم من فى المهد فى حال صباه . وقيل كان بمعنى وقع ووجد ، وصبيا منصوب على الوجه الذى مر .

فإن قيل : خطاب التكليف فى جميع الشرائع إنمايكون بعد البلوغ أوبعد التمييز والقدرة على فعل المأمور به ، وعيسى عليه السلام كان رضيعا فى المهد فكيف خوطب بالصلاة والزكاة حتى قال (وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا) ؟

قلنا : تأخير الخطاب إلى غاية البلوغ وغيرها إنما كان ليحصل العقل والتمييز ، وعيسى عليه السلام كان واجد العقل والتمييز التام فى تلك الحالة فتوجه نحوه الخطاب أن يفعلهما إذا قدر على ذلك ، ولهذا قيل إنه أعطى النبوة فى صباه أيضا .

فإن قيل : الزكاة إنما تجب على الأغنياء ، وعيسى عليه السلام لم يزل فقيرا لابس كساء مدة مقامه فى الأرض ، وعلم الله تعالى ذلك من حاله ، فكيف أوصاه بالزكاة ؟

قلنا : المراد بالزكاة هنا تزكية النفس وتطهيرها من المعاصى لا زكاة المال

فإن قيل : كيف جاء السلام فى قصة يحيى عليه السلام منكرا ، وفى قصة عيسى عليه السلام معرفا ؟

قلنا : قد قيل إن النكرة والمعرفة فى مثل هذا سواء لا فرق بينهما فى المعنى. الثانى أنه سبق ذكره فى قصة يحيى عليه السلام مرة فلما أعيد ذكره أعيد معرفا كقوله تعالى (كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول) كأنه قال ذلك السلام الموجه إلى يحيى عليه السلام فى المواطن الثلاثة موجه إلىّ

فإن قيل : كيف تكون الألف واللام فى السلام للعهد ، والأول سلام من الله تعالى على يحيى عليه السلام ، والثانى سلام من عيسى على نفسه ؟

قلنا : التعريف راجع إلى ماهية السلام ومواطنه لا إلى كونه واردا من عند الله تعالى .

فإن قيل : مامعنى قوله تعالى (واذكر فى الكتاب إبراهيم) وماأشبهه ، ومثل هذا إنما يستعمل إذا كان المأمور مختارا فى الذكر وعدمه ، كماتقول لصاحبك وهو يكتب كتابا اذكرنى فى الكتاب ، أو اذكر فلانا فى الكتاب؛ والنبى عليه السلام ما كان على سبيل من الزيادة والنقصان فى الكتابة ليوصى بمثل ذلك ؟

قلنا : هذا على طريق التأكيد فى الأمر بالإبلاغ ، كتأكيد الملك على رسوله بإعادة بعض فصول الرسالة وتخصيصها بالأمر بالإبلاغ .

فإن قيل : الاستغفار للكافر لا يجوز ، فكيف وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له بقوله (سأستغفر لك ربى) مع أنه كافر ؟

قلنا : معناه : سأسأل الله تعالى لك توبة تنال بها مغفرته ، يعنى الإسلام والاستغفار للكافر بهذا الطريق جائز ، وهو أن يقال : اللهم وفقه للإسلام أو اللهم تب عليه واهده وأرشده وما أشبه ذلك . الثانى : أنه وعده ذلك

بناء على أنه يسلم فيستغفر له بعد الإسلام . الثالث : أنه وعده ذلك قبل تحريم الاستغفار للكافر ، فإن تحريم ذلك قضية شرعية إنما تعرف بالسمع لاعقلية ، فإن العقل لايمنع ذلك .

فإن قيل : الطور وهو الجبل ليس له يمين ولاشمال ، فكيف قال تعالى (من جانب الطور الأيمن) ؟

قلنا : خاطب الله تعالى العرب بما هو معروف فى استعمالهم ، فإنهم يقولون عن يمين القبلة وشمالها ، يعنون مايلى يمين المستقبل لها وشماله ، لأن القبلة لايد لها لتكون لها يمين وشمال ، وهذا اتساع منهم فى الكلام لعدم اللبس ، فالمراد بالأيمن هنا ما عن يمين موسى عليه السلام من الطور ، لأن النداء جاءه من قبل يمينه ، هذا إن كان الأيمن ضد الأيسر من اليمين ، وإن كان من اليمن وهو البركة من قولهم : يمن فلان قومه فهويامن : أى كان مباركا عليهم ، فلا إشكال لأنه يصير معناه : من جانب الطور المبارك .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) وهارون كان أكبر من موسى عليهما السلام فما معنى هبته له ؟

قلنا : معناه أن الله تعالى أنعم على موسى عليه الصلاة والسلام بإجابة دعوته فيه حيث قال ، (واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى) الآية فقال (سنشد عضدك بأخيك) فالمراد بالهبة أنه جعله عضدا له وناصرا ومعينا كذا فسره ابن عباس رضى الله عنهما .

فإن قيل : كيف وصف الله تعالى النبيين المذكورين فى قوله (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم) الآية بقوله تعالى (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) والمراد بآيات الرحمن القرآن ، والقرآن لم يتل على أحد من الأنبياء المذكورين ؟

قلنا : آيات الرحمن غير مخصوصة بالقرآن بل كل كتاب أنزله الله تعالى

ففيه آياته، ولو سلمنا أن المراد بها القرآن فنقول : إن المراد بقوله (وممن هدينا واجتبينا) محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

فإن قيل : قوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا إلا من تاب وآمن) يدل على أن ترك الصلاة وإضاعتها كفر لأنه شرط فى توبة مضيعها الإيمان ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : المراد بهؤلاء الخلف هنا اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلوا نكاح الأخت من الأب .

فان قيل : كيف قال تعالى (إنه كان وعده مأتيا) ولم يقل آتيا كما قال تعالى (إن ماتوعدون لآت) ؟

قلنا : المراد بوعده هنا موعده وهو الجنة ، وهى مأتية يأتيها أولياؤه . الثانى : أن مفعولا هنا بمعنى فاعل ، كما فى قوله تعالى (حجابا مستورا) أى ساترا .

فإن قيل : قوله تعالى (تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا) وقوله تعالى (وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) يدل من حيث المفهوم أن غير المتقين لايدخلون الجنة ؟

قلنا : المراد بالتقوى هنا التقوى من الشرك، وكل المؤمنين سواء فى ذلك .

فإن قيل : مامعنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال من دعوتهم الولد لله تعالى ، ومن أين تؤثر هذه الكلمة فى الجمادات ؟

قلنا : معناه أن الله تعالى يقول : كدت أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا على قائلها لولا حلمى وإمهالى وأن لاأعجل العقوبة ، كما قال تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) يعنى أن تخر على المشركين وتنشق الأرض بهم ، ويدل على هذا قوله تعالى فى آخر الآية (إنه كان حليما غفورا) . الثانى : أن يكون استعظاما لقبح هذه الكلمة وتصويرا لأثرها فى الدين وهدما لأركانه وقواعده

وأن مثال ذلك الأثر فى المحسوسات أن يصيب هذه الأجسام العظيمة التى هى قوام العالم ماتنفطر منه وتنشق وتخر .

فإن قيل : كيف قال تعالى هنا فى صفة الشرك (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا) وهذا يدل على قوة كلمة الشرك وشدتها ، وقال تعالى فى سورة إبراهيم صلوات الله عليه فى صفة كلمة الشرك (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار) والمراد بالكلمة الخبيثة كلمة الشرك ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، وبالشجرة الخبيثة شجرة الحنظل ، كذا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا يدل على ضعف كلمة الشرك وتلاشيها واضمحلالها ، فكيف التوفيق بينهما ؟

قلنا : وصفت كلمة الشرك فى سورة إبراهيم عليه السلام بالضعف وهنا بالقبح ، فهى فى غاية الضعف وفى غاية القبح والفظاعة فلا تنافى بينهما .

فإن قيل : كيف قال تعالى (لقد أحصاهم وعدهم عدا) والإحصاء العد على مانقله الجوهرى ، أو الحصر على مانقله بعض أئمة التفسير ، كما سبق ذكره فى سورة إبراهيم صلوات الله عليه فى قوله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) فإن كان الإحصاء العد فهو تكرار ، وإن كان الحصر فذكره مغن عن ذكر العد ، لأن الحصر لايكون إلا بعد معرفة العدد ؟

قلنا : الإحصاء قد جاء بمعنى العلم أيضا ، ومنه قوله تعالى (وأحصى كل شىء عددا) أى علم عدد كل شىء ، قال الشاعر :

وكُنْ للذى لَمْ تُحْصِهِ مُتَعَلِّمًا وأما الذى أحْصَيْتَ منْهُ فَعَلِّمِ

وهو المراد هنا ، فيصير المعنى لقد علمهم : أى علم أفعالهم وأقوالهم وكل مايتعلق بذواتهم وصفاتهم وعددهم فلا تكرار ولا استغناء عن ذكر العد .

سورة طه عليه السلام

فإن قيل : قوله تعالى (وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا) الآية كيف حكى الله تعالى قول موسى عليه السلام لأهله عند رؤية النار فى هذه السورة وفى سورة النمل وفى سورة القصص بعبارات مختلفة ، وهذه القضية لم تقع إلا مرة واحدة ، فكيف اختلفت عبارة موسى عليه السلام فيها ؟

قلنا : قد سبق فى سورة الأعراف فى قصة موسى عليه السلام مثل هذا السؤال والجواب المذكور ، ثم هو الجواب هنا .

فإن قيل : قوله تعالى (فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها) ظاهر اللفظ نهى من لايؤمن بالساعة عن صد موسى عن الإيمان بها ، والمقصود هو نهى موسى عن التكذيب بها ، فكيف تنزيله .

قلنا : معناه كن شديد الشكيمة فى الدين ، صليب المعجم لئلا يطمع فى صدك عن الإيمان بها من لايؤمن بها ، وهذا كقولهم : لا أرينك هاهنا ؛ معناه : لاتدن منى ولا تقرب من حضرتى لئلا أراك ؛ ففى الصورتين النهى متوجه إلى المسبب ، والمراد به النهى عن السبب ، وهو القرب منه والجلوس بحضرته فإنه سبب رؤيته ، وكذلك لين موسى عليه السلام فى الدين وسلاسة قياده سبب لصدهم إياه .

فإن قيل : ما فائدة السؤال فى قوله تعالى (وما تلك بيمينك ياموسى) وهو أعلم بما فى يده جملة وتفصيلا ؟

قلنا : فائدته تأنيسه وتخفيف ماحصل عنده من دهشة الخطاب وهيبة الإجلال وقت التكلم معه ، كما يرى أحدنا طفلا قد داخلته هيبة وإجلال وخوف وفى يده فاكهة أو غيرها فيلاطفه ويؤانسه بقوله ماهذا الذى فى يدك ؟ مع أنه عالم به : الثانى : أنه أراد بذلك أن يقر موسى عليه السلام ويعترف بكونها عصا ويزداد علمه بكونها عصا رسوخا فى قلبه فلا يحوم

حوله شك إذا قلبها ثعبانا أنها كانت عصا ثم انقلبت ثعبانا بقدرة الله تعالى ، وأن يقرر فى نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه فيتنبه على القدرة الباهرة ، ونظيره أن يريك الزراد زبرة من حديد ويقول لك ماهذه؟ فتقول زبرة من حديد ، ثم يريك بعد أيام درعا سابغة مسرودة ويقول : هذه تلك الزبرة صيرتها إلى ما تراه من عجيب الصنعة وأنيق السرد .

فإن قيل : كيف زاد موسى على حرف الجواب وليس ذلك من شيمة البلغاء خصوصا فى مخاطبة الملك الأعلى ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما إنه لما قال عصاى سئل سؤالا ثانيا ، فقيل ماتصنع بها ؟ فأجاب بباقى الآية . الثانى : أنه إنما عدد فوائدها وبين حاجته إليها خوفا من أن يؤمر بإلقائها كما أمر بإلقاء النعلين . الثالث : أنه ذكر ذلك لئلا ينسب إلى العبث فى حملها .

فان قيل : قد نقل أنها كانت تضىء له بالليل وتدفع عنه الهوام ، وتثمر له إذا اشتهى الثمار فيغرسها فى الأرض فتثمر من ساعتها ، ويركزها فينبع الماء من مركزها ، فإذا رفعها نصب ، وكان يستقى بها فتطول بطول البئر وتقصر بقصرها ، فهلا عدد هذه المنافع .

قلنا : كره أن يشتغل عن سماع كلام الله تعالى بتفصيل منافعها ، ففصل البعض وأجمل الباقى بقوله (ولى فيها مآرب أخرى) والله أعلم بما أجمله . الثانى : أنه ذكر المنافع التى هى ألزم له وحاجته إليها أمس ، وإن كانت المنافع التى أجملها أعجب وأغرب .

فإن قيل : قد ذكر الله تعالى عصا موسى عليه السلام بلفظ الحية والثعبان والجان ، وبين الثعبان والجان تناف ، لأن الجان الحية الصغيرة كذا قاله ابن عرفة ، والثعبان الحية العظيمة ، كذا نقله الأزهرى عن الزجاج وقطرب .

قلنا : أراد أنها فى صورة الثعبان العظيم وخفة الحية الصغيرة وحركتها ويؤيد قوله (فلما رآها تهتز كأنها جان) . الثانى : أنها كانت فى أول

انقلابها تنقلب حية صغيرة صفراء دقيقة ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا ، فأريد بالجان أول حالها ، وبالثعبان مآلها .

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى (إذ أوحيناإلى أمك مايوحى) وهذا لابيان فيه لأنه مجمل فما فائدته ؟

قلنا : فائدته الإشارة إلى أنه ليس كل الأمور مما يوحى إلى النساء كالنبوة ونحوها بل بعضها . الثانى : أنه للتأكيد كقوله تعالى (فغشاها ماغشى) كأنه قال إذأوحينا إلى أمك إيحاء . الثالث : أنه أبهمه أولا للتفخيم والتعظيم ثم بينه وأوضحه بقوله تعالى (أن اقذفيه) الآية .

فإن قيل : كيف قدم هارون على موسى عليهما السلام فى قوله تعالى (فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى) وهارون كان وزيرا لموسى عليهما السلام وتبعا له ، قال الله تعالى (وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا) ؟

قلنا : إنما قدمه ليقع موسى مؤخرا فى اللفظ فيناسب الفواصل أعنى رءوس الآيات .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (لايموت فيها ولا يحيا) والموت والحياة صفتان من صفات الإنسان وهما نقيضان ، فكيف يرتفعان ؟

قلنا : المراد لايموت فيها موتا يستريح به ، ولا يحيا حياة تنفعه ويستلذ بها . الثانى : أن المراد لايموت فيها موتا متصلا ولا يحيا حياة متصلة ، بل كلما مات من شدة العذاب أعيد حيا ليذوق العذاب هكذا سبعين مرة فى مقدار كل يوم من أيام الدنيا .

فإن قيل : الخوف والخشية واحد فى اللغة ، فكيف قال تعالى (لاتخاف دركا ولا تخشى) ؟

قلنا : معناه لاتخاف دركا : أى لحاقا من فرعون ولا تخشى غرقا فى البحر

كما تقول : لاتخاف زيدا ولا تخشى عمرا ، ولو قلت ولا عمرا صح وكان أوجز ، ولكن إذا أعدت الفعل كان آكد ، وأما فى الآية فلما لم يكن مفعول الخشية مذكورا ذكر الفعل ثانيا ليكون دليلا عليه ، وخولف بين اللفظين رعاية للبلاغة . وقيل معناه : لاتخاف دركا على نفسك ، ولا تخشى دركا على قومك والأول عندى أرجح .

فإن قيل : قوله تعالى (وأضل فرعون قومه) يغنى عن قوله تعالى (وما هدى) ومفيد فوق فائدته فكيف ذكر معه ؟

قلنا : معناه : وما هداهم بعد ما أضلهم ، فإن المضل قد يهدى بعد إضلاله . الثانى : أن معناه : وأضل قومه وما هدى نفسه . الثالث : أن معناه : وأضل فرعون قومه عن الدين وما هداهم طريقا فى البحر . الرابع : أن قوله (وما هدى) تهكم به فى قوله لقومه (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن) أضاف المواعدة إليهم ، والمواعدة إنما كانت لموسى عليه السلام ، واعده الله تعالى جانب الطور الأيمن لإتيانه التوراة ؟

قلنا : المواعدة وإن كانت لموسى عليه السلام ولكنها لما كانت لانزال كتاب بسبب بنى إسرائيل وفيه بيان شريعتهم وأحكامهم وصلاح معاشهم ومعادهم أضيفت إليهم المواعدة بهذه الملابسة والاتصال .

فإن قيل : قوله تعالى (وما أعجلك عن قومك ياموسى) سؤال عن سبب العجلة ، فإن موسى عليه السلام لما واعده الله تعالى بإنزال التوراة عليه بجانب الطور الأيمن وأراد الخروج إلى ميعاد ربه اختار من قومه سبعين رجلا يصحبونه إلى ذلك المكان ثم سبقهم شوقا إلى ربه وأمرهم بلحاقه ، فعوتب على ذلك وكان الجواب المطابق أن يقول : طلبت زيادة رضاك أو الشوق إلى لقائك

وتنجيز وعدك ، فكيف قدم مالا يطابق السؤال وهو قوله (هم أولاء على أثرى) ؟

قلنا : ماواجهه ربه به تضمن شيئين : إنكار العجلة فى نفسها والسؤال عن سببها ، فبدأ موسى عليه السلام بالاعتذار عما أنكره تعالى عليه بأنه لم يوجد منه إلا تقدم يسير لايعتد به فى العادة كمايتقدم المقدم جماعته وأتباعه ، ثم عقب العذر بجواب السؤال عن السبب بقوله (وعجلت إليك رب لترضى)

فإن قيل : أليس أن أئمة اللغة قالوا : العوج بالكسر فى المعانى ، وبالفتح فى الأعيان ، ولهذا قال ثعلب : وتقول فى الأمر والدين عوج وفى العصا ونحوها عوج ، كالجبال والأرض ، فكيف صح فيها المكسور فى قوله تعالى (لاترى فيها عوجا ولاأمتا) ؟

قلنا : قال ابن السكيت : كل ماكان ممايتنصب كالحائط والعود قيل فيه عوج بالفتح ، والعوج بالكسر ما كان فى أرض أو دين أو معاش ، فعلى هذا لاإشكال . الثانى أنه أراد به نفى الاعوجاج الذى يدرك بالقياس الهندسى ولايدرك بحاسة البصر ، وذلك اعوجاج لاحق بالمعانى ، فلذلك قال فيه عوج بالكسر ، ومما يوضح هذا أنك لو سويت قطعة أرض غاية التسوية بمقتضى نظر العين بموافقة جماعة من البصراء ، واتفقتم على أنه لم يبق فيها عوج قط ، ثم أمرت المهندس أن يعتبرها بالمقاييس الهندسية وجد فيها عوجا فى غير موضع ، ولكنه عوج لايدرك بحاسة البصر فنفى الله تعالى ذلك العوج لما لطف ودق عن الإدراك ، فكان لدقته وخفائه ملحقا بالمعانى .

فإن قيل : إن الله تعالى أخبر أن آدم عليه السلام نسى عهد الله ووصيته ، وأكل من الشجرة بقوله تعالى (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى) وإذا كان فعل ذلك ناسيا فكيف وصفه بالعصيان والغواية بقوله تعالى (وعصى

آدم ربه فغوى) فعاقبه عليه بأعظم أنواع العقوبة ، وهو الإخراج من الجنة ؟

قلنا : النسيان هنا بمعنى الترك[1] كما فى قوله تعالى (إنا نسيناكم) أى تركناكم فى العذاب ، وقوله تعالى (نسوا الله فنسيهم) فمعناه أنه ترك عهد الله ووصيته ، فكيف يكون من النسيان الذى هو ضد الذكر ، وقد جرى بينه وبين إبليس من المجادلة والمناظرة فى أكل الشجرة فصول كثيرة منها قوله (مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة) الآية فكيف يبقى مع هذا نسيان ؟

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) ولم يقل فتشقيا ، والخطاب لآدم وحواء عليهما السلام ؟

قلنا : لوجوه : أحدها أن الرجل قيم أهله وأميرهم ، فشقاؤه يتضمن شقاءهم كما أن معاداته تتضمن معادتهم ، فاختصر الكلام بإسناد الشقاء إليه دونها لما كان متضمنا له . الثانى : أنه إنما أسنده إليه دونها للمحافظة على الفاصلة . الثالث : أنه أراد بالشقاء : الشقاء فى طلب القوت وإصلاح المعاش ، وذلك وظيفة الرجل دون المرأة ، قال سعيد بن جبير أهبط إلى آدم عليه السلام ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه فذلك شقاؤه .

فإن قيل : هل يجوز أن يقال : كان آدم عاصيا غاويا أخذا من قوله تعالى (وعصى آدم ربه فغوى) ؟

قلنا : يجوز أن يقال عصى آدم كما قال الله تعالى ، ولا يجوز أن يقال كان آدم عاصيا ، لأنه لايلزم من جواز إطلاق الفعل جواز إطلاق اسم الفاعل ؛ ألا ترى أنه يجوز أن يقال تبارك الله ، ولا يجوز أن يقال الله تبارك ويجوز أن يقال تاب الله على آدم ، ولا يجوز أن يقال الله تائب ، ونظائره كثيرة.

---

(١) قوله (النسيان هنا بمعنى الترك الخ) لايخفى مافى هذا الجواب من التجرؤ على ساحة الأنبياء بما ينبو عن ساحة الأدب اه .

فإن قيل : أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية لامدخل للقياس فيها ؛ ولهذا يقال الله عالم ، ولا يقال علامة ؛ وإن كان هذا اللفظ أبلغ فى الدلالة على معنى العلم ، فأما أسماء البشر وصفاتهم فقياسية ؛ فلم لايجرى فيها على القياس المطرد ؟

قلنا : هذا القياس ليس بمطرد فى صفات البشر أيضا ألا ترى أنهم قالوا ذره ودعه بمعنى اتركه ، وفلان يزر ويدع ، ولم يقولوا منهما وذر ولاواذر ، ولاودع ولاوادع ، فاستعملوا منهما الأمر والمضارع فقط . ولقائل أن يقول : هذا شاذ فى كلام العرب ونادر ، فلا يترك لأجله القياس المطرد ، بل يجرى على مقتضى القياس .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ومن أعرض عن ذكرى) أى عن موعظتى أو عن القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه (فإن له معيشة ضنكا) أى حياة فى ضيق وشدة ، ونحن نرى المعرضين عن الإيمان والقرآن فى أخصب معيشة وأرغدها ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : المراد بالمعيشة الضنك الحياة فى المعصية وإن كان فى رخاء ونعمة . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنها عذاب القبر . الثانى : أن المراد بها عيشته فى جهنم فى الآخرة . الثالث : أن المراد بها عيشه مع الحرص الشديد على الدنيا وأسبابها ، وهذه الآية فى مقابلة قوله فى سورة النحل (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) فكل ماذكرناه فى تفسير الحياة الطيبة فضده وارد فى المعيشة الضنك .

فإن قيل : أى الكلمات التى سبقت من الله فكانت مانعة من تعذيب هذه الأمة فى الدنيا عذاب الاستئصال حتى قال تعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما) ؟

قلنا : قيل هى قوله تعالى « سبقت رحمتى غضبى » ويرد عليه أنه

لاالختصاص لهذه الأمة بهذه الكلمة، وقيل هى قوله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) وقيل فى قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) يعنى لعالمى أمته بتأخير العذاب عنهم، وقيل فى الآية تقديم وتأخير تقديره : ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى ، وهو الأجل الذى قدر الله تعالى بقاء العالم وأهله إلى انقضائه لكان العذاب لزاما : أى لازما لهم كما لزم الأمم التى قبلهم .

فإن قيل : أصحاب الصراط السوى والمهتدون واحد ، فما فائدة التكرار فى قوله تعالى (فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى) .

قلنا : المراد بأصحاب الصراط السوى السالكون الصراط المستقيم السائرون عليه ، والمراد بالمهتدين الواصلون إلى المنزل . وقيل أصحاب الصراط السوى هم الذين مازالوا على الصراط المستقيم ، والمهتدون هم الذين لم يكونوا على الطريق المستقيم ثم صاروا عليه . وقيل المراد بأصحاب الصراط السوى أهل دين الحق فى الدنيا ، والمراد بمن اهتدى المهتدون إلى طريق الجنة فى العقبى ، فكأنه قال : فستعلمون من المحق فى الدنيا والفائز فى الآخرة .

سورة الأنبياء

فإن قيل : كيف قال تعالى (اقترب للناس حسابهم) وصفه بالقرب وقد مضى من وقت هذا الإخبار أكثر من ستمائة عام ، ولم يوجد يوم الحساب بعد ؟

قلنا : معناه أنه قريب عند الله تعالى وإن كان بعيدا عند الناس ، كما قال تعالى (إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) وقال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ـ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) . الثانى : أن معناه أنه قريب بالنسبة إلى ما مضى من الزمان ، كما قال صلى الله عليه وسلم

« إن مثل ما بقى من الدنيا فى جنب مامضى كمثل خيط فى ثوب » . الثالث : أن المراد به قرب حساب كل واحد فى قبره إذا مات ، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم « من مات فقد قامت قيامته » الرابع : أن كل آت قريب وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ، وإنما البعيد الذى وجد وانقرض ، ولهذا يقول الناس إذا سافروا من بلد إلى بلد بعد ماولوا ظهورهم البلد الأول : البلد الثانى أقرب وإن كان أبعد مسافة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) والذكر الآتى من الله تعالى هو القرآن وهو قديم لامحدث ؟

قلنا : المراد محدث إنزاله . الثانى : أن المراد به ذكر يكون غير القرآن من مواعظ الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره ؛ ونسب إلى الله تعالى لأن موعظة كل واعظ بإلهامه وهدايته . الثالث : أن المراد بالذكر الذاكر وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده قوله تعالى فى سياق الآية (هل هذا إلا بشر مثلكم) وعلى هذا يكون معنى قوله (إلا استمعوه) أى إلا استمعوا ذكره وموعظته .

فإن قيل : النجوى المسارّة ، فمامعنى قوله تعالى (وأسروا النجوى ؟)

قلنا : معناه بالغوا فى إخفاء المسارة بحيث لم يفطن أحد لتناجيهم ومسارتهم تفصيلا ولا إجمالا ، فإن الإنسان قد يرى اثنين يتساران فيعلم من حيث الإجمال أنهما يتساران ، وإن لم يعلم تفصيل ما يتساران به ، وقد يتساران فى مكان لا يراهما أحد .

فإن قيل : كيف قال تعالى لمشركى مكة (فاسألوا أهل الذكر) يعنى فاسئلوا أهل الكتاب عمن مضى من الرسل ، هل كانوا بشرا أم ملائكة ؟ مع أن المشركين قالوا (لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) ؟

قلنا : هم وإن لم يؤمنوا بكتاب أهل الكتاب ، ولكن النقل المتواتر من

أهل الكتاب فى القضية العقلية يفيد العلم لمن يؤمن بكتابهم ولمن لايؤمن به .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ولا يستحسرون) والاستحسار مبالغة فى الحسور وهو الإعياء ، فكان الأبلغ فى وصفهم أن ينفى عنهم أدنى الحسور أو مطلقه لاأقصاه ؟

قلنا : إنما ذكر الاستحسار إشارة إلى أن ماهم فيه من التسبيح الدائم والعبادة المتصلة يوجب غاية الحسور وأقصاه .

فإن قيل : قوله تعالى فى وصف الملائكة (بل عباد مكرمون) إلى قوله تعالى (مشفقون) يدل على أنهم لايعصون الله ماأمرهم ، فإذا كانوا لايعصون الله تعالى فلم يخافون حتى قال تعالى (وهم من خشيته مشفقون) ؟

قلنا : لما رأوا ماجرى على إبليس وعلى هاروت وماروت من القضاء والقدر خافوا من مثل ذلك . الثانى : أن زيادة معرفتهم بالله وقربهم فى محل كرامته يوجب مزيد خوفهم ، ولهذا قال أهل التحقيق : من كان بالله أعرف كان من الله أخوف ، ومن كان إلى الله أقرب كان من الله أرهب . وقال بعضهم : ياعجبا من مطيع آمن ومن عاص خائف .

فإن قيل : كيف قال تعالى (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) وهم لم يروا ذلك؟

قلنا : معناه أولم يعلموا ذلك بأخبار من قبلهم أو بوروده فى القرآن الذى هو معجزة فى نفسه ، ونظيره قوله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم (ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض) وقوله تعالى (ألم تر أن الله يزجى سحابا) الآية ، ونظائره كثيرة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وجعلنا من الماء كل شىء حى) مع أن الملائكة أحياء والجن أحياء ، وليسوا مخلوقين من الماء بل من النور والنار

كما قال تعالى (وخلق الجانّ من مارج من نار) وكذا آدم مخلوق من التراب وناقة صالح مخلوقة من الحجر ؟

قلنا : المراد به البعض وهو الحيوان كما فى قوله تعالى (وأوتيت من كل شىء) وقوله تعالى (وجاءهم الموج من كل مكان) ونظائره كثيرة. الثانى : أن الكل مخلوقون من المـاء ، ولكن البعض بواسطة والبعض بغير واسطة ، ولهذا قيل إنه تعالى خلق الملائكة من ريح خلقها من المـاء ، وخلق الجن من نار خلقها من المـاء ، وخلق آدم من تراب خلقه من المـاء .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فلا تستعجلون) بعد قوله (خلق الإنسان من عجل) وكأنه تكليف بمـالا يطاق ؟

قلنا : هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها ، لأنه أعطاه القدرة التى يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ولايسمع الصم الدعاء إذا ماينذرون) مع أن الصم لايسمعون الدعاء إذا مايبشرون أيضا ؟

قلنا : اللام فى الصم إشارة للمنذرين السابق ذكرهم بقوله تعالى (قل إنمـا أنذركم بالوحى) فهى لام العهد لا لام الجنس .

فإن قيل : كيف قال إبراهيم صلوات الله عليه (بل فعله كبيرهم هذا) حال كسر الأصنام على الصنم الكبير ، وكان إبراهيم هو الكاسر لهـا ؟

قلنا : قاله على طريق الاستهزاء والتهكم بهم ، لاعلى طريق الجد . الثانى أنه لمـا كان الحامل له على كسرها اغتياظه من رؤيتها مصفوفة مرتبة للعبادة مبجلة معظمة ، وكان اغتياظه من كبيرها أعظم لمزيد تعظيمهم له أسند الفعل إليه كما أسند إلى سببه ، وإلى الحامل عليه . الثالث : أنه أسنده إليه معلقا بشرط منتف لامطلقا تقديره : فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم .

فإن قيل : كيف صح مخاطبة النار بقوله تعالى (يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم) والخطاب إنما يكون مع من يعقل ؟

قلنا : خطاب التحويل والتكوين لايختص بمن يعقل ، قال الله تعالى (ياجبال أوّبى معه) وقال تعالى (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها) وقال تعالى (وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى) .

فإن قيل : كيف وصف الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بكونهم من الصالحين بقوله تعالى (وإسماعيل وإدريس وذا الكفل) الآية ، مع أن أكثر المؤمنين صالحون خصوصا فى الزمن الأول ؟

قلنا : معناه أنهم من الصالحين للإدخال فى الرحمة التى أريد بها النبوة على مافسره مقاتل ، أو الجنة على مافسره ابن عباس رضى الله عنهما ، ويؤيد ذلك قول سليمان صلوات الله عليه (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) أى الصالحين للعمل المرضى الذى سبق سؤاله .

فإن قيل : كيف قال تعالى هنا (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا) وقال فى سورة التحريم (ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) ؟

قلنا : حيث أنث أراد النفخ فى ذاتها ، وإن كان مبدأ النفخ من الفرج الذى هو مخرج الولد أوجيب درعها على اختلاف القولين ، لأنه فرجة ، وكل فرجة بين شيئين تسمى فرجا فى اللغة ، وهذا أبلغ فى الثناء عليها لأنها إذا منعت جيب درعها مما لايحل كانت لنفسها أمنع ، وحيث ذكر فظاهر .

فإن قيل : قوله تعالى (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لايرجعون) يدل على أنه يجب أن يرجعوا ، لأن كل ماحرم أن لايوجد وجب أن يوجد فكيف معنى الآية ؟

قلنا : معناه وواجب على أهل قرية عزمنا على إهلاكهم أو قدرنا

إهلاكهم أنهم لايرجعون على الكفر إلى الإيمان ، أو أنهم لا يرجعون بعد إهلاكهم إلى الدنيا ، فالحرام هنا بمعنى الواجب ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، ويؤيده قول الشاعر :

فَإِنَّ حَرَامًا لا أَرَى الدَّهرَ باكِيًا
عَلى شَجْوَةٍ إلاَّ بَكَيْتُ عَلى عَمْرِو

وقيل لفظ الحرام على ظاهره ، ولا زائدة ، والمعنى ماسبق ذكره ، والحرمة هنا بمعنى المنع كما فى قوله تعالى (وحرّمنا عليه المراضع من قبل) وقوله تعالى (إن الله حرمهما على الكافرين) .

فإن قيل : قوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) وقال فى موضع آخر (وإن منكم إلا واردها) وواردها ليكون قريبا منها لا بعيدا .

قلنا : معناه مبعدون عن ألمها وعذابها مع كونهم واردىها ، أو معناه مبعدون عنها بعد ورودها بالإنجاء المذكور بعد الورود ، فلا تنافى بينهما .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) مع أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن رحمة للكافرين الذين ماتوا على كفرهم بل نقمة لأنه لولا إرساله إليهم لما عذبوا بكفرهم لقوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

قلنا : بل كان رحمة للكافرين أيضا من حيث أن عذاب الاستئصال أخر عنهم بسببه . الثانى : أنه كان رحمة عامة من حيث أنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه ، ومن لم يتبعه فهو الذى قصر فى حق نفسه وضيع نصيبه من الرحمة ؛ ومثله صلى الله عليه وسلم كمثل عين ماء عذبة فجرها الله تعالى ، فسقى ناس زروعهم ومواشيهم منها فأفلحوا ، وفرط ناس فى السقى منها فضيعوا ، فالعين فى نفسها نعمة من الله تعالى للفريقين ورحمة ، وإن قصر البعض وفرطوا . الثالث : أن المراد بالرحمة الرحيم ؛ وهو صلى الله عليه وسلم

كان رحيا للفريقين؛ ألا ترى أنهم لما شجوه يوم أحد وكسروا رباعيته حتى خر مغشيا عليه ، فلما أفاق قال : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ؟

فإن قيل : كيف قال تعالى (وإن أدرى أقريب أم بعيد ماتوعدون) مع إخباره تعالى إياهم بقرب الساعة بقوله تعالى (أتى أمر الله) وقوله تعالى (اقتربت الساعة) ونحوهما ؟

قلنا : معناه ما أدرى أن العذاب الذى توعدونه وتهددون به ينزل بكم عاجلا أو آجلا ، وليس المراد به قيام الساعة . ويرد على هذا الجواب أنه قريب على كل تقدير ، لأنه إن كان قبل قيام الساعة فظاهر ، وإن كان بعد قيام الساعة فهو كالمتصل بها لسرعة زمن الحساب ، فيكون قريبا أيضا .

فإن قيل : إذا كان المؤمنون يعتقدون أن الله تعالى لايحكم إلا بالحق ، فما فائدة الأمر والإخبار المتعلق بهما بقوله تعالى (قال رب احكم بالحق) ؟

قلنا : ليس المراد بالحق هنا ماهو نقيض الباطل ، بل المراد به ماوعده الله تعالى إياه من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ، ووعده لايكون إلا حقا ، فكأنه قال : عجل لنا وعدك وأنجزه ، ونظيره قوله تعالى (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) . الثانى : أنه تأكيد لما فى التصريح بالصفة من المبالغة وإن كانت لازمة للفعل ، ونظيره فى عكسه من صفة الذم قوله تعالى (ويقتلون الأنبياء بغير حق) .

سورة الحج

فإن قيل : قوله تعالى (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) يدل على أن المعدوم شيء .

قلنا : لانسلم ، ومستنده أن المراد أنها إذا وجدت كانت شيئا لا أنها شيء الآن ، ويؤيد هذا قوله تعالى (عظيم) مع أن المعدوم لايوصف بالعظم .

فإن قيل : كيف قال تعالى أوّلا (يوم ترونها) بلفظ الجمع ، ثم أفرد فقال (وترى الناس) ؟

قلنا : لأن الرؤية أولا علقت بالزلزلة ، فجعل الناس كلهم رائين لها وعلقت آخرا بكون الناس على هيئة السكارى ، فلابد أن يجعل كل واحد منهم رائيا لسائرهم .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى حق النضر بن الحارث (ومن الناس من يجادل فى الله) إلى أن قال (ليضل عن سبيل الله) وهو ما كان غرضه فى جداله الضلال عن سبيل الله ، فكيف علل جداله به وما كان أيضا مهتديا حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال ؟

قلنا : هذه لام العاقبة والصيرورة ، وقد سبق ذكرها غير مرة ، ولما كان الهدى معرضا له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال بالباطل جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال .

فإن قيل : النفع والضر منفيان عن الأصنام مثبتان لها فى الآيتين ، فكيف التوفيق بينهما ؟

قلنا : معناه يعبد من دون الله مالا يضره بنفسه إن لم يعبده ، ولا ينفعه بنفسه إن عبده ، ثم قال : يعبد من يضره الله بسبب عبادته ، وإنما أضاف الضرر إليه لحصوله بسببه .

فإن قيل : قوله تعالى (أقرب من نفعه) يدل على أن فى عبادة الصنم نفعا وإن كان فيها ضرر ؟

قلنا : معناه أقرب من النفع المنسوب إليه فى زعمهم ، وهو اعتقادهم أنه يشفع لهم .

فإن قيل : كيف قال تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) أى بسبب كونهم مظلومين ، ولم يبين ما الشيء الذى أذن لهم فيه ؟

قلنا : تقديره : أذن للذين يقاتلون فى القتال ، وإنما حذف لدلالة يقاتلون عليه ولدلالة الحال أيضا ، فإن كفار مكة كانوا يؤذون المؤمنين بأنواع الأذى وهم يستأذنون النبى صلى الله عليه وسلم فى قتالهم ، فيقول : لم يؤذن لى فى ذلك ، حتى هاجر إلى المدينة فنزلت هذه الآية ، وهى أول آية نزلت فى الإذن فى القتال ، فنسخت سبعين آية ناهية عن القتال ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما ؛ فكان المأذون فيه ظاهرا لكونه مترقبا منتظرا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (أذن للذين يقاتلون) مع أنهم ما كانوا يقاتلون قبل نزول هذه الآية ؟

قلنا : معناه أذن للذين يريدون أن يقاتلوا ، سماهم مقاتلين مجازا باعتبار مايئولون إليه كما فى النظائر ، وقرئ (للذين يقاتلون) بفتح التاء ، ولا إشكال على تلك القراءة .

فإن قيل : كيف صح الاستثناء فى قوله تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) ؟

قلنا : هو استثناء منقطع تقديره : لكن أخرجوا بقولهم ربنا الله . الثانى أنه بمنزلة قول الشاعر :

ولا عَيْبَ فِيهِمْ غَيرَ أنّ سُيُوفَهُمْ
بِهِنّ فُلُولٌ مِنْ قِراع الكَتائِبِ

تقديره : إن كان فيهم عيب فهو هذا ، وليس بعيب فلا يكون هذا فيهم عيبا .

فإن قيل : أى سنة على المؤمنين فى حفظ الصوامع والبيع والصلوات : أى الكنائس عن الهدم حتى امتن عليهم بذلك فى قوله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) الآية ؟

قلنا : المنة فى ذلك أن الصوامع والبيع والكنائس فى حرم المسلمين وحراستهم وحفظهم ، لأن أهلها ذمة للمسلمين . الثانى أن المراد به لهدمت صوامع وبيع فى زمن عيسى صلى الله عليه وسلم ، وصلوات : أى كنائس فى موسى صلى الله عليه وسلم ، ومساجد فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، فالامتنان على أهل الأديان الثلاثة لا على المؤمنين خاصة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وكذب موسى) ولم يقل وقوم موسى ، كما قال الله تعالى فيما قبله ؟

قلنا : لأن موسى عليه السلام ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط . الثانى : أن يكون التنكير والإبهام للتفخيم والتعظيم كأنه قال تعالى بعدما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم : وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره .

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى (ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ؟

قلنا : فائدته المبالغة فى التأكيد كما فى قوله تعالى (ولا طائر يطير بجناحيه) وقوله تعالى (يقولون بألسنتهم) وما أشبه ذلك . الثانى : أن القلب هنا يستعمل بمعنى العقل ، ومنه قوله تعالى (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) أى عقل فى أحد القولين ، فكان التقييد احترازا على قول من زعم أن العقل فى الرأس .

فإن قيل : المغفرة إنما تكون لمن يعمل السيئات لا لمن يعمل الصالحات والحسنات ، فكيف قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة) ؟

قلنا : المراد بالعمل الصالح هنا الإخلاص فى الإيمان . قال الكلبى : كل موضع جاء فى القرآن (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فالمراد به الإخلاص فى الإيمان ، فيصير المعنى : فالذين آمنوا عن إخلاص تغفر لهم سيئاتهم .

فإن قيل : ماالفرق بين الرسول والنبى مع أن كليهما مرسل بدليل قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) ؛

قلنا : الفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من جمع له بين المعجزة وأنزل الكتاب عليه ، والنبي فقط من لم ينزل عليه كتاب ، وإنما أمر أن يدعو أمته إلى شريعة من قبله . وقيل الرسول من كانت له معجزة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والنبي من لم تكن له منهم معجزة ، وفى هذا نظر . وقيل الرسول من كان مبعوثا إلى أمة ، والنبي فقط من لم يكن مبعوثا إلى أحد مع كونه نبيا . والجواب عن الآية على هذا القول أن فيه إضمارا تقديره : وما أرسلنا من رسول ولا نبأنا من نبي ، أو ولا كان من نبي ، ونظيره قول الشاعر :

وَرَأَيتُ زَوْجَكِ فى الوَغَى مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمحا

أى ومتعلقا رمحا أو حاملا رمحا .

فإن قيل : أين المثل المضروب فى قوله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) والمذكور بعده وهو قوله تعالى (إن الذين تدعون من دون الله) إلى آخره ليس بمثل ، بل هو كلام مبتدأ مستقل بنفسه ؟

قلنا : الصفة والقصة الغريبة أو المستحسنة تسمى مثلا ، ومنه قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) فالمعنى يثبت بصفة ، وهى عجز الصنم عن خلق الذباب واستنقاذ ما يسلبه ، وقيل هو إشارة إلى قوله تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) وإنما أبهمه هنا لأنهم كانوا لا يصغون إلى سماع القرآن ، ولهذا قالوا (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) وكانوا يحبون الأمثال ، فذكر لفظ المثل استدراجا لهم إلى سماع القرآن والإصغاء إليه .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) مع أن قطع اليد التى تساوى خمسة آلاف درهم بسبب سرقة عشرة دراهم حرج فى الدين ؛ وكذا رجم المحصن بسبب الوطء مرة واحدة ، ووجوب صوم

شهرين متتابعين بسبب إفطار يوم أحد من رمضان بوطء ، والمخاطرة بالنفس والمال فى الحج والعمرة ، كل ذلك حرج بيّن ؟

قلنا : المراد بالدين كلمة التوحيد ، فإنها تكفر شرك سبعين سنة ، ولايتوقف تأثيرها على الإيمان والإخلاص سبعين سنة ، ولاعلى أن يكون الإثبات بها فى بيت الله تعالى أوفى زمان أومكان معين . وقيل المراد به أن كل مايقع فيه الإنسان من الذنوب والمعاصى يجد له مخرجا فى الشرع بتوبة أوكفارة أورخصة . وقيل المراد به فتح باب التوبة للمذنبين ، وفتح أبواب الرخص للمعذورين ، وشروع الكفارات والأروش والديات ، وقيل المراد به نفى الحرج الذى كان على بنى إسرائيل من الإصر والتشديد .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ملة أبيكم إبراهيم) وإبراهيم صلوات الله عليه لم يكن أبا للأمة كلها ؟

قلنا : هو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أبا لأمته ، لأن أمة الرسول بمنزلة أولاده من جهة العطف والشفقة ، هذا إن كان الخطاب لعامة المسلمين ، وإن كان للعرب خاصة فإبراهيم أبو العرب قاطبة .

فإن قيل : متى سمانا إبراهيم صلوات الله عليه المسلمين من قبل حتى قال الله تعالى (هو سماكم المسلمين من قبل) ؟

قلنا : وقت دعائه عند بناء الكعبة حيث قال (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) فكل من أسلم من هذه الأمة فهو ببركة دعوة إبراهيم عليه السلام ، وهذا السؤال سئلت عنه فى المنام وأجبت بهذا الجواب فى المنام إلهاما من الله سبحانه وتعالى .

سورة المؤمنون

فإن قيل : كيف قال تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم) وحفظ الفرج إنما يعدى بعن لابعلى ، يقال فلان يحفظ فرجه عن الحرام ، ولايقال على الحرام ؟

قلنا : « على » هنا بمعنى عن ، كما فى قول الشاعر :

إذا رَضِيَتْ علىَّ بَنُو قُشيرٍ لَعمرُ اللهِ أعْجبنِى رِضاها

الثانى : أنه متعلق بمحذوف تقديره : فلا يرسلونها إلا على أزواجهم .

فإن قيل : كيف قال تعالى (أو ماملكت أيمانهم) ولم يقل أو من ملكت أيمانهم ، مع أن المراد من يعقل ؟

قلنا : لأنه أراد من جنس العقلاء مايجرى مجرى غير العقلاء وهم الإناث .

فإن قيل : قوله تعالى (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ـ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) كيف خص الإخبار عن الموت الذى لم ينكره الكفار بلام التأكيد دون الإخبار عن البعث الذى أنكروه ، والظاهر يقتضى عكس ذلك ؟

قلنا : لما كان العطف يقتضى الاشتراك فى الحكم استغنى به عن إعادة لفظ اللام الموجبة لزيادة التأكيد ، فإنها ثابتة معنى بقضية العطف ، ولا يلزم على هذا عدم إعادة أن لأنها الأصل فى التأكيد ، ولأنها أقوى والحاجة إليها أمس .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وشجرة تخرج من طورسيناء) والمراد بها شجرة الزيتون : وهى تخرج من الجبل الذى يسمى طورسيناء ومن غيره ؟

قلنا : قيل إن أصل شجرة الزيتون من طورسيناء : ثم نقلت إلى سائر

المواضع . وقيل إنما أضيفت إلى ذلك الجبل لأن خروجها فى غيره من المواضع .

فإن قيل : قوله تعالى (أم يقولون به جنة) خبر عن كفار مكة ، فكيف قال تعالى (بل جاءهم بالحق) أى بالتوحيد أو بالقرآن (وأكثرهم للحق كارهون) ولم يقل وكلهم ، مع أن كلهم كانوا للتوحيد كارهين بدليل قولهم (به جنة) ؟

قلنا : كان فيهم من ترك الإيمان به أنفة واستنكافا من توبيخ قومه لئلا يقولوا ترك دين آبائه لا كراهة للحق ، كما يحكى عن أبى طالب وغيره .

فإن قيل : كيف جمع (فقال رب ارجعون) ولم يقل ارجعنى ، والمخاطب واحد وهو الله تعالى ؟

قلنا : هو جمع للتفخيم والتعظيم كقوله تعالى (إنا نحن نحيي الموتى) وأشباهه .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فلاأنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون) وقال فى موضع آخر (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) ؟

قلنا : يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة ، ففيه أحوال مختلفة ، فنى بعضها يتساءلون ، وفى بعضها لاينطقون لشدة الهول والفزع .

سورة النور

فإن قيل : كيف قدمت المرأة فى آية حد الزنا ، وقدم الرجل فى حد السرقة ؟

قلنا : لأن الزنا إنما يتولد من شهوة الوقاع ، وشهوة المرأة أقوى وأكثر ، والسرقة إنما تتولد من الجسارة والجراءة والقوة ، وذلك فى الرجل أكثر وأقوى .

فإن قيل: كيف قدم الرجل فى قوله تعالى (الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لاينكحها إلا زان أومشرك) ؟

قلنا : لأن الآية الأولى سبقت لعقوبتهما على ماجنيا ، والمرأة هى الأصل فى تلك الجناية لما ذكرنا . والآية الثانية سبقت لذكر النكاح ، والرجل هو الأصل فيه عرفا ، لأنه هوالراغب والخاطب والبادئ بالطلب ، بخلاف الزنا فإن الأمر فيه بالعكس غالبا .

فإن قيل: كيف قال تعالى (الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة) أى لايتزوج (والزانية لاينكحها إلا زان أومشرك) ونحن نرى الزانى ينكح العفيفة والمسلمة ، والزانية ينكحها العفيف والمسلم ؟

قلنا : قال عكرمة نزلت هذه الآية فى بغايا موسرات كنّ بمكة ، وكانت بيوتهن تسمى فى الجاهلية المرضية ، وكان لايدخل عليهن إلا زان من أهل القبلة ، أو مشرك من أهل الأوثان ، فأراد جماعة من فقراء المهاجرين أن ينكحوهن فنزلت هذه الآية زجرا لهم عن ذلك .

فإن قيل : ما فائدة دخول « من » فى غض البصر دون حفظ الفرج فى قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) ؟

قلنا : فائدته الدلالة على أن أمر النظر أوسع من أمر الفرج ، ولهذا يحل النظر فى ذوات المحارم والإماء المستعرضات إلى عدة من أعضائهن ، ولا يحل شىء من فروجهن .

فإن قيل : ماحكمة ترك الله ذكر الأعمام والأخوال فى قوله تعالى (ولايبدين زينتهن) يعنى الزينة الخفية (إلا لبعولتهن) الآية ،وهم من المحارم وحكمهم حكم من استثنى فى الآية ؟

قلنا : سئل الشعبى عن ذلك فقال : لئلا يصفها العم عند ابنه وهو ليس بمحرم لها ، وكذا الخال فيفضى إلى الفتنة ، والمعنى فيه أن كل من استثنى يشترك هو وابنه فى المحرمية ، إلا العم والخال، وهذا من الدلالة البليغة على

وجوب الاحتياط فى ستزهن . ولقائل أن يقول : هذه المفسدة محتملة فى آباء بعولتهن ؛ لاحتمال أن يذكرها أبو البعل عند ابنه الآخر ، وهو ليس بمحرم لها ، وأبو البعل أيضا نقض على قولهم إن كل من استثنى يشترك هو وابنه فى المحرمية .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) مع أن إكراههن على الزنا حرام فى كل حال ؟

قلنا . لأن سبب نزول الآية أن الجاهلية كانوا يكرهون إماءهم على الزنا مع إرادتهن التحصن ، فورد النهى على السبب وإن لم يكن شرطا فيه . الثانى أنه تعالى إنما شرط إرادة التحصن لأن الإكراه لايتصور إلا عند إرادة التحصن ، لأن الأمة إذا لم ترد التحصن فإنها تزنى بالطبع ، لأن إرادتها الجماع مستمرة فى جميع الأحوال طبعا ، ولابد له من أحد الطريقين . الثالث أن «إن» بمعنى إذ كما فى قوله تعالى (وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين) وقوله تعالى (وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) . الرابع : أن فى الكلام تقديما وتأخيرا تقديره : وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن أردن تحصنا ويبقى قوله (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) مطلقا غير معلق .

فإن قيل : كيف مثل الله تعالى نوره : أى معرفته وهداه فى قلب المؤمن بنور المصباح فى قوله تعالى (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) ولم يمثله بنور الشمس ، مع أن نورها أتم وأكمل ؟

قلنا : المراد تمثيل النور فى القلب ، والقلب فى الصدر ، والصدر فى البدن بالمصباح : وهو الضوء أو الفتيلة فى الزجاجة ، والزجاجة فى الكوة التى لامنفذ لها ، وهذا التمثيل لايستقيم إلا فيما ذكر . الثانى : أن نور المعرفة له آلات يتوقف على اجتماعها كالذهن والفهم والعقل واليقظة وانشراح القلب وغير ذلك من الخصال الحميدة ، كما أن نور القنديل يتوقف على اجتماع

القنديل والزيت والفتيلة ، وغير ذلك . الثالث : أن نور الشمس يشرق متوجها إلى العالم السفلى لا إلى العالم العلوى ، ونور المعرفة يشرق متوجها إلى العالم العلوى كنور المصباح . الرابع : أن نور الشمس لايشرق إلا بالنهار ونور المعرفة يشرق بالليل والنهار كنور المصباح . الخامس : أن نور الشمس يعم جميع الخلائق ، ونور المعرفة لا يصل إليه إلا بعضهم كنور المصباح الموصوف .

فإن قيل : إنه تعالى لم يمثله بنور الشمس لما ذكرتم فكيف لم يمثله بنور الشمع مع أنه أتم وأكمل وأشرق من نور المصباح ؟

قلنا : إنما لم يمثله بنور الشمع لأن فى الشمع غشا لامحالة بخلاف الزيت الموصوف ، ولو مثله تعالى بنور الشمع لتطاول المنافق المغشوش إلى استحقاق نصيب فى المعرفة . الثانى : أنه تعالى إنما لم يمثله بنور الشمع لأنه مخصوص بالأغنياء ، بخلاف نور المعرفة فإنه فى الفقراء أغلب .

فإن قيل . التجارة تشمل الشراء والبيع ، فما فائدة عطف البيع عليها فى قوله تعالى (لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله) ؟

قلنا : التجارة هى الشراء والبيع الذى يكون صناعة للإنسان مقصودا به الربح ، وهو حرفة الشخص الذى يسمى تاجرا ، والبيع أعم من ذلك. وقيل المراد بالتجارة هنا مبادلة الآخرة بالدنيا كما فى قوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم) والمراد بالبيع مبادلة الدين بالدنيا كما فى قوله تعالى (فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) وقيل إنما عطف البيع على التجارة لأنه أراد بالتجارة الشراء إطلاقا لاسم الجنس على النوع . وقيل إنما عطف عليها للتخصيص والتمييز من حيث أنه أبلغ فى الإلهاء ، لأن البيع الرابح يعقبه حصول الربح ، بخلاف الشراء الرابح فإن الربح فيه مظنون مع كونه مترقبا منتظرا . وقيل التجارة مخصوصة بأهل الجلب بخلاف البيع .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء) وبعض الدواب ليس مخلوقا من الماء كآدم عليه السلام وناقة صالح وغيرهما ؟

قلنا : المراد بهذا الماء : الماء الذى هو أصل جميع المخلوقات ، وذلك أن الله تعالى خلق قبل خلق الإنسان جوهرة ونظر إليها نظر هيبة فاستحالت ماء ، فخلق من ذلك الماء جميع الموجودات ، وقد سبق مثل هذا السؤال فى قوله تعالى (وجعلنا من الماء كل شىء حى) .

فإن قيل : إذا كان الجواب هذا فما فائدة تخصيص الدابة بالذكر أوتخصيص الشىء الحى ؟

قلنا : إنما خص الدابة بالذكر لأن القدرة فيه أظهر وأعجب منها فى الجماد وغيره .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فمنهم من يمشى على بطنه) وقال تعالى (ومنهم من يمشى على أربع) وهى مما لايعقل ؟

قلنا : لما كان اسم الدابة يتناول المميز وغيره غلب المميز على غيره فأجرى عليه لفظه .

فإن قيل: كيف قال تعالى (من يمشى على بطنه) وذلك إنما يسمى زحفا مشيا ، ولا يسمى مشيا إلا ما كان بالقوائم ؟

قلنا : هو مجاز بطريق المشابهة ، كما يقال : مشي هذا الأمر ، وفلان لايتمشى له أمر ، وفلان ماشى الحال .

فإن قيل : كيف أمر الله تعالى بالاستئذان للأطفال الذين لم يبلغوا الحلم بقوله تعالى (والذين لم يبلغوا الحلم منكم) أى من الأحرار ؟

قلنا : هو فى المعنى أمر للآباء والأمهات بتأديب الأطفال وتهذيبهم لا للأطفال .

فإن قيل : كيف أباح تعالى للقواعد من النساء وهن العجائز التجرد من الثياب بحضرة الرجال بقوله تعالى (والقواعد من النساء) الآية .

قلنا : المراد بالثياب هنا الجلباب والرداء والقناع الذى فوق الخمار لاجميع الثياب ، وقوله تعالى (غير متبرجات بزينة) أى غير قاصدات بوضع الثياب الثياب الظاهرة إظهار زينتهن ومحاسنهن ، بل التخفيف ، ثم أعقبه بأن التعفف بترك الوضع خير لهن .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) مع أن انتفاء الحرج عن أكل الإنسان من بيته معلوم لاشك فيه ولا شبهة ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى (من بيوتكم) أى من بيوت أولادكم ، لأن ولد الرجل بعضه وحكمه حكم نفسه ، فلهذا عبر عنه به ، وفى الحديث «إن أطيب مايأكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه » ويؤيد ذلك أنه ذكر بيوت جميع الأقارب ولم يذكر بيوت الأولاد . وقيل المراد بقوله تعالى (أن تأكلوا من بيوتكم) أى من مال أولادكم وأزواجكم الذين هم فى بيوتكم ومن جملة عيالكم . وقيل المراد بقوله تعالى (من بيوتكم) البيوت التى يسكنونها وهم فيها عيال لغيرهم ، كبيت ولد الرجل وزوجته وخادمه ونحو ذلك .

فإن قيل : معنى السلام هو السلامة والأمن ، فإذا قال الرجل لغيره السلام عليك ؛ كان معناه سلمت منى وأمنت ، فما معنى قوله تعالى (فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم) ؟

قلنا : المراد به فإذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلكم وعيالكم . وقيل معناه إذا دخلتم المساجد أو بيوتا ليس فيها أحد فقولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، يعنى من ربنا .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) وإنما يقال خالف أمره ؟

قلنا : « عن » زائدة؛كذا قاله الأخفش . الثانى :أن فيه إضمارا تقديره: فليحذر الذين يخالفون الله تعالى ويعرضون عن أمره ، أو ضمن المخالفة معنى الإعراض فعدى تعديته .

سورة الفرقان

فإن قيل : الخلق هو التقدير ؛ ومنه قوله تعالى (وإذ تخلق من الطين) أى تقدر ، فما معنى قوله تعالى (وخلق كل شىء فقدره تقديرا) فكأنه تعالى قال : وقدر كل شىء فقدره تقديرا ؟

قلنا : الخلق من الله تعالى بمعنى الإيجاد والإحداث ، فمعناه : وأوجد كل شىء مقدرا مسوى مهيأ لما يصلح له ، لا زائدا على ماتقتضيه الحكمة والمصلحة ؛ ولا ناقصا عن ذلك . الثانى أن معناه : وقدر له مايقيمه ويصلحه ؛ أو قدر له رزقا وأجلا وأحوالا تجرى عليه .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف الجنة (والمتقين كانت لهم جزاء ومصيرا) وهى ماكانت بعد وإنما تكون كذلك بعد الحشر والنشر ؟

قلنا : إنما قال كانت لأن ماوعده الله تعالى فهو فى تحققه كأنه قد كان؛ أو معناه كانت فى علم الله مكتوبة فى اللوح المحفوظ أنها جزاؤهم ومصيرهم .

فإن قيل : ما فائدة تأخير الهوى فى قوله تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) والأصل اتخذ الهوى إلها كما تقول : اتخذ الصنم معبودا ؟

قلنا : هو من باب تقديم المفعول الثانى على الأول للعناية به ، كما تقول علمت منطلقا زيدا الفضل بعنايتك بانطلاقه .

فإن قيل : كيف قال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون) ؟

قلنا : قد مر مثل هذا السؤال وجوابه في قوله تعالى (بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) .

فإن قيل : كيف شبههم سبحانه وتعالى بالأنعام فى الضلال بقوله تعالى (إن هم إلا كالأنعام) مع أن الأنعام تعرف الله سبحانه وتعالى وتسبحه بدليل قوله تعالى (وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم) وقوله تعالى (يسبح لله مافى السموات وما فى الأرض) ؟

قلنا: المراد تشبيههم بالأنعام فى الضلال عن فهم الحق ومعرفة الله تعالى بواسطة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم . الثانى : أن المراد تشبيههم فى الضلال والعمى عن أمر الدين بالأنعام فى ضلالها وعماها عن أمر الدين .

فإن قيل : إن كانوا كالأنعام فى الضلال ؛ فكيف قال تعالى (بل هم أضل سبيلا) وإن كانوا أضل من الأنعام فكيف قال تعالى (إن هم إلا كالأنعام) وإن كانوا كالأنعام فى الضلال وأضل منها أيضا فكيف يجتمع الوصفان ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى (إن هم إلا كالأنعام) التشبيه فى أصل الضلال لامقداره . والثانى : بيان لمقداره . وقيل : المراد بالأول التشبيه فى المقدار أيضا ، ولكن المراد بالأول طائفة وبالثانى طائفة أخرى ، ووجه كونهم أضل من الأنعام أن الأنعام تنقاد لأربابها التى تعلفها وتتعهدها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يسىء إليها ، وتطلب ماينفعها وتجتنب مايضرها ، وهؤلاء لاينقادون لربهم ولايعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذى هو عدوهم ، ولايطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ، ولايتقون العذاب الذى هو أشد المضار والمهالك ، ولايهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والعذاب الروى[1] .

فإن قيل : قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا)

---

(١) انظر الكشاف ج (٢) ص ٤١٠ .

كيف ذكر الصفة والموصوف مؤنث ولم يؤنثها كما أنثها فى قوله تعالى (آية لهم الأرض الميتة) ؟

قلنا : إنما ذكرها نظرا إلى معنى البلدة وهو البلد والمكان لا إلى لفظها .

فإن قيل : قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا) فإنزاله موصوفا بالطهورية ، وتعليل ذلك بالإحياء والسقى يشعر بأن الطهورية شرط فى حصول تلك المصلحة ، كما تقول : حملنى الأمير على فرس سابق لأصيد عليه الوحش وليس كذلك .

قلنا : وصف الطهورية ذكر إكراما للأناسى الذين شربهم من جملة المصالح التى أنزل لها الماء ، وإنما ماللمنة والنعمة عليهم ، لا لكونه شرطا فى تحقق تلك المصالح والمنافع ، بخلاف النظير فإنه قصد بكونه سابقا الشرطية لأن صيد الوحش على الفرس لا يتم إلا بها .

فإن قيل : كيف خص تعالى الأنعام بذكر السقى دون غيرها من الحيوان الصامت ؟

قلنا : لأن الوحش والطير تبعد فى طلب الماء ولا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام . الثانى : أن الأنعام قنية الأناسى وعامة منافعهم متعلقة بها ، فكأن الأنعام يسقى الأنعام ، كالأنعام يسقى الأناسى ، فلذلك خصها بالذكر .

فإن قيل : كيف قدم تعالى إحياء الأرض وسقى الأنعام على سقى الأناسى ؟

قلنا : لأن حياة الأناسى بحياة أرضهم وأنعامهم فقدم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم . الثانى : أن سقى الأرض بماء المطر سابق فى الوجود على سقى الأناسى به .

فإن قيل : ما وجه صحة الاستثناء فى قوله تعالى (قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا) ؟

قلنا : هو استثناء منقطع تقديره : لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا فأنا أدله على ذلك وأهديه إليه . وقيل تقديره : لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بإنفاق ماله فى مرضاته فليفعل ذلك .

فإن قيل : كيف قال تعالى هنا (قل ما أسألكم عليه من أجر) أى أجرا ، لأن « من » لتأكيد النفى وعمومه . وقال فى آية أخرى (قل لا أسئلكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) فأثبت سؤال الأجر عليه ؟

قلنا : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله) رواه مقاتل والضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما . والصحيح الذى عليه المحققون أنها غير منسوخة ، بل هو استثناء من غير الجنس تقديره : لكن أذكركم المودة فى القربى .

فإن قيل : كيف قال تعالى (واجعلنا للمتقين إماما) ولم يقل أئمة ؟

قلنا : مراعاة لفواصل الآيات ، وقيل تقديره : واجعل كل واحد منا إماما .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ويلقون فيها تحية وسلاما) وهما بمعنى واحد ويؤيده قوله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) وقوله صلى الله عليه وسلم «تحية أهل الجنة فى الجنة سلام » .

قلنا : قال مقاتل المراد بالتحية سلام بعضهم على بعض أو سلام الملائكة عليهم ، والمراد بالسلام أن الله تعالى سلمهم مما يخافون وسلم إليهم أمرهم .

وقيل : التحية من الملائكة أو من أهل الجنة ، والسلام من الله تعالى عليهم لقوله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) . وقيل التحية من الله تعالى لهم بالهدايا والتحف والسلام بالقول . وقيل : التحية الدعاء بالتعمير ، والسلام الدعاء بالسلامة فمعناه أنهم يلقون ذلك من الملائكة أو بعضهم من بعض ، أو يلقون ذلك من الله تعالى ، فيعطون البقاء والخلود مع السلامة من كل آفة .

سورة الشعراء

فإن قيل : كيف قال تعالى (فظلت أعناقهم لها خاضعين) والأعناق لاتخضع ؟

قلنا : قيل أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين فاقتحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الكلام على أصله ، كقولهم ذهبت أهل اليمامة ، كان الأهل غير المذكور ، ومثله قول الشاعر :

رَأتْ مرَّ السِّنِينَ أخذْنَ مِنِي َ كما أخذَ السِّرَارُ مِنَ الهِلاَلِ

أو لما وصفت الأعناق بالخضوع الذى هو من صفات العقلاء جمعت جمع العقلاء كقوله تعالى (والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) . وقيل الأعناق رؤساء الناس ومقدموهم شبهوا بالأعناق ، كما قيل لهم الرءوس والنواصى والوجوه وقيل الأعناق الجماعات ؛ يقال : جاءنى عنق من الناس أى جماعة وقيل إن ذلك لمراعاة الفواصل .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فقولا إنا رسول رب العالمين) فأفرد ، وقال تعالى فى موضع آخر (إنا رسولا ربك) فثنى ؟

قلنا : الرسول يكون بمعنى المرسل فيلزم تثنيته ، ويكون بمعنى الرسالة التى هى المصدر فيوصف به الواحد والاثنان والجماعة كما يوصف بسائر المصادر ، والدليل على أنه يكون بمعنى الرسالة قول الشاعر :

لقَدْ كذَبَ الوَاشون مابحْتُ عندَهُمْ بِسِرٍّ ولا أرْسلْتهُم بِرَسُولِ

أى برسالة . الثانى : أنهما لاتفاقهما فى الأخوة والشريعة والرسالة جعلا كنفس واحدة . الثالث : أن تقديره : إن كل واحد منا رسول رب العالمين . الرابع : أن موسى عليه السلام كان الأصل ، وهارون عليه السلام كان تبعا له ، فأفرد إشارة إلى ذلك .

فإن قيل : كيف قال موسى عليه السلام معتذرا عن قتل القبطى (فعلتها إذا وأنا من الضالين) والنبى لايكون ضالا ؟

قلنا : أراد به وأنا من الجاهلين ، وكذا قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : وقيل أراد من المخطئين ، لأنه ماتعمد قتله كما يقال : ضل عن الطريق إذا عدل عن الصواب إلى الخطأ . وقيل من الناسين كقوله تعالى (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) .

فإن قيل : كيف قال فرعون (مارب العالمين) ولم يقل ومن رب العالمين ؟

قلنا : هو كان أعمى القلب عن معرفة الله سبحانه وتعالى منكرا لوجوده. فكيف ينكر عليه العدول عن «من» إلى «ما» . الثانى أن «ما» لاتختص بغير المميز بل تطلق عليهما ، قال الله تعالى (فانكحوا ماطاب لكم من النساء) ، وقال الله تعالى (ولا أنتم عابدون ما أعبد) .

فإن قيل : كيف قال موسى عليه السلام (رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) علق كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما بشرط كون فرعون وقومه موقنين ، وهذا الشرط منتف والربوبية ثابتة فكيف صح التعليق ؟

قلنا : معناه إن كنتم موقنين أن السموات والأرض وما بينهما موجودات وهذا الشرط موجود . الثانى : أن « إن » نافية لاشرطية .

فإن قيل : كيف ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب ذكر المخلوقات كلها ، فما فائدة قوله تعالى بعد ذلك (ربكم ورب آبائكم الأولين) ، وقوله (رب المشرق والمغرب) ؟

قلنا : أعاد ذكرها تخصيصا لها وتمييزا ، لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع والنقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ولادته إلى وقت وفاته ، ثم خص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحدهما وغروبها فى الآخر على تقدير

مستقيم فى فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما يستدل به على وجود الصانع ، ولظهوره انتقل خليل الله صلوات الله عليه وسلامه إلى الاحتجاج به عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة (فبهت الذى كفر) .

فإن قيل : كيف قال أولا (إن كنتم موقنين) وقال آخرا (إن كنتم تعقلون) ؟

قلنا : لاينهم ولاطفهم أوّلا ، فلما رأى عنادهم وإصرارهم خاشنهم وعارض قوله (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) بقوله (إن كنتم تعقلون) .

فإن قيل : قوله (لأسجننك) أخصر من قوله (لأجعلنك من المسجونين) فكيف عدل عنه ؟

قلنا : كان مراده تعريف العهد ، فكأنه قال لأجعلنك واحدا ممن عرفت حالهم فى سجنى ، وكان إذا سجن إنسانا طرحه فى هوة عميقة جدا مظلمة وحده لايبصر فيها ولايسمع ، فكان ذلك أوجع من القتل وأشد نكاية .

فإن قيل : قصة موسى عليه السلام مع فرعون والسحرة ذكرت فى سورة الأعراف ثم فى سورة طه ثم فى هذه السورة ، فما فائدة تكرارها وتكرار غيرها من القصص ؟

قلنا : فائدته تأكيد التحدى وإظهار الإعجاز ، كما أن المبارز إذا خرج من الصف قال « نزال نزال هل من مبارز هل من مبارز » مكررا ذلك ، يقال : ولهذا سمى الله تعالى القرآن مثانى لأنه ثنيت فيه الأخبار والقصص الثانى : أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كان بعضهم حاضرين وبعضهم غائبين فى الغزوات ، وكانوا يحبون حضور مهبط الوحى ، وكانوا إذا رجعوا من غزوهم أكرمهم الله تعالى فى بعض الأوقات بإعادة الوحى تشريفا لهم وتفضيلا .

فإن قيل: كيف كرر الله تعالى ذكر قصة موسى عليه السلام أكثر من قصص غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟

قلنا: لأن أحواله كانت أشبه بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم من أحوال غيره منهم في إقامته الحجج وإظهاره المعجزات لأهل مصر وإصرارهم على تكذيبه والجفاء عليه كما كان حال النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل مكة.

فإن قيل: كيف قال تعالى (فلما تراءى الجمعان) والترائي تفاعل من الرؤية، فيقتضي وجود رؤية كل جمع الجمع الآخر والمنقول أنهم لم ير بعضهم بعضا، فإن الله تعالى أرسل غيما أبيض فحال بين العسكرين حتى منع رؤية بعضهم بعضا؟

قلنا: الترائي يستعمل بمعنى التداني والتقابل أيضا، كما قال صلى الله عليه وسلم «المؤمن والكافر لايتراءيان» أي لايتدانيان، ويقال: دورنا تتراءى: أي تتقارب وتتقابل.

فإن قيل: كيف قال (وإذا مرضت) ولم يقل وإذا أمرضني، كما قال قبله (خلقني ويهدين)؟

قلنا: لأنه كان في معرض الثناء على الله تعالى وتعديد نعمه، فأضاف إليه الخير المحض حفظا للأدب، وإن كان الكل مضافا إليه، ونظيره قول الخضر عليه السلام (فأردت أن أعيبها) وقوله (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما)

فإن قيل: هذا الجواب يبطل بقوله (والذي يميتني) وبقول الخضر (فأردنا أن يبدلهما).

قلنا: إنما أضاف الموت إلى الله تعالى لأنه سبب لقائه إياه وانتقاله إلى دار كرامته، فكان نعمة من هذا الوجه. وقيل: إنما أضاف المرض إلى نفسه، لأن أكثر الأمراض تحدث بتفريط الإنسان في مطاعمه ومشاربه.

فإن قيل : كيف قال تعالى (يوم لاينفع مال ولا بنون) والمال الذى أنفق فى طاعة الله تعالى وسبيله ينفع ، والولد الصالح ينفع ، والولد الذى مات صغيرا يشفع ، وشواهد ذلك كثيرة من الكتاب والسنة خصوصا قوله صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم ينقطع عمله إلا من ثلاث الحديث » ؟

قلنا : المراد بالآية أنهما لاينفعان غير المؤمن ، فإنه هو الذى يأتى بقلب سليم من الكفر ، أو المراد بهما مال لم ينفق فى طاعة الله تعالى وولد بالغ غير صالح .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين) أى قربت ، والجنة لا تنقل من مكانها ولا تحول ؟

قلنا : فيه قلب معناه : وأزلفت المتقون إلى الجنة ، كما يقول الحجاج إذا دنوا إلى مكة قربت مكة منا . وقيل معناه : أنها كانت محجوبة عنهم ، فلما رفعت الحجب بينهم وبينها كان ذلك تقريبا لها .

فإن قيل : كيف جمع الشافع ووحد الصديق فى قوله (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) .

قلنا : لكثرة الشفعاء فى العادة وقلة الصديق ، ولهذا روى أن بعض الحكماء سئل عن الصديق ؟ فقال : هو اسم لامعنى له ، أراد بذلك عزة وجوده ، ويجوز أن يراد بالصديق الجمع كالعدو .

فإن قيل : كيف قرن بين الأنعام والبنين فى قوله (أمدكم بأنعام وبنين) ؟

قلنا : لأن الأنعام كانت من أعز أموالهم عندهم ، وكان بنوهم هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها ، فلهذا قرن بينهما .

فإن قيل : قوله تعالى (أوعظت أولم تعظ) أخصر من قوله (أم لم تكن من الواعظين) فكيف عدل عنه ؟

قلنا : مرادهم سواء علينا أفعلت هذا الفعل أم لم تكن من أهله أصلا ، وهذا أبلغ فى قلة اعتدادهم بوعظه من قولهم أو لم تعظ :

فإن قيل : قوله تعالى (فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب) كيف أخذهم العذاب بعد ماندموا على جنايتهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « الندم توبة » ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : ندموا حين رأو العذاب ، وذلك ليس وقت التوبة كما قال الله تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات) الآية . وقيل كان ندمهم ندم خوف من العذاب العاجل لاندم توبة فلذلك لم ينفعهم .

فإن قيل : كيف طلب لوط عليه السلام تنجيته من اللواطة بقوله (رب نجنى وأهلى مما يعملون) واللواطة كبيرة ، والأنبياء معصومون من الكبائر ؟

قلنا : مراده رب نجنى وأهلى من عقوبة عملهم أومن شؤمه ، والدليل على ذلك ضمه أهله إليه فى الدعاء ، واستثناء الله تعالى امرأته من قبول الدعوة .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى قصة شعيب عليه السلام (إذ قال لهم شعيب) ولم يقل أخوهم ، كما قال تعالى فى حق غيره هنا ، وكما قال فى حقه فى موضع آخر ؟

قلنا : لأنه هنا ذكر مع أصحاب الأيكة وهو لم يكن منهم ، وإنما كان من نسل مدين ، كذا قال مقاتل . وفى الحديث أن شعيبا عليه السلام أخامدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة . وقال ابن جرير الطبرى : أهل بمدين هم أصحاب الأيكة ، فعلى هذا يكون حذف الأخ تخفيفا .

فإن قيل : ماالفرق بين حذف الواو فى قصة صالح عليه السلام وإثباتها فى قصة شعيب فى قولهم (ماأنت إلا بشر مثلنا ـ وماأنت إلا بشر مثلنا) ؟

قلنا : الفرق بينهما أنه عند إثبات الواو المقصود معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم التسخير والبشرية ، وعند حذف الواو المقصود معنى واحد

مناف لها وهو كونه مسخرا ثم قرروا التسخير بالبشرية ، كذا أجاب الزمخشرى رحمه الله .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف الكهنة والمتنبئة كشق وسطيح ومسيلمة (وأكثرهم كاذبون) بعد ماقضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك أثيم ، والأفاك الكذاب ، والأثيم الفاجر ، ويلزم من هذا أن يكون كلهم كذابين ؟

قلنا : الضمير فى قوله (وأكثرهم) عائد إلى الشياطين لا إلى كل أفاك .

سورة النمل

فإن قيل : مافائدة تنكير الكتاب فى قوله تعالى (وكتاب مبين) ؟

قلنا : فائدته التفخيم والتعظيم كقوله تعالى (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) .

فإن قيل : العطف يقتضى المغايرة ، فكيف عطف الكتاب المبين على القرآن والمراد به القرآن ؟

قلنا : قيل إن المراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ ، فعلى هذا لا إشكال وعلى القول الآخر فنقول العطف يقتضى المغايرة مطلقا إما لفظا وإما معنى بدليل قول الشاعر : * فألفى قولها كذبا ومينا *

وقولهم : جاءنى الفقيه والظريف ، والمغايرة لفظا ثابتة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (إن الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم) وقال تعالى فى موضع آخر (وزين لهم الشيطان أعمالهم) .

قلنا : تزيين الله تعالى لهم الأعمال بخلقه الشهوة والهوى وتركيبها فيهم ، وتزيين الشيطان بالوسوسة والإغواء والغرور والتمنية ، فصحت الإضافتان .

فإن قيل : كيف قال هنا (سآتيكم) وقال فى سورة طه (لعلى آتيكم) وأحدهما قطع والآخر ترج والقصة واحدة ؟

قلنا : قد يقول الراجى إذا قوى رجاؤه سأفعل كذا ، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (أن بورك من فى النار) مع أنه لم يكن فى النار أحد ، بل لم يكن المرئى نارا ، وإنما كان نورا فى قول الجمهور ، وقيل كان نارا ثم انقلب نورا ؟

قلنا : قال ابن عباس والحسن رضى الله عنهما : معناه قدس من ناداه من النار وهو الله عزّ وجلّ ، لا على معنى أن الله تعالى يحل فى شىء ، بل على معنى أنه أسمعه النداء من النار فى زعمه . الثانى : أن من زائدة ؛ والتقدير بورك فى النار وفيمن حولها ، وهو موسى عليه السلام والملائكة . الثالث : أن معناه بورك من فى طلب النار ؛ وهو موسى عليه السلام .

فإن قيل : إنما يقال بارك الله على كذا ، ولا يقال بارك الله كذا ؟

قلنا : قال الفراء : العرب تقول باركه الله وبارك فيه وبارك عليه بمعنى واحد ، ومنه قوله تعالى (وباركنا عليه وعلى إسحاق) ولفظ التحيات : وبارك على محمد وعلى آل محمد .

فإن قيل : ما وجه صحة الاستثناء فى قوله تعالى (إنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم) الآية ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها أنه استثناء منقطع بمعنى لكن . الثانى : أنه استثناء متصل ، كذا قاله الحسن وقتادة ومقاتل رحمهم الله ، ومعناه : إلا من ظلم منهم بارتكاب الصغيرة كآدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف وموسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم ، فإنه يخاف مما فعل مع علمه أنى غفور رحيم ، فيكون تقدير الكلام : إلا من ظلم منهم فإنه يخاف فمن ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم ؛ ولهذا قال بعضهم : إنه

هنا وقفا على قوله (إلا من ظلم) وابتداء الكلام الثانى محذوف كما قدرنا . الثالث : أن « إلا » بمعنى ولا كما فى قوله تعالى (لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلوا منهم) أى ولا الذين ظلموا منهم . الرابع : أن تقديره : أنى لايخاف لدى المرسلون ولاغير المرسلين (إلا من ظلم) الآية .

فإن قيل : كيف قال سليمان عليه السلام (علمنا منطق الطير وأوتينا) بنون العظمة وهو من كلام المتكبرين ؟

قلنا : لم يرد به نون العظمة ، وإنما أراد به نون الجمع وعنى نفسه وأباه . الثانى : أنه كان ملكا مع كونه نبيا فراعى سياسة الملك وتكلم بكلام الملوك .

فإن قيل : كيف حل له تعذيب الهدهد حتى قال (لأعذبنه عذابا شديدا) ؟

قلنا : لعل ذلك أبيح له خاصة كما خص بفهم منطق الطير وتسخيره له وغير ذلك .

فإن قيل : كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان عليه السلام حتى قال ولها عرش عظيم ؟

قلنا : يجوز أنه استصغر حالها بالنسبة إلى حال سليمان ، فاستعظم لها ذلك العرش . الثانى : أنه يجوز أن لايكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته فى كل شيء كما يكون لبعض الأمراء شيء لايكون للملك مثله .

فإن قيل : كيف قال الهدهد (وأتيت من كل شيء) مع قول سليمان صلوات الله وسلامه عليه (وأوتينا من كل شيء) فكأنه سوى بينهما ؟

قلنا : بينهما فرق ؛ وهو أن الهدهد أراد به ، وأوتيت من كل شيء من أسباب الدنيا ؛ لأنه عطف على الملك ، وسليمان أراد به وأوتينا من كل شيء من أسباب الدين والدنيا ويؤيد ذلك عطفه على المعجزة وهى منطق الطير .

فإن قيل : كيف سوّى الهدهد بين عرشها وعرش الله تعالى فى الوصف بالعظم حتى قال (ولها عرش عظيم) وقال (رب العرش العظيم) ؟

قلنا : بين الوصفين بون عظيم لأنه وصف عرشها بالعظم بالنسبة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك ، ووصف عرش الله تعالى بالعظم بالنسبة إلى ماخلق من السموات والأرض وما بينهما .

فإن قيل : قوله تعالى (فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) إذا تولى عنهم ، فكيف يعلم جوابهم ؟

قلنا : معناه ثم تول عنهم مستترا من حيث لايرونك فانظر ماذا يرجعون. الثانى : أن فيه تقديما وتأخيرا تقديره : فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم .

فإن قيل : كيف استجاز سليمان عليه السلام تقديم اسمه فى الكتاب على اسم الله تعالى حتى كتب فيه (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) .

قلنا : لأنه عرف أنها لاتعرف الله تعالى وتعرف سليمان ، فخاف أن تستخفّ باسم الله تعالى إذا كان أول مايقع نظرها عليه ، فجعل اسمه وقاية لاسم الله تعالى .

وقيل : إن اسم سليمان كان على عنوانه ، واسم الله تعالى كان فى أول طيه .

فإن قيل : كيف يجوز أن يكون آصف وهو كاتب سليمان عليه السلام ووزيره وليس بنبي يقدر على ما لا يقدر عليه النبي ، وهو إحضار عرش بلقيس فى طرفة عين؟

قلنا : يجوز أن يخص غير الرسول بكرامة لايشاركه فيها الرسول ، كما خصت مريم بأنها كانت ترزق من فاكهة الجنة وزكريا لم يرزق منها ، وكما أن سليمان صلوات الله عليه خرج مع قومه يستسقون فرأى نملة مستلقية على

ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء تستسقى ، فقال لقومه : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم ، ولم يلزم من ذلك فضلها على سليمان . وقد نقل أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد الخروج إلى الغزوات قال لفقراء المهاجرين والأنصار : ادعوا لنا بالنصرة ، فإن الله تعالى ينصرنا بدعائكم ، ولم يكونوا أفضل منه صلى الله عليه وسلم ، مع أن كرامة التابع من جملة كرامات المتبوع . قالوا : والعلم الذى كان عنده هو اسم الله الأعظم ، فدعا به فأجيب فى الحال ، وهو عند أكثر العلماء كما قال البندنيجى اسم الله ثم قيل هو ياحى ياقيوم ، وقيل ياذا الجلال والإكرام ، وقيل ياألله يارحمن ، وقيل ياإلهنا وإله كل شىء إلهـا واحدا لاإله إلا أنت ، فمن أخلص النية ودعا بهذه الكلمات مع استجماع شرائط الدعاء المعروفة فإنه يجاب لامحالة .

فإن قيل : كيف قالت (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وهى إنما أسلمت بعده على يده لامعه ، لأنه كان مسلما قبلها ؟

قلنا : إنما عدلت عن تلك العبارة إلى هذه لأنها كانت ملكة ، فلم ترأن تذكر عبارة تدل على أنها صارت مولاة له بإسلامها على يده وإن كان الواقع كذلك .

فإن قيل : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا مافعلوا ، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه ؟

قلنا : كأنهم اعتقدوا أنهم إذا جمعوا بين البيانين ثم قالوا : (ماشهدنا مهلك أهله) يعنون ماشهدناه وحده كانوا صادقين ، لأنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله .

فإن قيل : كيف قال تعالى (قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) ونحن نعلم الجنة والنار وأحوال القيامة وكلها غيب ؟

قلنا : معناه لايعلم الغيب بلا دليل إلا الله أو بلا معلم إلا الله ، أوجميع الغيب إلا الله . وقيل معناه : لايعلم ضمائر السموات والأرض إلا الله .

فإن قيل : قوله تعالى (بل ادارك علمهم فى الآخرة) أو ادرك على اختلاف القراءتين ، هل مرجع الضمير فيه وفيما قبله واحد أم لا ؟ وكيف مطابقة الإضراب لما قبله ، ومطابقته لما بعده من الإضرابين ؟ وكيف وصفهم بنفى الشعور ثم بكمال العلم ثم بالشك ثم بالعمى ؟

قلنا : مرجع الضمير فى قوله تعالى (بل ادارك علمهم) هو الكفار فقط ، وفيما قبله جميع من فى السموات والأرض ، وقوله تعالى (بل ادارك) معناه بل تتابع وتلاحق واجتمع كقوله تعالى (حتى إذا اداركوا فيها جميعا) وأصله تدارك ، فأدغم التاء فى الدال ، وقوله تعالى (بل ادرك) معناه بل كمل وانتهى . قال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد ماجهلوه فى الدنيا علموه فى الآخرة . وقال السعدى : يريد اجتمع علمهم يوم القيامة فلم يشكوا ولم يختلفوا . وقال مقاتل : يريد علموا فى الآخرة ما شكوا فيه وعموا عنه فى الدنيا ، وقوله تعالى (بل هم فى شك منها) معناه بل هم اليوم فى شك من الساعة (بل هم منها عمون) جمع عم وهو أعمى القلب . ومطابقة الإضراب الأول لما قبله أن الذين لايشعرون وقت البعث لما كانوا فريقين: فريق منهم لايعلمون وقت البعث مع علمهم أنه يوجد لامحالة وهم المؤمنون، وفريق منهم لايعلمون وقته لإنكارهم أصل وجوده أفرد الفريق الثانى بالذكر بقوله تعالى (بل ادارك علمهم فى الآخرة) تأكيدا لنفى علمهم فى الدنيا ، كأنه تعالى قال : بل فريق منهم لايعلمون شيئا من أمر البعث فى الدنيا أصلا ، ثم أضرب عن الإخبار بتتابع علمهم وتلاحقه بحقيقة البعث فى الآخرة إلى الإخبار عن شكهم فى الدنيا فى أمر البعث والساعة مع قيام الأدلة الشرعية على وجودها لامحالة ، وأما وصفهم بنفى الشعور ثم بكمال العلم ثم بالشك ثم بالعمى فلا تناقض فيه ، لاختلاف الأزمنة ، أو لاختلاف متعلقات تلك الأمور الأربعة ، وهى الشعور والعلم والشك والعمى .

فإن قيل : قضاء الله تعالى وحكمه واحد فما معنى قوله (إن ربك

يقضى بينهم بحكمه) وهو بمنزلة قوله تعالى (إن ربك يقضى بينهم) بقضائه أو يحكم بينهم بحكمه ؟

قلنا معناه بما يحكم به وهو عدله المعروف المألوف ، لأنه لايقضى إلا بالحق وبالعدل ، فسمى المحكوم به حكما . وقيل معناه بحكمته ، ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه جمع حكمة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا) ولم يراع المقابلة بقوله تعالى (والنهار مبصرا) فيه ؟

قلنا : راعى المقابلة المعنوية دون اللفظية ، لأن معنى مبصرا ليبصروا فيه ، وقد سبق مايشبه هذا فى قوله تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) .

فإن قيل : كيف قال تعالى (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) مع أن فى ذلك علامات على وحدانية الله تعالى لجميع العقلاء ؟

قلنا : إنما خصهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون بها دون غيرهم .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ويوم ينفخ فى الصور ففزع) ولم يقل فيفزع وهو أظهر مناسبة ؟

قلنا : أراد بذلك الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لامحالة ، لأن الفعل الماضى يدل على الثبوت والتحقق قطعا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وكل أتوه داخرين) أى صاغرين أذلاء بعد البعث ، مع أن النبيين والصديقين والشهداء يأتونه عزيزين مكرمين ؟

قلنا : المراد به صغار العبودية والرق وذلهما لاذل الذنوب والمعاصى ، وذلك يعم الخلق كلهم ، ونظيره قوله تعالى (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا) .

سورة القصص

فإن قيل : مافائدة وحى الله تعالى إلى أم موسى عليه السلام بإرضاعه وهى ترضعه طبعا سواء أمرت بذلك أم لا ؟

قلنا : أمرها بإرضاعه ليألف لبنها فلا يقبل ثدى غيرها بعد وقوعه فى يد فرعون ، فلو لم يأمرها بإرضاعه ربما كانت تسترضع له مرضعة فيفوت ذلك المقصود .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولاتخافى) والشرط الواحد إذا تعلق به جزاءان صدق مع كل واحد منهما وحده ، فيئول هذا إلى صدق قوله : فإذا خفت عليه فلا تخافى ، وأنه يشبه التناقض .

قلنا : معناه فإذا خفت عليه من القتل فألقيه فى اليم ولا تخافى عليه من الغرق ، ولا تناقض بينهما .

فإن قيل : ما الفرق بين الخوف والحزن حتى عطف أحدهما على الآخر فى قوله تعالى (ولا تخافى ولا تحزنى) ؟

قلنا : الخوف غم يصيب الإنسان لأمر يتوقعه فى المستقبل ، والحزن غم يصيبه لأمر قد وقع ومضى .

فإن قيل : كيف جعل موسى عليه السلام قتله القبطى الكافر من عمل الشيطان ، وسمى نفسه ظالما واستغفر منه ؟

قلنا : إنما جعله من عمل الشيطان لأنه قتله قبل أن يؤذن له فى قتله ، فكان ذلك ذنبا يستغفر منه مثله . قال ابن جريج : ليس لنبى أن يقتل مالم يؤمر .

فإن قيل : إن موسى عليه السلام ماسقى لابنتى شعيب عليه السلام طلبا للأجر ، فكيف أجاب دعوتها لما قالت (إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا) ؟

قلنا : يجوز أن يكون قد أجاب دعوتها ودعوة أبيها لوجه الله تعالى على سبيل البر والمعروف ابتداء لاعلى سبيل الإجزاء وإن سمته هى إجزاء ، ويؤيد هذا ماروى أنه لما قدم إليه الطعام امتنع وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهبا ، ولا نأخذ على المعروف أجرا حتى قال له شعيب عليه السلام : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا .

فإن قيل: كيف قال له شعيب عليه السلام : (إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين) ومثل هذا النكاح لايصح لجهالة المنكوح ، والنبى عليه السلام لاينكح نكاحا فاسدا ولا يَعِدُ به ؟

قلنا : إنما كان ذلك وعدا بنكاح معينة عند الواعد وإن كانت مجهولة عند الموعود ومثله جائز ، ويكون التعيين عند إنجاز الوعد كما وقع منه .

فإن قيل : كيف قال تعالى هنا (واضمم إليك جناحك من الرهب) فجعل الجناح هنا مضموما وقال فى سورة طه (واضمم يدك إلى جناحك) فجعل الجناح هناك مضموما إليه والقصة واحدة ؟

قلنا : المراد بالجناح المضموم هنا هو اليد اليمنى ، والمراد بالجناح المضموم إليه فى سورة طه مابين العضد إلى الإبط من اليد اليسرى فلا تناقض بينهما .

فإن قيل : ما معنى قوله تعالى (واضمم إليك جناحك من الرهب) ؟

قلنا : لما رهب من الحية أمره الله تعالى أن يضم إليه جناحه ليذهب عنه الفزع ، وإنما قال تعالى (من الرهب) لأنه جعل الرهب الذى أصابه علة وسببا لما أمر به من ضم الجناح . قال مجاهد : كل من فزع من شىء فضم جناحه إليه ذهب عنه الفزع .وقيل حقيقة ضم الجناح غير مرادة ، بل هو مجاز عن تسكين الروع وتثبيت الجأش. قال أبو على : لم يرد به الضم بين شيئين ، وإنما أمر بالعزم والجد فى الإتيان بما طلب منه ، ومثله قولهم

* اشْدُدْ حيَازِيمَكَ للموْ * تِ ، فليس فيه شد حقيقة . وقيل فى الآية تقديم وتأخير تقديره : ولى مدبرا من الرهب .

فإن قيل : أى فائدة فى تصديق هارون لموسى عليهما السلام حتى قال (فأرسله معى ردءا يصدقنى) ؟

قلنا : ليس مراده بقوله ردءا يصدقنى أن يقول له صدقت فى دعوى الرسالة فإن ذلك لا يفيده عند فرعون وقومه الذين كانوا لا يصدقونه مع وجود تلك الآية الباهرة والمعجزات الظاهرة ، بل مراده أن يلخص حججه بلسانه ، ويبسط القول فيها ببيانه ، ويجادل عنه بالحق ، فيكون ذلك سببا لتصديقه . ألا ترى إلى قوله (وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى) وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لما قلنا لا لقوله صدقت ، فإن سحبان وائل وباقلا فى ذلك سواء .

فإن قيل : قوله تعالى (وماكنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) أى أحكمنا إليه الوحى مغن عن قوله تعالى (وماكنت من الشاهدين) أى من الحاضرين عند ذلك ؟

قلنا : معناه وما كنت من الشاهدين قصته مع شعيب عليه السلام فاختلفت القضيتان .

فإن قيل : كيف قال تعالى : (إن الله لايهدى القوم الظالمين) وكم رأينا من الظالمين بالكفر والكبائر من قد هداه الله للإسلام والتوبة ؟

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى سورة المائدة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) وإنما يرى العذاب من كان ضالا لامهتديا :

قلنا : جواب لو محذوف تقديره ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون لما اتبعوهم أو لما رأوا العذاب .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى آخر آية الليل (بضياء أفلا تسمعون) وقال فى آخر آية النهار (بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) ؟

قلنا : السماع والإبصار المذكوران لاتعلق لهما بظلمة الليل ولا بضياء النهار ، فلذلك لم يقرن الإبصار بالضياء؛ وبيانه أن معنى الآيتين أفلا يسمعون القرآن سماع تأمل وتدبر فيستدلوا بما فيه من الحجج على توحيد الله تعالى، أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلالة .

فإن قيل : كيف وجه صحة الاستثناء فى قوله تعالى (إلا رحمة من ربك) ؟

قلنا : قال الفراء : هو استثناء منقطع تقديره رحمة من ربك : أى للرحمة .

سورة العنكبوت

فإن قيل : قال تعالى (وماهم بحاملين من خطاياهم من شىء) ثم قال: (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) ؟

قلنا : معناه وما الكافرون بحاملين شيئا من خطايا المؤمنين التى ضمنوا حملها ، وليحملن الكافرون أثقال أنفسهم وهى ذنوب ضلالهم ، وأثقالا مع أثقالهم وهى ذنوب إضلالهم غيرهم من الكفار ، لاخطايا المؤمنين التى نفى عنهم حملها ، وقد سبق نظير هذا فى قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فى سورة الأنعام وفى سورة بنى إسرائيل .

فإن قيل : مافائدة العدول عن قوله « تسعمائة وخمسين عاما » إلى قوله (ألف سنة إلا خمسين عاما) مع أن عادة أهل الحساب هو اللفظ الأول ؟

قلنا : لما كانت القصة مسوقة لتسلية النبى صلى الله عليه وسلم بذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته وكابده من طول مصابرتهم ، كان ذكر

أقصى العدد الذى لاعقد أكثر منه فى مراتب العدد أفخم وأعظم إلى الغرض المقصود ، وهو استطالة السامع مدة صبره . وفيه فائدة أخرى وهى نفى وهم إرادة المجاز بإطلاق لفظ التسعمائة والخمسين على أكثرها ، فإن هذا الوهم مع ذكر الألف والاستثناء منتف أو هو أبعد .

فإن قيل : كيف جاء المميز أولا بلفظ السنة والثانى بلفظ العام ؟

قلنا : لأن تكرار اللفظ الواحد مجتنب فى مذهب الفصحاء والبلغاء إلا أن يكون لغرض تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك .

فإن قيل : كيف نكر الرزق ثم عرفه فى قوله تعالى (إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق) ؟

قلنا : لأنه أراد أنهم لايستطيعون أن يرزقوكم شيئا من الرزق فابتغوا عند الله الرزق كله ، فإنه هو الرازق وحده لايرزق غيره .

فإن قيل : كيف أضمر اسمه تعالى فى قوله عز وجل (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) ثم أظهره فى قوله تعالى (ثم الله ينشىء النشأة الآخرة) وكان القياس كيف بدأ الله الخلق ثم ينشىء النشأة الآخرة ؟

قلنا : إنما عدل إلى ماذكر لتأكيد الإخبار عن الإعادة التى كانت هى المنكرة عندهم بالإفصاح باسمه تعالى فى ذكرها وجعله مبتدأ لزيادة الاهتمام بشأنها ؟

فإن قيل : كيف قال تعالى (وآتيناه أجره فى الدنيا فى معرض المدح أوفى معرض الامتنان عليه ، وأجر الدنيا فان منقطع ، بخلاف أجر الآخرة فإنه النعيم المقيم الباقى ، فكان الأولى بالذكر ؟

قلنا : المراد به : وآتيناه أجره فى الدنيا مضموما إلى أجره فى الآخرة من غير أن ينقص من أجر الآخرة شيئا . قال ابن جرير : وإليه الإشارة بقوله تعالى (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) يعنى له فى الآخرة جزاء الصالحين

وافيا كاملا ، وأجره فى الدنيا . قيل هو الثناء الحسن من الناس والمحبة من من أهل الأديان . وقيل هى البركة التى بارك الله فيه وفى ذريته .

فإن قيل : كيف قالوا (إنا مهلكوا أهل هذه القرية) يعنون مدينة قوم لوط عليه السلام ، ولم يقولوا تلك القرية ، مع أن مدينة قوم لوط كانت بعيدة عن موضع إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه غائبة عند وقت هذا الخطاب ؟

قلنا : إنما قالوا هذه القرية لأنها كانت قريبة حاضرة بالنسبة إليهم وإن كانت بعيدة بالنسبة إلى إبراهيم صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : كيف قالوا (أهل هذه القرية) ولم يقولوا أهل هذه القرى ؟ مع أن مدائن قوم لوط كانت خمسا فأهلكوا منها أربعا ؟

قلنا : إنما اقتصروا فى الذكر على قرية واحدة لأنها كانت أكبر وأقرب وهى سدوم مدينة لوط عليه السلام ، فجعلوا ماوراءها تبعا لها فى الذكر .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (وكانوا مستبصرين) أى ذوى بصائر ، يقال فلان مستبصر : إذا كان عاقلا لبيبا صحيح النظر ، ولو كانوا كذلك لما عدلوا عن طريق الهدى إلى طريق الضلال ؟

قلنا : معناه وكانوا مستبصرين فى أمور الدنيا ، وقيل معناه وكانوا عارفين الحق بوضوح الحجج والدلائل ولكنهم كانوا ينكرونه متابعة للهوى لقوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) وقيل معناه وكانوا مستبصرين لو نظروا نظر تدبر وتفكر .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) وكل أحد يعلم أن أضعف بيوت يتخذها الهوامّ بيت العنكبوت ؟

قلنا : معناه لو كانوا يعلمون أن اتخاذهم الأصنام أولياء من دون الله مثل اتخاذ العنكبوت بيتا لما اتخذوها .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم) وكل أهل الكتاب ظالمون لأنهم كافرون ، ولا ظلم أشد من الكفر ، ويؤيده قوله تعالى (والكافرون هم الظالمون) .

قلنا : المراد بالظلم هنا الامتناع عن قبول عقد الذمة وأداء الجزية أو نقض العهد بعد قبوله . الثانى : أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) الآية .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (ولا تخطه بيمينك) ؟

قلنا : فائدته تأكيدا لنفى ، كما يقال فى الإثبات للتأكيد : هذا الكتاب مما كتبه فلان بيده وبيمينه ، ورأيت فلانا بعينى ، وسمعت هذا الحديث بأذنى ونحو ذلك .

فإن قيل : كيف لم يؤكد سبحانه وتعالى فى التلاوة ولم يقل وماكنت تتلو من قبله من كتاب بلسانك ؟

قلنا : الأصل فى الكلام عدم الزيادة ، وكل ماجاء على الأصل لايحتاج إلى العلة إنما يحتاج إلى العلة ماجاء على خلاف الأصل .

فإن قيل : كيف قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) ومعلوم أن المجاهدة فى دين الله تعالى أو فى حق الله تعالى مع النفس الأمارة بالسوء أو مع الشيطان أو مع أعداء الدين ، كل ذلك إنما يكون بعد تقدم الهداية من الله تعالى ، فكيف جعل الهداية من ثمرات المجاهدة ؟

قلنا : معناه والذين جاهدوا فى طلب التعلم لنهدينهم سبلنا بمعرفة الأحكام وحقائقها . وقيل معناه لنهدينهم طريق الجنة . وقيل معناه والذين جاهدوا لتحصيل درجة لنهدينهم إلى درجة أخرى أعلى منها ، وحاصله لنزيدنهم هداية وتوفيقا للخيرات كقوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وقوله تعالى (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) وقال أبو سليمان الدارانى رحمة الله عليه : معناه والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى مالم يعلموا . وعن بعض

الحكماء : من عمل بما علم وفق لما لايعلم . وقيل إن الذى نرى من جهلنا بما لانعلم هو من تقصيرنا فيما نعلم .

سورة الروم

فإن قيل : كيف ذكر الضمير فى قوله تعالى (وهو أهون عليه) والمراد به الإعادة لسبق قوله (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) ؟

قلنا : معناه ورجعه أو ورده أهون عليه ، فأعاد الضمير على المعنى لا على اللفظ كما فى قوله تعالى (لنحيي به بلدة ميتا) أى بلدا أو مكانا .

فإن قيل : كيف أخرت الصلة فى قوله تعالى (وهو أهون عليه) وقدمت فى قوله تعالى (هو علىّ هين) ؟

قلنا : لأن هناك قصد الاختصاص وهو يحسن الكلام ، فقيل هو علىّ هين وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هِمٍّ وعاقر ، وأما هنا فلا معنى للاختصاص فجرى على أصله ، والأمر مبنى على ما يعقل الناس من أن الإعادة أسهل من الابتداء ، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وهو أهون عليه) والأفعال كلها بالنسبة إلى قدرة الله تعالى فى السهولة سواء ، وإنما تتفاوت فى السهولة والصعوبة بالنسبة إلى قدرتنا ؟

قلنا : معناه وهو هين عليه ، وقد جاء فى كلام العرب أفعل بمعنى اسم الفاعل من غير تفضيل ، ومنه قولهم فى الأذان الله أكبر ، أى الله كبير فى قول بعضهم ، وقال الفرزدق :

إنَّ الذِى سَمكَ السَّماءَ بَنى لَنا بَيْتًا دَعائمُهُ أعزُّ وأطْوَلُ

أى عزيزة طويلة ، وقال معن بن أوس المزنى :

لَعمْرُكَ ما أدرِى وإنى لأوْجلُ عَلى أيِّنا تَعْدُو المنيةُ أوَّلُ

أى وإنى لوجل . وقال آخر :

أصْبحتُ أمْنحُكَ الصُّدودَ وإنَّنى قسماً إليكَ مع الصُّدودِ لأمْيلُ

أى لمـائل ، وقال آخر :

تمنىَّ رجالٌ أنْ أموتَ وإنْ أمُتْ فتلكَ سبيلٌ لستُ فيها بأوحدِ

أى بواحد . الثانى : أن معناه ، وهو أهون عليه فى تقديركم وحكمكم ، لأنكم تزعمون وتعتقدون فيما بينكم أن الإعادة أهون من الابتداء ، كيف وأن الابتداء من ماء والإعادة من تراب ، وتركيب الصورة من التراب أهون عندكم . الثالث : أن الضمير فى قوله تعالى (وهو أهون عليه) راجع إلى المخلوق لا إلى الله تعالى ، معناه : أنه لاصعوبة على المخلوق فيه ولا إبطاء ، لأنه يعاد دفعة واحدة بقوله تعالى (كن فيكون) وفى الابتداء خلق نطفة ثم نقل إلى مضغة ثم إلى عظام ثم إلى كسوة اللحم . الرابع : أن الابتداء من قبيل التفضل الذى لامقتضى لوجوبه ، والإعادة من قبيل الواجب لأنها لابد منها لجزاء الأعمال ، وجزاؤها واجب بحكم وعده سبحانه وتعالى .

فإن قيل : مامعنى قوله (وما آتيتم من ربا) الآية على اختلاف القراءتين بالمد والقصر .

قلنا : قال الحسن رحمه الله : المراد به الربا المحرم والخطاب لدافعى الربا لا لآخذيه . معناه : وما أعطيتم أكلة الربا من زيادة لتربو وتزكو فى أموالهم فلاتزكو عند الله ولايبارك فيها ، ونظيره قوله تعالى (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) لافرق بينهما . وقال ابن عباس رضى الله عنهما والجمهور : المراد به أن يهب الرجل غيره هبة أو يهدى إليه هدية على قصد أن يعوضه أكثر منها ؛ وقالوا : وليس فى ذلك أجر ولاوزر ، وإنما سماه ربا لأنه مدفوع لاجتلاب الربا وهو الزيادة فكان سببا لها فسمى باسمها ، ومعنى قراءة المد ظاهر ، وأما قراءة القصر فمعناها : وما جئتم : أى وما فعلتم من إعطاء ربا كما تقول أتيت خطأ وأتيت صوابا : أى فعلت ، وقوله تعالى (فأولئك هم المضعفون)

أى ذو والأضعاف من الحسنات ، وهو التفات عن الخطاب إلى الغيبة .

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى (من قبله) بعد قوله تعالى (من قبل أن ينزل عليهم) ؟

قلنا : فائدته التأكيد كما فى قوله تعالى (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) وقيل الضمير لإرسال الرياح أو السحاب فلا تكرار .

فإن قيل : كيف قال تعالى (الله الذى خلقكم من ضعف) والضعف صفة الشىء الضعيف ، فكيف يخلق الإنسان من تلك الصفة مع علمنا أنه خلق من عين وهو الماء أو التراب لا من صفة .

قلنا : أطلق المصدر وهو الضعف ، وأراد به اسم الفاعل وهو الضعيف كقولهم رجل عدل : أى عادل ونحوه ؛ فمعناه من ضعيف وهو النطفة . وقيل معناه على ضعف ، فمن بمعنى على كما فى قوله تعالى (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) والمراد به ضعف جثة الطفل حال طفوليته .

فإن قيل : كيف قال تعالى (لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) وهم إنما لبثوا فى الأرض فى قبورهم ؟

قلنا : معناه لقد لبثتم فى قبوركم على مافى علم كتاب الله أو فى خبر كتاب الله . وقيل معناه فى قضاء الله . وقيل فيه تقديم وتأخير تقديره : وقال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله الذين علموه وفهموه ، وذلك كقوله تعالى (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) .

فإن قيل : كيف قال تعالى هنا (ولا هم يستعتبون) وقال فى موضع آخر (وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) فجعلهم مرة طالبين الإعتاب ومرة مطلوبا منهم الإعتاب ؟

قلنا : معنى قوله تعالى (ولا هم يستعتبون) أى ولا هم يقالون عثراتهم

بالرد إلى الدنيا ، ومعنى قوله تعالى (وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) أى وإن يستقيلوا فماهم من المقالين، هذا ملخص الجواب وحاصله، وقد أوضحنا معناه فى شرح غريب القرآن .

سورة لقمان

فإن قيل : كيف بجل الغناء بعد قوله (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) الآية ، وقد قال الواحدى فى تفسير وسيطه : أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث الغناء . وروى هو أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « والذى نفسى بيده مارفع رجل قط عقيرته يتغنى إلا ارتد فيه شيطانان يضربان بأرجلهما على ظهره وصدره حتى يسكت » وقال سعيد ابن جبير ومجاهد وابن مسعود رضى الله عنهم : لهو الحديث هو والله الغناء واشتراء المغنى والمغنية بالمال . وروى أيضا حديثا آخر عن النبى صلى الله عليه وسلم مسندا « أنه قال فى هذه الآية (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) اللعب والباطل كثير النفقة سمح فيه، لاتطيب نفسه بدرهم يتصدق به» وروى أيضا حديثا آخر مسندا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من ملأ سمعه من غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيين يوم القيامة . قيل : وما الروحانيون؟ قال قراء أهل الجنة » . قال أهل المعانى: ويدخل فى هذا كل من اختار اللهو واللعب والمزامير والمعازف على القرآن وإن كان اللفظ ورد بالاشتراء ، لأن هذا اللفظ يذكر فى الاستبدال والاختيار كثيرا . وقال قتادة رحمه الله : حسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق. هذا كله نقله الواحدى رحمه الله ، وكان من كبار السلف فى العلم والعمل . وقال غيره : قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة : المراد بلهو الحديث الغناء . وعن الحسن رحمه الله تعالى أنه كل ما ألهى عن الله تعالى . وفى معنى يشترى قولان : أحدهما أنه الشراء بالمال.

والثانى أنه الاختيار كمامر . وقيل الغناء منفدة للمال ، مفسدة للقلب ، مسخطة للرب .

قلنا : جوابه أنهم يؤولون هذه الآية ونظائرها وهذه الأحاديث ونظائرها فيصرفونها عن ظاهرها متابعة للهوى وميلا إلى الشهوات ، ولو نظروا بعقولهم فيما ينشأ عن جمعيات السماع فى زماننا هذا من المفاسد لعلموا حرمته بلا خلاف بين المسلمين ، فإن شروط إباحة السماع عند من أباحه لاتجتمع فى زماننا هذا على ماهو مسطور فى كتب المشايخ وأرباب الطريق ، ولو اشتغلنا بتفصيل مفاسده وعدد شروطه عند من أباحه لخرجنا عن مقصود كتابنا هذا .

فإن قيل : كيف وقع قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه) الآيتين فى أثناء وصية لقمان لابنه ، وما الجامع بينهما ؟

قلنا : هى جملة وقعت معترضة على سبيل الاستطراد تأكيدا لما فى وصية لقمان من النهى عن الشرك .

فإن قيل : قوله تعالى (حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين) كيف اعترض بين الوصية ومفعولها ؟

قلنا : لما وصى بالوالدين ذكر ماتكابده الأم خاصة وتعانيه من المشاق والمتاعب تخصيصا لها بتأكيد الوصية وتذكير تعظيم حقها بإفرادها بالذكر ، ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن قال له : من أبر ؟ قال أمك ثم أمك ثم أمك ، ثم قال بعد ذلك ثم أباك .

فإن قيل : كيف قال تعالى (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) فجمع الأصوات وأفرد صوت الحمير .

قلنا : ليس المراد ذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع ، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق وغيره له صوت ، وأنكر الأصوات من هذه الأجناس صوت هذا الجنس ، فوجب إفراده لئلا يظن أن الاجتماع شرط فى ذلك .

فإن قيل : قوله تعالى (ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام) يطابقه ومافى الأبحر من ماء مذاد فكيف عدل عنه إلى قوله (والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) ؟

قلنا : استغنى عن ذكر المداد بقوله يمده ، لأنه من قولك مد الدواة وأمدها : أى زادها مدادا ، فجعل البحر المحيط بمنزلة الدواة ، والأبحر السبعة مملوءة مدادا تصب فيه أبدا صبا لاينقطع ، فصار نظير ماذكرتم ، ونظيره قوله تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى) الآية .

فإن قيل : كيف قال (من شجرة) ولم يقل من شجر ؟

قلنا : لأنه أراد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لايبقى من جنس الشجر شجرة واحدة إلا وقد بريت أقلاما .

فإن قيل : الكلمات جمع قلة والمقصود التفخيم والتعظيم ، فكان جمع الكثرة وهو الكلم أشد مناسبة ؟

قلنا : جمع القلة هنا أبلغ فيما ذكرتم من المقصود ، لأن جمع القلة إذا لم يفن بتلك الأقلام وذلك المداد ، فكيف يفنى جمع الكثرة .

فإن قيل : فى قوله تعالى (إن الله عنده علم الساعة) الآية كيف أضاف فيها العلم إلى نفسه فى الأمور الثلاثة من الخمسة المغيبات ، ونفى العلم عن العباد فى الأمرين الآخرين ، مع أن الأمور الخمسة سواء فى اختصاص الله تعالى بعلمها وانتفاء علم العباد بها ؟

قلنا : إنما خص الأمور الثلاثة الأول بالإضافة إليه تعظيما لها وتفخيما لأنها أجل وأعظم ، وإنما خص الأمرين الآخرين بنفى علمهما عن العباد ، لأنهما من صفاتهم وأحوالهم ، فإذا انتفى ع‍ م علمهما كان انتفاء علم ماعداهما من الأمور الخمسة أولى .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) ولم

يقل بأى وقت تموت وكلاهما غير معلوم ، بل نفى العلم بالزمان أولى ، لأن من الناس من يدعى علمه وهم المنجمون ، بخلاف المكان فإن أحدا لايدعى علمه ؟

قلنا : إنما خص المكان بنفى علمه لوجهين : أحدهما أن الكون فى مكان دون مكان فى وسع الإنسان واختياره ، فيكون اعتقاده علم مكان الموت أقرب بخلاف الزمان . الثانى : أن للمكان تأثيرا فى جلب الصحة والسقم بخلاف الزمان ، أو تأثير المكان فى ذلك أكثر .

سورة السجدة

فإن قيل : كيف قال تعالى هنا (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) وقال تعالى فى سورة المعارج (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟)

قلنا: المراد بالأول مسافة عروج الملائكة من الأرض إلى السطح الأعلى من سماء الدنيا وذلك ألف سنة ، خمسمائة سنة مسافة مابين السماء والأرض وخمسمائة سنة مسافة سمك سماء الدنيا ، والمراد بالثانى مسافة عروج الملائكة من الأرض إلى العرش . الثانى : أن المراد به فى الآيتين يوم القيامة ، ومقداره ألف سنة من حساب أهل الدنيا لقوله تعالى (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ومعنى قوله تعالى (خمسين ألف سنة) أى لو تولى فيه حساب الخلق غير الله تعالى . الثالث : أنه كألف سنة فى حق عوام المؤمنين ، والخمسين ألف سنة فى حق الكافرين لشدة مايكابدون فيه من الأهوال والمحن ، وكساعة من أيام الدنيا فى حق خواص المؤمنين . ويؤيده ماروى أنه قيل « يارسول الله يوم مقداره خمسون ألف سنة ما أطوله ، فقال : والذى نفسى بيده ليخفف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » . وروى أن ابن عباس رضى الله عنهما سئل

عن هاتين الآيتين ؟ فقال: يومان ذكرهما الله تعالى فى كتابه ، وإنى أكره أن أقول فى كتاب الله بما لا أعلم .

فإن قيل : كيف قال تعالى(الذى أحسن كل شىء خلقه)أو (كل شىء خلقه) على اختلاف القراءتين ، ومقتضى القراءتين أن لايكون فى مخلوقات الله تعالى شىء قبيح والواقع خلافه ، ولو لم يكن إلا الشرور والمعاصى فإنها مخلوقة لله تعالى عند أهل السنة والجماعة مع أنها قبيحة ؟

قلنا : أحسن بمعنى أحكم وأتقن ، وهذا الجواب يعم القراءتين . الثانى : أن فيه إضمارا تقديره : أحسن إلى كل شىء خلقه . الثالث : أن أحسن بمعنى علم كما يقال فلان لايحسن شيئا : أى لايعلم شيئا . وقال على كرم الله وجهه : قيمة كل امرىء مايحسنه : أى مايعلمه ، فمعناه أنه علم خلق كل شىء ، أو علم كل شىء خلقه ولم يتعلمه من أحد ، وهذان الجوابان يخصان بقراءة فتح اللام .

فإن قيل : كيف قال تعالى هنا (من سلالة من ماء مهين) وقال فى موضع آخر (من سلالة من طين) .

قلنا : المذكور هنا صفة ذرية آدم ، والمذكور هناك صفة آدم عليه السلام يعلم ذلك من أول الآيتين فلا تنافى .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (ونفخ فيه من روحه) والله تعالى منزه عن الروح ؟

قلنا : معناه نفخ فيه من روح مضافة إلى الله بالخلق والإيجاد لا بوجه آخر .

فإن قيل : كيف قال تعالى هنا (قل يتوفاكم ملك الموت) وقال تعالى فى موضع آخر (توفته رسلنا) وقال تعالى فى موضع آخر (الله يتوفى الأنفس حين موتها) ؟

قلنا : الله تعالى هو المتوفى بخلق الموت وأمر الوسائط بنزع الروح ، والملائكة المتوفون أعوان ملك الموت ، وهم يجذبون الروح من الأظفار إلى الحلقوم ، وملك الموت يتناول الروح من الحلقوم ، فصحت الإضافات كلها .

فإن قيل : كيف قال تعالى (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا) الآية ، وليس المؤمنون منحصرين فيمن هو موصوف بهذه الصفة ولا هذه الصفة شرط فى تحقق الإيمـان ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى (ذكروا بها) أى وعظوا ، والمراد بالسجود الخشوع والخضوع والتواضع فى قبول الموعظة بآيات الله تعالى ، وهذه الصفة شرط فى تحقق الإيمـان . ونظيره قوله تعالى (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا) الآية . الثانى : أن معناه إنما يؤمن بآياتنا إيمـانا كاملا من اتصف بهذه الصفة ، وقيل المراد بالآيات فرائض الصلوات الخمس ، والمراد التذكير بها بالأذان والإقامة .

فإن قيل : قوله تعالى (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون) يدل على أن الفاسق لايكون مؤمنا ؟

قلنا : الفاسق هنا بمعنى الكافر بدليل قوله تعالى بعده (وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) والتقسيم يقتضى كون الفاسق المذكور هنا كافرا ، لا كون كل فاسق كافرا ، ونظيره قوله تعالى (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) وقوله تعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) ولم يلزم من ذلك أن كل مجرم كافر ، ولا أن كل مسىء كافر .

فإن قيل : ما فائدة العدول عن قوله تعالى (إنا منهم منتقمون) فى قوله تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) الآية ؟

قلنا: لما جعله أظلم الظلمة ثم توعد كل المجرمين بالانتقام منه دل على أن الأظلم يصيبه النصيب الأوفر من الانتقام ، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة .

فإن قيل : قوله تعالى (ويقولون متى هذا الفتح) سؤال عن وقت الفتح ، وهو يوم القضاء بين المؤمنين والكافرين ، يعنى يوم القيامة ، فكيف طابقه مابعده جوابا ؟

قلنا: لما كان سؤالهم سؤال تكذيب واستهزاء بيوم القيامة لاسؤال استفهام أجيبوا بالتهديد المطابق للتكذيب والاستهزاء لابيان حقيقة الوقت .

فإن قيل : على قول من فسر الفتح بفتح مكة أو بفتح يوم بدر ، كيف وجه الجواب عن قوله (قل يوم الفتح لاينفع الذين كفروا) الآية ، وقد نفع بعض الكفار إيمانهم فى ذينك اليومين وهم الطلقاء الذين آمنوا ؟

قلنا : المراد أن المقتولين منهم لاينفعهم إيمانهم فى حال القتل ، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق .

سورة الأحزاب

فإن قيل : كيف قال تعالى (ياأيها النبى) ولم يقل يامحمد كما قال تعالى ياموسى ، ياعيسى ، ياداود ونحوه ؟

قلنا: إنما عدل عن ندائه باسمه إلى ندائه بالنبي والرسول إجلالا له وتعظيما كما قال تعالى (ياأيها النبي لم تحرم - ياأيها الرسول بلغ) .

فإن قيل : لو كان ذلك كما ذكرتم لعدل عن اسمه إلى نعته فى الإخبار عنه كما عدل فى النداء فى قوله تعالى (محمد رسول الله) وقوله تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) .

قلنا : إنما عدل عن نعته فى هذين الموضعين لتعليم الناس أنه رسول الله

وتلقينهم أن يسموه بذلك ويدعوه به ، ولذلك ذكره بنعته لا باسمه فى غير هذين الموضعين من مواضع الإخبار ، كما ذكره فى النداء (لقد جاءكم رسول من أنفسكم - وقال الرسول يارب - لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة - والله ورسوله أحق أن يرضوه - النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم - إن الله وملائكته يصلون على النبى - ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى) ونظائره كثيرة .

فإن قيل : ما فائدة ذكر الجوف فى قوله تعالى (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) ؟

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى سورة الحج فى قوله تعالى (ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

فإن قيل : مامعنى قولهم . أنت علىّ كظهر أمى ؟

قلنا : أرادوا أن يقولوا أنت علىّ حرام كبطن أمى ، فكنوا عن البطن بالظهر لئلا يذكروا البطن الذى يقارب ذكره ذكر الفرج ، وإنما كنوا عن البطن بالظهر لوجهين : أحدهما أنه عمود البطن ، ويؤيده قول عمر رضى الله تعالى عنه : يجئ أحدهم على عمود بطنه : أى على ظهره . الثانى : أن إتيان المرأة من قبل ظهرها كان محرما عندهم ، وكانوا يعتقدون أنها إذا أتيت من قبل ظهرها جاء الولد أحول ، فكان المطلق فى الجاهلية إذا قصد تغليظ الطلاق قال أنت علىّ كظهر أمى .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (وأزواجه أمهاتهم) جعل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بمنزلة أمهات المؤمنين حكما : أى فى الحرمة والاحترام وماجعل النبى صلى الله عليه وسلم بمنزلة أبيهم حتى قال تعالى (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم) ؟

قلنا : أراد الله بقوله تبارك وتعالى (وأزواجه أمهاتهم) أن أمته يدعون أزواجه بأشرف الأسماء ، وأشرف أسماء النساء الأم وأشرف أسماء النبى صلى الله عليه وسلم رسول الله لا الأب . الثانى : أنه تعالى جعلهن أمهات

المؤمنين تحريما لهن إجلالا وتعظيما له صلى الله عايه وسلم كيلا يطمع أحد فى نكاحهن بعده ، فلو جعل النبى صلى الله عليه وسلم أبا للمؤمنين لكان أبا للمؤمنات أيضا ، فلم يجعل له نكاح امرأةمن المؤمنات بل يحرمن عليه ، وذلك ينافى إجلاله وتعظيمه ، وقد جعله أعظم من الأب فى القرب والحرمة بقوله تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فجعل صلى الله عليه وسلم أقرب إليهم من أنفسهم ، وكثير من الآباء يتبرأ من ابنه ويتبرأ منه ابنه أيضا ، وليس أحد يتبرأ من نفسه .

فإن قيل : كيف قدم النبى صلى الله عليه وسلم على نوح ومن بعده فى قوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) ؟

قلنا : لأن هذا العطف من باب عطف الخاص على العام الذى هو جزء منه لبيان التفضيل والتخصيص بذكر مشاهير الأنبياء وذراريهم ، فلما كان النبى صلى الله عليه وسلم أفضل هؤلاء المفضلين قدم عليهم ، وفى الميثاق المأخوذ قولان : أحدهما أنه تعالى أخذ منهم الميثاق يوم أخذ الميثاق بأن يصدق بعضهم بعضا . والثانى أخذ منهم الميثاق أن يوحدوا الله تعالى ويدعوا إلى توحيده ويصدق بعضهم بعضا .

فإن قيل : فكيف قدم نوح عليه السلام فى نظير هذه الآية وهى قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك) ؟

قلنا : لأن تلك الآية سيقت لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة ، كأنه قال : شرع لكم الدين الأصيل الذى بعث عليه نوح عليه السلام فى العهد القديم ، وبعث عليه محمد صلى الله عليه وسلم فى العهد الحديث ، وبعث عليه من توسطهما من الأنبياء المشاهير ، فكان تقديم نوح عليه السلام أشد مناسبة بالمقصود من سوق الآية .

فإن قيل : ما فائدة إعادة أخذ الميثاق فى قوله تعالى (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) ؟

قلنا : فائدته التأكيد ووصف الميثاق المذكور أولا بالجلالة والعظم استعاذة من وصف الأجرام به . وقيل إن المراد بالميثاق الغليظ اليمين بالله تعالى على الوفاء بما حملوا ، فلا إعادة لاختلاف الميثاقين .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف حال المؤمنين التى امتن عليهم فيها (وبلغت القلوب الحناجر) ولو بلغت القلوب الحناجر لماتوا ولم يبق للامتنان وجه ؟

قلنا : قال ابن قتيبة : معناه كادت القلوب تبلغ الحناجر من الخوف ، فهو مثل فى اضطراب القلوب ووجيبها . ورده ابن الأنبارى فقال : العرب لاتضمن كاد ولاتعرف معناه ما لم تنطق به . وقال الفراء : معناه أنهم جبنوا وجزعوا ، والجبان إذا اشتد خوفه انتفخت رئته فرفعت قلبه إلى حنجرته ، وهى جوف الحلقوم وأقصاه ، وكذلك إذا اشتد الغضب أو الغم ، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، ومن هنا قيل للجبان : انتفخ منخره .

فإن قيل : كيف علق الله تعالى عذاب المنافقين بمشيئته بقوله تعالى (ويعذب المنافقين إن شاء) وعذابهم متيقن مقطوع به لقوله تعالى (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) ؟

قلنا : إن شاء تعذيبهم بإماتتهم على النفاق . وقيل معناه إن شاء ذلك وقد شاءه .

فإن قيل : ماحقيقة قوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) ؟

قلنا : فيه وجهان . أحدهما أنه نفسه أسوة حسنة : أى قدوة ، والأسوة اسم للمتأسى به : أى المقتدى به ، كما تقول فى البيضة عشرون منا حديدا : أى هى فى نفسها هذا المقدار . الثانى : أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع ، وهى مواساته بنفسه أصحابه وصبره على الجهاد وثباته يوم أحد حين كسرت رباعيته وشج وجهه .

فإن قيل : كيف أظهر تعالى الاسمين مع تقدم ذكرهما فى قوله تعالى (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) ؟

قلنا : لئلا يكون الضمير الواحد عائدا على الله تعالى وغيره .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف بنى قريظة (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها) والله تعالى إنما ملكهم أرضهم بعد ماوطئوها وظهروا عليها ؟

قلنا : معناه ويورثكم بطريق وضع الماضى موضع المستقبل مبالغة فى تحقيق الموعود وتأكيده . الثانى : أن فيه إضمارا تقديره : وأرضالم تطئوها سيورثكم إياها ، يعنى أرض مكة ، وقيل أرض فارس والروم ، وقيل أرض خيبر ، وقيل كل أرض ظهر عليها المسلمون بعد ذلك إلى يوم القيامة. الثالث : أن معناه وأورثكم ذلك كله فى الأزل بكتابته لكم فى اللوح المحفوظ.

فإن قيل : كيف خص الله تعالى نساء النبى صلى الله عليه وسلم بتضعيف العقوبة على الذنب والمثوبة على الطاعة فى قوله تعالى (يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة) الآيتين ؟

قلنا : أما تضعيف العقوبة فلأنهن يشاهدن من الزواجر الرادعة عن الذنوب مالا يشاهد غيرهن . الثانى : أن فى معصيتهن أذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذنب من آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من ذنب غيره ، والمراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق ، كذا قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . وأما تضعيف المثوبة فلأنهن أشرف من سائر النساء بقربهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت الطاعة منهن أشرف كما كانت المعصية منهن أقبح ، ونظير ذلك الوزير والنواب فى طاعتهما للملك ومعصيتهما .

فإن قيل : كيف قال تعالى (يانساء النبى لستن كأحد من النساء) ولم يقل كواحدة من النساء ؟

قلنا : قد سبق نظير هذا مرة فى آخر سورة البقرة فى قوله تعالى ﴿لانفرق بين أحد من رسله﴾ .

فإن قيل : كيف أمر الله تعالى نساء النبى بالزكاة فى قوله تعالى (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة) ولم يملكن نصابا حولا كاملا ؟

قلنا : المراد بالزكاة هنا الصدقة النافلة ، والأمر أمر ندب .

فإن قيل : مالفرق بين المسلم والمؤمن حتى عطف أحدهما على الآخر فى قوله تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) مع أنهما متحدان شرعا ؟

قلنا : المراد بالمسلم الموحد بلسانه ، وبالمؤمن المصدق بقلبه .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) مع أنه كان أبا للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم عليهم السلام ؟

قلنا : قوله تعالى (من رجالكم) يخرجهم من حكم النفى من وجهين : أحدهما أنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال بل ماتوا صبيانا . والثانى : أنه أضاف الرجال إليهم ، وهم كانوا رجاله لا رجالهم .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وخاتم النبيين) وعيسى عليه السلام ينزل بعده وهو نبى ؟

قلنا : معنى كونه خاتم النبيين أنه لايتنبأ أحد بعده ، وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل ينزل عاملا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم مصليا إلى قبلته كأنه بعض أمته ؟

فإن قيل : قوله تعالى (هو الذى يصلى عليكم) معناه يرحمكم ويغفر لكم فما معنى قوله تعالى (وملائكته) والرحمة والمغفرة منهم محال ؟

قلنا : جعلوا لكونهم مستجابى الدعوة بالرحمة والمغفرة كأنهم فاعلو الرحمة والمغفرة ، ونظيره قولهم : حياك الله : أى أحياك وأبقاك ، وحيا

زيد عمرا : أى دعا له بأن يجيبه الله اتكالا منه على إجابة دعوته ، ومثله قوله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبى) .

فإن قيل : قد فهم من قوله تعالى (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله) أنه مأذون له فى الدعاء إلى الله تعالى ، فما فائدة قوله سبحانه (بإذنه) ؟

قلنا : معناه بتسهيله وتيسيره ، وقيل معناه بأمره لا أنك تدعوهم من تلقاء نفسك .

فإن قيل : كيف شبه الله تعالى النبى صلى الله عليه وسلم بالسراج دون الشمس ، والشمس أتم وأكمل فى قوله تعالى (وسراجا منيرا) ؟

قلنا : قيل إن المراد بالسراج هنا الشمس كما فى قوله تعالى (وجعلنا الشمس سراجا) وقيل إنما شبه بالسراج لأن السراج يتفرع ويتولد منه سرج لا تعد ولا تحصى بخلاف الشمس ، والنبى صلى الله عليه وسلم تفرع منه بواسطة إرشاده وهدايته جميع العلماء من عصره إلى يومنا هذا ، وهلم جرا إلى يوم القيامة ، وقيل إنما شبهه بالسراج لأنه بعثه فى زمان يشبه الليل بظلمات الكفر والجهل والضلال .

فإن قيل : كيف شبهه بالسراج دون الشمع ، والشمع أشرف ونوره أتم وأكمل ؟

قلنا : قد سبق الجواب عن مثل هذا فى قوله تعالى (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) .

فإن قيل : كيف خص تعالى المؤمنات بعدم وجوب العدة فى الطلاق قبل المسيس فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) الآية ، مع أن حكم الكتابية كذلك أيضا ؟

قلنا : هذا خرج مخرج الأغلب والأكثر لا تخصيص .

فإن قيل : كيف أفرد سبحانه العم وجمع العمات ، وأفرد الخال وجمع الخالات فى قوله تعالى (وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك) والمعهود فى كلام العرب مقابلة الجمع بالجمع ؟

قلنا : لأن العم اسم على وزن المصدر الذى هو الضم ونحوه ، وكذا الخال على وزن القال ونحوه ، فيستوى فيه المفرد والتثنية والجمع ، بخلاف العمة والخالة ، ونظيره قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم) .

فإن قيل : هذا الجواب منقوض بقوله تعالى فى سورة النور (أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت أخوالكم) ؟

قلنا : العم والخال ليسا مصدرين حقيقة بل على وزن المصدر فاعتبر هنا شبههما بالمصدر ، وهناك حقيقتهما عملا بالجهتين ، بخلاف السمع فإنه لما كان مصدرا حقيقة ماجاء قط فى الكتاب العزيز إلا مفردا .

فإن قيل : كيف ذكر الأقارب فى قوله تعالى (لاجناح عليهن فى آبائهن) الآية ، ولم يذكر العم والخال وحكمهما حكم من ذكر فى رفع الجناح ؟

قلنا : سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى سورة النور فى قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن) فالأولى أن تستتر المرأة عن عمها وخالها لئلا يصف محاسنها عند ابنه فيفضى إلى الفتنة .

فإن قيل : السادة والكبراء بمعنى واحد ، فكيف عطف أحدهما على الآخر فى قوله تعالى (إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) ؟

قلنا : هو من باب عطف اللفظ على اللفظ المغاير له مع اتحاد معناهما كقولهم : فلان عاقل لبيب ، وهذا حسن جميل ، وقول الشاعر :

* مَعَاذَ اللهِ مِنْ كَذِبٍ ومَيْنِ *

فإن قيل : المراد بالإنسان آدم عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى (وحملها

الإنسان) فكيف قال سبحانه (إنه كان ظلوما جهولا) وفعول من أوزان المبالغة فيقتضى تكرار الظلم والجهل منه وأنه منتف ؟

قلنا : لما كان عظيم القدر رفيع المحل كان ظلمه وجهله لنفسه أقبح وأفحش ، فقام عظم الوصف مقام الكثرة ، وقد سبق نظير هذا فى سورة آل عمران فى قوله تعالى (وأن الله ليس بظلام للعبيد) وقيل إنما سماه ظلوما جهولا لتعدى ضرر ظلمه وجهله إلى جميع الناس ، فإنهم أخرجوا من الجنة بواسطته وتسلط عليهم إبليس وجنوده .

سورة سبأ

فإن قيل : كيف قال تعالى (أولم يروا إلى مابين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) ولم يقل إلى مافوقهم وما تحتهم من السماء والأرض ؟

قلنا : مابين يدى الإنسان هو كل شىء يقع نظره عليه من غير أن يحوّل وجهه إليه ، وما خلفه هو كل شىء لايقع نظره عليه حتى يحول وجهه إليه فكان اللفظ المذكور أتم مما ذكر .

فإن قيل : هلا ذكر سبحانه الأيمان والشمائل هنا كما ذكرها فى قوله تعالى (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) ؟

قلنا : لأنه وجد هنا مايغنى عن ذكرها ، وهو لفظ العموم وذكر السماء والأرض ولا كذلك ثمة .

فإن قيل : كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التماثيل وهى التصاوير ؟

قلنا : قيل إن عمل الصور لم يكن محرما فى شريعته ، ويجوز أن يكون صور غير الحيوان كالأشجار ونحوها ، وذلك غير محرم فى شريعتنا أيضا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان) ولم يقل آيتان جنتان ، وكل جنة كانت آية : أى علامة على توحيد الله تعالى ؟

قلنا لما تماثلتا فى الدلالة واتحدت جهتهما فيها جعلهما آية واحدة ، ونظيره قوله تعالى (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) .

فإن قيل : كيف قال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله) أى الذين زعمتموهم آلهة من دون الله ، مع أن المشركين ما زعموا غير الله إلها دون الله ، بل مع الله على وجه الشركة ؟

قلنا : النص لايدل على زعمهم حصر الآلهة فى غير الله نصا بل يوهم ذلك ، ولو دل فنقول : فيه تقديم وتأخير تقديره : ادعوا الذين من دون الله زعمتم أنهم شركاء لله .

فإن قيل : ما معنى التشكيك فى قوله تعالى (وإنا وإياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ؟

قلنا : قيل إن « أو » هنا بمعنى الواو فى الموضعين ، فيصير المعنى : نحن على الهدى وأنتم فى الضلال . وقيل معناه : وإنا لضالون أو مهتدون وإنكم لكذلك ، وهو من التعريض بضلالهم كما يقول الرجل لصاحبه إذا أراد تكذيبه : والله إن أحدنا لكاذب ، ويعنى به صاحبه .

فإن قيل : كيف قالت الملائكة عليهم السلام فى حق المشركين (بل كانوا يعبدون الجن) ولم ينقل عن من المشركين أنه عبد الجن ؟

قلنا : معناه كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به من عبادتنا أكثرهم بهم مؤمنون : أى أكثر المشركين مصدقون بالشياطين فيما يخبرونهم به من الكذب أن الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك ؛ فالمراد بالجن الشياطين .

سورة فاطر

فإن قيل : قوله تعالى (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها) كيف جاء فتثير مضارعا دون ما قبله ومابعده ؟

قلنا : هو مضارع وضع موضع الماضى كما فى قوله تعالى (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه) .

فإن قيل . مامعنى قوله تعالى (ومايعمر من معمر) ؟

قلنا : معناه ومايعمر من أحد ، وإنما سماه معمرا بما هو سائر إليه .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) وكم من أمة كانت فى الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ولم يخل فيها نذير ؟

قلنا : إذا كان آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس وحين اندرست آ ثار نذارة عيسى بعث محمد عليهما الصلاة والسلام .

فإن قيل : كيف اكتفى سبحانه وتعالى بذكر النذير عن البشير فى آخر الآية بعد سبق ذكرهما فى أولها ؟

قلنا : لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لامحالة استغنى بذكر أحدهما عن الآخر بعد سبق ذكرهما .

فإن قيل : ما الفرق بين النصب واللغوب حتى عطف أحدهما على الآخر ؟

قلنا : النصب المشقة والكلفة ، واللغوب الفتور الحاصل بسبب النصب فهو نتيجة النصب ، كذا فرق بينهما الزمخشرى رحمه الله. ويرد على هذا أن يكون انتفاء الثانى معلوما من انتفاء الأول .

فإن قيل مافائدة قوله تعالى (ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا

نعمل) مع أنه يوهم أنهم يعملون صالحا آخر غير الصالح الذى عملوه ، وهم ما عملوا صالحا قط بل سيئا ؟

قلنا : هم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة ، كما قال تعالى (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) فمعناه غير الذى كنا نحسبه صالحا فنعمله .

سورة يس

فإن قيل : كيف قال تعالى أولا (إنا إليكم مرسلون) وقال سبحانه ثانيا (إنا إليكم لمرسلون) ؟

قلنا : لأن الأول ابتداء إخبار فلم يحتج إلى التأكيد باللام ، بخلاف الثانى فإنه جواب بعد الإنكار والتكذيب فاحتاج إلى التأكيد .

فإن قيل : كيف أضاف الفطر إلى نفسه بقوله (فطرنى) وأضاف البعث إليهم بقوله (وإليه ترجعون) مع علمه أن الله تعالى فطره وفطرهم وسوف يبعثه ويبعثهم فهلا قال فطرنا وإليه نرجع أو فطركم وإليه ترجعون ؟

قلنا : لأن الخلق والإيجاد نعمة من الله تعالى توجب الشكر والبعث بعد الموت وعيد وتهديد يوجب الزجر ، فكان إضافته النعمة إلى نفسه أظهر فى الشكر ، وإضافته البعث إليهم أبلغ فى الزجر .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ياحسرة على العباد) والتحسر على الله تعالى محال ؟

قلنا : هو تحسير للخلق ؛ معناه قولوا ياحسرتنا على أنفسنا لا تحسر من الله تعالى .

فإن قيل : كيف نفى الله سبحانه وتعالى الإدراك عن الشمس للقمر دون عكسه وهو : ولا القمر ينبغى له أن يدرك الشمس ؟

قلنا : لأن سير القمر أسرع ، فإنه يقطع فلكه فى شهر والشمس لا تقطع فلكها إلا فى سنة ، فكانت الشمس جديرة بأن توصف بنفى الإدراك لبطء سيرها ، والقمر خليقا بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره ، هذا سؤال

الزمخشرى رحمه الله وجوابه . ويرد عليه أن سرعة سير القمر يناسب أن ينفى الإدراك عنه ، لأنه إذا قيل لا القمر ينبغى له أن يدرك الشمس مع سرعة سيره علم بالطريق الأولى أن الشمس لاينبغى لها أن تدرك القمر مع بطء سيرها ، فأما إذا قيل لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر أمكن أن يقال إنما لم تدركه لبطء سيرها ، فأما القمر فيجوز أن يدركها لسرعة سيره .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (وآية لهم) أى لأهل مكة (أنا حملنا ذريتهم) أى ذريةأهل مكة أو ذرية قوم نوح عليه السلام(فى الفلك المشحون) والذرية اسم للأولاد والمحمول فى سفينة نوح عليه الصلاة والسلام آباء أهل مكة لا أولادهم ؟

قلنا : الذرية من أسماء الأضداد تطلق على الآباء والأولاد بدليل قوله تعالى (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض) وصف جميع المذكورين بكونهم ذرية وبعضهم آباء وبعضهم أبناء ، فمعناه حملنا آباء أهل مكة أو حملنا أبناءهم ، لأنهم كانوا فى ظهور آبائهم المحمولين .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) يعنون الوعد بالبعث والجزاء والوعد كان واقعا لامنتظرا ؟

قلنا : معناه متى إنجاز هذا الوعد وصدقه ، بحذف المضاف أو بإطلاق اسم الوعد على الموعود كضرب الأمير ونسج اليمن .

فإن قيل : قولهم (من بعثنا من مرقدنا) سؤال عن الباعث فكيف طابقه ما بعده جوابا ؟

قلنا : معناه بعثكم الرحمن الذى وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل إلا أنه جىء به على هذه الطريقة تبكيتا لهم وتوبيخا .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى صفة أهل الجنة (هم وأزواجهم

فى ظلال) والظل إنما يكون حيث تكون الشمس ، ولهذا لايقال لما فى الليل ظل والجنة لا يكون فيها شمس لقوله تعالى (لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا) ؟

قلنا : ظل أشجار الجنة من نور العرش لئلا تبهر أبصار أهل الجنة فإنه أعظم من نور الشمس ، وقيل من نور قناديل العرش .

فإن قيل : كيف سمى سبحانه وتعالى نطق اليد كلاما ونطق الرجل شهادة فى قوله (وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) ؟

قلنا : لأن اليد كانت مباشرة والرجل حاضرة ، وقول الحاضر على غيره شهادة ، وقول الفاعل على نفسه ليس بشهادة بل إقرار بما فعل ؛ قلت : وفى الجواب نظر .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وما علمناه الشعر) مع أنه صلى الله عليه وسلم قد روى عنه ما هو شعر ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم :

أنا النَّبِيّ لا كَذِبْ أنا ابنُ عَبْدِ المُطلبْ

وقوله صلى الله عليه وسلم :

هلْ أنْتِ إلاّ أصْبُعٌ دَمِيتِ وَفى سَبِيل اللهِ ما لَقِيتِ

قلنا : هذا ليس بشعر ، لأن الخليل لم يعد مشطور الرجز شعرا ، وقوله « هل أنت إلا أصبع دميت » من مشطور بحر الرجز كيف وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : دميت ولقيت بفتح الياء وسكون التاء وعلى هذا لا يكون شعرا ، وإنما الراوى حرفه فصار شعرا الثانى أن حد الشعر قول موزون مقفى مقصود به الشعر ، والقصد منتف فيما روى عنه صلى الله عليه وسلم ، فكان كما يتفق وجوده فى كل كلام منثور من الخطب والرسائل ومحاورات الناس ، ولايعده أحد شعرا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (مما عملت أيدينا أنعاما) والله تعالى منزه عن الجارحة ؟

قلنا : هو كناية عن الانفراد بخلق الأنعام والاستبداد به بغير شريك ، كما يقال فى الحب وغيره من أعمال القلب هذا مما عملته يداك ، ويقال لمن لا يد له يداك أو يديك ، وكذا قوله تعالى (لما خلقت بيدى) .

فإن قيل : كيف سمى قوله (من يحيي العظام وهى رميم) مثلا ليس بمثل ، وإنما هو استفهام إنكار ؟

قلنا : سماه مثلا لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل ، وهو إنكار الإنسان قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، مع أن العقل والنقل كلاهما يشهد بقدرة الله على ذلك .

سورة الصافات

فإن قيل : كيف جمع تعالى المشارق هنا وثناهما فى سورة الرحمن ، وكيف اقتصر هنا على ذكر المشارق وذكر ثمة المغربين أيضا وذكر المغارب مع المشارق ، مجموعين فى قوله تعالى (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) وذكرهما مفردين فى قوله تعالى (قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) ؟

قلنا : لأن القرآن نزل بلغة العرب على المعهود من أساليب كلامهم وفنونه ومن أساليب كلامهم وفنونه الإجمال والتفصيل والبسط والإيجاز ، فأجمل تارة بقوله تعالى (رب المشرقين ورب المغربين) أراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما على الإجمال وفصل تارة بقوله تعالى (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) أراد جمع مشارق السنة ومغاربها وهى تزيد على سبعمائة ، وبسط مرة بقوله تعالى (فلا أقسم برب المشارق والمغارب)وأوجز واختصر مرة بقوله تعالى (ورب المشارق)لدلالة المذكور وهى المشارق على المحذوف وهو المغارب ، وكانت المشارق أولى بالذكر لأنها أشرف إما لكون الشروق سابقا فى الوجود على الغروب ، أو لأن المشارق منبع الأنوار والأضواء .

فإن قيل : كيف خص سبحانه وتعالى سماء الدنيا بقوله تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) مع أن غير سماء الدنيا مزينة بالكواكب أيضا؟

قلنا : إنما خصها بالذكر لأنا نحن نرى سماء الدنيا لاغير .

فإن قيل : كيف وجه قراءة الضم فى قوله تعالى (بل عجبت) وهى قراءة على وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم واختيار الفراء ، والتعجب روعة تعترى الإنسان عند استعظام الشي ، والله تعالى لاتجوز عليه الروعة ؟

قلنا : أراد بالتعجب الاستعظام وهو جائز من الله تعالى كما استعظم كيد النساء ، وإنكار الكفار معجزات الأنبياء عليهم السلام . الثانى : أن معناه قل يامحمد بل عجبت ، وكان شريح يقرأ بالفتح ويقول : إن الله تعالى لايعجب من شيء وإنما يعجب من لايعلم ، فقال إبراهيم النخعى : إن شريحا كان يعجبه علمه وعبد الله أعلم منه . وكان يقرأ بالضم يريد عبد الله ابن مسعود . قال الزجاج : وإنكار هذه القراءة غلط ، لأن العجب من الله تعالى خلاف العجب من الآدميين ، ونظيره قوله تعالى (ومكروا ومكر الله) وقوله (سخر الله منهم) وما أشبهه ، وفى الذى وقع منه العجب قولان: أحدهما كفرهم بالقرآن . والثانى : إنكارهم البعث .

فإن قيل : كيف مدح سبحانه نوحا عليه السلام بقوله (إنه من عبادنا المؤمنين) مع أن مرتبة الرسل فوق مرتبة المؤمنين ؟

قلنا : إنما مدحه بذلك تنبيها لنا على جلالة محل الإيمان وشرفه ، وترغيبا فى تحصيله والثبات عليه والازدياد منه كما قال تعالى فى مدح إبراهيم عليه السلام (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فنظر نظرة فى النجوم) والنظر إنما يعدى بإلى ، قال الله تعالى (ولكن انظر إلى الجبل) وقال (فانظر إلى آثار رحمة الله) ؟

قلنا : « فى » هنا بمعنى إلى كما فى قوله تعالى (فردوا أيديهم فى أفواههم) الثانى : أن المراد به نظر الفكر لا نظر العين ، ونظر الفكر إنما يعدى بفى قال الله تعالى (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض) فصار المعنى ففكر فى علم النجوم أو فى حال النجوم .

فإن قيل : كيف استجاز إبراهيم عليه السلام أن يقول (إنى سقيم) ولم يكن سقيما ؟

قلنا : معناه سأسقم كما فى قوله تعالى (إنك ميت) فهو من معاريض الكلام قاله ليتخلف عنهم إذا خرجوا إلى عيدهم فيكيد أصنامهم : وقال ابن الأنبارى : أعلمه الله تعالى أنه يمتحنه بالسقم إذا طلع نجم كذا ، فلما رآه علم أنه سيسقم . وقيل معناه : إنى سقيم القلب عليكم إذا عبدتم الأصنام وتكهنتم بنجوم لاتضر ولا تنفع . وقيل إنه عرض له مرض وكان سقيما حقيقة . وقال الزمخشرى : قد جوز بعض الناس الكذب فى المكيدة فى الحرب والتقية وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين : قال : والصحيح أن الكذب حرام إلا إذا عرّض وورّى ، وإبراهيم صلوات الله عليه عرض بقوله وورى ، فإنه أراد أن من فى عنقه الموت سقيم ، كما قيل فى المثل « كفى بالسلامة داء » وقال لبيد :

ودعوتُ ربى بالسَّلامةِ جاهدًا ليُصِحَّنى فإذا السلامةُ داءُ

وروى أن رجلا مات فجأة فاجتمع عليه الناس وقالوا مات وهو صحيح فقال أعرابى : أصحيح من الموت فى عنقه ؟

فإن قيل : لم لايجوز النظر فى علم النجوم مع أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد نظر فيه وحكم منه ؟

قلنا : إذا كان المنجم كإبراهيم فى أن الله تعالى أراه ملكوت السموات والأرض أبيح له النظر فى علم النجوم والحكم منه .

فإن قيل : قوله تعالى (فراغ عليهم ضربا باليمين فأقبلوا إليه يزفون)

أى يسرعون ، يدل على أنهم عرفوا أنه هو الكاسر لها ، وقوله تعالى فى سورة الأنبياء (قالوا من فعل هذا بآلهتنا) وما بعده يدل على أنهم ما عرفوا أنه الكاسر لها ، فكيف التوفيق بينهما ؟

قلنا : يجوز أن يكون الذى عرفه وزفّ إليه بعضهم ، والذى جهله وسأل عنه بعض آخر ، ويجوز أن الكل جهلوه وسألوا عنه ، فلما عرفوا أنه الكاسر لها زفوا إليه كلهم .

فإن قيل : مامعنى قوله صلوات الله عليه (إنى ذاهب إلى ربى) .

قلنا : معناه إلى حيث أمرنى ربى بالمهاجرة وهو الشام . وقيل إلى طاعة ربى ورضاه . وقيل إلى أرض ربى ، وإنما خصها بالإضافة إلى الله تعالى تشريفا لها وتفضيلا لأنها أرض مقدسة مبارك فيها للعالمين ، كما فى قوله تعالى (وأن المساجد لله) وقوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا)

فإن قيل : مامعنى قوله تعالى (سيهدين) وهو كان مهتديا ؟

قلنا : معناه : سيثبتنى على ما أنا عليه من الهدى ويزيدنى هدى . وقيل معناه : سيهدين إلى الجنة . وقيل إلى الصواب فى جميع أحوالى ، ونظيره قول موسى عليه الصلاة والسلام (كلا إن معى ربى سيهدين) .

فإن قيل : كيف شاور إبراهيم ولده عليهما السلام فى ذبحه بقوله (فانظر ماذا ترى) مع أنه كان حتما على إبراهيم لأنه أمر به ، لأن معنى قوله (إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) أنه أمر بذبحه فى المنام ، ورؤيا الأنبياء حق فإذا رأوا شيئا فى المنام فعلوه فى اليقظة كذا قاله قتادة ، والدليل على أن منامه كان وحيا بالأمر بالذبح قوله (يا أبت افعل ماتؤمر) .

قلنا : لم يشاوره ليرجع إلى رأيه فى ذلك ، ولكن ليعلم ماعنده من الصبر فيما نزل به من بلاء الله تعالى ، فيثبت قدمه إن جزع ، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم ، وليعلم القصة فيوطن نفسه على الذبح ، ويهون عليها فيلقى البلاء

وهو كالمستأنس به ، ويكتسب الثواب بالانقياد والصبر لأمر الله تعالى قبل نزوله ، وليكون سنة فى المشاورة ، فقد قيل لو شاور آدم الملائكة فى أكل الشجرة لما فرط منه ذلك .

فإن قيل : كيف قيل له (قد صدقت الرؤيا) وإنما يكون مصدقا لها لو وجد منه الذبح ولم يوجد ؟

قلنا : معناه قد فعلت غاية مافى وسعك مما يفعله الذابح من إلقاء ولدك وإمرار الشفرة على حلقه ، ولكن الله تعالى منع الشفرة أن تقطع . وقيل : إن الذى رآه فى المنام معالجة الذبح فقط لا إراقة الدم ، وقد فعل ذلك فى اليقظة فكان مصدقا للرؤيا .

فإن قيل : أين جواب « لما » فى قوله تعالى (فلما أسلما) ؟

قلنا : قيل هو محذوف تقديره : استبشرا واغتبطا وشكرا الله تعالى على ماأنعم به عليهما من الفداء ؛ أو تقديره : سعدا ، أو أجزل ثوابهما . وقيل الجواب هو قوله تعالى (ناديناه) والواو زائدة كما فى قول امرىء القيس :

فلمّا أجزنا ساحةَ الحيِّ وانتحى ... بنا بطن خبْتٍ ذى خفافٍ عقنقلِ

أى فلما أجزنا ساحة الحى انتحى ، كذا نقله ابن الأنبارى فى شرحه .

فإن قيل . كيف قال تعالى فى قصة إبراهيم عليه السلام (كذلك نجزى المحسنين) وفى غيرها من القصص قبلها وبعدها (إنا كذلك نجزى المحسنين) .

قلنا : لما سبق فى قصة إبراهيم عليه السلام مرة (إنا كذلك نجزى المحسنين) طرحه فى الثانى تخفيفا واختصارا واكتفاء بذكره مرة بخلاف سائر القصص .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وإن لوطا لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين) وهو كان من المرسلين قبل زمان التنجية ؟

قلنا : قوله (إذ نجيناه) لايتعلق بما قبله بل يتعلق بمحذوف تقديره :

واذكر لهم يامحمد إذ نجيناه أو أنعمنا عليه إذ نجيناه ، وكذا السؤال فى قوله تعالى (وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون) .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) و « أو » كلمة شك والشك على الله محال ؟

قلنا : قيل أوهنا بمعنى بل فلا شك ، وقيل بمعنى الواو كما فى قوله تعالى (أولا مستم النساء)وقوله تعالى (عذرا أو نذرا) وقيل معناه أو يزيدون فى تقديركم ، فلو رآهم أحد منكم لقال هم مائة ألف أو يزيدون ، فالشك إنما دخل فى حكاية قول المخلوقين ، ونظيره قوله تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى) .

فإن قيل : مافائده تكرار الأمر بالتولية والإبصار فى قوله تعالى (فتول عنهم حتى حين) وأبصرهم الآيات ؟

قلنا : فائدته تأكيد التهديد والوعيد .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وأبصرهم) ثم قال ثانيا (وأبصر) ؟

قلنا : طرح ضمير المفعول تخفيفا واختصارا واكتفاء بسبق ذكره مرة ، وقيل معنى الأول : وأبصرهم إذا نزل بهم العذاب ، ومعنى الثانى : وأبصر العذاب إذا نزل بهم ، فلا فرق بينهما فى المعنى .

سورة ص

فإن قيل : أين جواب القسم فى قوله تعالى (ص والقرآن ذى الذكر) ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها : أنه لما ذكر حرفا من حروف المعجم على سبيل التحدى والتنبيه على الإعجاز كما قيل فى كل سورة مفتتحة بحرف أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدى عليه ، كأنه قال : والقرآن ذى الذكر إنه لكلام معجز ، وكذلك إذا كان الحرف مقسما به كأنه قال :

أقسمت بص والقرآن ذى الذكر إن هذا الكلام معجز . الثانى : أن ص خبر مبتدأ محذوف على أنه اسم للسورة ، كأنه قال هذه ص ، يعنى هذه السورة التى أعجزت العرب والقرآن ذى الذكر كما تقول : هذا حاتم والله ، زيد هذا هو المشهور بالسخاء والله . الثالث : أن جواب القسم كم أهلكنا ، وأصله لكم أهلكنا ، فلما طال الكلام حذفت اللام تخفيفا كما فى قوله تعالى (والشمس وضحاها ـ قد أفلح من زكاها) الرابع : أن قوله تعالى (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) وهو قول الكسائى . وقال الفراء : وهذا لايستقيم فى العربية لتأخره جدا عن القسم .

فإن قيل : ماوجه المناسبة والارتباط بين قوله تعالى (اصبر على مايقولون) وبين قوله تعالى (واذكر عبدنا داود) ؟

قلنا : وجه المناسبة بينهما أنه أمر أن يتقوى على الصبر بذكر قوة داود عليه السلام على العبادة والطاعة . الثانى : أن المعنى عرفهم أن داود عليه السلام مع كرامته وشهرة طاعته وعبادته التى منها صوم يوم دون يوم وقيام نصف الليل كان شديد الخوف من عذابى لايزال باكيا مستغفرا ، فكيف حال هؤلاء مع أفعالهم ؟

فإن قيل : كيف قال الملكان لما دخلا على داود عليه السلام (خصمان بغى بعضنا على بعض) والملائكة لايوجد منهم البغى والظلم ، وكيف قال (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة) إلى آخره ، ولم يكن كما قال ؟

قلنا : إنما قالا ذلك على سبيل الفرض والتصوير للمسألة ، ومثل ذلك لايعد كذبا كما تقول فى تصوير المسائل ، زيد له أربعون شاة وعمرو له أربعون وأنت تشير إليهما ، فخلطاها وحال عليها الحول ، كم يجب فيها وليس لهما شىء ، وتقول لى أربعون شاة ولك أربعون فخلطناها وما لكم شىء .

فإن قيل : كيف حكم داود عليه السلام على المدعى عليه بكونه ظالما قبل أن يسمع كلامه ؟

قلنا : لم يحكم عليه إلا بعد اعترافه كذا نقله السدى ، إلا أنه حذف ذكر الاعتراف فى القصة اختصارا لدلالة الخلال عليه ، كما تقول العرب : أمرته بالتجارة فكسب الأموال : أى فاتجر فكسب الأموال .

فإن قيل : مامعنى تكرار الحب فى قوله عليه السلام (إنى أحببت حب الخير) ومامعنى تعديته بعن وظاهره أحببت حبا مثل حب الخير ، كماتقول أحببت حب زيد : أى أحببت حبا مثل حب زيد ؟

قلنا : أحببت فى الآية بمعنى آثرت ، كمايقول المخير بين شيئين : أحببت هذا : أى آثرته ، وقد جاء استحب بمعنى آثر ، قال الله تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) أى آثروه : لأن من أحب شيئا فقد آثره على غيره ، وعن بمعنى على كما فى قوله تعالى (ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه) فيصير المعنى أى آثرت حب الخير على ذكر ربى . الثانى : وهو اختيار الجرجانى صاحب معانى القرآن أن أحببت بمعنى قعدت وتأخرت مأخوذ من أحب الجمل إذا برك ، ومنه قول الشاعر :

دَعَتْكَ إليها مُقْلتاها وجِيدُها فمِلْتَ كما مالَ المحِب على عَمْدِ

فالمحب هنا الجمل ، والعمد علة تكون فى سنام الجمل ، وكل من ترك شيئا وتجنب أن يفعله فقد قعد عنه ، فتأويل الآية : إنى قعدت عن ربى لحب الخير ، فيكون انتصاب حب على أنه مفعول له .

فإن قيل : كيف قال سليمان عليه السلام (وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى) وهذا أشبه بالحسد والبخل بنعم الله تعالى على عبيده بما لا يضر سليمان عليه السلام ؟

قلنا : قال الحسن وقتادة رحمهما الله : المراد به لاينبغى لأحد أن يسلبه منى فى حياتى كما فعله الشيطان الذى لبس خاتمه وجلس على كرسيه . الثانى :

أن الله تعالى علم أنه لايقوم غيره من عباده بمصالح ذلك الملك ، فاقتضت حكمته تخصيصه به فألهمه أن يسأله تخصيصه به . الثالث : أنه أراد بذلك ملكا عظيما فعبر عنه بتلك العبارة ، ولم يقصد بذلك إلاعظم الملك وسعته كما تقول لفلان : ماليس لأحد مثله من الفضل أومن المال ، وتريد بذلك عظم فضله أو ماله ، وإن كان فى الناس أمثاله .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف أيوب عليه السلام (إنا وجدناه صابرا) مع أن الصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى على ماقيل وهو قد شكا ؟

قلنا : الشكوى إلى الله لاتنافى الصبر ولا تسمى جزعا لما فيها من إظهار الخضوع والعبودية لله تعالى والافتقار إليه ، ويؤيده قول يعقوب عليه السلام (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) مع قوله (فصبر جميل) وقولهم : الصبر ترك الشكوى ، يعنى إلى العباد . الثانى : أنه صلى الله عليه وسلم إنما طلب الشفاء من الله تعالى بعد مالم يبق منه إلا قلبه ولسانه خيفة على قومه أن يفتنهم الشيطان بما كان يوسوس إليهم به ويقول إنه لو كان أيوب نبيا لما ابتلى بما هو فيه ولدعا الله تعالى بكشف ضره . وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال فى مناجاته : إلهى قد علمتَ أنه لم يخالف لسانى قلبى ، ولم يتبع قلبى بصرى ، ولم يلهنى ماملكت يمينى ، ولم آكل إلا ومعى يتيم ، ولم أبت شبعان ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان ، فكشف الله تعالى ضره .

فإن قيل : قوله تعالى (وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين) يدل على أن غاية لعنة الله لإبليس يوم القيامة ثم تنقطع ؟

قلنا : كيف تنقطع وقد قال تعالى (فأذن مؤذن بينهم) يعنى يوم القيامة (أن لعنة الله على الظالمين) وإبليس أظلم الظلمة ، ولكن مراده فى الآية أن

عليه اللعنة فى طول مدة الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة اقترن له باللعنة من أنواع العذاب ماتنسى عنده اللعنة وكأنها انقطعت .

سورة الزمر

فإن قيل : كيف قال تعالى (إن الله لايهدى من هو كاذب كفار) وكم من كاذب كفار قد هداه الله تعالى فأسلم وصدق ؟

قلنا : معناه لايهديه إلى الإيمان مادام على كفره وكذبه . وقيل معناه : لايهديه إلى حجة يلزم بها المؤمنين .

فإن قيل : كيف يصلح قوله تعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق مايشاء) ردا لقول من ادعى أن له ولدا وإبطالا لذلك ، مع أنه كل من نسب إليه ولدا قال إنه اصطفاه من خلقه بجعله ولدا ، فاليهود يدعون أنه عزير ، والنصارى يدعون أنه المسيح عليهما السلام ، وطائفة من مشركى العرب يدعون أن الملائكة بنات الله تعالى ؟

قلنا : هذا إن جعل ردا على اليهود والنصارى كان معناه لاصطفى الولد من الملائكة لامن البشر ، لأن الملائكة أشرف من البشر بلا خلاف بين اليهود ولابين النصارى ، وإن كان ردا على مشركى العرب كان معناه لاصطفى له ولدا من جنس يخلق كل شيء يريده ليكون ولدا موصوفا لصفته ، ولم يصطف من الملائكة الذين لايقدرون على إيجاد جناح بعوضة ولا يرد على هذا خلق عيسى عليه السلام الطير لأنه ليس بعام ، أو لأن معنى خلقه التقدير من الطين ، ثم الله تعالى يخلقه حيوانا بنفخ عيسى عليه السلام وإظهارا لمعجزته .

فإن قيل : كيف قال تعالى (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) وخلق حواء من آدم عليه السلام سابق على خلقنا منه ، فكيف عطفه عليه بكلمة ثم ؟

قلنا : ثم هنا للترتيب فى الإخبار لافى الإيجاد ، كما تقول لصاحبك أعطيتك اليوم كذا ثم أعطيتك أمس أكثر منه : أى ثم أخبرك بكذا ، ومنه قول الشاعر :

إنَّ مَنْ سادَ ثمَّ سادَ أبُوهُ ثم قَدْ سادَ قَبْلَ ذَلكَ جدُّهُ

الثانى : أن ثم متعلقة بمعنى واحدة وعاطفة عليه لاعلى خلقكم ، فمعناه خلقكم من نفس واحدة ، وأفردت بالإيجاد ثم شفعت بزوج . الثالث : أن ثم على ظاهرها ، لأن الله تعالى خلق آدم ثم أخرج أولاده من ظهره كالذر ، وأخذ عليهم الميثاق ثم ردهم إلى ظهره ثم خلق منه حواء ، فالمراد بقوله تعالى خلقكم خلقا يوم أخذ الميثاق دفعة واحدة لأن هذا الخلق الذى نحن فيه بالتوالد والتناسل .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) مع أن الأنعام مخلوقة فى الأرض لامنزلة من السماء ؟

قلنا : قيل إن الله تعالى خلق الأزواج الثمانية فى الجنة ثم أنزلها على آدم عليه السلام بعد إنزاله . الثانى : أن الله تعالى أنزل الماء من السماء ، والأنعام لاتوجد إلا بوجود النبات ، والنبات لايوجد إلا بوجود الماء ، فكأن الأنعام منزلة من السماء ، ونظيره قوله تعالى (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم) وإنما أنزل الماء الذى لايوجد القطن والكتان والصوف إلا به .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف الذى جاء بالصدق وصدق به (ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) مع أنه سبحانه وتعالى يكفر عنهم سيء أعمالهم ويجزيهم بحسنها أيضا ؟

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى سورة التوبة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (قل لله الشفاعة جميعا) مع أنه جاء فى الأخبار أن للأنبياء والعلماء والشهداء والأطفال شفاعة يوم القيامة ؟

قلنا : معناه أن أحدا لايملكها إلا بتمليكه ، كما قال تعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وقال تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) .

فإن قيل : كيف ذكر الضمير فى أوتيته وهو للنعمة فى قوله تعالى (ثم إذا خولناه نعمة منا) قال (إنما أوتيته على علم) ؟

قلنا : إنما ذكره نظرا إلى المعنى ، لأن معنى نعمة شيئا من النعمة وقسما منها ، أو لأن النعمة والإنعام بمعنى واحد .

فإن قيل : كيف قال تعالى (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) والقرآن كله حسن ؟

قلنا : معناه اتبعوا أحسن وحى أو كتاب أنزل إليكم من ربكم وهو القرآن كله . وقيل أحسن القرآن الآيات المحكمات . وقيل أحسنه كل آية تضمنت أمرا بطاعة أو إحسان وقد سبق نظير هذه الآية فى سورة الأعراف فى قوله تعالى (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) والأجوبة المذكورة ثم تصلح هنا ، وكذا الأجوبة المذكورة هنا تصلح ثمة إلا الجواب الأول .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت) مع أن الموحى إليهم جماعة ، ولما أوحى إلى من قبله لم يكن فى الوحى إليهم خطابه ؟

قلنا : معناه ولقد أوحى إلى كل واحد منك ومنهم لئن أشركت . الثانى : أن فيه إضمارا تقديره : ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك التوحيد ، ثم ابتدأ فقال لئن أشركت . الثالث : أن فيه تقديما وتأخيرا تقديره : ولقد أوحى إليك لئن أشركت ، وكذلك أوحى إلى الذين من قبلك .

فإن قيل : كيف عبر سبحانه عن الذهاب بأهل الجنة والنار بلفظ السوق فى قوله تعالى (وسيق الذين كفروا) الآيتين وفيه نوع إهانة ؟

قلنا : المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل ، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم حثا وإسراعا بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على السلطان ، فشتان ما بين السوقين .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف النار (فتحت أبوابها) بغير واو وقال فى صفة الجنة (وفتحت أبوابها) بالواو ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها أنها زائدة قاله الفراء وغيره . الثانى : أنها واو الثمانية وأبواب الجنة ثمانية . الثالث : أنها واو الحال معناه : جاءوها وقد فتحت أبوابها قبل مجيئهم ، بخلاف أبواب النار فإنها إنما تفتح عند مجيئهم والحكمة فى ذلك من وجوه : أحدها أن يستعجل أهل الجنة الفرح والسرور إذا رأوا الأبواب مفتحة ، وأهل النار يأتون النار وأبوابها مغلقة ليكون أشد لحرها . الثانى أن الوقوف على الباب المغلق نوع ذل وهوان ، فصين عنه أهل الجنة لا أهل النار . الثالث : أن الكريم يعجل المثوبة ويؤخر العقوبة ، فلو وجد أهل الجنة بابها مغلقا لأثر انتظار فتحه فى كمال الكريم بخلاف أهل النار .

سورة المؤمن

فإن قيل : كيف قال تعالى (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) مع أن الذين آمنوا يجادلون أيضا فيها ، هل هى منسوخة أم محكمة ؟ وهل فيها مجاز أم كلها حقيقة ؟ وهل هى مخلوقة أم قديمة وغير ذلك ؟

قلنا : المراد الجدال فيها بالتكذيب ودفعها بالباطل والطعن بقصد إدحاض الحق وإطفاء نور الله تعالى ، ويدل عليه قوله تعالى عقيبه (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى فى وصف حملة العرش (ويؤمنون به) ولا يخفى على أحد أن حملة العرش يؤمنون بالله تعالى ؟

قلنا : فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه كما وصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالصلاح والإيمان فى غير موضع من كتابه لذلك ، وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى (ثم كان من الذين آمنوا) .

فإن قيل : فى قوله تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتا إماتة ؟

قلنا : هذا كما تقول : سبحان من صغر جسمَ البعوضة وكبر جسم الفيل ، وكما تقول للحفار : ضيق فم الركية ووسع أسفلها ، وليس فيهما نقل من كبر إلى صغر ومن صغر إلى كبر ، ولا من سعة إلى ضيق ولا من ضيق إلى سعة ، وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات ، والسبب فى صحته أن الصغر والكبر جائزان معا على ذات المصنوع الواحد من غير ترجيح لأحدهما ، وكذلك الضيق والسعة ، وإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر ، فجعل صرفه عنه كنقله منه .

فإن قيل : قوله تعالى (لايخفى على الله منهم شىء) بيان وتقرير لبروزهم فى قوله تعالى (يوم هم بارزون) والله تعالى لايخفى عليه شىء برزوا أولم يبرزوا ؟

قلنا : معناه لايخفى على الله منهم شىء فى اعتقادهم أيضا ، فإنهم كانوا فى الدنيا يتوهمون إذا تستروا بالحيطان والحجب لا يراهم الله ، ويؤيده قوله تعالى (ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون) .

فإن قيل : كيف قال المؤمن فى حق موسى عليه السلام (وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) مع أنه صادق فى زعم القائل لهذا القول وفى نفس الأمر أيضا ، ويلزم من ذلك أن يصيبهم جميع ما وعدهم لا بعضه فقط ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها أن لفظة بعض صلة الثانى : أنها بمعنى «كل» كما فى قول الشاعر :

إن الأمُورَ إذا الأحْداثُ دَبَّرها　　دُونَ الشُّيوخِ ترى فى بعْضِها خَلَلا

ومنه قول لبيد :

أوَلَمْ تكُنْ تَدْرِى نَوَارُ بأنني　　وَصالُ عَقْدِ حَبَائِلٍ جَذّامُها

تَرّاكُ أمْكنَةٍ إذَا لَمْ أرْضَها　　أو يرتبِط بعضُ النُّفوسِ حِمامُها

قلنا : ولقائل أن يقول : إن لفظة بعض فى البيتين على حقيقتها ، وكنى لبيد ببعض النفوس عن نفسه كأنه قال : أتركها إلى أن أموت ، وكذا فسره ابن الأنبارى على أن أبا عبيدة قال : إن بعضا فى الآية بمعنى كل ، واستدل ببيت لبيد ، وأنكر الزمخشرى على أبى عبيدة هذا التفسير على أن غير أبى عبيدة قال فى قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام لأمته (ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) أن بعضا فيه بمعنى كل . الثالث : أنها على أصلها . ثم فى ذلك وجهان : أحدهما أنه وعدهم النجاة إن آمنوا والهلاك إن كفروا ، فذكر لفظة بعض لأنهم على إحدى الحالتين لا محالة . الثانى أنه وعدهم على كفرهم الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، وكان هلاكهم فى الدنيا بعضا ، فمراده يصيبكم فى الدنيا بعض الذى يعدكم الرابع : أنه ذكر البعض بطريق التنزل والتلطف وإمحاض النصيحة من غير مبالغة ولاتأكيد ليسمعوا منه ولا يتهموه ، فيردوا عليه وينسبوه إلى ميل ومحاباة بموسى عليه السلام ، كأنه قال : أقل ما يصيبكم البعض وفيه كفاية ، ونظيره قول الشاعر :

قدْ يُدْرِكُ المُتأنى بعضَ حاجَتِه　　وقَدْ يكُونُ مِنَ المسْتَعْجِلِ الزلَلُ

كأنه يقول أقل ما يكون فى التأنى إدراك بعض المطلوب ، وأقل مايكون

فى الاستعجال الزلل ، فقدبان فضل التأنى على العجلة بما لايقدر الخصم على دفعه ورده . والوجه الرابع هو اختيار الزمخشرى رحمة الله عليه .

فإن قيل : التولى والإدبار واحدفما فائدة قوله تعالى (يوم تولون مدبرين) ؟

قلنا : هو تأكيد كقوله تعالى (فخر عليهم السقف من فوقهم) ونظائره كثيرة الثانى : أنه استثارةلحميتهم واستجلاب لأنفتهم لما فى لفظ مدبرين من التعريض بذكر الدبر ، فيصير نظير قوله تعالى (ويولون الدبر) .

فإن قيل : ما فائدة التكرار فى قوله تعالى (لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات) وهلا قال : أبلغ أسباب السموات ؟ أى أبوابها وطرقها .

قلنا : إذا أبهم الشىء ثم أوضح كان تفخيما لشأنه وتعظيما لمكانه ، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها .

فإن قيل : مثل السيئة سيئة فما معنى قوله تعالى (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها) ؟

قلنا : معناه أن جزاء السيئة له حساب وتقدير لايزيد على المقدار المستحق، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير حساب كما قال تعالى فى آخر الآية :

فإن قيل : قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) ينافى ذلك .

قلنا : ذلك لمنع النقصان لا لمنع الزيادة كما قال الله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وقال الذين فى النار لخزنة جهنم) ولم يقل : وقال الذين فى النار لخزنتها مع أنه أخصر ؟

قلنا : لأن فى ذكر جهنم تهويلا وتفظيعا . وقيل إن جهنم هى أبعد النار قعرا ، وخزنتها أعلى الملائكة الموكلين بالنار مرتبة ، فإنما قصدهم أهل النار بطلب الدعاء منهم لذلك .

فإن قيل : كيف قال المشركون (بل لم نكن ندعو من قبل شيئا) مع قولهم (هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) .

قلنا : معناه أن الأصنام التى كنا نعبدها لم تكن شيئا لأنها لا تنفع ولا تضر. الثانى أنهم قالوا كذبا وجحودا كقولهم (والله ربنا ما كنا مشركين).

فإن قيل : كيف قال تعالى (وعلى الفلك تحملون) ولم يقل : وفى الفلك تحملون ، كما قال تعالى (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين) ؟

قلنا : معنى الوعاء ومعنى الاستعلاء كلاهما صحيح فى الفلك لأنه وعاء لمن يكون فيه وحمولة لمن يستعليه ، فلما صح المعنيان استقامت العبارتان معا .

سورة حم السجدة

فإن قيل : مافائدة زيادة « من » فى قوله تعالى (ومن بيننا وبينك حجاب) مع أن المعنى حاصل بقوله تعالى (وبيننا وبينك حجاب) ؟

قلنا : لو قيل كذلك لكان المعنى أن حجابا حاصل وسط الجهتين ، وأما بزيادة من فمعناه أن الحجاب ابتدؤاه منا ومنك ، فالمسافة المتوسطة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب لافراغ فيها .

فإن قيل : قوله تعالى (أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) إلى قوله تعالى (فقضاهن سبع سموات فى يومين) يدل على أن السموات والأرض وما بينهما خلقت فى ثمانية أيام وقال تعالى فى سورة الفرقان (الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام) فكيف التوفيق بينهما ؟

قلنا : معنى قوله تعالى (فى أربعة أيام) فى تتمة أربعة أيام ، لأن اليومين اللذين خلق فيهما الأرض من جملة الأربعة ، أو معناه كل ذلك فى أربعة أيام يعنى خلق الأرض وماذكر بعدها فصار المجموع ستة ، وهذا لا اختلاف فيه بين المفسرين .

فإن قيل : السموات ومافيها أعظم من الأرض ومافيها بأضعاف مضاعفة فما الحكمة فى أن الله خلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام ، والسموات ومافيها فى يومين ؟

قلنا : لأن السموات ومافيها من عالم الغيب ومن عالم الملكوت ومن عالم الأمر والأرض ومافيها من عالم الشهادة والملك ، وخلق الأول أسرع من الثانى ، ووجه آخر وهو أنه فعل ذلك ليعلم أن الخلق على سبيل التدريج والتمهيل فى الأرض ومافيها لم يكن للعجز عن خلقها دفعة واحدة ، بل كان لمصالح لاتحصل إلا بذلك ، ولهذه الحكمة خلق العالم الأكبر فى ستة أيام ، والعالم الأصغر وهو الإنسان فى ستة أشهر .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف أهل النار (فإن يصبروا فالنار مثوى لهم) مع أنهم إن لم يصبروا على عذاب النار وجزعوا فالنار مثوى لهم أيضا ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : فإن يصبروا أولا يصبروا فالنار مثوى لهم على كل حال ، ولا ينفعهم الصبر فى الآخرة كما ينفع الصبر فى الدنيا ، ولهذا قيل الصبر مفتاح الفرج ، وقيل من صبر ظفر . الثانى : أن هذا جواب لقول المشركين فى حث بعضهم لبعض على إدامة عبادة الأصنام (أن امشوا واصبروا على آلهتكم) فقال الله تعالى فإن يصبروا على عبادة الأصنام فى الدنيا فالنار مثوى لهم فى العقبى .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف الكفار (ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون) أى بأسوأ أعمالهم ، مع أنهم يجزون بسيىء أعمالهم أيضا ؟

قلنا : قد سبق نظير هذا السؤال فى آخر سورة التوبة ، والجواب الأول هناك يصلح جوابا هنا .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (ولا للقمر) بعد قوله تعالى (لاتسجدوا للشمس) وهو مستفاد من الأول بالطريق الأولى ؟

قلنا : فائدته ثبوت الحكم بأقوى الدليلين وهو النص ، والله أعلم .

سورة الشورى

فإن قيل : كيف قال تعالى (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك) بلفظ المضارع ، والوحى إلى من قبل النبى صلى الله عليه وسلم ماض ؟

قلنا : قال الزمخشري : قصد بلفظ المضارع كون ذلك عادة وسنة لله تعالى ، وهذا لايوجد فى لفظ الماضى . قلت : ويحتمل أن يكون باعتبار وضع المضارع موضع الماضى كما فى قوله تعالى (قل الله يحييكم) أو بإضمار وأوحى إلى الذين من قبلك .

فإن قيل : إلى ماذا يرجع الضمير فى قوله تعالى (يذرؤكم فيه) أى يكثركم ، وقيل يخلقكم ، وقيل يعيشكم فيه ؟

قلنا : معناه فى هذا التدبير أو فى الجعل المذكور ، وقيل فى الرحم الذى دل عليه ذكر الأزواج .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ليس كمثله شيء) وظاهره يقتضى إثبات المثل ونفى مثل المثل ، كما يقال : ليس كدار زيد دار . فإنه يقتضى وجود الدار لزيد ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها أن المثل فى لغة العرب كناية عن الذات ، ومنه قولهم : مثلى لايقال له كذا ، ومثلك لايليق به كذا ، فمعناه ليس كهو شيء . الثانى : أن الكاف زائدة للتأكيد ، والمعنى ليس كمثله شيء . الثالث أن مثل زائدة ، فيصير المعنى ليس كهو شيء كما مر فى الوجه الأول ، والفرق بين الوجهين أن المثل فى الوجه الأول كناية عن الذات ، وفى الوجه الثالث زائد مطرح كأنه لم يذكر .

فإن قيل : كيف قال تعالى (إلا المودة فى القربى) ولم يقل إلا مودة القربى : أى القرابة ، أو إلا المودة للقربى .

قلنا : جعلوا محلا للمودة ومقرا لهـا للمبالغة ، كأنه قال : إلا المودة الثابتة المستقرة فى القربى ، كما يقال ، فى آل فلان مودة ، ولى فيهم هوى وحب شديد .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ومن آياته خلق السموات والأرض ومابث فيهما من دابة) والدواب إنما هى فى الأرض فقط ؟

قلنا : فيهما بمعنى فيها ، باعتبار إطلاق لفظ التثنية على المفرد كما فى قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح ؛ وقيل : إنَّ الملائكة لهم دبيب مع طيرانهم أيضا وهم مبثوثون فى السماء ، ويؤيد ذلك قوله تعالى (وما من دابة فى الأرض) فتقييده بالأرض يدل على وجود الدابة فى غير الأرض من حيث المفهوم .

فإن قيل : كيف قدم سبحانه وتعالى الإناث على الذكور فى قوله تعالى (يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور) مع تقدمهم عليهن ، ثم رجع فقدمهم عليهن ، ولم نكر الإناث وعرف الذكور ؟

قلنا : إنمـا قدم الإناث لأن الآية إنمـا سيقت لبيان عظمة ملكه ونفاذ مشيئته ، وأنه فاعل مايشاء لا مايشاء عبيده ، فكان ذكر الإناث اللاتى من جملة مالايشاؤه عبيده أهم ، والأهم واجب التقديم ، فلمـا قدمهن وأخر الذكور لذلك المعنى تدارك تأخيرهم ، وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم لأن التعريف تنويه وتشهير ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المشهورين الذين لا يخفون على أحد ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، فعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتض آخر فقال تعالى (ذكرانا وإناثا) كما قال تعالى (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) وقال (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) .

فإن قيل : قوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء

حجاب) الآية ، كيف يقال إن الله تعالى كلم محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج مواجهة بغير حجاب ولا واسطة ، وقد خص الله تعالى تكليمه للبشر فى طريق الوحى وهو الإلهام ، كما كلم أم موسى ، والإسماع من وراء حجاب كما كلم موسى عليه السلام ، وإرسال الرسول كما كلم الأنبياء بواسطة جبريل عليه السلام ، وكما كلم الأمم بواسطة الرسل ؟

قلنا : قيل المراد بالوحى الأول هنا الإشارة ، ومنه قولهم وحى العين ووحى الحاجب : أى إشارتهما ، ومنه قوله تعالى (فأوحى إليهم أن سبحوا) فتكليمه لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج كان مواجهة بالإشارة .

فإن قيل : قوله تعالى (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) كيف كان لا يعلم الإيمان قبل أن يوحى إليه ، والإيمان هو التصديق بوجود الصانع وتوحيده ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم كانوا مؤمنين بالله قبل أن يوحى إليهم بأدلة عقولهم ؟

قلنا : المراد بالإيمان هنا شرائع الإيمان وأحكامه ، كالصلاة والصوم ونحوهما . وقيل المراد به الكلمة التى بها دعوة الإيمان والتوحيد وهى لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والإيمان بهذا التفسير إنما علمه بالوحى كما علم الكتاب وهو القرآن لا بالعقل .

سورة الزخرف

فإن قيل : كيف قال تعالى (إنا جعلناه قرآنا عربيا) ولم يقل قلناه أو أنزلناه ، والقرآن ليس بمجعول لأن الجعل هو الخلق ، ومنه قوله تعالى (وجعل الظلمات والنور) وقوله تعالى (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) ؟

قلنا : الجعل أيضا يأتى بمعنى القول ، ومنه قوله تعالى (ويجعلون لله

البنات) وقوله تعالى (وجعلوا لله أندادا) أى قالوا ووصفوا لا أنهم خلقوا كذلك هنا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) والنبى صلى الله عليه وسلم مالقيهم حتى يسألهم ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره: واسأل أتباع من ،أو أمة من أرسلنا من قبلك . الثانى : أنه مجاز عن النظر فى أديانهم والبحث عن مللهم هل فيها ذلك . الثالث: أن النبى صلى الله عليه وسلم حشر له الأنبياء عليهم السلام ليلة المعراج ، فلقيهم وأمهم فى مسجد بيت المقدس ، فلما فرغ من الصلاة نزلت عليه هذه الآية والأنبياء حاضرون ، فقال لاأسأل قد كفيت ؛ وقيل إنه خطاب له والمراد به أمته .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها) يعنى الآيات التسع التى جاء بها موسى صلى الله عليه وسلم ، فإن كان المراد به أن كل واحدة منهن أكبر مماسواها لزم أن يكون كل واحدة فاضلة ومفضولة ، وإن كان المراد به أن كل واحدة منهن أكبر من أخت معينة لها فأيتها هى الكبرى وأيتها هى الصغرى ؟

قلنا : المراد بذلك أنهن موصوفات بالكبرى لايكدن يتفاوتن فيه ، ونظيره بيت الحماسة :

مَنْ تَلْقَ مِنهُم تَقُلْ لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ
مِثلَ النُّجُوم التى يَسْرِى بها السارِى

فإن قيل : كيف قال عيسى عليه السلام لأمته (ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) ؟

قلنا : كانوا يختلفون فيما يعنيهم من أمر الديانات وفيما لايعنيهم من أمور أخرى ، فكان يبين لهم الشرائع والأحكام خاصة . وقيل إن البعض هنا

بمعنى الكل كما سبق فى سورة المؤمن فى قوله تعالى (وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (وهم لايشعرون) بعد قوله (بغتة) أى فجأة .

قلنا : فائدته أنها تأتيهم وهم غافلون مشغولون بأمور دنياهم ، كما قال تعالى (ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) فلولا قوله (وهم لايشعرون) جاز أن تأتيهم بغتة وهم فطنون حذرون مستعدون لها .

فإن قيل : كيف وصف أهل النار فيها بكونهم مبلسين ، والمبلس هو الآيس من الرحمة والفرج ، ثم قال تعالى (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك) فطلبوا الفرج بالموت ؟

قلنا : تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف فيها أحوالهم ، فيغلب عليهم اليأس تارة فيسكنون ، ويشتد مابهم من ألم العذاب تارة فيستغيثون .

فإن قيل : قوله تعالى (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) ظاهره يقتضى تعدد الآلهة لأن النكرة إذا أعيدت تعددت كقوله : له على درهم ودرهم ، وأنت طالق وطالق ، ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنهما لن يغلب عسر يسرين ؟

قلنا : الإله هنا بمعنى المعبود بالنقل ، كما فى قوله تعالى (وهو الله فى السموات وفى الأرض) فصار المعنى : وهو الذى فى السماء معبود وفى الأرض معبود ، والمغايرة ثابتة بين معبوديته فى السماء ومعبوديته فى الأرض لأن العبودية من الأمور الإضافية فيكفى فى تغايرهما التغاير من أحد الطرفين. فإذا كان العابد فى السماء غير العابد فى الأرض صدق أن معبوديته فى السماء غير معبوديته فى الأرض مع أن المعبود واحد .

سورة الدخان

فإن قيل : الخلاف بين النبي صلى الله عليه وسلم ومنكرى البعث إنما كان فى الحياة بعد الموت لافى الموت ، فكيف قال تبارك وتعالى (إن هؤلاء ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى) ولم يقل إلا حياتنا ، كما قال تعالى فى موضع آخر (إن هى إلا حياتنا الدنيا) وما معنى وصف الموتة بالأولى كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الموتة الأولى ؟

قلنا : لما وعدوا موتة تكون بعدها حياة نفوا ذلك ، كأنهم قالوا لاتقع فى الوجود موتة تكون بعدها حياة إلا ماكنا فيه من موتة العدم وبعثنا منه إلى حياة الوجود . وقيل إنهم نفوا بذلك الموتة الثانية فى القبر بعد إحيائهم لسؤال منكر ونكير .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) والعذاب لايصب ، وإنما يصب الحميم كما قال فى موضع آخر (يصب من فوق رءوسهم الحميم) .

قلنا : هو استعارة ليكون الوعد أهول وأهيب ، ونظيره قوله تعالى (فصب عليهم ربك سوط عذاب) وقوله تعالى (أفرغ علينا صبرا) وقول الشاعر * صَبَتْ عَلَيهم صُروفُ الدَّهْرِ مِنْ صَبَبِ *

فإن قيل : كيف وعد الله أهل الجنة بلبس الإستبرق وهو غليظ الديباج فى قوله تعالى (يلبسون من سندس وإستبرق) مع أن لبس الغليظ من الديباج عند السعداء من أهل الدنيا عيب ونقص ؟

قلنا : كما أن رقيق ديباج الجنة وهو السندس لايماثل رقيق ديباج الدنيا إلا فى الاسم فقط ، فكذلك غليظ ديباج الجنة . وقيل السندس لباس السادة من أهل الجنة ، والإستبرق لباس العبيد والخدم إظهارا لتفاوت المراتب .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف أهل الجنة (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) مع أن الموتة الأولى لم يذوقوها فى الجنة ؟

قلنا : قال الزجاج والفراء إلا هنا بمعنى سوى كما فى قوله تعالى (إلا ما قد سلف) وقوله تعالى (إلا ماشاء ربك) . الثانى : أن إلا بمعنى بعد كما قال بعضهم فى قوله تعالى (إلا ماقد سلف) . الثالث : أن السعداء إذا حضرتهم الوفاة كشف لهم الغطاء وعرضت عليهم منازلهم ومقاماتهم فى الجنة ، وتلذذوا فى حال النزع بروْحها وريحانها ، فكأنهم ماتوا فى الجنة ، وهذا قول ابن قتيبة رحمه الله .

سورة الجاثية

فإن قيل : كيف طابق الجواب السؤال فى قوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ماكان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه) ؟

قلنا : وجه المطابقة أنهم ألزموا بما هم مقرون به من أن الله تعالى هو الذى أحياهم أولا ثم يميتهم ، ومن كان قادرا على ذلك كان قادرا على جمعهم يوم القيامة ، فيكون قادرا على إحياء آبائهم .

فإن قيل : كيف أضاف الكتاب إلى الأمة وإليه فى قوله تعالى (كل أمة تدعى إلى كتابها) ثم قال (هذا كتابنا) .

قلنا : الإضافة تصح بأدنى ملابسة وقد لابسهم الكتاب بكون أعمالهم مثبتة فيه ، ولابسه بكونه مالكه وكونه آمرا الملائكته أن يكتبوا فيه أعمالهم

سورة الأحقاف

فإن قيل : كيف قال (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا) مع أن حسن ماعملوا يتقبل عنهم أيضا ؟

قلنا : أحسن بمعنى حسن ، وقد سبق نظيره فى سورة الروم .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف الفريقين (ولكل درجات مما عملوا) مع أن أهل النار لهم دركات لا درجات ؟

قلنا : الدرجات الطبقات من المراتب مطلقا من غير اختصاص . الثانى أن فيه إضمارا تقديره : ولكل فريق درجات أودركات مما عملوا ، إلا أنه حذفه اختصارا لدلالة المذكور عليه .

فان قيل : كيف طابق الجواب السؤال فى قوله تعالى (فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما العلم عند الله ؟

قلنا : طابقه من حيث أن قولهم ذلك استعجال للعذاب الذى توعدهم به بدليل قوله تعالى بعده (بل هو ما استعجلتم به) فقال لهم لاعلم لى بوقت تعذيبكم ، بل الله تعالى هو العالم به وحده .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف الريح (تدمر كل شىء بأمر ربها) وكم من شىء لم تدمره ؟

قلنا : معناه تدمر كل شىء مرت به من أموال قوم عاد وأملاكهم .

فإن قيل : كيف قال تعالى (يغفر لكم من ذنوبكم) ولم يقل يغفر لكم ذنوبكم ؟

قلنا : لأن من الذنوب مالا يغفر بالإيمان كمظالم العباد ونحوها .

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) ولم يسبق ضرب مثل ؟

قلنا : معناه كذلك يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين وسيئات الكافرين ، وقيل أراد به أنه جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين ، أو أنه جعل الإضلال مثلا لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلا لفوز المؤمنين .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى حق الشهداء بعد ماقتلوا فى سبيل الله (سيهديهم) والهداية إنما تكون قبل الموت لابعد ؟

قلنا : معناه سيهديهم إلى محاجة منكر ونكير . وقيل سيهديهم يوم القيامة إلى طريق الجنة .

فإن قيل : ما معنى قوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار) إلى قوله تعالى (كمن هو خالد فى النار) ؟

قلنا : قال الفراء : معناه أمن كان فى هذا النعيم كمن هو خالد فى النار . وقال غيره تقديره : مثل الجنة الموصوفة كمثل جزاء من هو خالد فى النار فحذف منه ذلك إيجازا واختصارا .

فإن قيل : كيف قال تبارك وتعالى للنبى صلى الله عليه وسلم (فاعلم أنه لا إله إلا الله) وهو عالم بذلك قبل أن يوحى إليه وبعده ؟

قلنا : معناه اثبت على ذلك العلم ، وقال الزجاج : الخطاب له صلى الله عليه وسلم ، والمراد أمته كما ذكرنا فى أول سورة الأحزاب .

سورة الفتح

فإن قيل : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة فقال تعالى (إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله) الآية .

قلنا : لم يجعله علة للمغفرة بل لاجتماع ماوعده من الأمور الأربعة ، وهى المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، وقبل الفتح لم يكن إتمام النعمة والنصر العزيز حاصلا وإن كان الباقى حاصلا ، ويجوز أن يكون فتح مكة سببا للمغفرة من حيث أنه جهاد للعدو .

فإن قيل : قوله تعالى (ماتقدم من ذنبك وما تأخر) إن كان المراد بما تأخر ذنبا يتأخر وجوده عن الخطاب بهذه الآية فهو معدوم عند نزولها ، فكيف يغفر الذنب المعدوم ، وإن كان المراد به ذنبا وجد قبل نزولها فهو متقدم فكيف سماه متأخرا .

قلنا : المراد بما تقدم قصة مارية ، وبما تأخر قصة امرأة زيد . وقيل المراد بما تقدم ماوجد منه ، وبما تأخر مالم يوجد منه على معنى أنه موعود بمغفرته على تقدير وجوده ، أو على طريق المبالغة كقولهم : فلان يضرب من يلقاه ومن لايلقاه ؛ بمعنى يضرب كل أحد ، فكذا هنا معناه ليغفر لك الله كل ذنب : فالحاصل أن الذنب المتأخر متقدم على نزول الآية ، وإن كان متأخرا بالنسبة إلى شيء آخر قبله أو متأخرا عن نزولها وهو موعود بمغفرته ، أو على طريق المبالغة كما بينا .

فإن قيل : ما معنى قوله (ويهديك صراطا مستقيما) وهو مهدى إلى الصراط المستقيم ، ومهدى به أمته أيضا ؟

قلنا : معناه ويزيدك هدى ، وقيل ويثبتك على الهدى ، وقيل معناه ويهديك صراطا مستقيما فى كل أمر تحاوله .

فإن قيل : كيف يقال إن الإيمان لايقبل الزيادة والنقصان وقد قال الله تعالى (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) ؟

قلنا : الإيمان الذى يقال إنه لايقبل الزيادة والنقصان هو الإقرار بوجود الله تعالى ، كما أن إلهيته لاتقبل الزيادة والنقصان ، فأما الإيمان بمعنى الأمن أو اليقين أو التصديق فإنه يقبلهما ، وهو فى الآية بمعنى التصديق لأنهم بسبب السكينة التى هى الطمأنينة وبرد اليقين كلما نزلت فريضة وشريعة صدقوا بها فازدادوا تصديقا مع تصديقهم .

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى (وأهلها) بعد قوله (وكانوا أحق بها) ؟
قلنا : الضمير فى بها لكلمة التوحيد ، وفى أهلها للتقوى فلا تكرار .

فإن قيل : ما وجه تعليق الدخول بمشيئة الله تعالى فى أخباره سبحانه وتعالى حتى قال (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله) ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها أن « إن » بمعنى إذ كما فى قوله تعالى (وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين) الثانى : أنه استثناء من الله تعالى فيما يعلم تعليما لعباده أن يستثنوا فيما لايعلمون . الثالث : أنه على سبيل الحكاية لرؤيا النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنه رأى أن قائلا يقول له (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) . الرابع : أن الاستثناء متعلق بقوله تعالى (آمنين) فأما الدخول فليس فيه تعليق .

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى (لا تخافون) بعد قوله (آمنين) ؟
قلنا : معناه آمنين فى حال الدخول لاتخافون عدوكم أن يخرجكم منه فى المستقبل .

فإن قيل : قوله تعالى (ليغيظ بهم الكفار) تعليل لماذا ؟
قلنا : لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وقوتهم كأنه قال : إنما كثرهم وقواهم ليغيظ بهم الكفار .

فإن قيل: كيف قال تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) وكل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم موصوفون بالإيمان والعمل الصالح وبغيرهما من الصفات الحميدة التى ذكرها الله تعالى فى هذه الآية فما معنى التبعيض هنا ؟

قلنا : من هنا لبيان الجنس لا التبعيض كما فى قوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) .

سورة الحجرات

فإن قيل : كيف قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) والمراد به نهيهم أن يتقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل ، لا أن يقدموا غيرهم ؟ .

قلنا : قدم هنا لازم بمعنى تقدم كما فى قولهم بين وتبين ، وفكر وتفكر ، ووقف وتوقف ، ومنه قول الشاعر :

إذا نحنُ سِرنَا سارَتِ الناسُ خلفَنا وإنْ نحنُ أومأْنا إلى الناسِ وقَفُوا

أى توقفوا ، وقيل معناه : لاتقدموا فعلا قبل أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (ولا تجهروا له بالقول) بعد قوله (لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) ؟ .

قلنا : فائدته تحريم الجهر فى مخاطبته صلى الله عليه وسلم باسمه نحو قولهم يامحمد وياأحمد، فهو أمرلهم بتوقيره وتعظيمه صلى الله عليه وسلم فى المخاطبة، وأن يقولوا يارسول الله ويانبى الله ونحو ذلك ، ونظيره قوله تعالى (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) .

فإن قيل : كيف قال (أن تحبط أعمالكم) أى مخافة أن تحبط أعمالكم

مع أن الأعمال إنما تحبط بالكفر لا بغيره من المعاصى ، ورفع الصوت فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ليس بكفر ، كيف وقد روى، أن الآية نزلت فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما لما رفعا أصواتهما بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس وكان جهورى الصوت ، فربما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوته ؟

قلنا : معناه لا تستخفوا به ، فإن الاستخفاف به ربما أدى خطؤه إلى عمده ، وعمده كفر يحبط العمل . وقيل حبوط العمل مجاز عن نقصان المنزلة وانحطاط المرتبة .

فإن قيل : ما وجه الارتباط والتعلق بين قوله تعالى (ولكن الله حبب إليكم الإيمان) وبين ما قبله ؟

قلنا : معناه فاتركوا عبادة الجاهلية فإن الله تعالى لم يتركم عليها ، ولكن الله حبب إليكم الإيمان . وقيل معناه فتثبتوا فى الأمور كما يليق بالإيمان ، فإن الله حبب إليكم الإيمان .

فإن قيل : إن كان الفسوق والعصيان بمعنى واحد ، فما فائدة الجمع بينهما ، وإن كان العصيان أعم من الفسوق فذكره مغن عن ذكر الفسوق لدخوله فيه فما فائدة الجمع بينهما ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد بالفسوق هنا الكذب ، وبالعصيان بقية المعاصى ، وإنما أفرد الكذب بالذكر لأنه سبب نزول الآية.

فإن قيل : كيف يقال إن الإيمان والإسلام بمعنى واحد ، والله سبحانه وتعالى يقول (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) .

قلنا : المنفى هنا الإيمان بالقلب بدليل قوله تعالى (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) يعنى لم تصدقوا بقلوبكم (ولكن قولوا أسلمنا) أى استسلمنا وانقدنا خوف السيف ، ولا شك فى الفرق بين الإيمان والإسلام بهذا

التفسير ، والذى يدعى اتحادهما لا يريد به أنهما حيث استعملا كانا بمعنى واحد ، بل يريد به أن أحد معانى الإيمان هو الإسلام .

فإن قيل : كيف يقال إن العمل ليس من الإيمان ، والله تعالى يقول (إنما المؤمنون الذين آمنوا) الآية ؟

قلنا : معناه إنما المؤمنون إيمانا كاملا كما فى قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقوله صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وقولهم : الرجل من يصبر على الشدائد . ويرد على هذا الجواب أن المنفى فى أول الآية عن الإعراب نفس الإيمان الكامل ، فلا يناسب أن يكون المثبت بعد ذلك الإيمان الكامل بل نفس الإيمان .

سورة ق

فإن قيل : أين جواب القسم فى قوله تعالى (ق والقرآن المجيد) ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها أنه مضمر تقديره : إنهم مبعوثون بعد الموت. الثانى : أن قوله تعالى (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) واللام محذوفة لطول الكلام تقديره : لقد علمنا كما فى قوله تعالى (قد أفلح من زكاها) الثالث : أنه قوله تعالى (ما يلفظ من قول) .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وحب الحصيد) وأراد به الحب الحصيد فأضاف الشىء إلى نفسه والإضافة تقتضى المغايرة بين المضاف والمضاف إليه؟

قلنا : معناه وحب الزرع الحصيد أو النبات الحصيد . الثانى : أن إضافة الشىء إلى نفسه جائزة عند اختلاف اللفظين كما فى قوله تعالى (حق اليقين وحبل الوريد ـ ودار الآخرة ـ ووعد الصدق) .

فإن قيل : كيف قال تعالى (عن اليمين وعن الشمال قعيد) ولم يقل

قعيدان ، وهو وصف للملكين اللذين سبق ذكرهما بقوله تعالى (إذ يتلقى المتلقيان) ؟

قلنا : معناه عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، إلا أنه حذف أحدهما لدلالة المذكور عليه كما قال الشاعر :

نحنُ بِمَا عِـنْدنا وأنتَ بِمَا عِندَكَ رَاضٍ والرأىُ مختلِفُ

وقال آخر :

رَمانى بِأمرٍ كنتُ منهُ ووالدى بَرِيئًا وَمِنْ أجْلِ الطوَىِّ رَمانى

الثانى : أن فعيلا يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ، قال الله تعالى (والملائكة بعد ذلك ظهير) وقيل إنما لم يقل قعيدان رعاية لفواصل السورة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ألقيا) والخطاب لواحد وهو مالك خازن النار ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها ماقاله المبرد أن تثنية الفاعل أقيمت مقام تثنية الفعل للتأكيد باتحادهما حكما كأنه قال ألق ألق ، ونظيره قول امرئ القيس :

* قِفا نَبْكِ * : أى قف قف . الثانى : أن العرب كثيرا مايرافق الرجل منهم اثنين فكثر على ألسنتهم خطاب الاثنين فقالوا : خليلى وصاحبى وقفا واسعدا وعوجا ونحو ذلك قال الفراء : سمعت ذلك من العرب كثيرا قال وأنشدنى بعضهم :

فَقالتْ لِصاحِبِى لاتحبِسانا بِنزْعِ أُصُولِهِ وَاجتزَّ شيحا

فقال لاتحبسانا والخطاب لواحد ، بدليل قوله لصاحبى قال : وأنشدنى أبو ثور :

فَإنْ تَزْجُرَانى يابنَ عفانَ أنْزَجِرْ وَإنْ تَدَعانى أحمِ عِرضًا ممنعا

وقال امرؤ القيس :

خليلىَّ مرَّا بى على أمِّ جندُبٍ نقضِي لُبانات الفؤادِ المعذَّبِ

ثم قال :

أَلَمْ تَرَ أَنِّى كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا طِيبًا وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

الثالث : أنه أمر للملكين اللذين سبق ذكرهما بقوله تعالى (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) .

فإن قيل : كيف قال تعالى (غير بعيد) ولم يقل غير بعيدة وهو وصف للجنة ؟

قلنا : لأنه على زنة المصادر كالزبير والصليل ، والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث ، أو على حذف الموصوف : أى مكانا غير بعيد ، وكلا الجوابين للزمخشرى رحمه الله تعالى .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (غير بعيد) بعد قوله (وأزلفت الجنة) بمعنى قربت ؟

قلنا : فائدته التأكيد كقولهم : هو قريب غير بعيد ، وعزيز غير ذليل .

فإن قيل : كيف قال تعالى (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) وكل إنسان له قلب بل كل حيوان ؟

قلنا : المراد بالقلب هنا العقل ، كذا قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . قال ابن قتيبة : لما كان القلب موضعا للعقل كنى به عنه . الثانى : أن المراد لمن كان له قلب واع ، لأن من لايعى قلبه فكأنه لا قلب له ، ويؤيد ذلك قوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس) الآية .

سورة الذاريات

فإن قيل : كيف قال تعالى (إنما توعدون لصادق) والصادق وصف القائل لاوصف الوعد ؟

قلنا : قيل صادق بمعنى مصدوق ك(عيشة راضية ـ وماء دافق) وقيل معناه

لصدق ، فإن المصدر قد جاء على وزن اسم الفاعل كقولهم : قمت قائما ، وقولهم : لحقت بهم اللائمة : أى اللوم .

فإن قيل : كيف قال تعالى (إن المتقين فى جنات وعيون) والمتقون لايكونون فى الجنة فى العيون ؟

قلنا : معناه أنهم فى الجنات والعيون الكثيرة محدقة بهم من كل ناحية وهم فى مجموعها لافى كل عين ، ونظيره قوله تعالى (إن المتقين فى جنات ونهر) لأنه بمعنى أنهار ، إلا أنه عدل عنها رعاية للفواصل .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الآليم) أى فى قرى قوم لوط ، وقرى قوم لوط ليست موجودة ، فكيف توجد فيها العلامة ؟

قلنا : الضمير فى قوله فيها عائد إلى تلك الناحية والبقعة لا إلى مدائن قوم لوط . الثانى : أنه عائد إليها ، ولكن « فى » بمعنى من كما فى قوله تعالى (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا) وقوله تعالى (وارزقوهم فيها) ويؤيد هذا الوجه مجيئه مصرحا به فى سورة العنكبوت بلفظ من فى قوله تعالى (ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) ثم قيل الآية آثار منازلهم الخربة . وقيل هى الحجارة التى أبقاها الله تعالى حتى أدركها أوائل هذه الأمة . وقيل هى الماء الأسود الذى يخرج من الأرض .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (ومن كل شىء خلقنا زوجين) أى صنفين ، مع أن العرش والكرسى والقلم واللوح لم يخلق منها إلا واحد ؟

قلنا : قيل معناه ومن كل حيوان خلقنا ذكرا أوأنثى . وقيل معناه : ومن كل شىء تشاهدونه خلقنا صنفين كالليل والنهار ، والصيف والشتاء ، والنور والظلمة ، والخير والشر ، والحياة والموت ، والبحر والبر والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، ونحو ذلك .

فإن قيل : كيف قال تعالى هنا (ففروا إلى الله) وقال سبحانه فى موضع آخر (ويحذركم الله نفسه) ؟

قلنا : معنى قوله (ففروا إلى الله) أى الجئوا إليه بالتوبة . وقيل معناه : ففروا من عقوبته إلى رحمته ، ومعنى قوله (ويحذركم الله نفسه) أى يخوفكم عذاب نفسه أوعقاب نفسه . وقال الزجاج : معنى نفسه إياه كأنه قال : ويحذركم الله إياه ، كما قال سبحانه وتعالى (يريدون وجهه) أى إياه ، فظهر أنه لاتناقض بين الآيتين .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وإذا قلنا ، خلقهم للعبادة كان مريدا لها منهم فكيف أرادها منهم ولم توجد منهم ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها أنه عام أريد به الخاص وهم المؤمنون ؛ بدليل خروج البعض منه بقوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس) ومن خلق لجهنم لايكون مخلوقا للعبادة . الثانى : أنه على عمومه ، والمراد بالعبادة التوحيد ، وقد وحده الكل يوم أخذ الميثاق ، وهذا الجواب يختص بالإنس ، لأن أخذ الميثاق مخصوص بهم بالآية ، وقيل معناه : إلا ليكونوا عبيدا لى . وقيل معناه : إلا ليذلوا ويخضعوا وينقادوا لما قضيته وقدرته عليهم فلا يخرج عنه أحد منهم : وقيل معناه إلا ليعبدون إن اختاروا العبادة لاقسرا وإلجاء . وقيل إلا ليعبدون العبادة المرادة فى قوله تعالى (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها) والعموم ثابت فى الوجوه الخمسة .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (وما أريد أن يطعمون) بعد قوله (ماأريد منهم من رزق) ؟

قلنا : معناه ما أريد منهم من رزق لأنفسهم ، وما أريد أن يطعمون : أى أن يطعموا عبيدى ، وإنما أضاف الإطعام إلى ذاته المقدسة لأن الخلق

عياله وعبيده ، ومن أطعم عيال غيره فكأنه أطعمه ، ويؤيده ما جاء فى الحديث الصحيح « إن الله عزّ وجلّ يقول يوم القيامة : يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى » أى استطعمك عبدى فلم تطعمه .

سورة الطور

فإن قيل : كيف قال تعالى (وزوجناهم بحور عين) مع أن الحور العين فى الجنة مملوكات ملك يمين لا ملك نكاح ؟

قلنا : معناه قرناهم بهن من قولهم زوجت إبلى : أى قرنت بعضها إلى بعض ، وليس من التزويج الذى هو عقد النكاح ، ويؤيده أن ذلك لا يعدى بالباء بل بنفسه كما قال تعالى (زوجناكها) ويقال زوجه امرأة ولا يقال بامرأة .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى فى وصف أهل الجنة (كل امرئ بما كسب رهين) أى مرهون فى النار بعمله ؟

قلنا : قال الزمخشرى : كأن نفس كل عبد ترهن عند الله تعالى بالعمل الصالح الذى هو مطالب به كما يرهن الرجل عبده بدين عليه ، فإن عمل صالحا فكها وخلصها وإلا أوبقها . وقال غيره : هذه جملة من صفات أهل النار وقعت معترضة فى صفات أهل الجنة ، ويؤيده ماروى عن مقاتل أنه قال معناه : كل امرئ كافر بما عمل من الكفر مرتهن في النار ، والمؤمن لا يكون مرتهنا لقوله تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين فى جنات) .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى حق النبى صلى الله عليه وسلم (فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) وكل واحد غيره كذلك لا يكون كاهنا ولا مجنونا بنعمة الله تعالى ؟

قلنا : معناه فما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بالصدق والنبوة بكاهن ولا مجنون كما يقول الكفار . وقيل الباء هنا بمعنى مع كما فى قوله تعالى (تنبت بالدهن) وقوله تعالى (فتستجيبون بحمده) ويقال: أكلت الخبز بالتمر : أى معه .

فإن قيل : مامعنى الجمع فى قوله تعالى (فإنك بأعيننا) ؟

قلنا : معناه التفخيم والتعظيم ، والمراد بحيث نراك ونحفظك ، ونظيره فى معنى العين قوله تعالى (ولتصنع على عينى) ونظيره فى الجمع للتفخيم والتعظيم قوله تعالى (تجرى بأعيننا) وقوله تعالى (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما) .

سورة النجم

فإن قيل : الضلال والغواية واحدة ، فما فائدة قوله تعالى (ماضل صاحبكم وما غوى) ؟

قلنا : قيل إن بينهما فرقا لأن الضلال ضد الهدى والغى ضد الرشد وهما مختلفتان مع تقاربهما . وقيل معناه ماضل فى قوله ولاغوى فى فعله ، ولوثبت اتحاد معناهما يكون من باب التأكيد باللفظ المخالف مع اتحاد المعنى .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى) أدخل كلمة الشك والشك محال على الله تعالى ؟

قلنا : أوهنا للتخيير لا للشك ، كأنه قال سبحانه وتعالى: إن شئتم قدروا ذلك القرب بقاب قوسين ، وإن شئتم قدروه بأدنى منهما . وقيل معناه : بل أدنى . وقيل هو خطاب لهم بما هو معهود بينهم . وقيل هو تشكيك لهم لئلا يعلموا قدر ذلك القرب ، ونظيره قوله تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) والكلام فيهما واحد .

فإن قيل : قوله تعالى (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) من رؤية القلب لا من رؤية البصر ، فأين مفعولها الثانى ؟

قلنا : هو محذوف تقديره : أفرأيتموها بنات الله وأنداده ، فإنهم كانوا يزعمون أن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله عز وجل .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (الثالثة الأخرى) فوصف الثالثة بالأخرى والعرب إنما تصف بالأخرى الثانية لا الثالثة ، فظاهر اللفظ يقتضى أن يكون قد سبق ثالثة أولى ، ثم لحقتها الثالثة الأخرى فتكون ثالثتان ؟

قلنا : الأخرى نعت للعزى تقديره : أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة لأنها ثالثة الصنمين فى الذكر ، وإنما أخر الأخرى رعاية للفواصل كما قال (ولى فيها مآرب أخرى) ولم يقل أخر رعاية للفواصل .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وإن الظن لايغنى من الحق شيئا) أى لايقوم مقام العلم ، مع أنه يقوم مقام العلم فى صورة القياس ؟

قلنا : المراد به هنا الظن الحاصل من اتباع الهوى دون الظن الحاصل من النظر والاستدلال ، ويؤيده قوله تعالى قبل هذا (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) وقد صح فى الأخبار وصول ثواب الصدقة والقراءة والحج وغيرها إلى الميت ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما أنها منسوخة بقوله تعالى (وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم) معناه أنه أدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء ، قالوا وهذا لايصح لأن الآيتين خبر ولانسخ فى الخبر . الثانى : أن ذلك مخصوص بقوم إبراهيم وموسى عليهم الصلاة والسلام ، وهو حكاية مافى صحفهم ، فأما هذه الأمة فلها ماسعت وماسعى لها . الثالث أنه على ظاهره ، ولكن دعاء ولده وصديقه وقراءتهما وصدقتهما عنه من سعيه أيضا بواسطة اكتسابه للقرابة أو الصداقة أو المحبة من الناس بسبب التقوى والعمل الصالح .

فإن قيل : كيف قال تعالى بعد تعديد النقم (فبأى آلاء ربك تتمارى) والآلاء النعم ؟

قلنا : إنما قال سبحانه بعد تعديد النعم والنقم نعم ٧ لما فيها من المزجر والمواعظ فمعناه : فبأى نعم ربك الدالة على وحدانيته تشك ياوليد بن المغيرة

سورة القمر

فإن قيل : مافائدة إعادة التكذيب فى قوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا) وهلا قال تعالى كذبت قبلهم قوم نوح عبدنا ؟

قلنا : معناه كذبوا تكذيبا بعد تكذيب . وقيل إن التكذيب الأول منهم بالتوحيد ، والثانى بالرسالة . وقيل التكذيب الأول منهم لله تعالى ، والثانى لرسوله صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف ماء الأرض والسماء (فالتقى الماء) ولم يقل فالتقى الماءان ؟

قلنا : أراد به جنس المياه .

فإن قيل : الجزاء إنما يكون للكافر لا للمكفور ، فكيف قال تعالى (جزاء لمن كان كفر) .

قلنا : جزاء مفعول له فمعناه : ففتحنا أبواب السماء وما بعده مما كان يسبب إغراقهم جزاء لله تعالى لأنه مكفور به ، فحذف الجار وأوصل الفعل بنفسه كقوله تعالى (واختار موسى قومه) والجزاء يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول كسائر المصادر . الثانى : أنه نوح عليه السلام إما لأنه مكفور به بحذف الجار كما مر من الكفر الذى هو ضد الإيمان ، أو لأن كل نبى نعمة من الله على قومه ، ومنه قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقال رجل للرشيد : الحمد لله عليك ؛ فقال مامعنى هذا : فقال أنت نعمة حمدت الله عليها ، فكأنه قال : جزاء لهذه النعمة المكفورة ، وكفران

النعمة يتعدى بنفسه قال الله تعالى (ولا تكفرون) الثالث : أن « من » بمعنى ما فمعناه : جزاء لما كان كفر من نعم الله تعالى على العموم . وقرأ قتادة كفر بالفتح : أى جزاء للكافرين .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (أعجاز نخل منقعر) أى منقلع ، ولم يقل منقعرة ؟

قلنا : إنما ذكر الصفة لأن الموصوف وهو النخل مذكر اللفظ ليس فيه علامة تأنيث ، فاعتبر اللفظ وفى موضع آخر اعتبر المعنى وهو كونه جمعا فقال (أعجاز نخل خاوية) ونظيرهما قوله تعالى (لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم) وقال أبو عبيدة : النخل يذكر ويؤنث ، فجمع القرآن اللغتين . وقيل إنما ذكر رعاية للفواصل .

سورة الرحمن عز وجل

فإن قيل : أى مناسبة بين رفع السماء ووضع الميزان حتى قرن بينهما ؟

قلنا : لما صدّر هذه السورة بتعديد نعمه سبحانه على عبيده ، ذكر من جملتها وضع الميزان الذى به نظام العالم وقوامه ، لاسيما أن المراد بالميزان العدل فى قول الأكثرين ، والقرآن فى قول ، وكل ما تعرف به المقادير فى قول كالمكيال والميزان والذراع المعروف ونحوها .

فإن قيل : قوله تعالى (ألا تطغوا فى الميزان) أى لاتجاوزوا فيه العدل مغن عما بعده من الجملتين فما فائدتهما ؟

قلنا : المراد بالطغيان فيه أخذ الزائد ، وبالإخسار فيه إعطاء الناقص وأمر بالتوسط الذى هو إقامة الوزن بالقسط ، ونهى عن الطرفين المذمومين .

فإن قيل : كيف قال تعالى هنا (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) وهو الطين اليابس الذى لم يطبخ لكن له صلصلة : أى صوت إذا نقر ، وقال تعالى فى موضع آخر (من صلصال من حمأ مسنون) وقال تعالى (من طين لازب) وقال تعالى (من تراب) ؟

قلنا : الآيات كلها متفقة فى المعنى ، لأنه تعالى خلقه من تراب ثم جعله طينا ثم حمأ مسنونا ثم صلصالا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (رب المشرقين ورب المغربين) فكرر ذكر الرب ولم يكرره فى سورة المعارج بل أفرده فقال تعالى (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) وكذا فى سورة المزمل (رب المشرق والمغرب) (لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) ؟

قلنا : إنما ذكر الرب تأكيدا ، فكان التأكيد بهذا الموضع أليق منه بذينك الموضعين ، لأنه موضع الامتنان وتعديد النعم ، ولأن الخطاب فيه مع جنسين وهما الإنس والجن .

فإن قيل : بعض الجمل المذكورة فى هذه السورة ليست من النعم كقوله تعالى (كل من عليها فان) وقوله تعالى (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) فكيف حسن الامتنان بعدها بقوله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ؟

قلنا : من جملة الآلاء دفع البلاء وتأخير العقاب ، فإبقاء من هو مخلوق للفناء نعمة ، وتأخير العقاب عن العصاة أيضا نعمة فلهذا امتن علينا بذلك .

فإن قيل : كيف قال تعالى (سنفرغ لكم أيها الثقلان) والله تعالى لا يشغله شىء ؟

قلنا : قال الزجاج : الفراغ فى اللغة على ضربين : أحدهما الفراغ من شغل ، والآخر القصد للشىء والإقبال عليه ، وهو تهديد ووعيد ،

ومنه قولهم : سأتفرغ لفلان : أى سأجعله قصدى ، فعنى الآية سنقصد لعقابكم وعذابكم وحسابكم .

فإن قيل : كيف وعد سبحانه الخائف جنتين فقط ؟

قلنا : لأن الخطاب للثقلين ، فكأنه قيل لكل خائفين من الثقلين جنتان ، جنة للخائف الإنسى ، وجنة للخائف الجنى . وقيل المراد به أن لكل خائف جنتين ، جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصى . وقيل جنة يثاب بها ، وجنة يتفضل بها عليه زيادة لقوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) أى الجنة وزيادة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فيهن قاصرات الطرف) ولم يقل سبحانه فيهما ، والضمير للجنتين ؟

قلنا : الضمير لمجموع الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة وغيرهما مما سبق ذكره . وقيل هو للجنتين : وإنما جمعه لاشتمال الجنتين على قصور ومنازل . وقيل الضمير للمنازل والقصور التى دل عليها ذكر الجنتين . وقيل الضمير لمجموع الجنان التى دل عليها ذكر الجنتين . وقيل الضمير عائد إلى الفرش لأنها أقرب ، وعلى هذا القول « فى » بمعنى على ، كما فى قوله تعالى (أم لهم سلم يستمعون فيه) .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (لم يطمثهن إنس قبلهم ولاجان) أى لم يفتضهن ، ونساء الدنيا لا يفتضهن الجان ، فما فائدة تخصيص الحور بذلك؟

قلنا : معناه أن تلك القاصرات الطرف إنسيات للإنس وجنيات للجن ، فلم يطمث الإنسيات إنسى ، ولا الجنيات جنى ، وهذه الآية دليل على أن الجن يواقعون كما يواقع الانس . وقيل فيها دليل على أن الجنى يغشى الإنسية فى الدنيا .

سورة الواقعة

فإن قيل : ما فائدة التكرار فى قوله تعالى (والسابقون السابقون) ؟

قلنا : فيه وجهان : أحدهما أنه تأكيد مقابل لما سبقه من التأكيد فى (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) كأنه قال تعالى : والسابقون هم المعروف حالهم المشهور وصفهم ، ونظيره قول أبى النجم * أنا أبو النَّجْمِ وَشِعْرِى شِعْرِى * الثانى : أن معناه : والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى جنته وكرامته . ثم قيل المراد بهم السابقون إلى الإيمان من كل أمة . وقيل الذين صلوا إلى القبلتين . وقيل أهل القرآن . وقيل السابقون إلى المساجد إلى الخروج فى سبيل الله . وقيل هم الأنبياء صلوات الله عليهم ، فهذه خمسة أقوال .

فإن قيل : كيف قال تعالى (يطوف عليهم ولدان مخلدون) مع أن التخليد ليس صفة مخصوصة بالولدان فى الجنة ، بل كل أهل الجنة مخلدون فيها لا يشيبون ولا يهرمون ، بل يبقى كل واحد أبدا على صفته التى دخل الجنة عليها ؟

قلنا : معناه أنهم لا يتحولون عن شكل الولدان وهى الوصافة : وقيل مقرطون . وقيل مسورون ، ولا إشكال على هذين القولين .

فإن قيل : كيف قال تعالى (لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم) أنث ضمير الشجر ثم ذكره ؟

قلنا : قد سبق جوابه فى سورة القمر .

فإن قيل : كيف قال تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) أى فهلا تصدقون ، مع أنهم مصدقون أنه خلقهم بدليل قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) ؟

قلنا : هم وإن كانوا مصدقين بألسنتهم إلا أنهم لما كان مذهبهم على خلاف ما يقتضيه التصديق فكأنهم مكذبون به . الثانى : أنه تخصيص على التصديق بالبعث بعد الموت بالاستدلال بالخلق الأول ، فكأنه قال تعالى : هو الذى خلقكم أولا باعترافكم ، فلا يمتنع عليه أن يعيدكم ثانيا فهلا تصدقون بذلك .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى الزرع (لو نشاء لجعلناه حطاما) باللام وقال تعالى فى الماء (لو نشاء جعلناه أجاجا) بغير لام ؟

قلنا : الأصل أن تذكر اللام فى الموضعين ، إذ لابد منها فى جواب « لو » إلا أنها حذفت فى الثانى اختصارا ، وهى مؤدية لدلالة الأولى عليها . الثانى : أن أصل هذه اللام للتأكيد ، فذكرت مع المطعوم دون المشروب ، لأن المطعوم مقدم وجودا ورتبة ، لأنه إنما يحتاج إلى الماء تبعا له ، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب ، فلما كان الوعيد بفقد المطعوم أشد وأصعب أكد تلك الجملة مبالغة ، فى التهديد .

فإن قيل : التسبيح التنزيه عن السوء ، فمامعنى باسم فى قوله تعالى (فسبح باسم ربك العظيم) وهلا قال تعالى فسبح ربك العظيم ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها أن الباء زائدة والاسم بمعنى الذات فصار المعنى ما قلتم . الثانى : أن الاسم بمعنى الذكر ، فمعناه فسبح بذكر ربك . الثالث أن الذكر فيه مضمر ، فمعناه فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك . الرابع : قال الضحاك : معناه فصل باسم ربك : أى افتتح الصلاة بالتكبير .

فإن قيل : إذا كان القرآن صفة من صفات الله تعالى قديمة قائمة بذاته المقدسة ، فكيف قال تعالى (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون)أى اللوح المحفوظ أو المصحف على اختلاف القولين ؟

قلنا : معناه مكتوب فى كتاب مكنون ، ولايلزم من كتابة القرآن فى الكتاب أن يكون القرآن حالا فى الكتاب كما فى كتب إنسان على كفه

ألف دينار لايلزم منه وجود ألف دينار فى كفه ، وكذا لو كتب فى كفه العرش أو الكرسى ، وكذا وكذا ، قال تعالى فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم (يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل) . الثانى أن القرآن لو كان حالا فى المصحف فإما أن يكون جميعه حالا فى مصحف واحد ، أوفى كل مصحف ، أوفى بعضه ، ولاسبيل إلى الأول لأن المصاحف كلها سواء فى الحكم فى كتابته فيها ، ولأن البعض ليس أولى بذلك من البعض ، ولاسبيل إلى الثانى وإلا يلزم تعدد القرآن وأنه متحد ، ولاسبيل إلى الثالث لأنه كله مكتوب فى كل مصحف ، ولأن هذا المصحف ليس أولى بهذا البعض من ذلك المصحف ، وكذا الباقى ، فثبت أنه ليس حالا فى شىء منها ، بل هو كلام الله تعالى وكلامه صفة قديمة قائمة به لاتفارقه .

فإن قيل : فإذا لم تفارقه فكيف سماه تعالى منزلا وتنزيلا ، وقال سبحانه (نزل به الروح الأمين) ونظائره كثيرة ، وإذا فارقه وباينه يكون مخلوقا ، لأن كل مباين له فهو غيره ، وكل ماهو غيره فهو مخلوق ؟

قلنا : معنى إنزاله أنه سبحانه وتعالى علمه لجبريل فحفظه ، وأمره أن يعلمه للنبى صلى الله عليه وسلم ويأمره أن يعلمه لأمته ، مع أنه لم يزل ولايزال صفة لله تعالى قائمة به لاتفارقه .

سورة الحديد

فإن قيل : كيف قال تعالى (وما لكم لاتؤمنون بالله) ثم قال سبحانه (إن كنتم مؤمنين) ؟

قلنا : معناه إن كنتم مؤمنين بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، فإن شريعتهما تقتضى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم . الثانى : إن كنتم مؤمنين بالميثاق الذى أخذه عليكم يوم أخرجكم من ظهر آدم عليه السلام . الثالث : أن معناه : أى عذر لكم فى ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه ويتلو

عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج ، وقد ركب الله تعالى فيكم العقول ونصب لكم الأدلة ومكنكم من النظر وأزاح عللكم ، فما لكم لاتؤمنون إن كنتم مؤمنين بموجب ما ، فإن هذا الموجب لامزيد عليه .

فإن قيل : كيف قال تعالى (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) ولم يذكر مع من لايستوى ، والاستواء لايتم إلا بذكر اثنين كقوله تعالى (قل لايستوى الخبيث والطيب ـ لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) ؟

قلنا : هو محذوف تقديره : ومن أنفق وقاتل من بعد الفتح ، وإنما حذف لدلالة مابعده عليه .

فإن قيل : كيف يقال إن أعلى الدرجات بعد درجة الأنبياء درجة الصديقين ، والله تعالى قد حكم لكل مؤمن بكونه صديقا بقوله تعالى (والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) ؟

قلنا : قال ابن مسعود ومجاهد : كل مؤمن صديق . الثانى أن الصديق هو كثير الصدق ، وهو الذى كل أقواله وأفعاله وأحواله صدق ، فعلى هذا يكون المراد به بعض المؤمنين لا كلهم . وقد روى عن الضحاك أنها نزلت فى ثمانية نفر سبقوا أهل الأرض فى زمانهم إلى الإسلام ، وهم أبو بكر وعثمان وعلى وحمزة بن عبد المطلب وطلحة والزبير وسعد وزيد ، وألحق بهم عمر رضى الله عنهم فصاروا تسعة .

فإن قيل : كيف ذكر سبحانه هؤلاء المذكورين بكونهم شهداء ومنهم من لم يقتل ؟

قلنا : معناه أن لهم أجر الشهداء . الثانى : أنه جمع شهيد بمعنى شاهد ، فمعناه أنهم شاهدوه عند ربهم على أنفسهم بالإيمان . الثالث أنه مبتدأ منقطع عما قبله لامعطوف عليه ؛ معناه : والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم .

فإن قيل : كيف قال تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم) والمسابقة من المفاعلة التى لاتكون إلا بين اثنين كقولك : سابق زيد عمرا ؟

قلنا : قيل معناه سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم فى الميدان ، ويؤيد هذا القول مجيئه بلفظ المسارعة فى سورة آل عمران . وقيل سابقوا ملك الموت قبل أن يقطعكم بالموت عن الأعمال التى توصلكم إلى الجنة . وقيل سابقوا إبليس قبل أن يصدكم بغروره وخداعه عن ذلك .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) وقال تعالى فى سورة آل عمران (وجنة عرضها السموات والأرض) فكيف يكون عرضها كعرض السماء الواحدة وكعرض السموات السبع ؟

قلنا : المراد بالسماء جنس السموات لاسماء واحدة ، كما أن المراد بالأرض فى الآيتين جنس الأرضين ، فصار التشبيه فى الآيتين بعرض السموات السبع والأرضين السبع .

فإن قيل : كيف قال تعالى (لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) ولا أحد يملك نفسه عند مضرة تناله أن لايحزن ، ولا عند منفعة تناله أن لايفرح ، وليرجع كل واحد منا فى ذلك إلى نفسه ؟

قلنا : ليس المراد بذلك الحزن والفرح الذى لاينفك عنه الإنسان بطبعه قسرا وقهرا ، بل المراد به الحزن المخرج لصاحبه إلى الذهول عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغى الملهى عن الشكر ، نعوذ بالله منهما .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) والميزان لم ينزل من السماء ؟

قلنا : قيل المراد بالميزان هنا العدل . وقيل العقل . وقيل السلسلة التى أنزلها الله تعالى على داود عليه السلام . وقيل هو الميزان المعروف أنزله جبريل فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال له : مر قومك يزنوا به .

فإن قيل : كيف قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله) مع أن المؤمنين مؤمنون برسوله صلى الله عليه وسلم ؟

قلنا : معناه ياأيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فيكون خطابا لليهود والنصارى خاصة ، وعليه الأكثرون . وقيل معناه : ياأيها الذين آمنوا يوم الميثاق اتقوا الله وآمنوا برسوله اليوم . وقيل معناه ياأيها الذين آمنوا بالله فى العلانية باللسان اتقوا الله وآمنوا برسوله فى السر بتصديق القلب .

سورة المجادلة

فإن قيل : لأى معنى خص الله تعالى الثلاثة والخمسة بالذكر فى النجوى دون غيرهما من الأعداد فى قوله تعالى (مايكون من نجوى ثلاثة) الآية ؟

قلنا : لأن قوما من المنافقين تخلفوا للتناجى على هذين العددين مغايظة للمؤمنين ، فنزلت الآية على صفة حالهم تعريضا بهم وتسميعا لهم وزيد فيها مايتناول كل متناجيين غير تلك الطائفتين ، وهو قوله تعالى (ولا أدنى من ذلك ولا أكثر) .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) ؟

قلنا : فائدته الإخبار عن المنافقين أنهم يحلفون على أنهم ماسبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع اليهود كاذبين متعمدين للكذب فهى اليمين الغموس ، فكان ذلك نهاية فى بيان ذمهم .

سورة الحشر

فإن قيل : كيف قال تعالى (والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم) والإيمان ليس مكانا يتبوأ لأن معنى التبوء اتخاذ المكان منزلا ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : وأخلصوا الإيمان كقول الشاعر :

* عَلَفْتُها تبنًا وماءً باردًا * أى وسقيتها ماء باردا . الثانى : أنه على

ظاهره بغير إضمار ولكنه مجاز ، فمعناه أنهم جعلوا الإيمـان مستقرا وموطنا لتمكنهم منه واستقامتهم عليه ، كما جعلوا دار الهجرة كذلك وهى المدينة .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ولئن نصروهم) بعد الإخبار بأنهم لاينصرونهم وحرف الشرط إنمـا يدخل على مايحتمل وجوده وعدمه .

قلنا : معناه : ولئن نصروهم على الفرض والتقدير كقوله تعالى للنبى صلى الله عليه وسـلم (لئن أشركت ليحبطن عملك) وقوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) والله تعالى كما يعلم ما يكون قبل كونه ، فهو يعلم مالا يكون أن لو كان كيف يكون .

فإن قيل : ما معنى قوله تعالى للمؤمنين (لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله) أى فى صدور المنافقين أو اليهود على اختلاف القولين ، وظاهره لأنتم أشد خوفا من الله ، فإن كان « من » متعلقا بأشد لزم ثبوت الخوف لله تعالى كما تقول : زيد أشد خوفا فى الدار من عمرو ، وذلك محال ، وإن كان من الله متعلقا بالخوف فأين الذى فضل عليه المخاطبون ، وأيضا فإن الآية تقتضى إثبات زيادة الخوف للمؤمنين ، وليس المراد ذلك باتفاق المفسرين ؟

قلنا : رهبة مصـدر رهب مبنيا لمـا لم يسم فاعـله ، فكأنه قيل أشد مرهوبية ، يعنى أنكم فى صدورهم أهيب من الله فيها ، كذا فسره ابن عباس رضى الله عنهما ، ونظيره قولك : زيد أشد ضربا فى الدار من عمرو ، يعنى مضروبية .

فإن قيل : كيف يستقيم التفضيل بأشدية الرهبة مع أنهم كانوا لايرهبون الله ، لأنهم لو رهبوه لتركوا النفاق والكفر ؟

قلنا : معناه أن رهبتهم فى السر منـكم أشد من رهبتهم من الله التى يظهرونها لـكم ، وكانوا يظهرون للمؤمنين رهبة شديدة من الله تعالى .

فإن قيل : كيف قال إبليس (إنى أخاف الله) وهو لايخاف الله تعالى لأنه لو خافه لما خالفه ثم أضل عبيده ؟

قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه فى سورة الأنفال .

فإن قيل : ما فائدة تنكير النفس والغد فى قوله تعالى (ولتنظر نفس ماقدمت لغد) ؟

قلنا : أماتنكير النفس فلا ستقلال الأنفس النواظر فيما قدمت للآخرة كأنه قال : ولتنظر نفس واحدة فى ذلك ، وأين تلك النفس ؛ وأما تنكير الغد فلعظمته وإبهام أمره كأنه قال لغد لايعرف كنهه لعظمه .

فإن قيل : كيف قال تعالى (لغد) وأراد به يوم القيامة ، والغد عبارة عن يوم بينه وبيننا ليلة واحدة ؟

قلنا : الغد له مفهومان : أحدهما ماذكرتم . والثانى مطلق الزمان المستقبل ، ومنه قول الشاعر :

وأعْلَمُ مافى اليوْمِ والأمْسِ قَبْلَهُ
ولَكِنَّنِى عَنْ عِلْمِ مافى غَدٍ عَمِى

وأراد به مطلق الزمان المستقبل كما أراد بالأمس مطلق الزمان الماضى ، فصار لكل واحد منهما مفهومان ، ويؤيده أيضا قوله تعالى (كأن لم تغن بالأمس) وقيل إنما أطلق على يوم القيامة اسم الغد تقريبا له كقوله تعالى (اقتربت الساعة) وقوله تعالى (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) وكأنه تعالى قال : إن يوم القيامة لقربه يشبه ماليس بينكم وبينه إلا ليلة واحدة ، ولهذا روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « اعمل لليلة صبيحتها يوم القيامة » قالوا أراد بتلك الليلة ليلة الموت ؛

فإن قيل : مامعنى قوله تعالى (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) الآية ؟

قيل : معناه : أنه سبحانه لوجعل فى جبل على قساوته تمييزا كما جعل

فى الإنسان ثم أنزل عليه القرآن ، لتشقق خشية من الله تعالى وخوفا أن لايؤدى حقه فى تعظيم القرآن . والمقصود توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة خشوعه عند تلاوة القرآن ، وإعراضه عن تدبر قوارعه وزواجره .

فإن قيل : ماالفرق بين الخالق والبارئ حتى عطف تعالى أحدهما على الآخر ؟

قلنا : الخالق هو المقدر لما يوجده ، والبارئ هو المميز بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة . وقيل الخالق المبدئ والبارئ المعيد .

سورة الممتحنة

فإن قيل : من ماذا استثنى قوله تعالى (إلا قول إبراهيم لأبيه) ؟

قلنا : من قوله تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم) لأنه سبحانه أراد بالأسوة الحسنة قوله الذى حكاه عنه وعن أتباعه وأشياعه ليقتدوا به ويتخذوه سنة يستنون بها ، واستثنى سبحانه استغفاره لأبيه لأنه كان عن موعدة وعدها إياه .

فإن قيل : فإن كان استغفاره لأبيه أو وعده لأبيه بالاستغفار مستثنى من الأسوة ، فكيف عطف عليه قوله (وما أملك لك من الله من شىء) وهو لايصح استثناؤه ، ألا ترى إلى قوله تعالى (قل فمن يملك لكم من الله شيئا) .

قلنا : المقصود بالاستثناء هو الجملة الأولى فقط ، وما بعدها ذكر لأنه من تمام كلام إبراهيم صلوات الله عليه لابقصد الاستثناء ، كأنه قال : أنا أستغفر لك وما فى طاقتى إلا الاستغفار .

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى (ولايعصينك فى معروف) ومعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم لايأمر إلا بمعروف ، فهلا اقتصر على قوله تعالى ولايعصينك ؟

قلنا : فائدته سرعة تبادر الأفهام إلى قبح المعصية منهن لو وقعت من غير توقف الفهم على المقدمة التى أوردتم فى السؤال .

سورة الصف

فإن قيل : ما فائدة « قد » فى قوله تعالى (وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم) ؟

قلنا : فائدتها التأكيد ، كأنه قال : وتعلمون علما يقينا لاشبهة لكم فيه هذا جواب الزمخشرى : وقال غيره : فائدتها التكثير ، لأن قد مع الفعل المضارع تارة تأتى للتقليل كقولهم : إن الكذوب قد يصدق ، وتارة تأتى للتكثير كقول الشاعر :

قَدْ أعْسَفَ النَّازِحُ المَجْهُودُ معْسِفَةً
في ظِلِّ أخْضر يدْعُو هامةَ البُومِ

وإنما يتمدح بما يكثروجوده منه لابما يقل .

فإن قيل . كيف قال عيسى عليه السلام (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) ولم يقل محمد ومحمد أشهر أسماء النبى صلى الله عليه وسلم ؟

قلنا : إنما قال أحمد لأنه مذكور فى الإنجيل بعبارة تفسيرها أحمد لامحمد ، وإنما كان كذلك لأن اسمه فى السماء أحمد وفى الأرض محمد ، فنزل فى الإنجيل اسمه السماوى . وقيل إن أحمد أبلغ فى معنى الحمد من محمد من جهة كونه مبنيا على صيغة التفضيل . وقيل محمد أبلغ من جهة كونه على صيغة التفضيل الذى هو للتكثير .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ولم يقل سبحانه هذه ، والمشار إليه البينات وهى مؤنثة ؟

قلنا : معناه هذا الذى جئت به ، فالإشارة إلى المأتى به .

فإن قيل : ما وجه صحة التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصار الله بقول عيسى عليه السلام (من أنصارى إلى الله) ؟

قلنا : التشبيه محمول على المعنى تقديره : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصارا لعيسى عليه السلام حين قال لهم من أنصارى إلى الله .

سورة الجمعة

فإن قيل : كيف قال تعالى (فاسعوا إلى ذكر الله) والسعى العدو ، والعدو إلى صلاة الجمعة وإلى كل صلاة مكروه ؟

قلنا : المراد بالسعى القصد . وقال الحسن : ليس هو السعى على الأقدام ، ولكنه على النيات والقلوب ، ويؤيد قول الحسن قوله تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) وقول الداعى فى دعاء القنوت : وإليك نسعى ونحفد ، وليس المراد به العدو والإسراع بالقدم .

فإن قيل : كيف قال تعالى (انفضوا إليها) والمذكور شيئان اللهو والتجارة ؟

قلنا : قد سبق جواب هذا فى سورة التوبة فى قوله تعالى (ولاينفقونها فى سبيل الله) والذى يؤيده هنا ما قاله الزجاج معناه : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهوا انفضوا إليه ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه : وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه إليهما بضمير التثنية ، وعليه فلا حذف .

سورة المنافقون

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (والله يعلم إنك لرسوله) ؟

قلنا : لو قال تعالى : قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يشهد إنهم لكاذبون ، لكان يوهم أن قولهم هذا كذب ، وليس المراد أن شهادتهم

هذه كذب ؛ بل المراد أنهم كاذبون فى غير هذه الشهادة . وقال أكثر المفسرين : إنه تكذيب لهم فى هذه الشهادة لأنهم أضمروا خلاف ما أظهروا ولم يعتقدوا أنه رسول الله بقلوبهم ، فسماهم كاذبين لذلك ، فعلى هذا يكون ذلك تأكيدا .

فإن قيل : المنافقون ما برحوا على الكفر ، فكيف قال تعالى (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا) :

قلنا : معناه ذلك الكذب الذى حكم عليهم به ، أو ذلك الإخبار عنهم بأنهم ساء ما كانوا يعملون بسبب أنهم آمنوا بألسنتهم (ثم كفروا) بقلوبهم (فطبع على قلوبهم) كما قال تعالى فى وصفهم (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم) . الآية الثانى أن المراد به أهل الردة منهم .

فإن قيل : كيف قال تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو) ولم يقل هى العدو ؟

قلنا : عليهم هو ثانى مفعولى يحسبون تقديره : يحسبون كل صيحة واقعة عليهم : أى لجبنهم وهلعهم ، فالوقف على قوله تعالى عليهم وقوله سبحانه (هم العدو) ابتداء كلام . وقيل إن المفعول الثانى هو قوله تعالى (هم العدو) ولكن تقديره : يحسبون أهل كل صيحة عليهم هم العدو ، والأول أظهر بدليل عدم نصب العدو .

سورة التغابن

فإن قيل : كيف قال تعالى (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) قدم الكافر فى الذكر ؟

قلنا : الواو لاتعطى رتبة ولا تقتضى ترتيبا كما قال تعالى (فمنهم شقى وسعيد) وقال تعالى (لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) وقال سبحانه (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات)وقال تعالى (يهب لمن

يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور) وقد ذكرنا فى الآية الأخيرة معنى آخر فى موضعها .

فإن قيل : قوله تعالى (وتولوا واستغنى الله) يوهم وجود التولى والاستغناء معا بعد مجىء رسلهم إليهم ، والله تعالى لم يزل غنيا ؟

قلنا : معناه وظهر استغناء الله تعالى عن إيمانهم وعبادتهم حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ولم يضطرهم إليه مع قدرته تعالى على ذلك .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) مع أن الهداية سابقة على الإيمان ، لأنه لولا سبق الهداية لما وجد الإيمان ؟

قلنا : ليس المراد يهد قلبه للإيمان ، بل المراد به يهد قلبه لليقين عند نزول المصائب ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . الثانى يهد قلبه للرضا والتسليم عند نزول المصائب . الثالث يهد قلبه للاسترجاع عند نزول المصائب ، وهو أن يقول : (إنا لله وإنا إليه راجعون) . الرابع يهد قلبه : أى يجعله ممن إذا ابتلى صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر . الخامس يهد قلبه لاتباع السنة إذا صح إيمانه ، وقرىء (يهدأ) بفتح الدال وبالهمز من الهدوّ وهو السكون ، فمعناه : ومن يؤمن بالله إيمانا خالصا يسكن قلبه ويطمئن عند نزول المصائب والمحن ولا يجزع ويقلق .

سورة الطلاق

فإن قيل : كيف قال تعالى (ياأيها النبى إذا طلقتم النساء) أفرد الخطاب أولا ثم جمعه ثانيا ؟

قلنا : أفرد سبحانه النبى صلى الله عليه وسلم أولا بالخطاب لأنه إمام أمته وقدوتهم إظهارا لتقدمه ورياسته ، وأنه وحده فى حكم كلهم وسادّ مسد جميعهم . الثانى : أن معناه : ياأيها النبى قل لأمتك إذا طلقتم النساء .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب) ونحن نرى كثيرا من الأتقياء مضيقا عليهم رزقهم ؟

قلنا : معناه يجعل له مخلصا من هموم الدنيا والآخرة؛ وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة . والصحيح أن هذه الآية عامة ، وأن الله يجعل لكل متق مخرجا من كل مايضيق على من لايتقى ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم (ومن يتق الله) وجعل يقرؤها ويعيدها » وأما تضييق رزق الأتقياء فهو مع ضيقه وقلته يأتيهم من حيث لايأملون ولايرجون ، وتقليله لطف بهم ورحمة ليتوفر حظهم فى الآخرة ويخف حسابهم ، ولتقل عوائقهم عن الاشتغال بمولاهم ، ولايشغلهم الرخاء والسعة عما خلقوا له من الطاعة والعبادة ، ولهذا اختار الأنبياء والأولياء والصديقون الفقر على الغنى .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى من يثق به فيما نابه كفاه الله شر ماأهمه . وقد رأينا كثيرا من الناس يتوكل على الله فى بعض أمورهم وحوائجهم ولايكفيهم الله تعالى همها ؟

قلنا : محال أنه يتوكل على الله حق التوكل ولايكفيه همه ، بل ربما قلق وضجر واستبطأ قضاء حاجته بقلبه أوبلسانه أيضا ففسد توكله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (إن الله بالغ أمره) أى نافذ حكمه ، يبلغ مايريده ولايفوته مراد ولايعجزه مطلوب ، وبقوله تعالى (قد جعل الله لكل شىء قدرا) أى جعل لكل شىء من الفقر والغنى والمرض والصحة والشدة والرخاء ونحو ذلك أجلا ومنتهى ينتهى إليه لايتقدم عنه ولايتأخر .

فإن قيل : قوله تعالى (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر) علقه بشكنا مع أن عدتهن ذلك سواء وجد شكنا أم لا؟

قلنا : المراد بالشك الجهل بمقدار عدة الآيسة والصغيرة ، وإنما علقه به لأنه لما نزل بيان عدة ذوات الأقراء فى سورة البقرة قال بعض الصحابة رضى الله عنهم : قد بقى الكبار والصغار لاندرى كم عدتهن ، فنزلت هذه الآية على هذا السبب ، فلذلك جاءت مقيدة بالشك والجهل .

فإن قيل : إذا كانت المطلقة طلاقا بائنا تجب لها النفقة عند بعض العلماء ، فما فائدة قوله تعالى (وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن) عند ذلك القائل ؟

قلنا : فائدته أن لايتوهم أنه إذا طالت مدة الحمل بعد الطلاق حتى مضت مدة عدة الحائل سقطت النفقة ، فنفى هذا الوهم بقوله (حتى يضعن حملهن) .

فإن قيل : كيف قال هنا (سيجعل الله بعد عسر يسرا) وقال تعالى فى موضع آخر (إن مع العسر يسرا) فكيف التوفيق بينهما ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى «مع» بعده لأن الضدين لايجتمعان .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا) فنسب العتو إليها ، وقال تعالى (فحاسبناها ـ وعذبناها) بلفظ الماضى مع أن الحساب والعذاب المرتبين على العتو إنما هما فى الآخرة لافى الدنيا ؟

قلنا : معناه عتا أهلها ، وإنما جىء به على لفظ الماضى تحقيقا له وتقريرا ، لأن المنتظر من وعد الله تعالى ووعيده آت لامحالة ، وماهو كائن فكأنه قد حصل ، ونظيره قوله تعالى (ونادى أصحاب النار) وما أشبهه .

سورة التحريم

فإن قيل : قوله تعالى (وصالح المؤمنين) إن كان المراد به الفرد فأى فرد هو ، وأيضا فإنه لايناسب مقابلة الملائكة الذين هم جمع ، وإن كان المراد به الجمع فهلا كان مكتوبا فى المصحف بالواو ؟

قلنا : هو فرد أريد به الجمع كقولك : لايفعل هذا الفعل الصالح من الناس ، تريد به الجنس كقولك : لايفعله من صلح منهم ، وقوله تعالى (إن الإنسان خلق هلوعا) وقوله تعالى (إن الإنسان لفى خسر) وقوله تعالى (والملك على أرجائها) وقوله تعالى (ثم يخرجكم طفلا) ونظائره كثيرة . الثانى أنه يجوز أن يكون جمعا ، ولكنه كتب فى المصحف بغير واو على اللفظ كما جاءت ألفاظ كثيرة فى المصحف على اللفظ دون اصطلاح الخط .

فإن قيل : كيف قال تعالى (والملائكة بعد ذلك ظهير) ولم يقل ظهراء وهو خبر عن الجمع وهم الملائكة ؟

قلنا : هو فرد وضع موضع الجمع كما سبق . الثانى : اسم على وزن المصدر كالزميل والدبيب والصليل ، فيستوى فيه الفرد والتثنية والجمع . الثالث : أن فعيلا يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع بدليل قوله تعالى (عن اليمين وعن الشمال قعيد) .

فإن قيل : قوله تعالى بعد ذلك تعظيم للملائكة ومظاهرتهم ، وقد تقدمت نصرة الله تعالى وجبريل وصالح المؤمنين ، ونصرة الله سبحانه أعظم ؟

قلنا : مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله تعالى ، فكأنه فضل نصرته بهم على سائر وجوه نصرته لفضلهم وشرفهم ، ولا شك أن نصرته بجميع الملائكة أعظم من نصرته بجبريل وحده أو بصالح المؤمنين .

فإن قيل : كيف قال تعالى (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات) إلى آخر الآية ، فأثبت الخيرية لهن باتصافهن بهذه الصفات ، وإنما تثبت لهن الخيرية بهذه الصفات لو لم تكن تلك الصفات ثابتة فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم وهى ثابتة فيهن ؟

قلنا : المراد به خيرا منكن فى حفظ قلبه ومتابعة رضاه ، مع اتصافهن بهذه الصفات المشتركة بينكن وبينهن .

فإن قيل : كيف أخليت الصفات كلها عن الواو وأثبتت بين الثيبات والأبكار ؟

قلنا : لأنهما صفتان متضادتان لاتجتمعان فيهن اجتماع سائر الصفات ، فلم يكن بدّ من الواو ، ومن جعلها واو الثمانية فقد سها ، لأن واو الثمانية لايفسد الكلام بحذفها بخلاف هذه .

فإن قيل : هذه الصفات إنما ذكرت فى معرض المدح ، وأى مدح فى كونهن ثيبات ؟

قلنا التثييب مدح من وجه ، فإن الثيب أقبل للميل بالنقل وأكثر تجربة وعقلا ، والبكارة مدح من وجه فإنها أطهر وأطيب وأكثر مراغبة وملاعبة .

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى (ويفعلون مايؤمرون) بعد قوله سبحانه (لايعصون الله ما أمرهم) ؟

قلنا : قيل المراد بالأمر الأول الأمر بالعبادات والطاعات ، وبالأمر الثانى الأمر بتعذيب أهل النار ، وقيل هو تأكيد .

فإن قيل : كيف قال تعالى (توبة نصوحا) ولم يقل توبة نصوحة ؟

قلنا : لأن فعولا من أوزان المبالغة الذى يستوى فى لفظه الذكور والإناث كقولهم : امرأة صبور وشكور ونحوهما .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى (من عبادنا) بعد قوله تعالى (كانتا تحت عبدين) ؟

قلنا : فائدته مدحهما والثناء عليهما بإضافتهما إليه إضافة التشريف والتخصيص كما فى قوله تعالى (وعباد الرحمن) وقوله تعالى (فادخلى فى عبادى) وهو مبالغة فى المعنى المقصود وهو أن الإنسان لاينفعه إلا صلاح نفسه لاصلاح غيره ، وإن كان ذلك الغير فى أعلى مراتب الصلاح والقرب من الله تعالى .

فإن قيل : وكيف قال تعالى (وكانت من القانتين) ولم يقل سبحانه من القانتات ؟

قلنا : معناه كانت من القوم القانتين : أى المطيعين لله تعالى ، يعنى رهطها وأهلها ، فكأنه تعالى قال : وكانت من بنات الصالحين . وقيل إن الله تعالى لما تقبلها فى النذر وأعطاها مرتبة الذكور الذين كان لايصاح النذر إلا بهم ، عاملها معاملة الذكور فى بعض الخطاب إشارة إلى ذلك ، وقال تعالى (واركعى مع الراكعين) وقال تعالى (وكانت من القانتين) أو رعاية للفواصل .

سورة الملك

فإن قيل : مافائدة تقديم الموت على الحياة فى قوله تعالى (الذى خلق الموت والحياة) ؟

قلنا : إنما قدم سبحانه الموت لأنه هو المخلوق أولا . قال ابن عباس رضى الله عنهما : أراد به خلق الموت فى الدنيا والحياة فى الآخرة ، ولو سلم أن المراد به الحياة فى الدنيا فالموت سابق عليها لقوله تعالى(وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) مع أن فى خلقه سبحانه تفاوتا عظيما ، فإن الأضداد كلها من خلقه عز وجل وهى متفاوتة ، والسموات أيضا متفاوتة فى الصغر والكبر والارتفاع والانخفاض وغير ذلك ؟

قلنا : المراد بالتفاوت هنا الخلل والعيب والنقصان فى مخلوقه تعالى الذى هو السموات ، ويؤيده قوله تعالى (فارجع البصر هل ترى من فطور) أى من شقوق وصدوع فى السماء .

فإن قيل : كيف قال تعالى (أأمنتم من فى السماء) والله سبحانه وتعالى ليس فى السماء ولا فى غير السماء ، بل هو سبحانه منزه عن كل مكان ؟

قلنا : من ملكوته فى السماء ، لأنها مسكن ملائكته ومحل عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ، ومنها تنزل أقضيته وكتبه وأوامره ونواهيه . الثانى : أنهم كانوا يعتقدون التشبيه ، وأنه سبحانه وتعالى فى السماء فخوطبوا على حسب اعتقادهم .

سورة ن

فإن قيل : كيف قال تعالى (ولايستثنون) أى ولايقولون إن شاء الله فسمى الشرط استثناء ؟

قلنا : إنما سماه استثناء لأنه فى معناه ، فإن معنى قولك لأخرجن إن شاء الله ، ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد . وقال عكرمة : المراد به حقيقة الاستثناء : أى أنهم لايستثنون حق المساكين ، والجمهور على الأول .

فإن قيل : كيف سمى أوسطهم الاستثناء تسبيحا فقال (ألم أقل لكم لولا تسبحون) أى لولا تستثنون ؟

قلنا : إنما سماه تسبيحا لاشتراكهما فى معنى التعظيم ، لأن الاستثناء تفويض إليه وإقرار بأنه لايقدر أحد أن يفعل فعلا إلا بمشيئته ، والتسبيح تنزيه له عن السوء . الثانى : أنه كان استثناؤهم قول سبحان الله . الثالث : أن معناه لولا تنزهون أنفسكم وأموالكم عن حق الفقراء .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وقد كانوا يدعون إلى السجود) ولاتكليف فى الدار الآخرة ؟

قلنا : لايدعون إليه تكليفا وتعبدا ، ولكن توبيخا وتعنيفا على تركه فى الدنيا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وقد كانوا يدعون إلى السجود) وهم إنما كانوا يدعون إلى الصلاة ، فإن المراد بالآية دعاؤهم إلى الجماعات بأذان المؤذن حين يقول حى على الصلاة ؟

قلنا : عبر سبحانه عن الصلاة بالسجود لأنه من أركانها ، بل هو أعظم الأركان وغايتها ، كما عبر عنها بالركوع وبالقرآن .

فإن قيل : كيف قال تعالى (وهم سالمون) أى صحيحون ، مع أن الصحة ليست شرطا لوجوب الصلاة ؟

قلنا : وجوب الخروج إلى الصلاة بالجماعة مشروط بالصحة وهو المراد .

سورة الحاقة

فإن قيل : كيف قال تعالى (بريح صرصر) ولم يقل صرصرة ، كما قال تعالى (عاتية) وهو صفة لمؤنث ، لأنها الشديدة الصوت أو الشديدة البرد ؟

قلنا : لأن الصرصر وصف مخصوص بالريح لايوصف به غيرها ، فأشبه باب حائض وطامث وحامل ، بخلاف عاتية فإن غير الريح من الأسماء المؤنثة يوصف به :

فإن قيل : كيف قال تعالى (فترى القوم فيها صرعى) أى فى تلك الليالى والأيام ، والنبى صلى الله عليه وسلم ما رآهم ولايراهم فيها ؟

قلنا : فيها ظرف لقوله تعالى صرعى ، لالقوله تعالى فترى ، والرؤية هنا من رؤية العلم والاعتبار ، فصار المعنى فتعلمهم صرعى فى تلك الليالى والأيام بإعلامنا حتى كأنك تشاهدهم .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة) إلى قوله سبحانه (يومئذ تعرضون) والمراد بها هنا النفخة الأولى ، وهى نفخة

الصعق بدليل ماذكر بعدها من فساد العالم العلوى والسفلى ، والعرض إنما يكون بعد النفخة الثانية ، وبين النفختين من الزمان ماشاء الله تعالى فكيف قال سبحانه (يومئذ تعرضون) ؟

قلنا : وضع اليوم موضع الوقت الواسع الذى يقع فيه النفختان وما بعدهما .

فإن قيل : كيف قال تعالى (إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) ؟

قلنا : معناه تيقنت ، والظن يطلق بمعنى اليقين كما فى قوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) .

فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف أهل النار (فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين) وقال سبحانه فى موضع آخر (ليس لهم طعام إلا من ضريع) وفى موضع آخر (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) وفى موضع آخر (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون) وفى موضع آخر (أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار) ؟

قلنا : معناه إلا من غسلين وما أشبهه ، أو وضع الغسلين موضع كل طعام مؤذ كريه . الثانى أن العذاب ألوان والمعذبون طبقات ؛ فمنهم أكلة الزقوم ، ومنهم أكلة الغسلين ، ومنهم أكلة الضريع ، لكل باب منهم جزء مقسوم .

فإن قيل : كيف قال تعالى (إنه لقول رسول كريم) يعنى أن القرآن قول جبريل عليه السلام ، مع أنه قول الله تعالى لاقول جبريل ؟

قلنا : معناه عند الأكثرين أن المراد به النبى صلى الله عليه وسلم ، والمعنى أنه يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله لامن تلقاء نفسه كما تزعمون .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فما منكم من أحد عنه عاجزين) فوصف الفرد بالجمع ؟

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى آخر سورة البقرة .

سورة المعارج

فإن قيل : كيف قال تعالى (إن الإنسان خلق هلوعا) ويفسره مابعده والإنسان فى حال خلقه ما كان موصوفا بهذه الصفات ؟

قلنا : هلوعا حال مقدرة . فالمعنى مقدرا فيه الهلع كما فى قوله تعالى (محلقين رؤسكم) وهم ليسوا محلقين حال الدخول .

فإن قيل : كيف قال تعالى أولا (الذين هم على صلاتهم دائمون) ثم قال تعالى ثانيا (والذين هم على صلواتهم يحافظون) فهل بينهما فرق ؟

قلنا : المراد بالدوام المواظبة والملازمة أبدا . وقيل المراد به سكونهم فيها بحيث لايلتفتون يمينا ولاشمالا ، واختاره الزجاج وقال : اشتقاقه من الدائم بمعنى الساكن ، كما جاء فى الحديث « أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن البول فى الماء الدائم » قلت : وقوله « على » ينفى هذا المعنى ، فإنه لايقال هو على صلاته ساكن ، بل يقال : هو فى صلاته ساكن ، والمراد بالمحافظة عليها أداؤها على أكمل وجوهها جامعة لجملة سننها وآدابها ، فالدوام يرجع إلى نفس الصلاة والمحافظة إلى أحوالها .

سورة نوح عليه السلام

فإن قيل : كيف قال تعالى (ويؤخركم إلى أجل مسمى) فإن كان المراد به تأخيرهم عن الأجل المقدر لهم فى الأزل فهو محال لقوله تعالى (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) وقوله تعالى (إن أجل الله إذا جاء لايؤخر) وإن كان المراد به تأخيرهم إلى مجىء الأجل المقدر لهم فى الأزل ، فما فائدة

تخصيصهم بهذا وهم وغيرهم فى ذلك سواء على تقدير وجود الإيمان منهم وعدم وجوده ؟

قلنا : معناه ويؤخركم عن العذاب إلى منتهى آجالكم على تقدير الإيمان فلا يعذبكم فى الدنيا كما عذب غيركم من الأمم الكافرة فيها . الثانى : أنه سبحانه قضى أنهم إن آمنوا عمرهم ألف سنة ، وإن لم يؤمنوا أهلكهم بالعذاب لتمام خمسمائة سنة ، فقيل لهم آمنوا يؤخركم إلى هذا الأجل .

فإن قيل : كيف أمرهم بالاستغفار ، والاستغفار إنما يصح من المؤمن دون الكافر ؟

قلنا : معناه استغفروا ربكم من الشرك بالتوحيد .

فإن قيل : كيف قال تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا) والحيوان ضد النبات ، فكيف ينطلق على الحيوان أنه نبات ؟

قلنا : هو استعارة للإنشاء والإخراج من الأرض بواسطة آدم عليه السلام .

فإن قيل : كيف دعا نوح عليه السلام على قومه بقوله (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) مع أنه أرسل ليهديهم ويرشدهم ؟

قلنا : إنما دعا عليهم بذلك بعد ما أعلمه الله تعالى أنهم لا يؤمنون .

فإن قيل : كيف قال نوح (ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) وصفهم بالفجور والكفر فى حال ولادتهم وهم أطفال ، وكيف علم أنهم لا يلدون إلا فاجرا كفارا ؟ .

قلنا : إنهم لا يلدون إلا من يفجر ويكفر إذا بلغ ، وإنما علم ذلك بإعلام الله تعالى ، أو وصفهم بما يئولون إليه من الفجور والكفر ، وعلم ذلك بإعلام الله إياه .

سورة الجن

فإن قيل : كيف قال تعالى (وأنه لما قام عبد الله) ولم يقل سبحانه رسول الله أو نبي الله ، والمراد به النبي صلى الله عليه وسلم ؟

قلنا : لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن فى ذلك المقام مرسلا إليهم ، بل اتفق مرورهم به وجوازهم عليه ، فلو قال تعال رسول الله أو نبي الله لأوهم ذلك قصد أداء الرسالة إليهم .

فإن قيل : كيف قال تعالى (قل إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا) مع أن الأمد اسم للغاية ، والغاية تكون زمانا قريبا وزمانا بعيدا ، ويؤيده قوله تعالى (تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) ؟

قلنا : أراد بالقريب الحال ، وبالمجعول له الأمد المؤجل ، سواء كان الأجل قريبا أو بعيدا .

سورة المزمل

فإن قيل : ما معنى وصف القرآن بالثقل فى قوله تعالى (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها أنه كان يثقل نزول الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم حتى يعرق عرقا شديدا فى اليوم الشاتى . الثانى : أن العمل بما فيه من التكاليف ثقيل شاق . الثالث : ثقيل فى الميزان يوم القيامة . الرابع : أنه ثقيل على المنافقين . الخامس : أنه كلام له وزن ورجحان ، كما يقال للرجل العاقل : رزين راجح . السادس : أنه ليس بسفساف ، لأن السفساف من الكلام يكون خفيفا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (السماء منفطر به) ولم يقل سبحانه منفطرة به والسماء مؤنثة ؟

قلنا : هو على النسبة : أى ذات انفطار . وقيل ذكر السماء على معنى السقف . وقيل معناه السماء شيء منفطر به . وقيل السماء تذكر وتؤنث .

فإن قيل : كيف قال تعالى (والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه) ولم يقل تعالى أن لن تحصوهما : أى لن تعرفوا تحقيق مقادير ساعات الليل والنهار ؟

قلنا : الضمير عائد إلى مصدر يقدر معناه : لن تحصوا تقديرهما .

سورة المدثر

فإن قيل : مافائدة قوله تعالى (غير يسير) بعد قوله سبحانه (فذلك يؤمئذ يوم عسير على الكافرين) ؟

قلنا : قيل معناه أنه عسير لايرجى أن يرجع يسيرا ، كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا . وقيل إنه تأكيد .

فإن قيل : مافائدة التكرار فى قوله تعالى (لاتبقى ولاتذر) ومعناهما واحد؟

قلنا : معناه لاتبقى للكفار لحما ولاتذر لهم عظما . وقيل معناه لاتبقيهم أحياء ولاتذرهم أمواتا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ولايرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) وماسبق من وصفهم بالاستيقان وازدياد الإيمان دل على انتفاء الارتياب ، والجمل كلها متعلقة بعدد خزنة النار ، والمعنى ليستيقن الذين أوتوا الكتاب أن ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق ، حيث أخبر عن عدد خزنة النار بمثل ما فى التوراة ، ويزداد الذين آمنوا من أهل الكتاب إيمانا بالنبى صلى الله عليه وسلم والقرآن ، حيث وجدوا ماأخبرهم به مطابقا لما فى كتابهم ؟

قلنا : فائدته التأكيد والتعريض أيضا بحال من عداهم من الشاكين وهم الكفار والمنافقون ، فمعناه ولايرتاب هؤلاء كما ارتاب أولئك .

فإن قيل : كيف قال تعالى (ماذا أراد الله بهذا مثلا) يعنى حصر عدد الخزنة فى تسعة عشر وذلك ليس بمثل .

قلنا : هو استعارة من المثل المضروب مما وقع غريبا وبديعا فى الكلام استغرابا منهم لهذا العدد واستبداعا له ، والمعنى : أى شىء أراد الله بهذا العدد العجيب ، وأى حكمة قصد فى جعل الخزنة تسعة عشر لاعشرين ؛ الثانى : أن المثل هنا بمعنى الصفة كما فى قوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون) والمعنى : ماذا أراد الله بهذا العدد صفة للخزنة .

فإن قيل : كيف طابق قوله تعالى (ما سلككم فى سقر) وهو سؤال للمجرمين قوله تعالى (يتساءلون عن المجرمين) وهو سؤال عنهم ، وإنما المطابق يسألون المجرمين أو يتساءلون عن المجرمين ما سلكهم فى سقر : أى يسأل أهل الجنة بعضهم بعضا عن أهل النار ؟

قلنا : قوله تعالى (ماسلككم) ليس بيانا للتساؤل عنهم ، وإنما هو حكاية قول المسئولين عن المجرمين ، فالمسئولون من أهل الجنة ألقوا إلى السائلين ماجرى بينهم وبين المجرمين ، وذلك أن المؤمنين إذا أخرجهم الله تعالى من النار بعدما عذبهم بقدر ذنوبهم وأدخلهم الجنة يسألهم بعض أصحاب اليمين عن حال المجرمين وسبب تخليدهم ، فقال المسئولون : قلنا لهم (ماسلككم فى سقر) الآية ، وهؤلاء المؤمنون بعد إخراجهم من النار وإدخالهم الجنة صاروا من أصحاب اليمين ؛ وقيل المراد بأصحاب اليمين الملائكة عليهم السلام ؛ وقيل الأطفال لأنهم لايرتهنون بذنوب إذ لا ذنوب لهم .

سورة القيامة

فإن قيل : مامعنى قوله تعالى (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) والقارىء على النبى صلى الله عليه وسلم إنما هو جبرائيل عليه السلام ؟

قلنا : معناه فإذا جمعناه فى صدرك ، ويؤيده أول الآية (إن علينا جمعه وقرآنه) أى إن علينا جمعه وضمه فى صدرك فلاتعجل بقراءته قبل أن يتم حفظه . وقيل إنما أضيفت القراءة إلى الله تعالى ، لأن جبريل عليه السلام يقرؤه بأمره كما تضاف الأفعال إلى الملوك والأمراء بمجرد الأمر ، مع أن المباشر لها أعوانهم أوأتباعهم .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) والذى يوصف بالنظر الذى هو الإبصار والإدراك إنما هو العين دون الوجه ؟

قلنا : قيل إن المراد بالوجوه هنا السعداء وأهل الوجاهة يوم القيامة لا الوجه هو العضو ، ولا أرى هذا الجواب مطابقا لقوله تعالى (ووجوه يومئذ باسرة) لأن العبوس والقطوب إنمايوصف به الوجه الذى هو العضو ، ومما يؤيد أن المراد بقوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة) الأعضاء المعروفة قوله تعالى (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) .

فإن قيل : النطفة المنى ، فما فائدة قوله تعالى (ألم يك نطفة من منى يمنى) ؟

قلنا : النطفة استعملت هنا بمعنى القطرة لأن النطفة تطلق على الماء القليل والكثير ، ومنه الحديث « حتى يسير الراكب بين النطفتين لايخشى جوازا » أراد بحر المشرق والمغرب .

سورة الإنسان

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (من نطفة أمشاج) فوصف المفرد وهى النطفة بالجمع وهو الأمشاج لأنه جمع مشج ، والأمشاج الأخلاط ، والمراد أنه مخلوق من نطفة مختلطة من ماء الرجل والمرأة ؟

قلنا : قال الزمخشرى رحمة الله تعالى عليه : أمشاج لفظ مفرد لاجمع ،

كقولهم : برمة أعشار ، وبيت أكباش، وبر أهدام . وقال غيره الموصوف به أجزاء النطفة وأبعاضها .

فإن قيل : كيف قال تعالى (نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) والابتلاء متأخر عن جعله سميعا بصيرا ؟

قلنا : قال الفراء : فيه تقديم وتأخير تقديره فجعلناه سميعا بصيرا لنبتليه . وقال غيره : معناه ناقلين له من حال إلى حال نطفة ثم علقة ثم مضغة ، فسمى ذلك ابتلاءا استعارة .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (قوارير قوارير من فضة) والقوارير اسم لما يتخذ من الزجاج ؟

قلنا : معناه أن تلك الأكواب مخلوقة من فضة ، وهى مع بياض الفضة وحسنها فى صفاء القوارير وشفيفها . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لو ضربت فضة الدنيا حتى جعلتها جناح الذباب لم يرَ الماء من ورائها . وقوارير الجنة من فضة ويرى ما فيها من ورائها .

فإن قيل : ما معنى قوله تعالى (كانت قوارير) ؟

قلنا : معناه تكونت ، فهى من قوله تعالى (كن فيكون) وكذا قوله تعالى (كان مزاجها كافورا) .

فإن قيل : كيف شبه الله تعالى الولدان باللؤلؤ المنثور دون المنظوم ؟

قلنا : إنما شبههم سبحانه وتعالى باللؤلؤ المنثور لأنه أراد تشبيههم باللؤلؤ الذى لم يثقب بعد ، لأنه إذا ثقب نقصت مائيته وصفاؤه ، واللؤلؤ الذى لم يثقب لا يكون إلا منثورا ، وقيل إنما شبههم الله تعالى باللؤلؤ المنثور لأن اللؤلؤ المنثور على البساط أحسن منظرا من المنظوم . وقيل إنما شبههم باللؤلؤ المنثور لانتشارهم وانبثاثهم فى مجالسهم ومنازلهم وتفريقهم فى الخدمة بدليل قوله تعالى (ويطوف عليهم) ولو كانوا وقوفا صفا لشبهوا بالمنظوم .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (وحلوا أساور من فضة) مع أن ذلك في الدنيا إنما هو عادة الإماء ومن فى مرتبتهن ؟

قلنا . القرآن أول من خوطب به العرب ، وكان من عادة رجالهم ونسائهم من بيت المملكة التحلى بالذهب والفضة منفردين ومجتمعين : الثانى أن الاسم وإن كان مشتركا بين فضة الدنيا والآخرة ، ولكن شتان ما بينهما قال النبي صلى الله عليه وسلم « المثقال من فضة الآخرة خير من الدنيا وما فيها » وكذا الكلام فى السندس والإستبرق وغيرهما مما أعده الله تعالى فى الجنة .

فإن قيل : أى شرف لتلك الدار يسقى الله تعالى عباده الشراب الطهور فيها مع أنه تعالى فى الدنيا سقاهم ذلك بدليل قوله تعالى (وأسقيناكم ماء فراتا) وقوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه) .

قلنا : المراد به فى الآخرة سقيهم بغير واسطة ، وشتان ما بين الشرابين والآنيتين أيضا والمنزلتين .

فإن قيل : قوله تعالى (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) الضمير لمشركى مكة بلا خلاف ، فما معنى تقسيمهم إلى الآثم والكفور ، وكلهم آثم وكلهم كفور ؟

قلنا : المراد بالآثم عتبة بن ربيعة ، فإنه كان ركابا للمآثم متعاطيا لأنواع الفسوق ، والمراد بالكفور الوليد بن المغيرة ، فإنه كان مغاليا فى الكفر شديد الشكيمة فيه مع أن كليهما آثم وكافر ، والمراد به نهيه عن طاعتهم فيما كانوا يدعونه إليه من ترك الدعوة وموافقتهم فيما كانوا عليه من الكفر والضلال .

فإن قيل : مامعنى النهى عن طاعة أحدهما ، وهلا نهى عن طاعتهما ؟

قلنا : قال بعضهم إن أو هنا بمعنى الواو كما فى قوله تعالى أو الحوايا . الثانى : أنه لو قال تعالى ولا تطعهما جاز له أن يطيع أحدهما ، وأما إذا قيل له ولا تطع أحدهما كان منهيا عن طاعتهما بالضرورة .

فإن : قيل كيف قال الله تعالى هنا (وشددنا أسرهم)أى خلقهم ، وقال تعالى فى موضع آخر (وخلق الإنسان ضعيفا ؟)

قلنا : قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما والأكثرون : المراد به أنه ضعيف عن الصبر عن النساء ، فلذلك أباح الله تعالى له نكاح الأمة كما سبق قبل هذه الآية . وقال الزجاج : معناه أنه يغلبه هواه وشهوته فلذلك وصف بالضعف ، وأما قوله تعالى (وشددنا أسرهم) فمعناه ربطنا أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والأعصاب . وقيل المراد بالأسر العصعص ، فإن الإنسان فى القبر يصير رفاتا إلا عصعصه فإنه لايتفتت . وقال مجاهد : المراد بالأسر مخرج البول والغائط ، فإنه يسترخى حتى يخرج منه الأذى ، ثم ينقبض ويجتمع ويشتد بقدرة الله تعالى .

سورة المرسلات

فإن قيل : قوله تعالى (هذا يوم لاينطقون) ينفى وجود الاعتذار منهم لأن الاعتذار إنما يكون بالنطق ، فما فائدة نفى الاعتذار بعد نفى النطق ؟

قلنا : معناه أنهم لاينطقون ابتداء بعذر مقبول وحجة صحيحة ، ولابعد أن يؤذن لهم فى الاعتذار ، فإن الأسير والجانى الخائف عادة قد لاينطق لسانه بعذره وحجته ابتداء لفرط خوفه ودهشته ، ولكن إذا أذن له فى إظهار عذره وحجته انبسط وانطلق لسانه ، فكانت الفائدة فى الجملة . الثانى : نفى هذا المعنى : أى لاينطقون بعذر ابتداء ولا بعد الإذن .

فإن قيل : قوله تعالى (يوم لاينفع الظالمين معذرتهم) يدل على وجود الاعتذار منهم ، فكيف التوفيق بينه وبين مانحن فيه ؟

قلنا : قيل المراد بتلك الظالمون من المسلمين ، وبما نحن فيه الكافرون وآخر تلك الآية يضعف هذا الجواب : أى قوله (ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) .

سورة النبأ

فإن قيل : كيف اتصل وأرتبط قوله تعالى (ألم نجعل الأرض مهادا) بما قبله ؟

قلنا : لما كان النبأ العظيم الذى يتساءلون عنه هو البعث والنشور وكانوا ينكرونه ، قيل لهم : ألم يخلق من وعد بالبعث والنشور هذه المخلوقات العظيمة العجيبة الدالة على كمال قدرته على البعث .

فإن قيل : لوكان النبأ العظيم الذى يتساءلون عنه ماذكرتم لما قال الله تعالى الذى هم فيه مختلفون ، لأن كفار مكة لم يختلفوا فى أمر البعث ، بل اتفقوا على إنكاره ؟

قلنا : كان فيهم من يقطع القول بإنكاره ، وفيهم من يشك فيه ويتردد فثبت الاختلاف لأن جهة الاختلاف لاتنحصر فى الجزم بإثباته والجزم بنفيه . الثانى : أن بعضهم صدّق به فآمن ، وبعضهم كذب به فبقى على كفره ، فثبت الاختلاف بالنفى والإثبات . الثالث : أن الضمير فى يتساءلون وفى هم عائد إلى الفريقين من المسلمين والمشركين ، وكلهم كانوا يتساءلون عنه لعظم شأنه عندهم ، فصدق به المسلمون فأثبتوه ، وكذب به المشركون فنفوه .

فإن قيل : قوله تعالى (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) هو جزاء الشرط فأين الشرط ، وشاء وحده لايصلح شرطا لأنه لايفيد بدون ذكر مفعوله ، وإن كان المذكور هو الشرط فأين الجزاء ؟

قلنا : معناه فمن شاء النجاة من اليوم الموصوف اتخذ إلى ربه مرجعا بطاعته . الثانى : أن معناه فمن شاء أن يتخذ إلى ربه مآباكقوله تعالى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) أى فمن شاء الإيمان فليؤمن ، ومن شاء الكفر فليكفر .

سورة النازعات

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (والنازعات ـ والناشطات) ذكرها بلفظ التأنيث ، وكذا مابعده ، والكل أوصاف الملائكة ، والملائكة ليسوا إناثا ؟

قلنا : هو قسم بطوائف الملائكة وفرقها ، والطوائف والفرق مؤنثة .

فإن قيل : كيف أضاف الله تعالى الإبصار إلى القلوب فى قوله تعالى (قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة) أى ذليلة لمعاينة العذاب ، والمراد بها الأعين بلاخلاف ؟

قلنا : المراد أبصار أصحابها بدليل قوله تعالى (يقولون) .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (فأراه الآية الكبرى) مع أن موسى عليه الصلاة والسلام أراه الآيات كلها بدليل قوله تعالى (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب) وكل آية كبرى ؟

قلنا : الإخبار فى هذه الآية عن أول ملاقاته إياه ، وإنما أراه فى أول ملاقاته العصا واليد ، فأطلق عليهما الآية الكبرى لاتحاد معناهما . وقيل أراد بالآية الكبرى العصا ، لأنها كانت المقدمة ، والأصل والأخرى كالتبع لها لأنه كان يتبعها بيده ، فقيل له أدخل يدك فى جيبك .

فإن قيل ، كيف أضاف الله تعالى الليل إلى السماء بقوله تعالى (وأغطش ليلها) مع أن الليل إنما يكون فى الأرض لافى السماء ؟

قلنا : إنما أضافه إليها لأنه أول مايظهر عند غروب الشمس إنما يظهر من أفق السماء من موضع الغروب ، وأما قوله تعالى (وأخرج ضحاها) فالمراد به ضوء الشمس بدليل قوله تعالى (والشمس وضحاها) أى وضوئها فلا إشكال فى إضافته إليها .

سورة عبس

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (كلا إنها تذكرة) ثم قال سبحانه وتعالى (فمن شاء ذكره) ولم يقل ذكرها ؟

قلنا : الضمير المؤنث لآيات القرآن أولهذه السورة ، والضمير فى قوله تعالى ذكره راجع إلى القرآن . وقيل راجع إلى معنى التذكرة وهو الوعظ والتذكير لا إلى لفظها .

فإن قيل : فى قوله تعالى (وفاكهة وأبا) روى أن عمر رضى الله تعالى عنه قرأ هذه الآية وقال : كل هذا قد عرفنا فما الأب ؟ ثم قال : هذا لعمر الله التكلف ، وماعليك ياعمر أن لاتدرى ما الأب ، ثم قال : اتبعوا ماتبين لكم من هذا الكتاب ومالا فدعوه ، وهذا شبيه النهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته ؟

قلنا : لم يرد بقوله ماذكرت ، ولكن الصحابة رضى الله عنهم كانت أكثر هممهم عاكفة على العمل ، وكان الاشتغال بعلم لايعمل به تكلفا عندهم ، فأراد أن الآية مسوقة فى الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره ، وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ماأنبته الله تعالى للإنسان متاعا له ولأنعامه ، فكأنه قال : عليك بما هو الأهم فالأهم وهو الشكر على ماتبين لك ولم يشكل مما عدد من نعمه تعالى ، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص ، واكتف بمعرفته منه جملة إلى أن يتبين لك فى وقت آخر . وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه سئل عن الأب فقال : أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله بما لاعلم لى به . وأكثر المفسرين قالوا : الأب كل ماترعاه البهائم .

سورة التكوير

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (وإذا الموؤدة سئلت بأى ذنب قتلت) والسؤال إنما يحسن للقاتل لا للمقتول ؟

قلنا : إنما سؤالها لتبكيت قاتلها وتوبيخه بما تقوله من الجواب ، فإنها تقول : قتلت بغير ذنب ، ونظيره فى التبكيت والتوبيخ قوله تعالى لعيسى عليه السلام (أأنت قلت للناس اتخذونى) حتى قال سبحانك (مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق) .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (علمت نفس ماأحضرت) فأثبت العلم لنفس واحدة ، مع أن كل نفس تعلم ماأحضرت يوم القيامة بدليل قوله تعالى (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا) ؟

قلنا : هذا مما أريد به عكس مدلوله ، ومثله كثير فى كلام الله تعالى وكلام العرب كقوله تعالى (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) فإن رب هنا بمعنى كم للتكثير ، وقوله تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام لقومه (وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم) وقول الشاعر :

قدْ أتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرًّا أنامِلهُ ... كأنَّ أثْوابَهُ مُجَّتْ بفِرْصادِ

سورة الانفطار

فإن قيل : لأى فائدة تخصيص ذكر صفة الكرم دون سائر صفاته فى قوله تعالى (ماغرك بربك الكريم) ؟

قلنا : قال بعضهم : إنما قال ذلك لطفا بعبده وتلقينا له حجته وعذره ليقول : غرنى كرم الكريم . وقال الفضيل رحمه الله : لو سألنى الله تعالى هذا السؤال لقلت : غرنى ستورك المرخاة . وروى أن عليا كرم الله وجهه

صاح بغلام له مرات فلم يلبه ، ثم أقبل فقال : مالك لم تجبنى ؟ فقال : لثقتى بحلمك وأمنى عقوبتك ، فاستحسن جوابه وأعتقه . ولهذا قالوا : من كرم الرجل سوء أدب غلمانه . والحق أن الواجب على الإنسان أن لايغتر بكرم الله تعالى وجوده فى خلقه إياه وإسباغه النعمة الظاهرة والباطنة عليه فعصيه ويكفر نعمته اغترارا بتفضيله الأول ، فإن ذلك أمر منكر خارج عن حد الحكمة ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأها : غره جهله . وقال عمر رضى الله تعالى عنه : غره حمقه وجهله . وقال الحسن : غره والله شيطانه الخبيث الذى زين له المعاصى ، فقال له : افعل ماشئت فإن ربك كريم .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى(يوم لاتملك نفس لنفس شيئا) والنفوس المقبولة الشفاعة تملك لمن شفعت فيه شيئا وهو الشفاعة ؟

قلنا : المنفى ثبوت النصرة بالملك والسلطنة والشفاعة ليست بطريق الملك والسلطنة فلا تدخل فى النفى ، ويؤيده قوله تعالى (والأمر يومئذ لله) وقال مقاتل : المراد بالنفس الثانية الكافرة ، والأصح أنه على العموم فى النفسين .

سورة المطففين

فإن قيل : هلا قال الله تعالى إذا اكتالوا أواتزنوا على الناس يستوفون كما قال سبحانه فى مقابلة (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ؟)

قلنا : لأن المطففين كانت عادتهم أنهم لايأخذون مايكال وما يوزن إلا بالمكيال لأن اسييفاء الزيادة بالمكيال كان أمكن لهم وأهون عليهم منه بالميزان ، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس فيهما .

فإن قيل : كيف فسر سبحانه وتعالى سجينا بكتاب مرقوم فقال تعالى (وما أدراك ماسجين كتاب مرقوم) وكذا فسر تعالى عليين به مع أن سجينا

اسم للأرض السابعة ، وهو فعيل من السجن ، وعليين اسم للجنة أو لأعلى الأمكنة ، أو للسماء السابعة ، أو لسدرة المنتهى ؟

قلنا : قوله تعالى (كتاب مرقوم) وصف معنوى لكتاب الفجار ولكتاب الأبرار ، لاتفسير لسجين ولعليين تقديره : وهو كتاب مرقوم .

سورة الانشقاق

فإن قيل : أين جواب « إذا » فى قوله تعالى (إذا السماء انشقت) ؟

قلنا . فيه وجوه : أحدها أنه متروك لتكرر مثله فى القرآن . الثانى : أنه أذنت والواو فيها زائدة . الثالث : أنه محذوف تقديره بعد قوله تعالى (وحقت) بعثتم أو جوزيتم أولاقيتم ماعملتم ، ودل على هذا المحذوف قوله تعالى (فملاقيه) . الرابع : أن فيه تقديما وتأخيرا تقديره : ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه إذا السماء انشقت .

سورة البروج

فإن قيل : أين جواب القسم ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها أنه متروك . الثانى : أنه قوله تعالى (قتل) أى لقد قتل : أى لعن . الثالث: أنه قوله تعالى (إن بطش ربك لشديد) . الرابع : أنه محذوف تقديره : لتبعثن أونحوه . الخامس : أنه قوله تعالى (إن الذين فتنوا) .

سورة الطارق

فإن قيل : أين الجواب القسم ؟

قلنا : إن كل نفس فإن بمعنى ما ، ولما بالتشديد بمعنى إلا ، فيكون

المعنى : ما كل نفس إلا عليها حافظ ، ولما بالتخفيف مافيه زائدة وإن هى المخففة من الثقيلة ، فيكون المعنى : إن كل نفس لعليها حافظ ، والقسم يتلقى بمعنى إن .

فإن قيل : ماوجه ارتباط قوله تعالى (فلينظر الإنسان) بما قبله ؟

قلنا : وجهه أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظا أتبعه بوصيةالإنسان بالنظر فى أول أمره ونشأته الأولى ، ليعلم أن من أنشأه قادر على إعادته ومجازاته ، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، فلا يملى على حافظه إلا مايسره فى عاقبته .

فإن قيل : مافائدة الجمع بين فمهل وأمهل ومعناهما واحد ؟

قلنا : التأكيد ، وإنما خولف بين اللفظين طلبا للخفة .

سورة الأعلى

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (فذكر إن نفعت الذكرى) مع أنه كان صلى الله عليه وسلم مأمورا بالذكرى نفعت أو لم تنفع ؟

قلنا : معناه إذ نفعت . وقيل معناه قد نفعت . وقيل إن نفعت وإن لم تنفع ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه . وذكر الماوردى أنها بمعنى ما ، وكأنه أراد معنى ما الظرفية ؛ ، وإن بمعنى ما الظرفية ليس بمعروف .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (لايموت فيها ولايحيا) مع أن الحيوان لايخلو عن الاتصاف بأحد هذين الوصفين ؟

قلنا : معناه لايموت موتا يستريح به ، ولايحيا حياة ينتفع بها . وقال ابن جرير رحمة الله تعالى عليه : تصعد نفسه إلى حلقومه ثم لاتفارقه فيموت ولاترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

سورة الغاشية

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية) مع أن جميع أبدانهم أيضا تصلى النار ؟

قلنا : الوجه يطلق ويراد به جميع البدن كما فى قوله تعالى (وعنت الوجوه للحى القيوم) وقيل إن المراد بالوجوه هنا الأعيان والرؤساء ، كما يقال : هؤلاء وجوه القوم ، ويا وجه العرب : أى ويا وجيههم ، ويؤيد هذا القول ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : إن المراد به الرهبان وأصحاب الصوامع .

فإن قيل : كيف ارتبط قوله تعالى (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) بما قبله ، وأى مناسبة بين السماء والإبل والجبال والأرض حتى جمع بينها ؟

قلنا : لما وصف الله تعالى الجنة بما وصف ، عجب من ذلك الكفار ، فذكرهم عجائب صنعه . وقال قتادة : لما ذكر ارتفاع سرر الجنة قالوا : كيف نصعدها ؟ فنزلت هذه الآية (أفلا ينظرون إلى الإبل) نظر اعتبار كيف (خلقت) للنهوض بالأثقال وحملها إلى البلاد البعيدة ، وجعلت تبرك حتى تحمل وتركب عن قرب ويسر ثم تنهض بما حملت ، فليس فى الدواب ما يحمل عليه وهو بارك ويطيق النهوض إلا هى ، وسخرت لكل من قادها حتى الصبى الصغير ، ولما جعلت سفائن البر أعطيت الصبر على احتمال العطش عشرة أيام فصاعدا وجعلت ترعى كل نبات فى البرارى والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم ، وإنما لم يذكر الفيل والزرافة والكركند وغيرها مما هو أعظم من الجمل لأن العرب لم يروا شيئا من ذلك ولا كانوا يعرفونه ، ولأن الإبل كانت أنفس أموالهم وأكثرها لا تفارقهم ولا يفارقونها ، وإنما جمع بينها وبين ما بعدها لأن نظر العرب قد انتظم هذه الأشياء فى أوديتهم وبواديهم ، فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم وكثرة ملابستهم

ومخالتهم، ومن فسر الإبل بالسحاب والماء قصد بذلك طلب المناسبة بطريق تشبيه الإبل بالسحاب فى السير وفى النشط أيضا فى بعض الأوقات ، لا أنه أراد أن المراد من الإبل السحاب حقيقة ، وقد جاء فى أشعار العرب تشبيه السحاب بالإبل كثيرا ، وقد شبهه ابن دريد أيضا بالسحاب فى قصيدته . وقرأ أبى بن كعب وعائشة رضى الله عنهما الإبل بتشديد اللام . قال أبو عمرو وهو اسم للسحاب الذى يحمل الماء ، والله أعلم .

سورة الفجر

فإن قيل : كيف نكر الليالى العشر دون سائر ماأقسم به ، وهلا عرفها بلام العهد وهى ليالى معلومة معهودة فإنها ليالى عشر ذى الحجة فى قول الجمهور ؟

قلنا : لأنها مخصوصة من بين جنس الليالى العشر بفضيلة ليست لغيرها فلم يجمع بينها وبين غيرها بلام الجنس ، وإنما لم تعرف بلام العهد لأن التنكير أدل على التفخيم والتعظيم بدليل قوله تعالى (وإلهكم إله واحد) ونظيره قوله تعالى (لاأقسم بهذا البلد) فعرفه ثم قال (ووالد) فنكره ، والمراد به آدم وإبراهيم أو محمد صلى الله عليهم أجمعين ، ولأن الأحسن أن تكون اللامات كلها متجانسة ، ليكون الكلام أبعد عن الألغاز والتعمية ، وهى فى الباقى للجنس .

فإن قيل : كيف ذم الله تعالى الإنسان على قوله (ربى أكرمن) مع أنه صادق فيما قال ، لأن الله تعالى أكرمه بدليل قوله تعالى (فأكرمه ونعمه) كيف وأن هذا تحدث بالنعمة وهو مأمور به ؟

قلنا : المراد به أن يقول ذلك مفتخرا على غيره ومتطاولا به عليه ومعتقدا استحقاق ذلك على ربه كما فى قوله تعالى (إنما أوتيته على علم عندى) ومستدلا

به على علو منزلته فى الدار الآخرة ، وكل ذلك منهى عنه . وأما إذا قاله على وجه الشكر والتحدث بنعمة الله فليس بمذموم ولامنهى عنه .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى فى الجملة الأولى (فأكرمه) ولم يقل فى الجملة الثانية فأهانه ؟

قلنا : لأن بسط الرزق إكرام لأنه إنعام وإفضال من غير سابقة ، وقبضه ليس بإهانة لأن ترك الإنعام والإفضال لايكون إهانة بل هو واسطة بين الإكرام والإهانة ، فإن المولى قد يكرم عبده وقد يهينه ، وقد لا يكرمه ولايهينه ، وتضييق الرزق ليس إلا عبارة عن ترك إعطاء القدر الزائد ، ألا ترى أنه يحسن أن تقول زيد أكرمنى إذا أهدى لك هدية ، ولايحسن أن تقول أهاننى إذا لم يهد لك .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى(وجاء ربك) والحركة والانتقال على الله محالان لأنهما من خواص الكائن فى جهة ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : وجاء أمر ربك لأن فى القيامة تظهر جلائل آيات الله تعالى ، ونظيره قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك) وقيل معناه وجاء ظهور ربك لضرورة معرفته يوم القيامة ومعرفة الشىء بالضرورة تقوم مقام ظهوره ورؤيته ، فمعناه : زالت الشكوك وارتفعت الشبه كما ترتفع عند مجىء الشىء الذى كان يشك فيه .

سورة البلد

فإن قيل : كيف قال تعالى (ووالد وماولد) ولم يقل سبحانه وتعالى ومن ولد ؟

قلنا : لأن فى «ما» من الإبهام ما ليس فى من ، فقصد به التفخيم والتعظيم كأنه تعالى قال : وأى شىء عجيب غريب ولد ، ونظيره قوله تعالى (والله أعلم بما وضعت) .

سورة الشمس

فإن قيل : كيف نكر الله تعالى النفس دون سائر ما أقسم به حيث قال تعالى (ونفس وما سواها) ؟

قلنا : لأنه لاسبيل إلى لام الجنس ، لأن نفوس الحيوانات غير الإنسان خارجة عن ذلك بدليل قوله تعالى (فألهمها فجورها وتقواها) ولاسبيل إلى لام العهد لأن المراد ليس نفسا واحدة معهودة ، وعلى قول من قال إن المراد منه نفس آدم عليه السلام ، فالتنكير للتفخيم والتعظيم كما سبق فى سورة الفجر .

فإن قيل : أين جواب القسم ؟

قلنا : قال الزجاج وغيره : إنه قوله تعالى (قدأفلح من زكاها) وحذفت اللام لطول الكلام . وقال ابن الأنبارى : جوابه محذوف : وقال الزمخشرى : تقدير ليدمدمن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحا عليه السلام . قال : وأما (قد أفلح من زكاها) فكلام تابع لماقبله على طريق الاستطراد وليس من جواب القسم فى شىء .

سورة الليل

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (لايصلاها إلا الأشقى) مع أن الشقى أيضا يصلاها : أى يقاسى حرها وعذابها ؟

قلنا : قال أبوعبيدة : الأشقى هنا بمعنى الشقى ، والمراد به كل كافر ، والعرب تستعمل أفعل فى موضع فاعل ولاتريد به التفضيل ، وقد سبق تقرير ذلك والشواهد عليه فى سورة الروم فى قوله تعالى (وهو أهون عليه)

وقال الزجاج : هذه نار موصوفة معينة ، فهو درك مخصوص ببعض الأشقياء ، ورد عليه ذلك بقوله تعالى (وسيجنبها الأتقى) والأتقى يجنب عذاب أنواع نار جهنم كلها ، والمراد بالأتقى هنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه بإجماع المفسرين، ولهذا قال الزمخشرى : إن الأشقى ليس بمعنى الشقى بل هو على ظاهره ، والمراد به أبو جهل أو أمية بن خلف ، فالآية واردة للموازنة بين حالتى أعظم المؤمنين وأعظم المشركين ، فبولغ فى صفتيهما المتناقضتين ، وجعل هذا مختصا بالصلى كأن النار لم تخلق إلا له لوفور نصيبه منها وجاء قوله تعالى (وسيجنبها الأتقى) على موازنة ذلك ومقابلته ، مع أن كل تقى يجنبها . قال بعض العلماء : هذه الآية تدل على أن أبا بكر رضى الله عنه أفضل الصحابة لأنه وصفه بالأتقى ، وقال : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وإذا كان أكرم عند الله كان أفضل .

سورة الضحى

فإن قيل : كيف وصف صلى الله عليه وسلم بالضال والنبى صلى الله عليه وسلم معاذ الله أن يكون ضالا : أى كافرا لاقبل النبوة ولا بعدها ، والضال أكثر ما ورد فى القرآن بمعنى الكافر ؟

قلنا : المراد به هنا أنه تعالى وجده ضالا عن معالم النبوة وأحكام الشريعة فهداه إليها ، هذا قول الجمهور . الثانى : أنه ضل وهو صغير فى شعاب مكة فرده الله تعالى إلى جده عبد المطلب . الثالث : أن معناه ووجدك ناسيا فهداك إلى الذكر ، لأن الضلال جاء بمعنى النسيان ، ومنه قوله تعالى (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) .

فإن قيل : لو كان الضلال بمعنى النسيان لما جمع بينهما فى قوله تعالى (لايضل ربى ولا ينسى) ؟

قلنا : لاندعى أنه حيث ذكر كان بمعنى النسيان ، فهو فى تلك الآية

بمعنى الخطأ، وقيل بمعنى الغفلة . الرابع : أن معناه : ووجدك جاهلا فعلمك .

فإن قيل : كيف من سبحانه عليه بإخراجه من الفقر إلى الغنى بقوله تعالى (ووجدك عائلا فأغنى) أى فقيرا ، والعائل الفقير سواء كان له عيال أو لم يكن ؟

قلنا : قال ابن السائب ، واختاره الفراء : أنه لم يكن غناه بكثرة المال ، ولكن الله أرضاه بما آتاه ، ولم يكن ذلك الرضا قبل النبوة وذلك حقيقة الغنى ، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم « الغنى غنى القلب » وقال غيره : المراد به أنه أغناه بمال خديجة عن مال أبى طالب ، والمراد به الإغناء بتسهيل مالابد منه وتيسيره ، لا الإغناء بفضول المال الذى لايجامع صفة الفقر .

سورة الانشراح

فإن قيل : أى فائدة فى زيادة ذكر لك وعنك والكلام تام بدونهما ؟

قلنا : فائدته الإبهام ثم الإيضاح ، وهو نوع من أنواع البلاغة ، فلما قال تعالى (ألم نشرح لك) فهم أن ثم مشروحا له ثم قال (صدرك) فأوضح ماعلم مبهما بلفظ لك ، وكذا الكلام فى (ووضعنا عنك) .

فإن قيل : قال تعالى (فإن مع العسر يسرا) وكلمة مع للمصاحبة والقرآن ، فما معنى اقتران العسر واليسر ؟

قلنا : سبب نزول هذه الآية أن المشركين عيروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم بالفقر والضائقة التى كانوا فيها ، فوعدهم الله تعالى يسرا قريبا من زمان عسرهم ، وأراد تأكيد الوعد لتسليتهم وتقوية قلوبهم ، فجعل اليسر الموعود كالمقارن للعسر فى سرعة مجيئه .

فإن قيل : مامعنى قول ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم وابن مسعود

رضى الله عنه : لن يغلب عسريسرين ، ويروى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم أيضا ؟

قلنا : هـذا عمل على الظاهر وبناء على قوة الرجاء ، وإن وعد الله لايحمل إلا على أحسن مايحتمله اللفظ وأكمله ، وأما حقيقة القول فيه فهو أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تأكيدا للأولى ، كما فى قوله تعالى (ويل يومئذ للمكذبين) وماأشبهه ، وكما فى قولك : جاءنى رجل جاءنى رجل ؛ وأنت تعنى واحدا فى الجملتين ، فعلى هذا يتحد العسر واليسر ، أويكون تعريف العسر لأنه حاضر معهود ، وتنكير اليسر لأنه غائب مفقود ، وللتفخيم والتعظيم ، ويحتمل أن تكون الجملة الثانية وعدا مستأنفا فيتعدد اليسر حينئذ على ماقيل ، ويؤيد أن الجملة الثانية للتأكيد أنه ليس فى مصحف عبد الله بن مسعود إلا مرة واحدة .

فإن قيل : وإذا ثبت فى قراءته غير مكرر ، فكيف قال : والذى نفسى بيده لو كان العسر فى جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ، إنه لن يغلب عسر يسرين ؟

قلنا : كأنه نزل مافيه من التفخيم والتعظيم بالتنكير منزلة التثنية ، لأن المعنى يسرا وأى يسر ، وأما من فسره بيسرين فإنه قال : أحد اليسرين ماتيسر من الفتوح فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم . والثانى ماتيسر بعده فى زمن الخلفاء . وقيل هما يسر الدنيا ويسر الآخرة كقوله تعالى (هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) وهما حسن الظفر وحسن الثواب .

سورة التين

فإن قيل : كيف وجه صحة الاستثناء فى قوله تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) ؟

قلنا : قال الأكثرون : المراد بالإنسان هنا الجنس ، ويرده أسفل سافلين

إدخاله النار ، فعلى هذا يكون الاستثناء متصلا ظاهر الاتصال ، ويكون قوله تعالى (فلهم أجر غير ممنون) قائما مقام قوله تعالى فلا نردهم أسفل سافلين ، وأما على قول من فسر أسفل سافلين بالهرم والخرف وقال السافلون هم الضعفاء والزمنى والأطفال والشيخ الهرم أسفل هؤلاء كلهم ، فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعا بمعنى لكن ، ومعنى قوله تعالى (فلهم أجر غير ممنون) أى غير مقطوع بالهرم والضعف الحاصل من الكبر : أى إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى حال شبابهم وقوتهم ، فإنهم إذا عجزوا عن العمل كتب لهم ثواب ما كانوا يعملونه من الطاعات والحسنات إلى وقت موتهم ، وهذا معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر . وقال بعض العلماء : الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى شبابهم وقوتهم فإنهم لايردون إلى الخرف وأرذل العمر وإن عمروا طويلا ، وتمسك بظاهر قول ابن عباس رضى الله عنهما .

سورة العلق

فإن قيل : أين مفعول خلق الأول ؟

قلنا : يحتمل وجهين : أحدهما أن لايقدّر له مفعول ، بل يكون المراد الذى حصل منه الخلق واستأثر به لاخالق سواه ؛ كما قال تعالى (ألا يعلم من خلق) فى أحد الوجهين ، وقولهم : فلان يعطى ويمنع ويصل ويقطع . الثانى : أن يكون مفعوله مضمرا تقديره : الذى خلق كل شىء ، ثم أفرد الإنسان بالذكر تشريفا له وتفضيلا .

فإن قيل : كيف قال تعالى (خلق الإنسان من علق) على الجمع ولم يقل : من علقة ؟

قلنا : لأن الإنسان فى معنى الجمع بدليل قوله تعالى (إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والجمع إنما خلق من جمع علقة لامن علقة .

فإن قيل : هذا الجواب يرده قوله تعالى (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة) ؟

قلنا : المراد فإنا خلقنا أباكم من تراب ، ثم خلقنا كل واحد من أولاده من نطفة . وقيل إنما قال من علق رعاية للفاصلة الأولى وهى خلق .

سورة القدر

فإن قيل : مامعنى قوله تعالى (من كل أمر) وتنزلهم من الأمر لامعنى له .

قلنا : من هنا بمعنى الباء كما فى قوله تعالى (يحفظونه من أمر الله) وقوله تعالى (يلقى الروح من أمره) أى لكل أمر قضاه الله تعالى فى تلك السنة من ليلة القدر إلى مثلها تنزل الملائكة به من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ؛ وقيل إلى الأرض .

سورة البينة

فإن قيل : المراد بالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم بلا خلاف ، فكيف قال تعالى (يتلو صحفا) وظاهره يدل على قراءة المكتوب من الكتاب وهو منتف فى حقه صلى الله عليه وسلم لأنه كان أميا ؟

قلنا : المراد يتلو ما فى الصحف عن ظهر قلبه ، لأنه هو المنقول عنه بالتواتر .

فإن قيل : ما الفرق بين الصحف والكتب حتى قال تعالى (صحفا مطهرة فيها كتب) ؟

قلنا : الصحف القراطيس ، وقوله تعالى مطهرة : أى من الشرك

الباطل ، وقوله تعالى (فيها كتب قيمة) أى مكتوبة مستقيمة ناطقة بالعدل والحق ، يعنى الآيات والأحكام .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة) أى النبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن ، والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، وهم مازالوا متفرقين مختلفين يكفر كل فريق منهم الآخر قبل مجىء البينة وبعدها ؟

قلنا : المراد به تفرقهم عن تصديق النبى صلى الله عليه وسلم والإيمان به قبل أن يبعث ، فإنهم كانوا مجتمعين على ذلك متفقين عليه بأخبار التوراة والإنجيل ، فلما بعث إليهم تفرقوا ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر . وقال بعض العلماء : المراد بالبينة مافى التوراة والإنجيل من الإيمان بنبوته صلى الله عليه وسلم ، ويؤيد هذا القول أن أهل الكتاب أفردوا بالذكر فى هذا التفرق مع وجود التفرق من المشركين أيضا بعدما جمعوا مع المشركين فى أول السورة ، فلابد أن يكون مجىء البينة أمرا يخصهم ، ومجىء النبى صلى الله عليه وسلم والقرآن العزيز لايخصهم .

سورة الزلزلة

فإن قيل : قوله تعالى (إذا زلزلت الأرض زلزالها) مامعنى إضافة الزلزال الذى هو المصدر إلى الأرض ، وهلا قال زلزالا كما قال تعالى (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا) وما أشبهه ؟

قلنا : معناه الزلزال الذى تستوجبه فى حكمة الله تعالى ومشيئته فى ذلك اليوم ، وهو الزلزال الذى ليس بعده زلزال ، ونظيره قولك : أكرم التقى إكرامه وأهن الفاسق إهانته ، تريد مايستوجبانه من الإكرام والإهانة ، ويجوز أن يكون المراد بالإضافة الاستغراق معناه زلزالها كله الذى هو ممكن لها .

فإن قيل : كيف قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة) على العموم فيهما، وحسنات الكافر محبطة بالكفر وسيئات المؤمن معفو عنها مغفورة باجتناب الكبائر ، فكيف تثبت رؤية كل عامل جزاء عمله ؟

قلنا : معناه فمن يعمل مثقال ذرة خيرا من فريق السعداء ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا من فريق الأشقياء ، لأنه جاء بعد قوله تعالى (يصدر الناس أشتاتا) . وذكر مقاتل أنها نزلت في رجلين من أهل المدينة كان أحدهما يستقل أن يعطى السائل الكسرة أو التمرة ويقول : إنما نؤجر على ما نعطيه ونحن نحبه ، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ويقول : إنما أوعد الله النار على الكبائر .

سورة العاديات

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) مع أنه تعالى أخبر بهم فى كل زمان، فما وجه تخصيص ذلك اليوم ؟

قلنا : معناه أن ربهم سبحانه مجازيهم يومئذ على أعمالهم ، فالعلم مجاز عن المجازاة ، ونظيره قوله تعالى (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) معناه يجازيهم على ما فيها، لأن علمه شامل لما فى قلوب كل العباد ، ويقرب منه قوله تعالى (يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شئ) .

سورة القارعة

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (وأما من خفت موازينه) أى رجحت سيئاته على حسناته (فأمه هاوية) أى فمسكنه النار ، وأكثر المؤمنين سيئاتهم راجحة على حسناتهم ؟

قلنا : قوله تعالى (فأمه هاوية) لايدل على خلوده فيها ، فيسكن المؤمن

بقدر ماتقتضيه ذنوبه، ثم يخرج منها إلى الجنة . وقيل المراد بخفة الموازين خلوها من الحسنات بالكلية ، وتلك موازين الكفار ○

سورة التكاثر

فان قيل : أين جواب (لو تعلمون) ؟

قلنا : هو محذوف تقديره : لوتعلمون الأمر يقينا لشغلكم عن التكاثر والتفاخر ، ثم ابتدأ تعالى بوعيد آخر فقال سبحانه (لترون الجحيم) .

فإن قيل : كل أحد لايخلو عن نيل نعيم فى الدنيا ولو مرة واحدة ، فما النعيم الذى يسأل عنه العبد ؟

قلنا : فيه سبعة أقوال : أحدها أنه الأمن والصحة : الثانى : أنه الماء البارد . الثالث : أنه خبز البر والماء العذب . الرابع : أنه مأكول ومشروب للذيذان . الخامس : أنه الصحة والفراغ . السادس : أنه كل لذة من لذات الدنيا . السابع : أنه دوام الغداء والعشاء . وقيل إن السؤال خاص للكفار ، والصحيح أنه عام فى كل إنسان وفى كل نعيم ، فالكافر يسأل توبيخا والمؤمن يسأل عن شكرها ، ويؤيدها هذا ماجاء فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى ثلاث لا أسأل عبدى عن شكرهن وأسأله عما سوى ذلك : بيت يكنه ، وما يقيم به صلبه من الطعام ، وما يوارى به عورته من اللباس » .

سورة العصر

فإن قيل : الاستثناء الذى فى السورة لايدل على أن المؤمنين الموصوفين فى ربح مع أن الاستثناء إنما سيق لمدحهم بمضادة حالهم لحال من لم يتناوله الاستثناء ؟

قلنا : الاستثناء وإن لم يدل بصريحه على أنهم فى أعظم ربح ، ولكن اتصافهم بتلك الصفات الأربعة الشريفة يدل على أنهم فى أعظم ربح ، مع أنا لو قدرنا أنهم ليسوا فى ربح فالمضادة حاصلة أيضا لأنهم ليسوا فى خسر بمقتضى الاستثناء.

سورة الهمزة

فإن قيل : ما الفرق بين الهمزة واللمزة ؟

قلنا : قيل إنهما بمعنى واحد لافرق بينهما ، وإنما الثانى تأكيد للأول ؛ وقيل إنهما مختلفتان ، فقيل الهمزة المغتاب ، واللمزة العياب . وقيل الهمزة العياب فى الوجه ، واللمزة فى القفا ، وقيل الهمزة الطعان فى الناس ، واللمزة الطعان فى أنساب الناس . وقيل الهمزة يكون بالعين ، واللمزة باللسان . وقيل عكسه ، فهذه ستة أقوال .

سورة الفيل

فإن قيل : مامعنى الأبابيل ، وهل هو واحد أو جمع ؟

قلنا : معناها جماعات فى تفرقة أى حلقة حلقة ، وقيل التى يتبع بعضها بعضا . وقيل : الكثيرة . وقيل المختلفة الألوان . وقال الفراء وأبو عبيدة : لاواحد لها . وقيل واحدها أبال وأبول وأبيل .

سورة قريش

فإن قيل : بأى شيء تتعلق اللام فى قوله تعالى (لإيلاف قريش) ؟

قلنا : قيل إنها متعلقة بآخر السورة التى قبلها : أى فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش ، ويؤيد هذا أنهما فى مصحف أبىّ رضى الله عنه

سورة واحدة بلا فصل . والمعنى أنه أهلك أصحاب الفيل الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيهابوهم ويحترموهم ، فينتظم لهم الأمر فى رحلتهم ولايجترىء أحد عليهم . وقيل معناه أهلكهم ليألف قريش رحلة الشتاء والصيف بهلاك من كان يخيفهم ويمنعهم . وقيل إنها متعلقة بما بعدها وهو قوله تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت) لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف . معناه أن نعم الله تعالى عليهم لاتحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الظاهرة . وقيل هي لام التعجب معناه أعجبوا لإيلاف قريش . وكانت لقريش فى كل سنة رحلتان للتجارة التى بها معاشهم ، رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى الشام . ثم قيل الإيلاف هنا مصدر بمعنى الإلف تقول : آلفته إيلافا بالمد كما تقول ألفته إلفا بالقصر كلاهما متعد إلى مفعول واحد ، فيكون لإيلاف قريش لإلف قريش : أى لحبهم الرحلتين . وقيل آلف بالمد متعد إلى مفعولين ، يقال ألف زيد المكان وآلف زيد عمرا المكان ، فيكون معنى الآية لإيلاف الله تعالى قريشا الرحلتين ؛ فعلى هذا الوجه يكون المصدر مضافا إلى المفعول ، وعلى الوجه الأول يكون مضافا إلى الفاعل . وأما تكرار إضافة المصدر فى قوله تعالى (لإيلاف قريش إيلافهم) فقيل إن الثانى بدل من الأول . وقيل إنه للتأكيد كما تقول : أعطيتك المال لصيانة وجهك صيانة عن ذل السؤال .

سورة الماعون

فإن قيل : كيف توعد الله الساهي عن الصلاة ، والحديث ينفى مؤاخذته وهو قوله صلى الله عليه وسلم « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان » ؟

قلنا : المراد بالسهو هنا التغافل عنها والتكاسل فى أدائها وقلة الالتفات إليها ، وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشياطين من المسلمين ، وليس المراد مايتفق فيها من السهو بوسوسة الشيطان أوحديث النفس مما لاصنع للعبد فيه

ولا اختيار ، وهو المراد فى الحديث ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقع له السهو فى صلاته فضلا عن غيره ، ولهذا قال تعالى (عن صلاتهم) ولم يقل فى صلاتهم . وعن أنس رضى الله عنه أنه قال : الحمد لله على أن لم يقل فى صلاتهم .

سورة الكوثر

فإن قيل : ما الكوثر ؟

قلنا : فيه قولان : أحدهما وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما أنه الخير الكثير فوعل من الكثرة كقولهم : رجل نوفل : أى كثير النوافل ، ومنه قول الشاعر :

وأنتَ كَثِيرٌ يا ابنَ مَرْوانَ طَيِّبٌ
وكانَ أبُوكَ ابن العَقَائِلِ كَوْثَرَا

قيل لأعرابية رجع ابنها من سفر : كيف آب ابنك ؟ قالت : آب بكوثر ، ولقد أعطى النبى صلى الله عليه وسلم خيرا كثيرا ، فإنه آتاه الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، ومنهم من فسر هذا الخير الكثير بالنبوة ، ومنهم من فسره بالعلم والحكمة ، ومنهم من فسره بالقرآن : والقول الثانى : أن الكوثر اسم نهر فى الجنة ، وهو قول أكثر المفسرين ، وقد جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الكوثر نهر وعدنيه ربى فى الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتى يوم القيامة » وعنه صلى الله عليه وسلم أيضا فى الحديث أنه قال « بينا أنا أسير فى الجنة فإذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاك ربك ، فضرب الملك بيده فإذا طينه المسك الأذفر » وروى عن صفته أنه أحلى من العسل ، وأشد بياضا من اللبن ، وأبرد من الثلج ، وألين من الزبد ، حافتاه الزبرجد ، وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء ، لا يظمأ من شرب منه أبدا » .

سورة الكافرون

فإن قيل : كيف قال الله تعالى (ولاأنتم عابدون ماأعبد) ولم يقل « من » مع أنه القياس ؟

قلنا : فيه وجهان : أحدهما أنه إنما قال « ما » رعاية للمقابلة فى قوله تعالى (لاأعبد ماتعبدون) . الثانى : أن « ما » مصدرية : أى لاأعبد عبادتكم ولاتعبدون عبادتى . وقال الزمخشرى : إنما قال « ما » لأن المراد الصفة كأنه قال : لا أعبد الباطل ولاتعبدون الحق . وقال غيره : «ما» فى الكل بمعنى الذى ، والعائد محذوف .

فإن قيل : مافائدة التكرار ؟

قلنا : فيه وجهان : أحدهما أنه للتأكيد وقطع أطماعهم فيما طلبوه منه . الثانى : أن الجملتين الأوليين لنفى العبادة فى الحال ، والجملتين الأخريين لنفى العبادة فى الاستقبال فلا تكرار فيه ، وهذا قول ثعلب والزجاج ، والخطاب لجماعة علم الله تعالى أنهم لايؤمنون . وقال الزمخشرى : مايرد الوجه الثانى ، وذلك أنه قال لا أعبد أريد به العبادة فى المستقبل ، لأن « لا » لاتدخل إلا على مضارع فى معنى الحال ، فالجملتان الأوليان لنفى العبادة فى المستقبل ، والجملتان الأخريان لنفى العبادة فى الماضى ، فقوله (ولا أنا عابد ماعبدتم) أى ماعهدتم من عبادة الأصنام فى الجاهلية ، فكيف يرجى منى بعد الإسلام ، وقوله (ولاأنتم عابدن ما أعبد) أى ماعبدتم فى وقت ماأنا على عبادته ، ويرد على قوله والجملتان الأخريان لنفى العبادة فى الماضى أن اسم الفاعل المنون العامل عمل الفعل لايكون إلا بمعنى الحال أو الاستقبال وعابد هنا عامل فى « ما » وكذلك عابدون ، وجوابه أنه على الحكاية كما قال تعالى (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) وأورد على هذا التقدير فقال :

فإن قيل : هلا قال تعالى : ولا أنتم عابدون ماعبدت ، بلفظ الماضى ، كما قال (ولا أنا عابد ماعبدتم) ؟

قلنا : لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل بعثه ، وهو ماكان يعبد الله تعالى قبل بعثه ، بل بعد بعثه . ويرد على هذا التقدير : أن أعظم العبادة التوحيد ، وكل الأنبياء كانوا موحدين بعقولهم قبل البعثة . وقال بعض العلماء : إنما جاء الكلام مكررا لأنه ورد جوابا لسؤالهم مناوبة ، وكان سؤالهم مكررا ، فإنهم قالوا : يامحمد تعبد آلهتنا كذا مدة ونعبد إلهك كذا مدة ، ثم تعبد آلهتنا كذا مدة ونعبد إلهك كذا مدة ، فورد الجواب مكررا ليطابق السؤال ، وهذا قول حسن لطيف .

سورة النصر

فإن قيل : أى مناسبة بين الأمر بالاستغفار وبين ماقبله ، فإن مجىء الفتح والنصر يناسب الشكر والحمد لا الاستغفار والتوبة ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه السورة علم النبى صلى الله عليه وسلم أنه نعيت إليه نفسه . وقال الحسن : أعلم النبى صلى الله عليه وسلم أنه قد اقترب أجله ، فأمر بالتسبيح والاستغفار والتوبة ليختم له فى آخر عمره بالزيادة فى العمل الصالح ، فكان يكثر من قوله : سبحانك اللهم اغفر لى إنك أنت التواب الرحيم . وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن هذه السورة تسمى سورة التوديع . وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزولها سنتين .

سورة تبت

فإن قيل : كيف ذكره الله تعالى بكنيته دون اسمه ، مع أن ذلك إكرام واحترام ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها أنه يجوز أنه لم يعرف له اسم ولم يشتهر إلا بكنيته ، فذكره بما اشتهر به لزيادة تشهيره بدعوة السوء عليه . الثانى أنه نقل أنه كان اسمه عبد العزى ، وهو كان عبد الله لا عبد العزى ، فلو ذكره باسمه لكان خلاف الواقع . الثالث أنه ذكره بكنيته لموافقة حاله لكنيته ، فإن مصيره إلى النار ذات اللهب ، وإنما كنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما.

سورة الإخلاص

فإن قيل : فالمشهور فى كلام العرب أن الأحد يستعمل بعد النفى ، والواحد يستعمل بعد الإثبات ، يقال : فى الدار واحد ، ومافى الدار أحد . وجاءنى واحد وما جاءنى أحد ، ومنه قوله تعالى (وإلهكم إله واحد) وقوله تعالى (الواحد القهار ـ ولا تصل على أحد منهم ـ لانفرق بين أحد منهم ـ لستن كأحد ـ فما منكم من أحد) فكيف جاء هنا أحد فى الإثبات ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : لافرق بين الواحد والأحد فى المعنى ، واختاره ابو عبيدة ، ويؤيده قوله تعالى (فابعثوا أحدكم بورقكم) وقولهم أحد وعشرون وما أشبهه ، وإذا كانا بمعنى واحد لايختص أحدهما بمكان دون مكان ، وإن غلب استعمال أحدهما فى النفى والآخر فى الإثبات ، ويجوز أن يكون العدول عن الغالب هنا رعاية لمقابلة الصمد .

سورة الفلق

فإن قيل : قوله تعالى (من شر ماخلق) يتناول كل ما بعده ، فما الفائدة فى الإعادة ؟

قلنا : خص شر هذه الأشياء الثلاثة بالذكر تعظيما لشرها ، كما فى عطف الخاص على العام تعظيما لشرفه وفضله ، أو خصها بالذكر لخفاء شرها ، وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يشعر به ، ولهذا قيل : شر الأعداء المداجى ، وهو الذى يكيد الإنسان من حيث لا يعلم .

فإن قيل : كيف عرف سبحانه النفاثات ونكر ماقبلها وما بعدها ؟

قلنا : لأن كل نفاثة لها شر وليس كل غاسق وهو الليل له شر ، وكذا ليس كل حاسد له شر ، بل رب حسد محمود وهو الحسد فى الخيرات ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « لاحسد إلا فى اثنتين » الحديث . وقال أبو تمام * وما حاسدٌ فى المَكْرماتِ بحاسدِ .

وقال * إنَّ العُلَى حَسَنٌ فى مِثْلِها الحَسَدُ *

سورة الناس

فإن قيل : كيف خص الناس بالذكر فى قوله تعالى (قل أعوذ برب الناس) وهو رب كل شىء ومالكه وإلهه ؟

قلنا : إنما خصهم بالذكر تشريفا لهم وتفضيلا على غيرهم ، لأنهم أهل العقل والتمييز . الثانى : أنه لما أمر بالاستعاذة من شرهم ذكر مع ذلك أنه ربهم ليعلم أنه هو الذى يعيذ من شرهم . الثالث أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذى هو إلههم ومعبودهم ، كما يستغيث بعض العبيد إذا اعتراه خطب بسيده ومخدومه وولى أمره .

فإن قيل : هل قوله تعالى (من الجنة والناس) بيان للذى يوسوس على أن الشيطان الموسوس ضربان جنى وإنسى كما قال تعالى (شياطين الإنس والجن)أوبيان للناس الذى أضيفت الوسوسة إلى صدورهم ، والناس المذكور آخرا بمعنى الإنس ؟

قلنا : قال بعض أئمة التفسير : المراد المعنى الأول ، كأنه قال : من شر الوسواس الجنى ، ومن شر الوسواس الإنسى ، فهو استعاذة بالله تعالى من شر الموسوسين من الجنسين ، وهو اختيار الزجاج ، وفى هذا الوجه إطلاق لفظ الخناس على الإنسى ، والنقل أنه اسم للجنى . وقال بعضهم : المراد المعنى الثانى ، كأنه قال : من شر الوسواس الجنى الذى يوسوس فى صدور الناس من جنهم وإنسهم ، فسمى الجن ناسا كما سماهم نفرا ورجالا فى قوله تعالى (أنه استمع نفر من الجن) وقوله تعالى (يعوذون برجال من الجن) فهو استعاذة بالله من شر الوسواس الذى يوسوس فى صدور الجن كما يوسوس فى صدور الإنس ، وهو اختيار الفراء ، والمراد من الجنة هنا الشياطين من الجن على الوجه الأول ، ومطلق الجن على الوجه الثانى ، لأن الشيطان منهم هو الذى يوسوس لاغيره ، ومطلقهم يوسوس إليه . واختار الزمخشرى الوجه الأول وقال : ماأحق أن اسم الناس ينطلق على الجن ، لأن الجن سموا جنا لاجتنانهم : أى لاستتارهم ، والناس سموا أناسا لظهورهم من الإيناس وهو الإبصار ، كما سموا بشرا لظهورهم من البشرة ، ولو صح هذا الإطلاق لم يكن هذا المجمل مناسبا لفصاحة القرآن . قال : وأجود منه أن يراد بالناس الأول الناسى كقوله تعالى (يوم يدع الداع) وكما قرئ (من حيث أفاض الناسى) بين بالجنة والناس ، لأن الثقلين هما الجنسان الموصوفان بنسيان حقوق الله تعالى ، والله أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع كتاب « مسائل الرازى وأجوبتها »
لمحمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى ، بشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى
الحلبى وأولاده بمصر

القاهرة فى { ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٨١ هـ
٣١ أغسطس سنة ١٩٦١ م }

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
محمود نصار الحلبي وشركاه - خلفاء


Bibliotheca Alexandrina
0417690